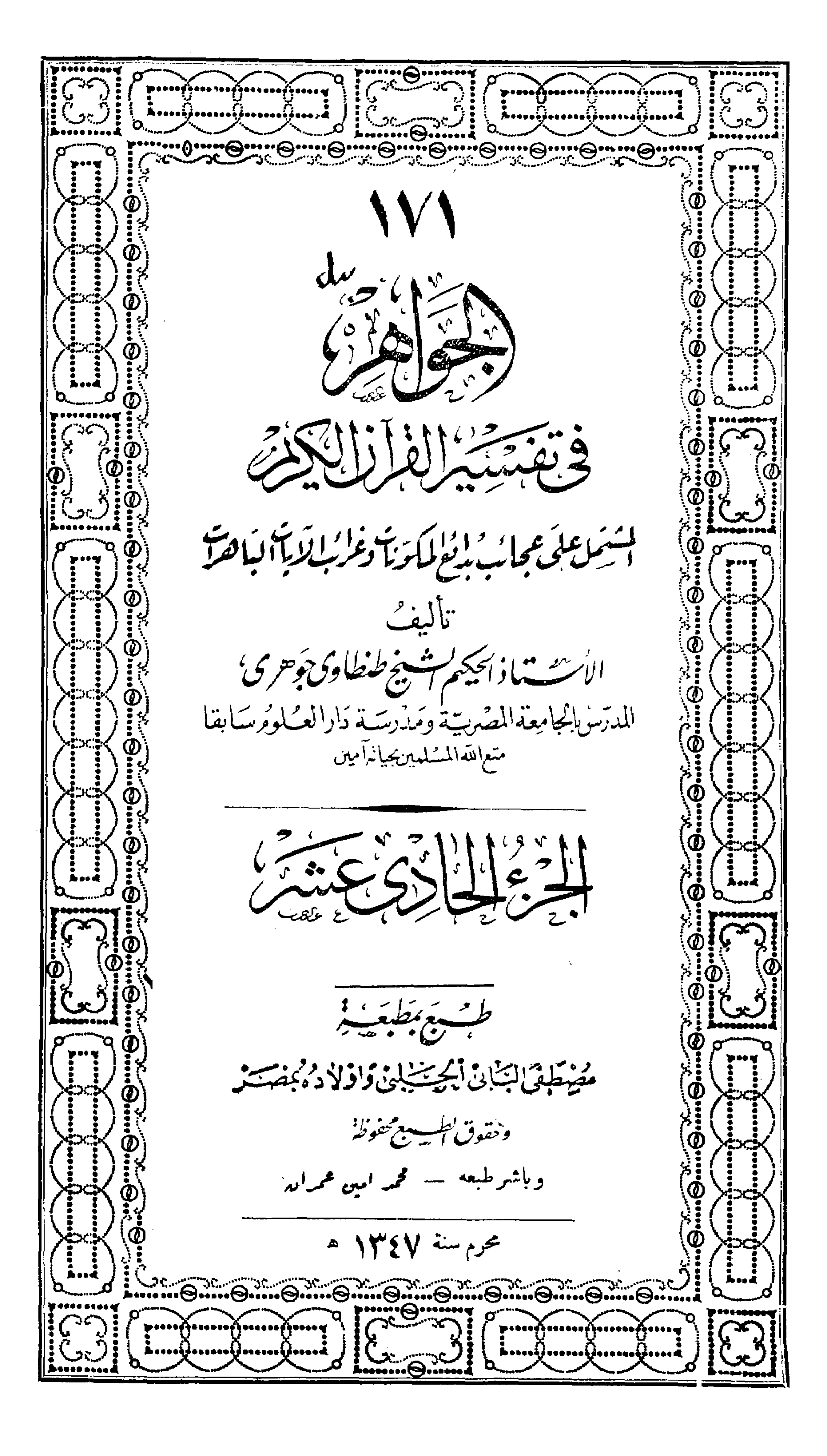


١٧١

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الحادي عشر

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه — محمد أمين عمران

محرم سنة ١٣٤٧ هـ



سورة الحج مكية غير ست آيات

(من قوله ـ هذان خصمان ـ الى قوله ـ وهدوا الى صراط الحميد ـ وهى ٧٨ آية)

وسنذكر مناسبتها لما قبلها عند الابتداء فى تفسير القسم الثانى من السورة

﴿ وهى ثلاثة أقسام ﴾

﴿ القسم الأوّل ﴾ فى البعث والدليل عليه ومايتبع ذلك من أوّل السورة الى قوله تعالى ـ وهدوا الى صراط الحميد ـ

﴿ القسم الثانى ﴾ فى الحج والمسجد الحرام من قوله ـ إنّ الذين كفروا و يصدّون عن سبيل الله ـ الى قوله ـ و بشر المحسنين ـ

﴿ القسم الثالث ﴾ فى أمورعامّة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام هذه الدنيا على خالقها وضرب مثل بالعجز عن خلق الذباب عجزا تاما من قبل الأصنام المعبودة من قوله تعالى ـ إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا الى آخر السورة

(الْقِسْمُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى

ولكن

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ
مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى
ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ
الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ * وَمِنَ
النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ
وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ
بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *
يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ
أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ
فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ *
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ
وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ
فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا

فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ *

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الناس اتقوا ربكم) احذروا عقابه واعملوا بطاعته (إنّ زلزلة الساعة) قيام الساعة (شئ عظيم) هائل (يوم ترونها) أى الساعة أو الزلزلة (تذهل) الذهول الذهاب عن الشئ بدهشة (كل مرضعة عما أرضعت) أى كل امرأة معها ولدها ترضعه عنه . والمقصود من هذا تصوير هولها (وتضع كل ذات حمل حملها) جنينها (وترى الناس سكارى) كأنهم سكارى (وماهم بسكارى) فى الواقع (ولكنّ عذاب الله شديد) فأرهقهم هوله بحيث طارت عقولهم وذهب تمييزهم . ولما كان النضر بن الحارث يكثر الجدال يقول لا بعث ولا وحى نزل على النبى ﷺ وما الملائكة إلا بنات الله نزلت هذه الآيات الآتية فيه وفى غيره ممن على شاكلته الى يوم القيامة (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع) فى المجادلة وفى غيرها (كل شيطان مريد) متجرّد للفساد ثم وصفه بأنه (كتب عليه) أى الشيطان (أنه من تولاه) اتبعه وضمير الهاء للشان والحال (فانه يضله) الجملة خبر لمن أو جواب له . والمعنى كتب عليه انه من يقبل منه فهو فى ضلال (ويهديه الى عذاب السعير) لأنه يحمله على مايؤدّى اليه . ثم أخذ يذكر الحجة على ذلك بالبراهين الطبيعية فقال (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب) أى شكّ (من البعث) بعد الموت (فانا خلقناكم من تراب) فان أباكم آدم خلق منه وهكذا أنتم تغذّيتم بالنبات وبالحيوان والحيوان أيضا تغذى بالنبات والنبات غذاؤه من عناصر مختلفة وهو من التراب فأنتم أيضا من تراب بواسطة (ثم من نطفة) أى المنى فالانسان يكون جسمه مكوّنا من الدم الناشئ من الغذاء المنتهى الى التراب وينشأ من فضل ذلك الدم النطفة ليخلق بسببها آخر (ثم من علقة) أى دم جامد غليظ (ثم من مضغة) قطعة من اللحم وهى فى الأصل قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) مسوّاة لا نقص فيها ولا عيب وغير مسوّاة أو مصوّرة وغير مصوّرة (لنبين لكم) بهذا التدريج حكمتنا وابداعنا ونظامنا (ونقرّ فى الأرحام مانشاء) أى نقرّه (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع من ستة أشهر الى أربع سنين ومالم نشأ ثبوته أسقطته الأرحام (ثم نخرجكم) من الرحم (طفلا) صغارا وطفلا حال أجريت على تأويل كل واحد * وقرئ ـ ونقر ثم نخرج ـ بالنصب عطفا على نبين ويكون المعنى خلقناكم بالتدريج ﴿ لأمرين * الأوّل ﴾ ايقافكم بالتعليم على هيئة تربيتنا فى عملنا وحكمتنا فى نظامنا ﴿ والثانى ﴾ اننا نقرّكم فى الأرحام حتى تولدوا وتنشؤا وتبلغوا أمد التكليف . وفى هذا دلالة على أن قراءة علم الأجنة له من الشأن ماليس لنفس الأجنة بل هو مقدّم عليها فهو سبحانه يقول ان نظامى المتقن انما المقصد منه أن تدرسوه وماخلقتكم إلا لتتبينوه وتعرفوه . إن معرفتكم لهذا الخلق ونظامه هى المقصودة من خلقكم ولو لم يكن فى القرآن كله سوى هذه الجملة لكفى فى تبيان أن العلوم الطبيعية كلها واجبة دراستها وجوبا عاما أى انها فرض كفاية يقوم بها البعض والباقون يستمدّون من ذلك البعض . وكما ان القرآن يقول الله فيه انه تبيان هكذا يقول فى الطبيعة أو أهم قسم منها انها للتبيين فالقرآن تبيان والطبيعة تبيين (ثم) نربيكم (لتبلغوا أشدكم) كمال عقلكم وقوّتكم جمع شدّة كالنعم جمع نعمة

ومنكم

(ومنكم من يتوفى) عند بلوغه الأشد أوقبله (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) وهوالهرم والخرف (لكيلا يعلم من بعد علم شيأ) أى ليعود كهيئته الأولى سخيف العقل قليل الفهم ناسيا للعلم . فهذا دليل على امكان البعث لأن هذه التغيرات المتتابعة المتناسقة تدل على أن التغير مستمر فاذا مات أمكن أن يحيا

﴿ عجيبة من عجائب العلم ﴾

اعلم أن هذه الحجة بعينها هى التى أدلى بها (سقراط) عند موته لما كان تلاميذه حوله وهو يودعهم فى النفس الأخير . فهاك ماترجه الفيلسوف (سنتلانه) الطليانى والقفطى المصرى . ولأكتف لك بما يناسب هذه الآية قال ﴿ إنا نشاهد الضد يتولد عن ضده فالجميل ينشأ من القبيح والعدل من الجور واليقظة من النوم والنوم من اليقظة والقوة من الضعف و بالعكس فالأشياء يستحيل بعضها الى بعض ثم ترجع بصفة دائرة الى ما كانت عليه والحياة والموت والوجود والعدم نقيضان . فالوجود ينشأ من العدم والموت ينشأ من الحياة وعلى ذلك يلزم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لابد أن يكون للموت مايناقضه والا فقد خالفت الطبيعة قاعدتها المطردة فى جميع الأشياء ﴾ انتهى المقصود منه

فانظر كيف كان استدلال (سقراط) على الحياة بعد الموت قبل القرآن بنحو تسعمائة سنة هو الطريق الذى نزل به الوحى . فالقرآن إذن بهذا يقيم للمسلمين الحجج العقلية و يفتح لهم باب الفهم فكأنه يقول أنا لم أرد أن أعلمكم ذلك بالوحى مجردا بل انى أردت أن أفتح لكم باب البراهين العقلية وهذا بعض ماعناه بقوله ــ لنبين لكم ــ فهذا من التبيين وهو الاستدلال . ثم ذكر دليلا آخر تسهل مشاهدته للناس فقال سبحانه (وترى الأرض هامدة) ميتة يابسة من همدت النار اذا صارت رمادا (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت) تحركت بالنبات (وربت) وانتفخت * وقرئ ــ وربأت ــ أى ارتفعت (وأنبتت من كل زوج) من كل صنف (بهيج) حسن رائق (ذلك) هذا اشارة الى ماتقدم من خلق الانسان فى أطوار مختلفة واحياء الأرض بعد موتها وهو مبتدأ خبره (بأن الله هو الحق) أى ذلك حاصل بسبب أن الله هوالثابت الوجود فيصرف الموجودات فى أطوارها وهولايتغير و يبقى وجودكم على كل حال وان تغيرتم فى الأطوار (١) فبقاؤكم سببه انه هو باق (٢) وتغيركم سببه انه قادر وحكيم و يكون ذلك لتربيتكم وترقيتكم لتقربوا منه فى مقعد صدق . وعبر عن المعنى الثانى بقوله (وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير * وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) فهذه الجمل الأربع تبيين للمعنى الثانى . يقول الله أنا حق ثابت باق فلذلك أبقيكم الى مالايتناهى من الزمان وأنا قادر وحكيم فلذلك خلقتكم أطوارا . هذه هى الحجج التى ذكرها من علوم الطبيعة استدلالا على البعث

﴿ ذم المعجبين بأنفسهم والمعاندين ﴾

قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم) أى بلاعلم كالنضر بن الحرث (ولاهدى) أى استدلال يهدى الى المعرفة (ولاكتاب منير) أى وحى حال كونه (ثانى عطفه) أى لاوى جنبه وعنقه متبخترا متكبرا معرضا عما يدعى اليه من الحق * وقرئ ــ عطفه ــ بفتح العين أى مانعا تعطفه الى غيره . يقول الله تعالى هو يجادل (ليضل عن سبيل الله) أى عن دين الله (له فى الدنيا خزى) هوان وذل فانه قتل هو وعقبة ابن أبى معيط (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) المحرق . هكذا كل من اتبع هواه فطاش سهمه وقل عقله فتكبر عن العلم وأعرض عن الاستدلال تيها وغرورا . ومثل هذا لايعطف على الناس لأنه لايرى أن هناك حياة بعد الموت فتكون همته فى الحياة الدنيا ويقال له (ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد) بل هو مجازلهم على أعمالهم والمبالغة فى ظلام لكثرة العبيد . ولما ذكر أن المعجبين بأنفسهم يصدون عن ذكر الله و يعرضون عن الاستدلال أعقبه بذكر من كان أمرهم كالمعلق فى الدين فلاهم آمنوا مطمئنين ولاهم من المتكبرين بل هم كالمذبذبين وهم قوم يعبدون الله على وجه التجربة والشك وانتظار نعمة فان

أصابه خير بقى مؤمنا وان أصابه شرّ ترك الدين وهو قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف) أى طرف من الدين فلاثبات له فمثله كمثل الذى يكون على طرف الجيش فان كانت غنيمة اقتسم وان كانت هزيمة كان أوّل من انهزم وهذا قوله (فان أصابه خير اطمأنّ) سكن واستقرّ (به) بالخير والدين فعبد الله (وان أصابته فتنة) شرّ و بلاء فى جسده وضيق فى معيشته (انقلب على وجهه) جهته أى ارتدّ ورجع الى الكفر حال كونه قد (خسر الدنيا والآخرة ذلك) أى خسران الدارين (هو الخسران المبين) الظاهر فلايخفى على أحد وذلك منطبق على أعاريب قدموا المدينة فاذا صحّ بدن أحدهم ونتجت فرسه مهرا سريا وولدت امرأته غلاما سويا وكثر ماله قال قد أصبت خيرا بالاسلام واطمأن . وان كان الأمر بخلافه قال ماأصبت إلا شرا وانقلب عن دينه (يدعو من دون الله) بعد الردّة من الأصنام (مالايضرّه) ان لم يعبده (ومالاينفعه) ان عبده (ذلك هو الضلال البعيد) عن الصواب (يدعو لمن ضرّه) بكونه معبودا عبادة توجب القتل فى الدنيا بارتداده عن الاسلام والعذاب فى الآخرة (أقرب من نفعه) الذى يتوقع بعبادته وهو الشفاعة (لبئس المولى) الناصر (ولبئس العشير) المصاحب وأى عشير هذا وأى مصاحب اذا كان لاينفع مولاه ولاينصر من يعاشره أما الله فهو ينفع (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الى قوله (إن الله يفعل مايريد) فتبين من هذا أن الأصنام لاتنفع وأن الله ينصر من تولاه فيدخله الجنات ومن تولاه سيدنا محمد ﷺ فهو ناصره ومن أكبر أسباب العذاب فى جهنم والخزى فيها والافتضاح مايداخل الانسان من الحقد والغيظ على النعم التى يسديها الله لعباده فان الله خلق الناس ليتعارفوا فمن داخله الحقد والغيظ من نصر الله لمحمد ﷺ فليفعل كل مايريد وليمد حبلا الى سقف بيته فليقطع أى فليختنق لأن المختنق يقطع نفسه بحبس المجارى . والقصد من ذلك أن جهنم تحرق من كفر ومن حنق غيظا على الناس بل الآخرة لمن صفت سرائرهم ولم تخبث نياتهم وهذا قوله (من كان يظنّ أن لن ينصره الله) أى محمدا ﷺ (فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب) بحبل (الى السماء) سماء بيته (ثم ليقطع) ثم ليختنق (فلينظر) فليتصوّر فى نفسه (هل يذهبن كيده) فعله ذلك الذى سمى كيدا لأنه منتهى مايطيقه المغتاظ من الفعل (مايغيظ) أى غيظه من نصر الله لعبده محمد ﷺ وهكذا كل من كره النعم التى يعطيها الله لعباده جاهلا أن النوع الانسانى ينفع بعضه بعضا فمن كره نعمة غيره فقد كره نفسه من حيث لايعلم لأن الناس فى الحقيقة جميعا على سطح الأرض كالمتضامنين وان لم يعرفوا ذلك فان أمم الشرق ينفعها أمم الغرب والعكس . فهكذا محمد ﷺ دينه نافع لهؤلاء الناس وقد صحّ ذلك فان أبناء العرب اتبعوه بعد ذلك إلا قليلا . وقولنا ان من كره نعم الناس فقد كره نفسه قد برهن عليها الحكماء فى علم الفلسفة فقد قالوا ﴿ إن الناس ينفع بعضهم بعضا فان كل امرىء محتاج لسواه من سائر الناس يصل اليه خيرهم من حيث لايدرى بالمتاجرة والعلم وغيرهما فهؤلاء مكملون له ومن كره غيره فقد كره من يكمل نفسه ومن كره من يكمل نفسه فقد كره كمال نفسه ومن كره كمال نفسه فقد أحبّ نقصها . ومعلوم أن الانسان طبعا مغرم بحب كمال نفسه فتكون النتيجة هكذا أحب كمال نفسه وأحبّ نقص نفسه أوأحب نفسه وكره نفسه واذا كرهها فقد استحل خنقها ﴾ وهذا البرهان العجيب هو الذى كان السرّ فى التعبير بقوله ــ فليقطع ــ كأنه يقال أيها الكاره لمحمد الذى جاء لانقاذك ان نعم جميع الناس لاسيما الأنبياء نافعة لك فاذا كرهت نعم محمد فكأنك تختنق لأن النتيجة انك تكره النعم لنفسك فتكره نفسك فتستبيح خنقها من حيث لاتشعر

لاتفعل ذلك أيها المكذّب محمدا ﷺ ولاتجعل للغيظ محلا من قلبك فان القرآن كله آيات واضحات ولابد من أن يعم فاتبعه فهو خير لك من التمادى فى العداوة والغيظ وهذا هو قوله (وكذلك) أى مثل ذلك الانزال (أنزلناه) أنزلنا القرآن كله (آيات بينات) واضحات (وأن الله يهدى) أى ولأن الله يهدى به أو يثبت على الهدى (من يريد) هدايته أوثباته أنزله كذلك مبينا . وهنا أخذ يجلى حقيقة العالم الانسانى كله بعد مابين

حقيقة المعاندين فقال سبحانه (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) فيظهر المحق من المبطل ويجازى كلا بما فعل ويضعه فى مقامه اللائق به فليس الله بغائب عن أحد . فالأنبياء وأممهم والطائعون والعاصون كلهم تحت مراقبته (إنّ الله على كل شئ شهيد) عالم مراقب لأحوالهم جميعا ومن ذلك مراقبة قلوب الحاسدين المغتاظين وقلوب المعاندين والكافرين وقلوب جميع المؤمنين بالأنبياء السابقين فان هم استقاموا أدخلهم جناته وان عصوا أوكفروا أدخلهم ناره ومن أشدّ معصيتهم أن ينكروا رسالة محمد ﷺ حين عرفوا حقيقة دينه وهومطلع على قلوبهم فيعذّبهم وان كنتم فى شك من مراقبة الله لجميع العالم فانظروا كيف سجد له كل مافى السموات والأرض من عاقل وغيره وخضع لتسخيره مع النظام الجميل . فهل يغفل عما نظمه بعلمه وصرّفه بقدرته ودبر أحقر الحشرات وأحقر الذّرات وجعل لكل حشرة من الكمال ماجعل لكل فيل من كماله بل لكل كوكب وشمس من عنايته . فكيف ترون هذا وتظنون انه غافل مع ان مراقبته واضحة لمن تأمّل فى الأشكال والأحوال والأخلاق والأطوار وارضاع الأمّهات لأولادها وهوقوله مستدلا على أنه ـ على كل شئ شهيد ـ (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض) غلب العاقل على غيره وخصّ بالذكر أعظم مانراه فعطف مايأتى فقال (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدّواب وكثير من الناس) قد سجدوا سجود عبادة مع سجود التسخير الذى اشتركوا فيه مع غيرهم من العوالم (وكثير حقّ عليه العذاب) لأنهم لم يسجدوا سجود عبادة ليطابق سجود التسخير بكفرهم . ثم أعقبه بأن الفعل له وحده فقال (ومن يهن الله) بالشقاوة (فماله من مكرم) يكرمه بالسعادة وحينئذ يقال ماسبب هذا التمييز فيجاب (إنّ الله يفعل مايشاء) لحكم لاتدركونها فى الاهانة لقوم والخفض لآخرين بما استعدّوا له كما استعدّت الدودة لسكنى الطين والهوام لسكنى التراب والسمك لسكنى البحر . فهذا من النظام العام فى العالم الجسمى والعقلى وعقول أكثر الناس قاصرة لاتصل الى فهم الحقيقة (هذان خصمان) فريقان مختصمان فلفظ خصم وصف لفريق المحذوف وقوله ـ اختصموا فى ربهم ـ راجع للمعنى فالمؤمنون فريق والكافرون فريق آخر (اختصموا فى ربهم) أى جادلوا فى دينه فيقول أهل الكتاب نحن أولى بالله منكم ونحن أقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم . وقال المسلمون لهم نحن أحقّ بالله آمنا بنبينا محمد ﷺ ونبيكم وبكتابنا وأنتم تعرفون نبينا وصدقه ولكن كفرتم حسدا والكلام أعمّ من هذين الفريقين وهؤلاء قد فصل الله بينهم كما قال ـ إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة ـ ثم قال (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار) تحيط بهم احاطة كاحاطة الثياب حال كونهم (يصب من فوق رؤسهم الحميم) الماء الحار حال كون الحميم (يصهر) يذاب (به مافى بطونهم) من فرط الحرارة المؤثرة فى ظواهرهم وجلودهم الممتدّة الى أحشائهم (والجلود) لأنها الملاقية لتلك الحرارة (ولهم مقامع من حديد) سياط منه يجلدون بها جمع مقمعة (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ) أى كلما حاولوا الخروج من النار لما يلحقهم من الغم (أعيدوا فيها) أى ردّوا اليها بالمقامع . ويقال ان جهنم لتجيش بهم فتلقيهم الى أعلاها فيريدون الخروج منها فتضربهم الزبانية بتلك المقامع فيهوون فيها سبعين خريفا

﴿ العذاب المصغر فى الدنيا مقدمة العذاب فى جهنم ﴾

واعلم أن نظائر هذا فى الدنيا والناس يضربون الآن بمقامع معنوية وهم لايشعرون انهم يضربون ويزجون فى العذاب . فهناك عادة شرب ﴿ التبغ ﴾ وهوالتدخين وعادة الخمر وعادة شرب الشاى وعادة شرب القهوة وعادة الاسراف فى المآتم والأفراح وعادات كثيرة من هذا القبيل يعلم الناس انها مهلكة لهم ولكنهم ـ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أعيدوا فيها ـ هكذا الدول فى أوروبا شكلت لجنة سمتها ﴿ جمعية الأمم ﴾ للفصل بينها فى القضايا . ومن أكبر دول الأرض دولة الانجليز وهى هى التى بطشت ببلادنا المصرية

بطشة الجبارين وقد كانت نزعت السلاح من الفلاحين ومن الأمة من قبل وأخذت منا السودان وأرجعت عسكرنا . والعالم الانسانى كله يصرخ ونفس عقلائهم يصرخون قائلين ﴿ لاسلام لاسلام فى الأرض ﴾ والأمم كلها تعلم انهم لاسعادة لهم إلا بسعادة كل منهم . ولكن مقامع الشره والحرص تردهم الى أسفل سافلين وهذا هومعنى قوله تعالى ـ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ـ أى من حيث نظام جسمه وبهجته ونظام عقله ـ ثم رددناه أسفل سافلين ـ فجعلناه يرتطم فى أوحال الأكاذيب والشهوات والطمع والحرص فيضر المرء أخاه وتضر الأمة غيرها مع علمها أن الضرر يرجع عليها بنقص الثمرات النافعة التى كانت تجنيها من أخواتها فى الانسانية . ترى الرجل يكثر من الكلام أوالأكل أو يكثر غضبه أوحرصه على المال أوغمه عليه أوعداوته أوكبرياؤه أوعجبه أوكراهته للناس أويكون جبانا أوكثيرالكسل أوالنوم أوالخوض فى أعراض الناس ثم اذا سمع مثل هذا القول أوعرف الحقائق تمنى لو يرجع عن عادته ولكن سوء الأثروالتربية والعادة تقمعه بمقامع من حديد لانراها ولكن أثره أشد من آثار المقامع الحديدية فيزج فى جهنم ومعه الأعمال . فهذا عذاب واقع فعلا ولكن الناس لايفهمون أنه عذاب وهو مقدمة للاختباط والاختلاط والآلام بعد الموت وسيكون للناس هناك حسرات وزفرات وحال مزعجة . فعقولهم هنا هى عقولهم هناك . فالمقامع تكون هناك أتم والعذاب يكون هناك أخزى ـ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ـ ويقال لهم فيها (وذوقوا عذاب الحريق) أى النار البالغة فى الاحراق . ولما فرغ من الكلام على أصحاب النار الذين هم ناقصوا النفوس لجهالتهم أخذ يذكر الجنة لكاملى النفوس لصلاحهم فقال (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها) حليا كائنا (من أساور) جمع اسورة جمع سوار . وبين الأساور بأنها (من ذهب) وعطف على الأساور قوله (ولؤلؤا) أى ويؤتون لؤلؤا (ولباسهم فيها حرير) جملة اسمية أفادت انهم اعتادوا لبس الابريسم الذى حرم لبسه على الرجال فى الدنيا * وفى حديث البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال ﴿ جنتان من فضة آنيتهما ومافيهما وجنتان من ذهب آنيتهما ومافيهما ومابين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن ﴾ انتهى

فأهل النار منغمسون فى آلام الأهواء والشهوات والخوف والطمع والغضب والبغض ، وأعدى أعداء الانسانية فى كل حال ﴿ شيآن ﴾ البغض والخوف ومنه الجبن ، وسعادة الانسانية الحب والشجاعة والعلم فبها يدخلون الجنة . ومن العلم الايمان الصحيح . ومتى ازدادت الحكمة والعلم وصفت الأخلاق رأى الناس ربهم . وكبرياء الله فى الحديث هى تعاظمه أن يراه الناس إلا اذا صفت النفوس فارتقت الى العالم الأعلى اللطيف فعرفت وذلك قوله تعالى (وهدوا الى الطيب من القول) وهو قولهم ـ الحمد لله الذى صدقنا وعده ـ و ﴿ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ﴾ (وهدوا الى صراط الحميد) أى الى دين الاسلام أى هدوا الى دين الله المحمود . فالطيب من القول المذكور انما هو وقوف النفس على الحقائق إذ يحيط علما بهذه المخلوقات على مقدار طاقته المعبر عنه بانفراد الله بالربوبية وصدور جميع النعم عنه وتنزهه عن الحوادث وذلك لا يكفى فيه علم التوحيد بل لابد من دراسة نظام هذه الدنيا درسا متقنا وهذه الدراسة تفتح باب الحب على مصراعيه ﴿ لأمرين * الأول ﴾ جمال الله المنبعث فى هذه الدنيا ﴿ والثانى ﴾ النوع الانسانى فيتعشق العلم بالأول والاحسان للثانى . فبالأول يرى الله وبالثانى يدخل الجنة لأن الجنة من يدخلها يكون سعيدا بالمحبة ومادامت هناك بغضاء بين أهلها فلاسعادة ولاجنة فالقلوب المتباغضة متباعدة متفرقة والقلوب المتحابة مقتربة كما ان النار مفرقة والجنة تجمع . ومثاله فى الدنيا نار الحريق تفرق المجتمعات المختلفة كالحطب المركب من عناصر مختلفة وتجمع المؤتلفات كالطين توقد النار عليه فيتحد . فنار الحب تجمع المؤتلفات ونار البغض تفرق

المختلفات

المختلفات وهكذا سيكون فى الآخرة نار الحريق لذوى النفوس المبغضة للناس ومنها نفوس الكفار الذين خالفوا طريق الحق فى نفع الانسانية ونور الحب المشرق فى الجنة فيجمعهم لأن نفوسهم مؤتلفة والائتلاف بالايمان والعلم ظاهر فى الدنيا فهكذا فى الأخرى . وكلما كان فى الدنيا أمتن وأقوى كان فى الآخرة أمكن فما هناك نهاية ماهنا . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة وهنا ﴿ أربع لطائف ﴾

﴿ اللطيفة الأولى ﴾ فى قوله تعالى - يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم -

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ فى قوله تعالى - ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم -

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى - ثم نخرجكم طفلا -

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى - وترى الأرض هامدة - الخ

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى - يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم - ﴾

اعلم أن أوّل سورة (الحج) يناسب أوّل سورة (الأنبياء) فهناك يقال - اقترب للناس حسابهم - وهنا يقال - إن زلزلة الساعة شئ عظيم - فلخص افتتاحى السورتين انها قريبة وانها شديدة . وقد ذكرنا شيأ من أمر قرب الساعة فى أوّل (الأنبياء) ونذكر هنا قربها بأوضح وجه ، ذلك ليعلم المسلمون بعدنا أن الأمم الاسلامية قد حلّ بها كتب وآراء وأحلام أدخلت الغفلة على العقول وأحلت بساحاتها كثيرا من الأراجيف وأكاذيب أضرّت بأخلاق الأمّة . ومما يحزننى و يوقع فى نفسى أشدّ الأسى أن كثيرين من عظماء الأمم الاسلامية ورجالات العلم تجوز عليهم ترهات فيتبعها من بعدهم . وانى أقول ولا أخشى لومة لائم أن الضلال الذى استحكم وانتشر فى أمر الساعة وتعيين زمانها قد أثر أسوأ الأثر فى أمم الاسلام كما أضرّ بآبائنا و بنا أمر المهدى وظهوره . وانتشار هذه الآراء فى أقطار الاسلام قد فرّقهم وحطّ من شأنهم . ولأذكرلك الكلام على قرب الساعة هنا وعلى ظهور المهدى فى هذا المقام لتعرف الرأى الصحيح حتى اذا قرأت قوله تعالى فى سورة (المؤمنون) - فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون - عرفت أن أمر المهدى فرّقهم وقطع أوصالهم وأن ماذكره هنا بمناسبة أمر الساعة يقوم مقام ذكره هناك فى نفس هذا المجلد وانما جمعناهما معا لتشابههما وتقاربهما واتصالهما . فلأجعل الكلام فى ﴿ فصلين * الفصل الأوّل ﴾ فى الكلام على قرب الساعة ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى الكلام على المهدى المنتظر الذى يكون قبل قيام الساعة

﴿ الفصل الأول فى الكلام على قرب الساعة ﴾

(١) نقل السهيلى عن الطبرى أن مدّة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة قال العلامة ابن خلدون ونقض ذلك بظهور كذبه وكان رأى الطبرى مأخوذا بطريق الحدس والتخمين . وقد كان مستنده فى ذلك انه نقل عن ابن عباس ﴿ أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة والجمعة سبعة أيام واليوم ألف سنة ﴾ وقوله ﷺ ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى ﴾ مع قوله ﷺ ﴿ أجلكم فى أجل من قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس ﴾ وصلاة العصر فى بعض المذاهب اذا صار ظلّ كل شئ مثليه وهذا على وجه التقريب نصف سبع وهو فى هذا المقام ٥٠٠ سنة و بعد هذا التطويل والاستدلال والاستنتاج ظهر كذب هذا الرأى ذلك لأننا الآن فى القرن الرابع عشر فالقيامة قد مضى لها إذن تسعة قرون ونحن الآن فى الآخرة لافى الدنيا وهذه من المفجعات

(٢) وقال السهيلى أيضا ﴿ إن حروف أوائل السور بعد حذف المكرر منها تكون هكذا (ألم يسطع نص حق كره) وهى ١٤ حرفا وجملها ٧٠٣ ﴾ هذا قوله وقد أخطأ فى ١٠ لأن الجمل ٦٩٣ فاعتقد السهيلى أن القيامة تقوم سنة ٧٠٣ هجرية باعتبار هذا الجمل (بتشديد الميم) وقد ظهر كذبه أيضا

(٣) وقال شاذان البلخى وهو من المنجمين ﴿ ان الملة تنتهى الى سنة ٣٢٠ هجرية ﴾ ومعلوم كذب

هذا أيضا

(٤) وقال يعقوب بن اسحاق الكندى ﴿ ان مدة الملة تنتهى الى سنة ٦٩٣ هـ ﴾ يريد عدد حروف الجمل المتقدمة على وجه التحقيق كما تقدم وقد عرفت كذبه أيضا

(٥) وقال نوفيل الرومى المنجم فى أيام بنى أمية ﴿ ان ملة الاسلام تبقى ٩٦٠ سنة ﴾ وقد كذب أيضا

(٦) قال جراس ﴿ اتفقوا على أن خراب العالم بعد ٩٦٠ سنة ﴾ وهو كذب أيضا

﴿ الفصل الثانى فى الكلام على ظهور المهدى المنتظر ﴾

اعلم أيها الذكى أنى وأنا طالب بالجامع الأزهر فى السنين الأولى كنت مارا يوما صباحا إذ سمعت عالما يقرأ فى الحديث الشريف وهو يقول مامعناه (سيخرج رجل من آل بيتى اسمه على اسمى واسم أبيه على اسم أبى يملأ الدنيا نورا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا) فلما سمعته تاقت نفسى لهذا المهدى الذى سيخرج فى الأمم الاسلامية ويهديها . ولما كنت فى الريف أيام العطلة ببلادنا بالشرقية كنت أسمع من العامة فى سمرهم أن المهدى سيظهر ويقسم الأرض بين الناس وتكون سعادة عامة فأصبحت فكرة المهدى عامة فى المسلمين العلماء والجهال . فلما قرأت الكتب وجدت لهذا المهدى أحاديث كثيرة وقد قام فى الأمة فعلا رجال بهذا العنوان كالمهدى السودانى وكعبيد الله المهدى الذى كانت له ولذريته دولة الفاطميين بالمغرب ومصر وهكذا غيرهما . ولقد رأيت أعظم عالم بمصر أيام ظهور المهدى السودانى يقول انه هو المهدى فأيقنت بأن الأمة الاسلامية تغلغلت فيها هذه الفكرة ونبتت ولم أر عالما فى الأمة أماط اللثام عنها وشرحها شرحا وافيا مثل العلامة ابن خلدون فانه هو الذى جمع الأحاديث الواردة فى المهدى وأتى بجرحها وقال ان الجرح مقدم على التعديل كما هو معلوم عند علماء مصطلح الحديث وأتى بكلام الصوفية . وظهر من بيانه أنه لافرق فى هذه الأمة بين رجال الحديث ورجال التصوف من حيث ان كلا منهما تدخل عليه الغفلة مهما حذق وعلا كعبه فى العلم . وعجبت لهذه الأمة المسكينة كيف ظهر فيها محققون وكيف يبقى هذا التحقيق فى كتب لاتظهر لأهل العلم جميعا . إن هذا التحقيق فى مقدمة ابن خلدون فكان واجبا على أهل العلم أن يبينوا ذلك وأمثاله فى كتب الحديث وفى مناسبات كثيرة حتى تعرف الأمة الحقائق . ولعل تلخيص هذا المقام فى هذا التفسير مما يعمم الفكرة ويزيل الضلالة والجهالة من بلاد الاسلام . فاذا كنت أنا وأفاضل شيوخى قد سرت فينا الفكرة وسرت فى آفاق الاسلام فلألخص الموضوع تلخيصا تنويرا للأذهان حتى تطرد تلك الفكرة من الأذهان فى بلاد الاسلام فأقول

(١) روى أبو بكر الاسكاف فى فوائد الأخبار عن مالك بن أنس بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال ﴿ من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب ﴾ وهكذا قال فى طلوع الشمس من مغربها وأبو بكر الاسكاف عندهم متهم وضاع

(٢) وروى ﴿ لولم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا منى أومن أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى ﴾ وهناك روايات أخرى وكلها معتبرة من الأحاديث الحسنة الصحيحة ولكن مع هذه الصحة قد طعن فيها بأن الحديث مروى عن عاصم وعاصم ضعيف الرواية وكثير الخطأ فى حديثه وفى حديثه اضطراب

(٣) وروى أيضا فى حديث من رواية قطن بن خليفة وهو متهم وقال الدارقطنى لايحتج به وقال الجرجانى زائغ غير ثقة

(٤) نظر على الى ابنه الحسن وقال ان ابنى هذا سيد (كما سماه رسول الله ﷺ) سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه فى الخلق ولايشبهه فى الخلق يملأ الأرض عدلا . وفيه روايات أخرى ومن رواته عمر بن أبى قيس وفى حديثه خطأ وله أوهام ومن الرواة له أبو اسحق وقد اختلط فى آخر عمره وهكذا ذكر بقية

الروايات

الروايات وأتى بجرحها تاوة وانكارها أخرى . وليس لى أن أذكر ذلك كله فان ذلك اطالة فى هذا التفسير الذى أردت فيه أن تكون الفائدة قريبة المأخذ وهذه الأحاديث متشابهة ورواتها كثيرا ما يكون الحديث صحيحا بسبب عدالتهم وشهرتهم ولكن يطعن فيه بسبب غفلة رجل منهم أوخطئه أونحوذلك . فماذا تفيدنا الاطالة ويكفى من القلادة ما أحاط بالعنق . فلما أتمها قال . فهذه جملة الأحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل والأقل منه ثم روى حديثا بنفى المهدى وتكلم فى جرحه وتعديله . انتهى

﴿ كلام رجال الصوفية ﴾

قال العلامة ابن خلدون ﴿ إن المتقدمين منهم لم يخوضوا فى شئ من هذا وانما كان كلامهم فى المجاهدة بالأعمال ومايحصل عنها من المواجيد والأحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل علىّ رضى الله عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى ﷺ والتبرّى من الشيخين . ثم حدث بعدذلك القول بالإمام المعصوم . (أقول وقد تقدّم هذا فى سورة الكهف عندقوله تعالى ـ وما كنت متخذالمضلين عضدا ـ فاقرأه ان شئت فانه مستوفى هناك) وكثرت التآليف فى مذاهبهم وجاء الاسماعيلية يدعون ألوهية الامام بنوع من الحلول والآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجىء من يقطع بموته منهم وآخرون منتظرون عود الأمر فى أهل البيت مستدلين بأحاديث المهدى التى تقدّم بعضها هنا . ثم حصل بعد ذلك عند المتأخرين من الصوفية الكلام فى الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الاله فيهم وظهر أيضا منهم القول بالقطب والابدال وكأنه يحكى مذهب الرافضة فى الامام والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا فى الديانة بمذاهبهم حتى جعلوا مستند طريقهم فى لبس الخرقة أن عليا رضى الله عنه ألبسها الحسن البصرى وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولايعلم هذا عن علىّ من وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلىّ كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة فى طرق الهدى وفى تخصيص هذا بعلىّ دونهم رائحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها دخولهم فى التشيع وانخراطهم فى سلكه وظهرمنهم أيضا القول بالقطب وامتلأت كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوّفة بمثل ذلك فى الفاطمى المنتظر و بنوا ذلك على أصول واهية وربما استدلوا بكلام المنجمين فى القرانات ﴾

قال ﴿ وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوّفة المتأخرين فى شأن الفاطمى ابن العربى الحاتمى فى كتاب (عنقاء مغرب) وابن قسى فى كتاب (خلع النعلين) وعبدالحق بن سبعين وابن أبى واطيل تلميذه فى شرحه لكتاب (خلع النعلين) وأكثر كلماتهم فى شأنه ألغاز وأمثال وربما يصرحون فى الأقل أو يصرّح مفسرو كلامهم بأن هناك نبوّة فخلافة فلكا فيحدث تكبر وتجبر و باطل وهنالك تكون ولاية وخلافة للولاية فلك ثم كفر . فكما كانت النبوّة لها خلافة فلك فتجبر هكذا للولاية خلافة فلك ثم كفر والولاية للفاطمى المنتظر وسماه ابن العربى الحاتمى (خاتم الأولياء) وكنى عنه بلبنة الفضة مشيرا الى حديث البخارى فى (باب خاتم النبيين) إذ قال ﷺ مثلى فيمن قبلى من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتا وأكمله حتى اذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأنا تلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكملت البنيان ﴾

و يقولون ان الولاية لها مراتب كمراتب النبوّة وخاتم الأولياء كخاتم الأنبياء . فخاتم الأنبياء أكمل بنيان الأنبياء وخاتم الأولياء أكمل بنيان الأولياء غاية الأمر أن النبى ﷺ لبنته من ذهب وخاتم الأولياء لبنته من فضة . وقال ابن العربى فيما نقل عنه ابن أبى واطيل وهذا الامام المنتظرهومن أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون بعد مضى (خ ف ج) من الهجرة وذلك بالجمل ٦٨٣ سنة وهى فى آخر القرن السابع . ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر حمل ذلك مقلدوهم على أن المراد بتلك المدة (مولده) وأن خروجه بعد ٧١٠ يخرج من

ناحية المغرب . أقول وأنت تعلم أن ذلك لم يتم . وأطال العلامة ابن خلدون فى نقل كلامهم على هذا النحو ثم قال ﴿ والحق الذى ينبغى أن يتقرّر لديك أنه لاتتم دعوة من الدين والملك إلا بوجود شوكة عصبية تظهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم أمر الله . قال وقد قرّرنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التى أريناك هناك وعصبية الفاطميين بل وقريش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ، ووجد أمم آخرون قد استعلت عصبيتهم على عصبية قريش إلا مابقى بالحجاز فى مكة وينبع بالمدينة من الطالبيين من بنى حسن و بنى حسين و بنى جعفر وهم منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم عصائب بدوية متفرّقون فى مواطنهم وإماراتهم وآراؤهم يبلغون آلافا من الكثرة . فان صحّ ظهور المهدى فلاوجه لظهوردعوته إلا بأن يكون منهم و يؤلف الله بين قلوبهم فى أتباعه حتى تتم له شوكة وعصبية وافية باظهار كلمته وحمل الناس عليها واما على غير هذا الوجه مثل أن يدعو فاطمى منهم الى مثل هذا الأمر فى أفق من الآفاق من غير عصبية ولاشوكة إلا مجرّد نسبته فى أهل البيت فلايتم ذلك ولايمكن لما أسلفناه من البراهين الصحيحة . ثم أفاض فى ذلك وأبان أن مايدعيه العامة والأغمار فى ذلك من الدهماء لايرجع الى عقل ولاهدى ولا كتاب منير

هذا ما أردت تلخيصه من مقدّمة العلامة ابن خلدون فى أمر قرب الساعة وفى أمر قيام المهدى لتستبين سبيل الرشاد و يقف المسلمون بعدنا على آراء قد انتشرت قبلنا فى بلادالاسلام وفرّقتهم وزعزعتهم . فاقتراب الساعة بالمعنى المتقدّم وظهورالمهدى كلاهما قد أضعف عزائم الأمة وأورثها الخور . ومن أعجب العجب أن ينسب هذا العلامة الكبيرابن العربى . ولقد اطلعت فى الفتوحات المكية على هذا المعنى فى مواضع منه فان صح هذا ولم يكن مدسوسا عليه من أهل زمانه كان ذلك دالاعلى داء فتاك أصاب الأمة كلها وقطع أحشاءها فاذا وصل الداء الى كبار العلماء والأولياء فقد وصل الى قلب الأمّة وهذا هوالموت . يسمع المسلم بقرب قيام الساعة بالمعانى المتقدّمة التى قد ظهركذبها فيقول لم أعمل ولم أجد والناس سيموتون جميعا و يسمع بالمهدى المنتظر فاذا قام داع سارع اليه الجهلاء والتفوا حوله ثم يقوم آخر فيتبعه آخر وهكذا حتى ان مشايخ الصوفية كل منهم قد اتخذ لنفسه أتباعا وأراهم أنهم أحقّ بالله و بالحقائق وغيرهم من أمم الاسلام جاهلون ولست أذكر شيخا خاصا فان هذا التفسير عام للمسلمين ولكنى أقول قولا جامعا

أيها المسلمون . ويا أيها العلماء . اسمعوا . حمّ الأمر وقضى الله بالحق . هاهى ذه أمة الاسلام قد تفرّقت شيعا وذاق بعضها بأس بعض . ليس لكم والله ملجأ إلا الرجوع لنفس القرآن وقراءة جميع العلوم ودراسة هذه الدنيا من العلوم الفلكية والطبيعية والسياسية وهكذا . اذا درس المسلم علم الفلك نظر فقال يا الله أنت خلقت آلاف آلاف الكواكب وأرضنا بالنسبة لتلك المخلوقات كما تقدّم لوصغرت حتى صارت جوهرا فردا ثم صغرت العوالم على مقتضاه لصارت العوالم كلها ألف مليون أرض كأرضنا هذه على حالها اليوم . هنالك يقول المسلم . فاذا كانت أرضنا هذه حالها فهى أشبه بالعدم . فمن هوهذا الذى يدعى انه قد حل فيه الله وماالأرض ومن عليها . ثم ينظرالمسلم فيرى حكمة وابداعا وغرائب وعجائب فى أصغرحشرة وورقة فيدهش لابداع الله و يبتهج بالحكمة وهنالك يقرأ المسلمون العلوم و يعرفون الصناعات ومتى فعلوا ذلك رفعوا أممهم أما الاتكال على المهدى وانه سيجيء فيتبعه الناس فمعنى هذا أنهم متكلون عليه فى اسعادهم ولم شعثهم والله عزّوجل هوالذى خلق الناس وأعطاهم عقولا وأمرهم انهم هم الذين يجدّون ويجتهدون بأنفسهم ــ فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره ــ

سيأتى لهذا المقام بقية فى (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى ــ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ــ الى قوله ــ كل الينا راجعون ــ . وقصارى القول هنا أن الله عزّوجل ما أنزل كتابا من السماء ولاعلم علما إلا مريدا بذلك ايقاظ الهمم . فاذا قصد المسلمون من الرافضة والشيعة والامامية ومن تبعهم من

الصوفية المتأخرين بالمهدى أن يكون سببا فى اسعادهم وهداهـم مرة واحدة فقد أخطؤا وليعلموا أن الطفل لايولد إلا بعد نموّه فى الرحم بالتدريج . هكذا لاتكون الهداية والرحمة العامة التى تجعل الناس أسرة واحدة إلا بجدّ واجتهاد من الأمم كلها التى أهمها الأمم الاسلامية المستقبلة التى ستنتشر فيها هذه الآراء وبها يجتون فى الرقى . هنالك يعقل الناس معنى التعاون العام والهداية العامّة والعيش بسلام مع الأمم والروح العيسوية التى ورد ذكرها فى الأحاديث الشريفة . وقد قدمنا فى هذا التفسير فى غير ما موضع أن المدار على هـذه الروح العامّة بالجدّ والاجتهاد منا نحن الذين نعيش فى الأرض . هنالك لامانع يمنع من نزول المسيح ابن مريم لأنه يجد الناس يقبلون دعوته . وقلنا هناك إن المدار على هذه الروح فى أهل الأرض لاعلى رجل واحد أورجال يسقون الناس الهدى سقيا بلا استعداد ولاهدى . واعلم أن الأمم اليوم أخذت تتقارب فى السياسة وتسعى للسلام كما سيأتى فى سورة (المؤمنون) . انتهت اللطيفة الأولى

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى ـ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ـ ﴾

اعلم أن هذا المقام قد استوفيته فى أوّل سورة (آل عمران) وتبين لك فيه كيف كان الله مبينا فى علم الطبيعة كما كان مبينا بالكتب السماوية مفهما نوع الانسان فى سفر الكائنات مالايتحمله كتاب من الكتب ولاعقل حكيم من الحكماء . وهناك ترى كيف كان الخلاف بين هيكل الألمانى الفيلسوف و بين بعض علماء ألمانيا فى تكوين الأجنة وكيف كانت أدوار الجنين فى بطن أمه دالة على تناسق العوالم الحيوانية وأنها درجات وكيف كان هذا الكتاب الذى أودعه الله بطون الأمّهات مفصلا تفصيلا بحيث تقرأ أبوابه بابا بابا كما تقرأ كتب الديانات وكتب العلوم من الحساب والهندسة والطب . وكيف ترى أجسامنا ونحن أجنة تفتح باب العوالم الحية فترى كأنها حيوان الماء تارة وحيوان البرّ تارة وتنزع عنه صوره مبينا مصير الانسان بصورة واضحة وأنه سائر الى طريق الكمال وهذا كله من قوله تعالى ـ لنبين لكم ـ

وهل لك أيها الذكى أن أقص عليك الآن من تفسير هذه الآية مالم أعرفه وأنا أفسر فى سورة (آل عمران) منذ نحو سنة ونصف فهناك فسرت قوله تعالى ـ لنبين لكم ـ تفسيرا علميا . أما الآن فلأفسرها تفسيرا خلقيا أدبيا لتعجب من هـذه الدنيا ونظامها والتبيين واختلافه وأن الله كما بين العلم فى دروس الطبيعة بين الأخلاق فيها . فاعلم هداك الله الى طريق الحق واجتباك الى سبيل الرشاد أن المضغة المسوّاة وغير المسوّاة اللتين جعلتا لتعليمنا قد شملت مواعظ جمة

(١) ذلك أن الانسان يرى أن من الناس من يخلقون صما ومنهم العمى أوفاقدو قوّة النطق أومعوجوا اليدين أوالرجلين أوضعيفوا العقل أومشوّهو الخلقة ومنهم من يخلقون وانما هما توءمان ملتصقان لاينفكان حتى يموتا . كل ذلك يكون خلقة أثناء التخلق فى الرحم وقد يطرأ بعض ماتقدّم بعد الولادة وهم فى طريق الحياة . تلك كتب كتبت بحروف كبيرة . هذا كتاب كتبه الله للناس بحروف كبيرة ولكنّ أكثر الناس لايعلمون . إن الله وضع النظام على هيئة ثابتة ولكنه هو نفسه يخرق القانون و يغيره ليرشدنا أن هناك نواميس وقوانين أرقى فهاك نظام الأجسام الحيوانية والانسانية ترى أن المواد الغذائية المستخلصة من أرضنا ومائنا وهوائنا قد اقتنصت وحبست فى أجسامنا فلم يفلت الهواء الى أعلى ولا الماء الى الأنهار ولا المواد الأرضية الى أرضنا وهى ما اقتنصناها من الحبوب والفواكه والخضر. فترى الانسان والحيوان قد حكما هذه العناصر فى أجسامهما . فهذا أوّل برهان على أن النظام الطبيعى فوقه نظام أعلى وأن هناك قوّة قاهرة قد حكمت على هذه العناصر أن تغير خلقها وأن الانسان يقدر أن يبدّل العادات السيئة فيه بعادات حسنة كما غيرت طبائع الذرّات التى هى فيه

(٢) نرى أن من الحيوان مالاحواس له إلا اللمس كدود الفاكهة والدود الذى فى باطن الحيوان . ومنه

ماله حاستان وثلاث وأربع فقط كبعض الفيران تعيش فى الظلمة فتفقدها حاسة البصر لعدم لزومها . كل ذلك مخلوق فى الطبيعة والناس يشاهدونه و يشاهدون الدود يعيش بلاحواس ماعدا اللمس . ومعنى هذا التبيين أن الله يقول لنا انظروا الدود انه حى وقد فقد الحواس الأربعة وأعطيتكموها فانظروا ماذا تصنعون بها انها شبكات لصيد العلم لترتقوا عن هذا العالم فعليكم أن تفكروا بهذه الحواس فى هذا العالم وانى ما أعطيت نعمة إلا وقد جعلت بجانبها نقمة فهمومكم وغمومكم أكثر ألف مرة من غموم وهموم الدود لكثرة حواسكم وانما فعلت ذلك لأضطركم الى العمل بها واقتناص الآراء بشبكتها . فالهم الذى أحاط بكم لحثكم على الاهتداء بالعلم لتخرجوا من هذا العالم . كل هذا خلقته بين ظهرانيكم ولكنى أعلم أن هذا الدرس لايفهمه إلاقليل لذلك أردت أن يكون الدرس من نفس الانسان فجعلت المضغة تارة مسوّاة وتارة غير مسوّاة لتروا العمى منكم فتعرفون نعمة ربكم وتروا البكم وتروا الصم وتروا الزمنى ومن ضعفت أيديهم ومن فقدوا عقولهم . كل ذلك لتروا انى ماجعلت هذا فلتة أوغفلة أوعدم عناية بل جعلت هذا لأبين لكم فتقولون ان أكثر الناس أصحاء العقول والحواس والأعضاء . وهؤلاء الذين خلقوا ناقصين أوحدث لهم النقص فيما بعد انما جاؤا لنقرأ دروسنا عليهم ونعرف أن تلك المواهب نعمة يجب أن نقتنصها ونعرف النعمة التى ستزول عنا كما زالت عن غيرنا فنسرع بالاستفادة منها . واذا كنا لم نفهم نقص تلك الحواس والأعضاء فى الحيوان فنحن مستعدون لفهم نقصها فى الانسان لأن الحيوان الذى نقص شيأ من هذا لايؤثرفينا لشيوع ذلك النقص فى نوعه كالدود ولكن النقص والتشويه فى جسم الانسان أسرع أثرا فى نفوسنا وأبقى علما وأبلغ معنى . هذه القراءة ليس يعرفها الناس جميعا . هى قراءة لايعقلها إلا ذوالعقول الكبيرة لأن حروفها وكلماتها هذه الصور الحيوانية والانسانية وهى كبيرة وهذه الكبيرة لايفهمها إلا العقل الكبير . فاذا قال الله تعالى فى كتبه السماوية ان الناس سيحشرون وكتب ذلك بالحروف الهجائية أوسمعوه بأصوات هوائية فهموه فهما على قدر طاقة عقولهم ولكنه اذا مزق حجب الطبيعة بأن فتك بها وهدم كيانها وجعل عاليها سافلها فى جسم الحيوان وخالف طبعها فجعل الخفيف والثقيل والمتوسط كله فى شكل واحد . واذا حرم بعض الحيوان حواس . واذا فرّق الأمراض والنقص حسا وعقلا وأعضاء على الناس لم يفهم هذا إلا القليل ولهذا قال الله — لنبين لكم — تبيينا تعقلونه بعقولكم وتدرسونه بأنفسكم

فهاأنت ذا أيهاالذكى عرفت حكمة نقص بعض الأعضاء أوالحواس نقصا خلقيا أوعارضا وأن ذلك دروس يدركها الحكماء وانها مقصودة وان كان ظاهر الطبيعة يفيد انه عارض غير مقصود . وهاك مسألة التوءمين المخلوقين المرتبطين معا برباط تام بحيث يولدان معا و يموتان معا فى عصرنا الحاضر وكيف كانت حياتهما وهذا أيضا من مسألة المضغة غير المخلقة ليبين الله لنا بهذا أمرين يقول أنعمت عليكم بأن كلا منكم خلق مستقلا فلم يتصل بجنين آخر . و يقول أيضا ان اتصال اثنين معناه الاتحاد فى أمور الحياة وهذان الاثنان لما اتصلا لم يمنع ذلك كلا منهما عن مزاولة أعماله الخاصة به وهومع ذلك مرتبط مع الثانى أشبه بارتباط الأمّة كلها وأهل الدين الواحد كلهم وأهل الأرض قاطبة . فهذان التوءمان الملتحمان قد تلازما موتا وحياة وان اختلفا صفات كما تختلف الأمة الواحدة فى أحوالها ولكن التضامن فيما بينهم يجعلهم متحدين ارتقاء وانحطاطا وضعفا وقوّة وهاك مسألة التوءمين

(٣) ﴿ التوءمان المتصلان ﴾

اعلم أن العالم الانسانى الآن أصبح يدرس الغرائب والعجائب أكثر من ذى قبل . أخذ يدرسها لمجرّد التعجب وشاع هذا التفرّج وكثر . ولماذا هذا . ذلك لأن السكك الحديدية والسفن البحرية والطيارات الهوائية قرّبت المسافات فأخذ أصحاب العجائب يعرضونها على الناس و يتناولون دراهم والناس فرحون بما

يشاهدون . وماجعل الله الغرائب إلا للدراسة لأن الناس لايدرسون ولايتفرجون غالبا إلا على ما كان نادرا وهذا النادر كلما كان أندر كان العلم به أعجب وألذ . علم الله ذلك فى الانسان . فماذا عمل . خلق العمى والصم الخ كما قلت لك ليدرسها الناس وجعل أندر من ذلك وأعجب التوءمين وقد خلق الله فى هذا العصر توائم كثيرة منها ماعرفناه ومنها مالم نعرفه لعدم ظهوره

(١) فمن ذلك (توءمان هنديان * أحدهما) يسمى (راديكا) والآخر (دوديكا) وهما بنتان عملت لهما عملية جراحية ففصلتا بمدسنة ١٩٠٠ ببضع سنين وكانتا لاتبلغان تسع سنين وعاشتا بعدفصلهما . ثم ان اتحاد التوءمين قد يكون فى الصدر أوفى الرأس أوفى البطن أوفى الحوض

(٢) ومن التوائم التى عاشت (توءمان صينيان) وهما ذكران كانا فى السابعة عشرة من العمر وعاشا بعدها وهما قويا البنية وقد اتحدا فى طوق القص أى العظم الصدرى فانه يستطيل قليلا ويخرج من الصدر حتى يلتقى برفيقه فيتحدان . وهذان التوءمان لم يظهر عليهما تعب من هذه المشاركة

(٣) وهناك (توءمانساميان) من بلاد (سيام) خلقا متقابلين أحدهما اسمه (شانغ) والآخراسمه (انغ) وأبوهما اسمه (بونكر) ولدا فى قرية (بانكوك) بسيام سنة ١٨١١ وقد اتحدا بعظم القص فى أسفل الصدر بزائدة لحمية ضخمة وفى جهة أخرى وقد حملا الى أوروبا وهما طفلان وسافرا الى أمريكا وعرضا نفسيهما للفرجة فجمعا مالا كثيرا وعاشا فى (كارولينا) فى الولايات المتحدة واشترى كل منهما عقارا واتحدا أن يقيم كل منهما مع الآخر فى ملكه ثلاثة أعوام وكان الناس يحترمونهما وتزوجا أختين سنة ١٨٤٣ وأحدهما وهو (شانغ) ولد له عشرة أولاد سليمى البنية إلا صبيا وصبية ولدا أصمين . وولد لثانيهما وهو (انغ) ١٢ ولدا كلهم صحيحو البنية . فلما كانت الحرب الأهلية بالممالك المتحدة خسرا كل مالهما فسافرا لأوروبا . وفى سنة ١٨٦٣ مال شانغ الى الافراط فى المسكرات وظل أخوه معتدلا فى كل شئ فاتحدا فى كل شئ واختلفا فى الأخلاق وفى سنة ١٨٧٢ أصاب (شانغ) المذكور ألم عصبى فى العين اليمنى ثم انحلال فى سائر بدنه ثم ضعف جدا . وفى سنة ١٨٧٤ أصابته نزلة صدرية لم يسرع فى معالجتها وبعد مدة أفاق (انغ) وظل (شانغ) نائما فنادى (انغ) بعض أولاده ليوقظ عمه فناداه الغلام (عماه عماه) وحركه اذا هوميت فصاح (هوميت) فاضطرب (انغ) وقال بنغمة البائس الحزين (فاذن أنا مائت أيضا) ثم انقطع بوله وعسرنفسه ومات بعد أخيه بساعتين وسنهما (٦٣) سنة

(٤) (توءمان متفاوتان) أحدهما ضامر والآخر تام كامل ويحمل الآخر كأنه طفل . وأغرب وأشهر هذا النوع رجل هندى يسمى (لالو) ولد فى (لكنو) ببلاد الهند ومعه توءم آخر متصل به فى بطنه كانا فى أول الأمر متساويين فى حجمهما فلما كبرا ظل أحدهما صغيرا ولم ينم إلا قليلا فأصبح كأنه طفل يحمله شاب ولما كان ذلك أمرا غريبا جعل يطوف المدن يعرض نفسه للفرجة فى الأسواق وفى آخرماعرف عنه انه كان فى الولايات المتحدة فى العقد الثانى من القرن العشرين اهـ

ها أناذا عرضت عليك ماعرضه الله على الناس فى أسواقهم ومدنهم الكبيرة . إن الله وضع فى الناس حب الغرائب لأنها دروسهم . فالعامة للتعجب . والخاصة يقولون . كلا . فالتعجب أول العلم بل هوالباعث عليه ويقولون ان هذه التوائم وان بدت لعين الناظرين انها رمية من غير رام أوخطل فى الطبيعة فانا نقول انها مقصودة للدراسة . يرى الناس التوءمين (شانغ) و (انغ) وقد عاشا معا وماتا معا ولكن أحدهما قتله الخمر والآخرمعتدل وقد عاشا فى هناء واشتركا فى السراء والضراء . هكذا الانسانية كلها أوالأمة كلها أوأهل الدين الواحد يعيشون ويقتسمون الأفراح والأتراح . فاذا طاش فرد أوأفراد من الأمة والتووا ولم يقوموا بواجبهم كان ذلك اضعافا للامة . فعلى بقية الأمة أن يقوموا المعوج منها والا سرى الداء من المريض الى الصحيح

جسما وعقلا واقتصادا وسياسة وهكذا الأمم كلها متصلة اتصال التوءمين فأى نقص حصل فى أمة أثر فى الأخرى فاذا نقص محصول القمح فى أمة أو محصول القطن أوغيرهما أثر فى الأمم الأخرى غلاء الأسعار ونقص التجارة وأى ضعف فى أمة يتصل بالأخرى فان هذه الضعيفة لاتستطيع استقبال صناعتها ولاتجارتها . ان العالم الانسانى كله لم يخرج عن كونه مثل (شانغ) و (انغ) وأن أمم الشرق النائمة سقطت معا ولاتقوم إلامعا فاذا لم يقوّم بعضها بعضا ولم يساعد بعضها بعضا التقمتها أوروبا . إن الأمة الواحدة وأهل الدين الواحد بينهم تضامن حقيق

إن هـذا التوءم نراه بأعيننا مكتوبا بالحروف الكبيرة يفسر لنا قول النبى ﷺ ﴿المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا﴾ وتمثيل المؤمنين فى الحديث بالجسد الواحد اذا اشتكى عضومنه تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . إن الله بين لنا بهذين الانسانين وأمثالهما تضامن الناس وأن علماء الشرق ينفعون أهل الغرب بطريق غير مباشر و بالعكس وانه خلق هذين فى (سيام) وجعل قوتهما بالتفرّج عليهما لينشر ذكرهما فى الكرة الأرضية وليكونا درسا للناس وعبرة وتفسيرا لهذه الآية ولولاحبهما المال وجمعهما له ماوصل خبرهما الى مصر وماجعلتهما درسا لقوله تعالى ـ لنبين لكم ـ

فأهل الدين الواحد . وأهل القرية الواحدة . وأهل الأمة الواحدة . وأهل الأرض الواحدة بينهم تضامن وهم يجهلون وتعارف وهم يتغافلون . إن الانسانية لاتزال طفلة الى الآن والعقل الانسانى لايزال أمامه عقبات وعقبات ومفاوز ومفاوز حتى يصل الى غايته المنشودة وطلبته المرغوبة وأعماله العالية وأغراضه الغالية

إن كل امرئ كأنه مسؤل عن جميع الانسانية وأن كل الانسانية كأنها مسؤلة عن الفرد وأن السوّاس فى أوروبا وثرثرتهم وقولهم الانسانية ينطقون بألفاظ هى أصل المقصد الانسانى ولكنهم يفعلون ضدها . ذلك لأن الانسانية اليوم لفظية وسيجىء يوم للنوع الانسانى يكون فيه أرقى منه الآن وتحقق هذه المطالب وتذهب عنه تلك المثالب ـ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون ـ

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى ـ ثم نخرجكم طفلا ـ ﴾

اعلم أن التناسل على ﴿قسمين﴾ التناسل بطريق الذكر والأنثى . والتناسل بغير ذلك . أما القسم الثانى فانه يشمل جميع الأحياء الدنيا كالميكروبات والديدان و بعض أنواع النبات التى لازهر لها وهو على أنواع

(١) الحى اذا بلغ أشدّه انقسم الى قسمين وكل منهما ينقسمان قسمين وهكذا على التعاقب

(٢) أن ينقسم الحيوان الواحد الى عدّة حيوانات

(٣) اذا بلغ الحيوان أشدّه انفجر فخرج منه حيوانات صغيرة تنمو وتتناسل و يموت فنفس جسمه يقسم ويذهب و يعدم هو وتخرج حيوانات هى أجزاؤه فى الأصل

(٤) أن ينبت على جسم الحيوان شئ كأنه أصل غصن لشجرة ثم يبلغ فينفصل فيصير حيوانا مستقلا

ومن هذه الأنواع ماذكره اللورد (أفبرى) فى كتابه ﴿جمال الطبيعة﴾ وهومن النوع الأوّل هنا أن بعض الحيوانات الدنيا يحدث فى وسطها حزّ ولايزال هذا الحزّ يدق ويدق حتى ينفصل القسمان المقدّم والمؤخر فيصير كل منهما حيوانا مستقلا . وهنا يرد سؤال فيقال أيهما هو الأوّل وأيهما هو الثانى . إن هذين الحيوانين كانا واحدا فمن منهما هو الذى كان أبا ومن منهما هو الابن أم الواحد انقسم اثنين واذا قلنا بالثانى وقد علمنا أن كلا من هذين الاثنين ينقسمان ولايزال الانقسام الى مالايعلم منتهاه . أفنقول ان هـذه الحيوانات خالدة لن تموت . أم ماذا . هذا من عجائب الحكمة والناس على هذه الأرض تائهون متحيرون . فجل الله الذى حيرنا وجلّ العلم الذى أشرق على القلوب . فليحى الله العلم وليحيى الله قلوب المسلمين

وأما القسم الأوّل وهو ما يكون تناسله بالزواج فانه يكون بواسطة البيض فالجنين يكون فى البيضة وهو

على

على ﴿ قسمين ﴾ قسم تخرج البيضة منه قبل تكوّن الجنين كالحشرات والطيور و بعض الاسماك فان البيض يخرج منها و يتم الجنين بأعمال أخرى كحضن الطيور له الى أمد معلوم ثم يخرج من بيضته . وقسم تبقى بيضته فى الرحم حتى تفقس و يخرج الجنين حيا يتحرك كما نرى فى ذوات الثدى ومنها الانسان الذى كلامنا فيه فى هذه الآية . واعلم أن هناك فى رحم المرأة سائلا فى المبيض كمثل البيضة التى نشاهدها للدجاج فلها ما يشبه الزلال فى البيضة الدجاجية وفى داخل ذلك المح وهوالذى نراه أصفر فى بيض الدجاج . وفى داخل ذلك المح جرثومة صغيرة منها يتكوّن الجنين والبيضة البشرية قطرها من ١/١٠٠ الى ١/١٢٠ من القيراط والمح الذى فيها قطره ١/٧٠٠ من القيراط والبقعة الجرثومية قطرها ١/٢٠٠٠ من القيراط وهذه هى التى يتكوّن منها الجنين والجنين يتغذى من دم الأم المنتشر فى جسمها . ودورة الدم فى الجنين تخالف دورته فى الطفل بعد الولادة . فالشريان فى الجنين يحمل دما وريديا والوريد يحمل دما شريانيا فتىولد انعكس الأمر . فتعجب من الترتيب المحكم . انتهت اللطيفة الثالثة

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى ـ وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء ـ الخ ﴾

ههنا ترى عجائب النبات مع الحيوان . سترى مايدهش له لبك اترى بعقلك الحكمة واضحة جلية فى هذه الدنيا الجميلة عند الحكماء القبيحة عند الجهلاء . اننا نحيا واننا نموت ونفرح بأن نبقى ونحزن بأن نموت ولكن اذا تأملنا هذا النظام فرحنا بابداعه وانشرحنا لاتقانه ووجدنا عجبا . لعلك تقول وما العجب أقول أنظر ﴿ لأمرين غريبين ﴾ ثانيهما أغرب من أوّلهما . أما الأول فان النبات البالغ عدده ٣٢٠ ألفا كما تقدّم عن العلامة (سبنسر) على ظهر كرتنا الأرضية مختلف فى كل شئ قدرا ولونا وطعما ومنفعة الخ وهذا الاختلاف ناشئ من اختلاف الأغذية واختلاف الأغذية ناشئ من تعاطى النبات نفسه بحيث إن كل نوع منه يجتذب من الأرض ماراق له . ألاترى أن نوع الجير والصودا والبوتاسا وحمض الكبريتيك وحمض الفوسفوريك والسلكا والكلور دخلت فى القطن وفى القمح وفى الفول وفى البطاطس وفى الذرة وفى قصب السكر بمقادير موزونة مختلفة الوزن و باختلاف وزنها صارت ملابس أوأغذية للانسان أولغيره كما رأيت فى البرسيم وقد تقدّم الجدول موضحا فى سورة (البقرة)

انظر كيف كان اختلاف المقادير الغذائية من الأرض والهواء سببا فى هذه المنافع والعجائب المختلفة . ثم انظر كيف كان هذا . كان هذا باجتذاب النبات لما يناسبه . وهنا يقال كيف رتبت الفتحات الشعرية . كيف نظمت . كيف قوّمت بحيث لاتدخل فى النبات إلا مايناسبه . لاتدخل الصودا فى شعر القطن إلا ٦ر٣ من المائة ولافى حب القمح إلا ٢ر٦٦ من المائة ولافى حب الشعير إلا ٤ من المائة ولافى حب الذرة إلا ٣ من المائة وهكذا . كيف رتبت تلك الفتحات بحيث لاتقبل إلا هذه المقادير . ذلك هوالنظام السارى فى جميع النبات لايمتص إلا ماهو لازم له

﴿ نبات الكرنب ﴾

قال بعض أطباء الفرنجة فى هذا العصر « انه نافع غذاء ودواء . إنه يشتمل على عناصر كيمائية ذات قيمة منها الفوسفور والحديد والمانيزيا وفيه مادّة كبريتية تتضح من تصاعد رائحته عند غليه فى المطبخ . و يقول إنه طعام عسر الهضم يجب المبالغة فى طبخه ليسهل هضمه واذن يفيد المصابين بالإمساك لأنه يسلك الأوعية الهضمية ومع ذلك ينشأ منه أرياح فالمصابون بالتلبك المعدى يجتنبونه وجوبا و يجب أن يضاف اليه نحوالزيت وهو يصلح للمصابين بالالتهاب المعوى كمالا يصلح لأصحاب التلبك المعدى كما تقدّم قال وكان الأطباء ينصحون باللبن الياغورتى (الزبادى) لاصلاح المعدة وتطهيرها فان الكرنب يقوم مقامه اذا صنع على طريق مخصوص

وعصارة الكرنب اذا تناولها الصبي بمقدار ملعقتين كبيرتين أفادته فائدة عظيمة فى إبادة الدود والجراثيم من المعدة » انتهى

ألا تنظر رعاك الله كيف دخل فيه الحديد والمانيزيا والكبريت والفوسفور . وكيف التقطت الأنابيب الشعرية ذلك من الأرض وأخذت تبحث حتى جمعت ذلك ثم بالله قل لى أين هذه المواد الحديدية والفوسفورية والكبريتية والمانيزية وكيف اجتمعت وأين الطفل ليشرب من العصير الكرنبي المجتمع من هذا كله فيقتل دودة وأين الرجل الذى أصيب بالتهاب معوى فيفيده والذى أصيب بتلبك معدى فيضره وما المناسبة بين الكرنب ومعدة الأطفال والأمعاء التى هى ملتهبة فيخفف التهابها والمعدات المتلبكة فيزيد التهابها ولماذا يكون هذا مناسبا لذاك . هل كانت تلك الفتحات مقدرة بحيث لاتدخل إلا هذه المواد وقد علمت أن دخولها يكسب النبات نماء ثم هذا النبات يكون فيما بعد قاتلا لدود البطن فى الصبي مصلحا للمعدة عند قوم ضارا لها عند آخرين . ذلك هو العجب فى هذه الدنيا التى هى عبارة عن دار للدراسة . هذا هو الأمر الأوّل الذى هو الغريب . أما ﴿ الأمر الثانى ﴾ وهو الأغرب والأعجب فانظر ما يأتى

﴿ تعاون الحيوان والنبات على الحياة وهما لايشعران ﴾

من الدلائل الدالة على أننا فى عالم واحد كأنه انسان واحد أوحيوان واحد وأن مافيه متواصل متعاون متعاطف متبادل المنافع كما تتبادلها أعضاؤنا وهذا ماتراه فى هذا المقام

﴿ تنفس الانسان وتنفس الحيوان ﴾

إن التنفس يكون فى الحيوان وفى النبات . ففى الحيوان ظاهر كما تراه فى تنفس الانسان وذوات الأربع والطير والزحافات وهكذا السمك وهذا الأخير بالخياشيم . وهكذا الهوام جميعها تتنفس بآلات صغيرة جدا وهكذا النقاعيات . وهكذا ترى الدم الذى يجرى فى عروق الحيوان والانسان تجرى فيه كرات دموية وهذه الكرات أيضا تتنفس فتأخذ الاوكسوجين من الدم الذى هى فيه سابحة وتفرزه بعد مايصلحها كما نتنفس نحن فى الهواء . هذا هو تنفس الانسان والحيوان وكرات الدم فيه . فهاك تنفس الحيوانات العليا ﴿ إن الهواء يدخل فى الرئة فيتحد أوكسيجينه ببعض المواد الفاسدة فيه فيتحوّل الى حامض الكربونيك وحامض الكربونيك المذكور هو الغاز الذى يصعد بالزفير فما من حيوان إلا وهو آخذ الاوكسوجين ومخرج الحامض الكربونيك وتراه اذا تنفست قد جعل طبقة مغطية وجه المرآة وماهو إلا مادّة فحمية مما خرج مع الزفير ﴾

أما النبات فانه يتنفس بعكس الحيوان . إنه يمتص الحامض الكربونيك ويخرج الاوكسوجين عكس مايفعله الحيوان . الحيوان يتعاطى فى تنفسه الاوكسوجين والنبات يتعاطى الكربون المركب مع الاوكسوجين أى يأخذ رجيع الانسان . فكما لاينمو النبات إلا بالأقذار التى نبذها الانسان والقمامات التى رمى بها خارج منازله والمواد البرازية الخارجة من جسمه وقد استقذرها . هكذا فى التنفس لايأخذ النبات إلا ماخرج فى زفير الانسان مركبا ضارا بصلاح جسمه فيكون فسادا للانسان حياة للحيوان

﴿ كيفية تنفس النبات ﴾

إن الحيوان يتنفس بالرئة أو بالخيشوم أو بجلده كما ترى فى الحشرات التى يكون جلدها فى الحقيقة كالمنخل أو كالغربال اذا نظرت اليها بالمنظار المعظم . فهذه كلها لاتتنفس إلا بجلدها ولذلك لاتسمع للزنابير ولا للذباب ولا للصراصير صوتا تنفسيا بل كل هذه الأصوات المسموعة منها أصوات أجنحتها كحركات أوتار العيدان لا كأصوات الحيوانات ذوات الرئة . أما النبات فانه يتنفس بأوراقه . إنك ترى على ظهر كل ورقة من الأوراق النباتية اذا نظرتها (بالمكرسكوب المعظم) آلافا وآلافا من الفتحات المستطيلة وهذه الفتحات هى التى تقابل الهواء ومنها يدخل فى تجاويف ومجار أشبه بالتجاويف والمجارى التى فى رئة الحيوان والانسان وكل تجويف

قد سقف بقباب صغيرة مصفوفة صفا منظما بحيث تكون كل واحدة مع الأخرى كالبناء المتناسب المنسق

﴿ مقادير ما يتنفس الانسان والحيوان ﴾

إن الانسان على وجه الأرض يمتص من الاكسوجين فى السنة نحو (١٦٠٠٠٠٠٠) مليون متر مكعب ويقدّر العلماء أيضا أن الحيوانات الأخرى تمتص أربعة أمثال هذا المقدار والانسان يخرج فى اليوم ٢٥٠ غراما من غاز حامض الكربونيك وفى ذلك ٧٥ غراما من الكربون الخالص وهو الفحم . وقد حسبوا أن سكان القطر المصرى وحدهم ماعدا الحيوان يخرجون فى السنة (٤٠٠٠٠٠) طن من الفحم فى السنة . فانظر الى جميع من على الأرض . فأهل القطر المصرى نحو (١٤) مليونا وأهل الأرض نحو (١٥٠٠) مليونا والحساب سهل عليك . فاذا دام الانسان والحيوان الذى هو أضعافه يخرجان فحما على هذا المنوال فان الجو يمتلئ سما لأن الحامض الكربونيك مادّة سمية وانظر ذلك فى الحمام فان المادّة الكربونية اذا حبست فيه وقد تصاعدت من الفحم قتلت من فى المكان . فهكذا الجوّ كله يصير كالسم بسبب تصاعد الفحم من أفواه كل حيوان فأفواه الحيوان مثل موقد الفحم والجوّ كالحمام والناس أشبه بمن فى الحمام

فانظر كيف قضت الحكمة أن يكون (حامض الكربونيك) المذكور هو الذى يصلح لتنفس النبات ويكون صلاحا له كما كان فسادا للانسان فان الكربون المذكور يدخل فى النبات ليغذيه ويقوى أغصانه وفروعه وثماره فتى أخذ الحامض الكربونيك من الهواء قاله فاغتذى بالكربون وأرجع للهواء الاكسوجين كى يرجع للانسان فيصلح دمه

ياعجبا . ايها الناس تعجبوا . يدخل الحامض الكربونيك جرم النبات فيتقبله ويحله ويأخذ منه الكربون أى الفحم وهو مابه نموت فى الحمام ومابه تغطى المرآة بأنفاسنا وما يسمم جوّنا ثم يخرج من الفتحات الاكسوجين نقيا خالصا لينظف الهواء ويرجع الاكسوجين ثانيا الى الانسان فيدخل رئتيه ويصطاد الكربون أى الفحم المحترق فى أجسامنا لأن عضلاتنا مشتملة على مادّة لحمية قد أخذتها من الدم الذى أخذه من النبات فيتحد الاكسوجين بالكربون المذكور ويحمله الى خارج أجسادنا كما يحمل الزبالون والكناسون القمامة الى خارج المنازل ومتى حمله الهواء سار به جاريا حتى يوصله الى داخل الورق والورق يتقبل تلك القمامة والكناسة فينظف هناك ويرجع لنا الاكسوجين ثانيا . فالهواء هو المنظف لدمنا من الكربون الحامل ذلك الى النبات ليغتذى به فهو كالدواب تحمل السماد الى الزرع . فالهواء والحيوان كلاهما ينظفان أجسامنا ومنازلنا ليصلحا الزرع الذى بصلاحه نعيش . فانظر هذه القضايا العجيبة المتقنة البهجة لذوى العقول

﴿ جوهرة فى مقال عام فى قوله تعالى ـ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ـ الخ ﴾

لما اطلع على هذه الآيات أحد أصحابى من أهل الفضل قال لى إن هذه الآيات جاءت للاستدلال بظواهر خلق الانسان على اليوم الآخر ولكن الانسان اذا نظر لهذه الكائنات التى على الأرض أدهشه أن كل كائن فيها قد منح كل مايحتاج اليه ونال من الغرائز والطباع ما يكفل صلاحه . فهل فكرت يوما فى غرائز هذا الانسان وطباعه . وهل دراستها على حقيقتها تكفل له سعادة الدنيا والآخرة اذا عمل بها . فقلت إن ماتقوله أيها الأخ لقول عام وذو مرام بعيدة وليس لى بتحقيق ماقلته يدان ولاأدرى كيف يصل العقل الانسانى الى ماتقول وهل فى قدرته ذلك وهل سيوفق له يوما . أنا لا أدرى . انما أقصّ عليك قصصا مما تخيلته سابقا فلعل فيه سدادا من عوز وبصيصا من العلم ومبدأ للحكمة التى تريدها

فى ذات يوم كنت جالسا خارج القاهرة فى ضواحيها بين الأشجار والزروع ليلا أتأمّل النجوم والمجرّة وأسرح الطرف فى عجائبها والمح من خلالها جمالا وحسنا وبهجة وفى أثناء ذلك أسمع غوير الأعشاب وأصوات الحشرات ونغمات الأغصان الراقصات على نغمات أوتارها والرياح تعبث بها وكأن تلك الأغصان فرحات بمداعبة

الرياح جذلات طربات بعناقها مغتبطات بعشقها وغرامها ووصالها فحرك ذلك المنظر من قلبي ما سكن وأثار في من الوجدان ما بطن وله القلب وله الأغصان وسكرت النفس لجمال النجوم والنور و بهجة الرياض ونغماتها المطربات . هنالك أخذني ما يشبه السنة وكأني أرى أمامي نورا بهيا نزل من السماء الى الأرض وأخذ يجتمع و يتكون قليلا قليلا بهيئة انسانية حتى رأيته أمام عيني انسانا سويا ولكنه كان كالمهتم بأمر عظيم فما كان إلا كلمح البصر حتى رأيته قد ظهرت أمامه بلاد واسعة ومدن شاسعة و بحار عظيمة فما كان إلا طرفة عين حتى أمر الوفود من الأقطار فحضروا وأخذ يقلب طرفه فيهم كأنه يمتحنهم بنظراته ويدرسهم بلحظاته فما أسرع أن انتقى أرقاهم عقلا وأرفعهم أدبا وأشرفهم نفسا فكان أولئك خمسة رجال لا يزيدون ثم أمر الوفود الحاضرين الذين لا يحصيهم العد ولا يحصرهم الحساب ولا يمتد اليهم الطرف أن انصرفوا فما كادت الاشارة تبدو منه حتى خلا منهم الفضاء في أسرع من وميض البرق واختلاج العين ونبضة القلب فلا أدري أفي الجو طاروا أم في الأرض غاروا أم رجعت أجسامهم الى العالم الأثيري فرجعت الى أماكنها حالا وظهرت هناك ليقوموا بمهام الملك . ولم يبق من هؤلاء الجموع إلا الخمسة الذين هم أمام ذلك الملك (بكسر اللام) الذي نزل من السماء ملكا (بفتحها) وهؤلاء الخمسة أمامه واقفون خاضعون خاشعون مطيعون اذا أمرهم إئتمروا واذا نهاهم انتهوا — وهم من خشيته مشفقون — . عنت له وجوههم وخشعت له أبصارهم وظلوا له قانتين فقال لهم ابنائي أنتم المصطفون الأخيار من مملكتي . نثرت كنانتي فوجدتكم أصلبها مكسرا وأصعبها مراسا وأقوها بأسا . اطلعت على ما في ضمائركم فوجدتكم للحق عاملين وللفضل مجدين وعن الجهل معرضين ولأمري مطيعين إن مملكتي واسعة الأطراف بعيدة الأكناف شاسعة المطاف لا يصلح لقيادها إلا أنتم فلا تصلح إلا لكم ولا تصلحون إلا لها ها أنا ذا وليتكم زمامها وأعطيتكم قيادها فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري . فلما سمعوا ذلك قالوا سمعا وطاعة نحن عبيدك الخاضعون وخدامك المطيعون فمرنا نطعك وقل نسمعك فقال ان مملكتي قسمتها (٣٦) مقاطعة وقد وليت كلا من الأول والثاني (١٠) مقاطعات والثالث (٩) مقاطعات والرابع (٥) مقاطعات والخامس مقاطعتين . هلموا الى ما أمرتكم وتوجهوا الى ممالككم وليكن عندي علم بكل ما يحدث فيها بحيث أراه وأنظر اليه فقالوا له أتريد منا أن ننبئك بأنباء هذه الدول بالكتب فنشرح الحقائق ونقدمها لك فقال . كلا . ان هذا عمل الجهال ملوك الأرض . إن العالم الأرضي الذي أنتم فيه عالم متأخر وطرق الافهام والاستفهام عسرة صعبة وليس بين الناس و بين ما يعبرون عنه علاقة . لقد كان أهل هذه الأرض قبل التاريخ يعبرون عما في نفوسهم برسم صور الأشياء تقريبا ثم نوعوا في التعبير والرسم واخترعوا الحروف الهجائية المعبرة عن المعاني ولا مناسبة بين حروف (ق ا م) و بين الفعل المخصوص إلا كالنسبة بين أمرين متباينين لا علاقة بينهما كالماء والحديد وانما الذي تصنعونه لي يناسب مقامي لأني من الملأ الأعلى وعالم القدس فلتكن اللغة التي تخاطبوني بها نفس صور الأشياء التي هي الحقائق واضحة جلية ظاهرة . فقوموا من فوركم ولتحضروا لي حالا لوحا عظيما يقبل جميع الصور التي تحضرونها وليكن ذلك اللوح يقبل ما لا يتناهى من الصور لا تحجب صورة صورة ولا شكل شكلا بحيث اذا رسمتم صورة ثم رسمتم فوقها آلافا غيرها لا تحجب العليا منها السفلى بل تكون كلها حاضرة عندي . فهذه هي الكتابة التي تليق لمقامي ومركزي في السموات العلى التي كنت فيها قبل تمثلي عندكم فلم يكد ينطق بهذه الجمل حتى رأيت لوحة عظيمة لا منتهى لأمدها قد مدت أمامي وهم حولها ينتظرون الأوامر فقال احضروا صور ممالككم بهيئة الخيالة (السينما) فما كان إلا كلمح البصر حتى رأيت ما يشبه (السينما) التي أراها في بلادنا المصرية وعددها خمسة قد نصبت أمامي كاملة تامة وما كان إلا كلمح البصر حتى رأيت صورا تلوح في تلك الآلات السينمائية وأنواعها (٣٦) صورة وما كادت تظهر للأعين حتى رسمت الصور على تلك اللوحة وهكذا أخذت الصور تترادف وأنا ألاحظ الملك قد شغل بها وكلما رسمت طبقة ظهر جمال في اللوحة

يعقبه

يعقبه جمال آخر يرسم طبقة أخرى وهكذا طبقا عن طبق صور فوق صور . كل ذلك لم يتجاوز من الزمان لمحات أوثوانى كما يرى الانسان فى عالم الأحلام . هنالك أخذت أفكر وأقول من هذا الملك الذى كان ملكا ومن هؤلاء الخمسة وماهى ممالكهم وماهذه اللوحة ثم ماهذه العجائب كلها وما كاد هذا الخاطر يلوح لى حتى تبدّى لى شخص كهيئة انسان فقال ـ ولاينبئك مثل خبير ـ أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجّب أنا ابن بجدتها وأبو عذرتها فاسمع لما ألقيه اليك ولاتعجل من قبل أن أدلى اليك بما عندى . فقلت هذه هدية من ربى أتقبلها بالشكر وآخذها بالقبول ونعمة أنعم الله بها علىّ ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم . فقال ان هذا كله صور أمامك ليلقى اليك علما جما فتعرف معنى كون الانسان عالما صغيرا ومعنى ﴿ من عرف نفسه عرف ربه ﴾ ومعنى قول علىّ كرم الله وجهه

دواؤك منك وماتشعر * وداؤك منك وما تبصر

وتزعم انك جرم صغير * وفيك انطوى العالم الأكبر

فان هذه الأبيات والجمل الحسان تسمعونها يا أهل العلم ولاتدركون مغزاها بل أكثركم يقول حين يسمعها (أسمع جعجعة ولاأرى طحنا) فهذه ألقيت اليك لتعرف الله واليوم الآخر من نفس صورة الانسان و يستغنى الناس بما نذكره لك الآن عن البراهين الجدلية والفلسفة الوضعية والتعسفات اللفظية و يقرّ بما أريه لك العاقل والجاحد والملحدون والشاكون اذا كانوا يعقلون . فقلت فاشرح لى ماوصفت و بين لى ماذكرت فقال أما هذا الملك الذى صار أحد الملوك الأرضية فهو روح الانسان إذ حكم عليها أن تحبس فى هذا الجسد الأرضى . وأما الوزراء الخمسة فهى الحواس الخمس . وأما الممالك التى توصل أخبارها فهى للعين النور والظلمة والقرب والبعد واللون والشكل والحجم والصغر والكبر والحركة . ولحاسة اللمس عشرة أيضا وهى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخشونة والنعومة والثقل والخفة واللين والقساوة . وللقوّة الذوق (٩) مثل الحلاوة والحموضة والملوحة والدسومة والمرارة والعفوصة والحرافة وطعم المز والعذوبة . وللأذن الأصوات الموسيقية الانسانية وغير الموسيقية وأصوات الآلات الموسيقية وأصوات الحيوان والجماد . ولحاسة الشم نوعان الخبيث من الروائح والطيب منها . فهذه (٣٦) نوعا هى كل هذه العوالم التى سخرت للانسان ولايضبطها و يحكمها إلا بحواسه الخمس . وأما مارأيت من اللوحة فهى مخه والقوى التى فى دماغه . وهذه جعلها الله للانسان تقوم مقام الألواح التى يكتب فيها للأطفال للدراسة والألواح الحجرية التى كان يكتب عليها قدماء المصريين والبابليين والآشوريين وأهل الهند فهؤلاء كلهم كانوا يكتبون على ألواح حجرية تبقى آلاف السنين وعشرات الآلاف فتلقن للأبناء ما فعله الآباء ولذلك لما أرسل موسى عليه السلام ألقيت له الألواح مشاكلة لما كان فى زمانهم من اقامة الألواح والكتابة عليها . فهذه اللوحة التى تراها أمامك تصوّر لك هيئة لوحة دماغ الانسان التى ترسم فيها صور الأشياء الآتية من عوالم المادّة التى لاتعدّ مثل الألوان التى هى من عوالم الابصار فهى أنواع سبعة أحمر وأصفر وأخضر الخ وكل لون منها يتنوّع الى مالاحصر لها من أنواع الجمال والبهجة واختلاف الأشكال . فهذا عالم واحد من عوالم القوّة الانسانية وعوالم الانسان كما قلنا لك ٣٦ عالما تحكمها حواسه . فاذا كانت الألوان عالما واحدا يشمل مالاحصرله من الأصباغ والألوان فى الكواكب والماء والأرض والزرع والسهل والجبل والحيوان والانسان فكيف بما بقى من العوالم المقدّرة (٣٦) عالما . فلوح الانسان أرقى من ألواح أهل الأرض . فألواح أهل الأرض الحجرية وغيرها ليست شيأ مذكورا بجانب لوحة الانسان لأنها تسع مالايتناهى من العوالم مع صغرها . فلوح الانسان واحد يشمل عوالم لامنتهى لعدّها وهو أشرف من ألواح أهل الأرض وكتبهم وطواميرهم ودفاترهم فهو أشرف الدواوين وأرقاها وأعلاها وهو يدل الانسان على الله وسعة علمه وانه واحد وعلمه واحد ولوحه المحفوظ واحد يجمع مالايتناهى واذا قال

الله ـ بل هو قرآن مجيد * فى لوح محفوظ ـ وقال ـ كل فى كتاب مبين ـ فان هـذا البيان يعرّف الانسان أن كتاب الله ليس ككتبكم . واذا كان لوح عقولكم أشرف من لوح تكتبون فيه بما لايتناهى وأنتم فى الأرض التى مثلت فى العلم الحديث عندكم بجوهر فرد بينما العالم حولها يمثل بألف مليون أرض فكيف بمن خلق هذه العوالم كلها ونفاكم فى هذه الذرّة الحقيرة وقال لكم ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ فلاجرم يكون لوحه المحفوظ وكتابه القديم وعلمه بالنسبة لما لاح لكم فى عقولكم أكبر وأكبر من نسبة العوالم لكم فى أرضكم الحقيرة وبهذا تفهمون قول الامام الغزالى ﴿ ان اللوح المحفوظ كالقوة المخيلة فى الانسان ﴾ فان هذا القول منه ضرب مثل لاغير . فكما ضرب الله المثل باللوح الذى ترونه أمامكم ضرب الغزالى مثلا بلوح أشرف منه وهو القوّة المخيلة فى الانسان كلاهما ضرب مثل يقرّب المعنى . ثم قال لى ذلك الهاتف فهذه أوّل ثمرة من ثمرات هذا المثال الذى أمامك تعرف به معنى ﴿ من عرف نفسه عرف ربه ﴾ فلائكة الله مطيعون له طاعة الحواس للانسان ولكن بلاتشبيه ولاتمثيل فالملائكة عوالم مستقلة خلقها الله كما خلق الأرواح فاياك أن تظن غير ذلك . فكما خلق الكواكب والأرض والسماء خلق الملائكة فهم مخلوقون لله كالأجسام وهم له مطيعون ﴿ الثمرة الثانية ﴾ الايقان باليوم الآخر وهنا بيت القصيد . انظر رحمك الله وتعجب من غرائز الانسان وطبائعه

(١) انك لاترى حيوانا ولا انسانا إلا وقد خلق فيه دافع يدفعه للتغذية وتناول الطعام والشراب فالطفل بكى للطعام فوجد لبن الأم وغير الطفل أحسّ بجوع يؤلمه فوجد مقتضى ذلك الألم ومطالبه وهو الطعام أشكالا وألوانا وأنواعا . فهذا عجب كأن الغرائز هى نبراس هذه الدنيا وكأن هذه الأجسام الحيوانية والانسانية نموذج هذا الوجود أحست بالجوع وأحست بالعرى فوجدت طعاما وملبسا . هـذا عجب أن تكون غريزة الجوع والعطش والاحتياج للملبس مقرونة بوجود ماينا سبها وهذا أعجب العجب أن تكون البواطن والغرائز مخلوقات على نسبة العوالم الخارجية . ومعنى هذا أن القوى التى فيكم لم تخلق إلا ومعها مطالبها وهذه فائدة عظيمة جدا سيكون لها شأن عظيم

(٢) ثم هنا مسألة ثانية وهى مسألة حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل وهكذا كل ذكر وكل أنثى من كل حيوان فى الأرض فهـذه كلها يهوى ذكرها أنثاها و بالعكس أحب الذكر أنثى فوجدها أى ان أعضاءه هيئت وغريزته الباطنة خلقت متناسبة مع وجود أنثى تكون معه وهكذا أمر المرأة مع الرجل فمن العجب أن كل واحد منهما وجد الآخر فذكور الحيوان والانسان كوّنت لتكون مصاحبة لأنثى فحصل ذلك فعلمنا أن شهوة التناسل لما خلقت فى كل منهما لم تعطل كما لم تعطل شهوة الغـذاء وهذا عجب ثم قال أنا أقول لك هذا عجب ولكنكم أنتم لاتتعجبون لأن العجب انما يكون من الغريب وهذا أمر واقع فيكم فلاتعقلونه

(٣) ثم ان كلا من ذكران الحيوان والانسان أحب أن يكون له ولد فحصل ذلك نتيجة لما تقدم

(٤) ثم ان الانسان منكم يحب أن يكون له ملك وحشم فتم ذلك لكم قليـلا أوكثيرا . وخلق للأسد أنياب محددة لتأكل اللحم . فخلق له الحيوانات آكلات الحشيش . وخلق فى بنى آدم أناس مغرمون بالعلم وآخرون مغرمون بالملك فكان العلم وكانت الممالك

(٥) وقد خطر للانسان من أوّل تاريخه وتمنى أن يطير فى الجوّ ليسعى الى حبيبه و يجتمعا حتى قال الشاعر العربى

بكيت على سرب القطا إذ مررن بى * فقلت ومثلى بالبكاء جدير
أسرب القطا هل من يعير جناحه * لعلى الى من قد هويت أطير
فجاوبنى من فوق غصن أراكة * ألا كلنا يا مستعير نعير
وأىّ قطاة لم تعرك جناحها * فعاشت بذل والجناح كسير

فلم يكن الانسان فى هذا الخاطر ضالا أوغاويا . كان الشاعر يقول ذلك وما كان ليخطر له أن الانسان يوما سيطير فى الجوّ و يشارك الطير . إذن خواطر الانسان وأمانيه محترمة فلقد طارت فتاة أمريكية من أمريكا الى أوروبا فى ساعات معدودات فحركت الشركات للسير بين القارتين بالطيارات إذن هذا الشاعر كان خاطره حقا فقد صارت الطيارات اليوم تجرى فى الساعة ٣٠٠ كيلومترا مع ان قطار السكة الحديدية يجرى نحو ٦٠ كيلو فى الساعة وقد سار الطيارون فى قارّة استراليا واخترقوها فى سائر جهاتها وقطعوا مفازة هناك مسافة ١٥٠٠ ميل بين مدينتى (برث) و (دربى) هناك و ٤٨٠ ميلا من (اديليد) الى (ملبورن) و ٥٠٠ ميل من (ملبورن) الى (سدنى) و ٥٠٠ ميل من (سدنى) الى (بربسين) وهناك شيخ فى السبعين من عمره قطع بالطيارة فى يوم ١٢٠٠ ميل مع انه كان يقطع هذه المسافة فى ستة أسابيع على جواده وقد سيرت الطيارات الى مسافات أكثر من أربعة ملايين ميل من غير أن يصيب أى راكب من ركابها أوسائق من سائقيها أو ميكانيكى بها خدش فى أصبعه

فتبين من هذا أن ماتمناه الانسان من الطيران حصل فعلا ولابد من أن حال الانسان وأعماله ستغير فى القريب العاجل ولايعلم إلا الله ماذا سيكون غدا وان غدا لناظره قريب والى هنا انتهى الأمر الخامس

(٦) إن الانسان فوق ذلك قد أحب البقاء الى مالانهاية له وعشق الكواكب وأحب البحث فيها والاطلاع على عجائبها . هذه غريزة من غرائز الانسان وهى غريزة مقدسة لها قيمة بل هى أرقى مما قبلها واشتهى الطعام فوجده والزوجة فوجدها وهكذا الولد والمال وأن يطير فى الهواء فهكذا هو يشتهى أن يطوف العوالم كلها ويسير بين النجوم و يعيش الى الأبد . هذه جبل عليها الانسان . أحبّ الانسان الاطلاع على العوالم . ثم قال هذا الهاتف لى بعد ذلك لقد جاء فى كلامك سابقا فى سورة (الأنعام) وفى سورة (يونس) كلام عن الكواكب والمجرّة والسدم (جمع سديم) وهذه كلها عوالم يحب الانسان الاطلاع عليها فكيف تعطل هذه الغريزة ولاتعطل الغرائز التى قبلها ولم تصدّق تلك وتكذّب هذه . كلا . هذه غريزة صادقة لأن ماقبلها صادق كله . إن هذا القول أقوى الأدلة على بقاء أرواحكم واطلاع الفضلاء منكم على العوالم العلوية والمنكرون منكم بعد الاطلاع على هذا البرهان انما ينكرون بالاستبعاد لاغير . فكما استبعد الناس الطيران فى الجوّ لأنهم لم يروا الناس يطيرون هكذا هم يستبعدون بقاء الأرواح والاطلاع على العوالم العلوية لأنهم لم يروا أرواحا تطير فى الجوّ وتشاهد الكواكب بعد موتها . أما العقل فقد شهد بهذا البرهان . فقلت هل تسمح لى أن أناقشك . قال قل ماتشاء . قلت أنت بنيت هذا البرهان على الشوق والحب وأن كل ماأحبته فطرنا العامّة لابد من وجوده . فكما كان الغذاء والنساء والأموال والطيارات وقد طلبتها نفوسنا . هكذا ستبقى أرواحنا وتطلع على العوالم العلوية ولكنى أقول انى اذا خاطبت الناس بما تقول ردّوا علىّ قائلين هذه الحجة مردودة لأن الشوق الى الاطلاع على العوالم العلوية ليس عاما فى الناس بل هو خاص بطبقة ممتازة فكيف أدخلته فى البرهان فردّ علىّ قائلا ليس اختصاص غريزة الاطلاع بطبقة من الناس قادحا فى انها غريزة . ألست ترى الأطفال لايفرحون بجمال النساء وانما يفرحون بالحلواء . فما مثل الحكماء فى الأمم إلا كمثل البالغين العارفين بقيمة النساء فالناس جميعا بالنسبة لهذه الطائفة الممتازة أشبه (بالعنين) بكسر العين الذى لايرى وجها لمصاحبة النساء وزواجهن . فقلت قدفهمت . فقال ودونك عالم السموات . هذا العالم البهيج . انظر ماذا ترى . انه يظهر فيه كل يوم كشف جديد عندكم فقد ظهر لكم فى هذه الأيام أن هناك (سدما لولبيه) وهذه السدم ظهر انها عوالم مستقلة كنظام مجرّتكم وكل سديم منها سعته كسعة مجرّتكم ومجرّتكم قرص عدسى الشكل طول قطره نحو مائة ألف سنة نورية وعرضه ٢٠ ألف سنة نورية . ومعنى هذا أن النور الذى يجرى من الشمس الى الأرض فى (٨) دقائق و (١٨) ثانية . ومابين الشمس والأرض يقطعه القطار فى أكثر من ٣٥٠ سنة

وتقطعه قلة المدفع فى ١٢ سنة . فهذا النور لايقطع طول مجرتكم إلا فى مائة ألف سنة الى آخر ما تقدم
ومن هذه السدم التى تعادل مجرتكم مايقال له (غيوم مجلان) ومنها ما يقال له (سديم المرأة المسلسلة) ومنها مايقال له (الشلياق الحلقى) ومنها مايقال له (سديم السلاقى اللولبى) ومنها مايقال له (سديم الجبارغير المنتظم) . ولقد وجدوا أن (سديم المرأة المسلسلة) يبعد عنكم نحو (٩٠٠) ألف سنة نورية ، وهناك (سدم لولبيه) تبعد عنكم أضعاف ماتقدم ، وهناك سدم تبعد عنكم مائة مليون سنة من سنى النور . ثم ان (سديم المرأة المسلسلة) يجرى نحو مجرتكم بسرعة (٣٠٠) كيلومتر فى الثانية وأكثر السدم اللولبية تبعد بسرعة (٦٠٠) كيلومتر فى الثانية . ثم ان جرم (سديم المرأة المسلسلة) يساوى جرم شمسكم ألفى مليون ضعفا وأن هذا السديم يستغرق (١٧) مليون سنة للدوران على نفسه مرة واحدة وأرضكم تدور على نفسها مرة واحدة كل ٢٤ ساعة (انظر صور هذه السدم الأربعة فى الصفحة التالية)

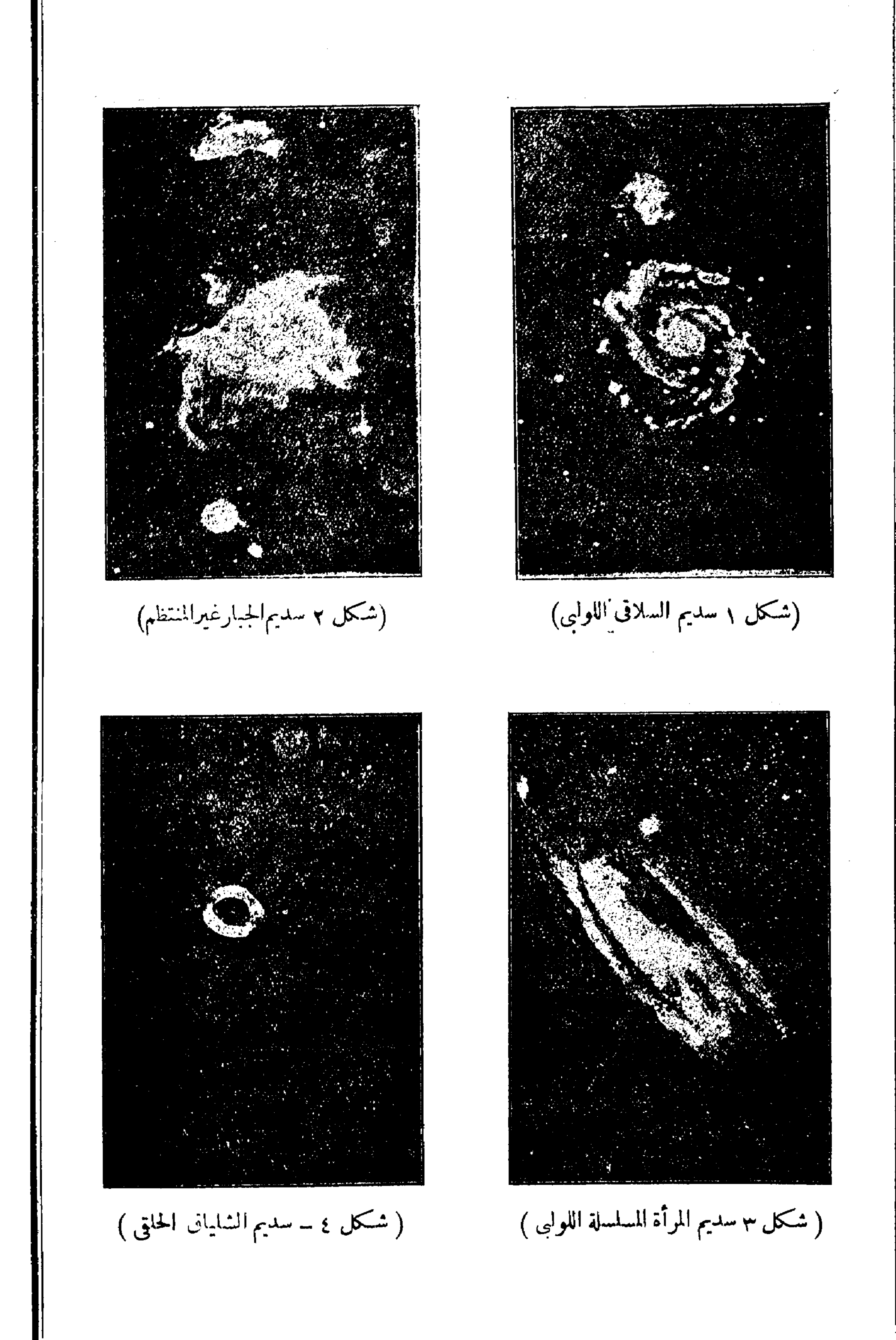
ثم قال لى . هل تذكرت شيأ عند اطلاعك على هذا . قلت نعم تذكرت قوله تعالى ــ وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ــ وقوله ــ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ــ فهو انما حدد هذه المدد على قدر عقولنا والا فعند الله أيام كل يوم منها مائة ألف سنة أو مليون سنة وهذا يوم مقداره (١٧) مليون سنة لا كالسنين عندنا بل هى سنة نورية والسنة النورية تعد سنوها المعتادة عندنا بالملايين . فقال أحسنت إذ فهمت . فقلت الحمد لله رب العالمين . فقال ان ولوعكم بهذه العجائب دليل على بقائكم بعد الموت كما كان ولوعكم بالطعام و بالنساء و بالطيران دليلا على حصولها وقد جاءت فى الوجود ، تم البرهان على ــ اليوم الآخر ــ والحمد لله رب العالمين . كتب فى ليلة الثلاثاء ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٨ م

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ــ ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ ــ ﴾

اعلم أن هذا لمن أهمل قواه ونفسه . أما ذلك الذى جعل حياته كلها نافعة علما وعملا فانه اذا كبرت سنه فان عقله يزيد لاينقص . ولقد أحصوا المخترعين فى أوروبا فوجدوا أكثرهم ممن زادوا على الستين . ولقد رأيت المرحوم الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر سابقا قد عاش نحو ١١٥ سنة وهو قوى العقل يدير الجامع الأزهر كله بعقل منير وفكر حاضر . ومن أعجب العجب أن يكون رجال من أوروبا مثل (كلنصو) الوزير الفرنسى يحس فى نفسه فى زمن الشيخوخة بأنه شاب إذ بلغ الثمانين وهو نشط كالشباب قد أتم الصلح مع ألمانيا وذهب الى بيته فى الريف يفكر لمنفعة بلاده وهو لايصدق أنه شيخ . جاء له الدكتور (فورنوف) ليجرى له عملية جراحية ترجع له الشباب فقال لست شيخا . يقرأ كتب الاغريق ليعرف علم المتقدمين ويكتب مقالات فى الصحف ويقول ﴿ يجب أن نلقى مرساتنا ونستقر على صخر المعرفة ﴾ ويقول ﴿ كل يوم يمر بى هو برهان لى على انى أجدد نفسى بنشاط عقلى ولست أعرف شيأ كثيرا ولكنى أتقبل ما أعرفه بكبرياء كما أتقبل نتيجة معرفتى ﴾ ويقول للشاب ﴿ يجب أن تسمو الى أكثر ماتستطيع حتى تحصل على أقل مما ترمى اليه ﴾ ويلعب الألعاب الرياضية فى الشيخوخة كأنه شاب ولايشرب الخمر والتبغ ويقول انهما دون رجوليتى . هذا رجل افرنجى والله يقول لنا فى القرآن ــ وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ــ ويقول بعض العلماء عندنا ﴿ ان العالم يكون أطول عمرا من غيره ﴾ وهذا حق فقد ثبت بالاحصاء أن رجال الدين أطول أعمارا وأن النابغين العبقريين أطول أعمارا من الجميع . فاذا كان أهل أوروبا الذين حاد مجموعهم عن الفضائل النفسية قد ظهر فيهم أمثال هؤلاء فأولى ثم أولى نحن المسلمين فان ديننا يأمرنا بكل ماهو جميل . انتهى

﴿ ايضاح الكلام على النبوغ (العبقرية) و بيان انه يدخل فى قوله تعالى ــ وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ــ ﴾

قد شاعت فى أوروبا فكرة أن النابغين العبقريين مجانين وانهم يموتون ناقصى العمر وألف (لومبروزو)



(شكل ١ سديم السلاقي اللولبي)

(شكل ٢ سديم الجبار غير المنتظم)

(شكل ٣ سديم المرأة المسلسلة اللولبي)

(شكل ٤ ـ سديم الشلياق الحلقي)

كتابا كبيرا فى هذا المعنى وتلميذه (ماكس نوردو) له كتاب أكبر منه وقد رأيت فى كتب (جوستاف لوبون) المترجمة مايفيد أن النابغين نصف مجانين . والحقيقة التى لا مراء فيها أن النابغين لهم صفات منها

(١) انهم فى زمن الصبا يحسون بنقص وشين يلحقهم فيجعلون حياتهم وقفا على العمل كى يرفعوا أنفسهم من الخزى والعار

(٢) ثبت بالاختبار انهم يعنون بصحتهم أشدّ العناية ودليلك على ذلك ماجاء فى التوراة من عناية كثير من العظماء المذكورين فيها بصحتهم . وترى الصحابة والتابعين يتجنبون اللذات ويحقرونها زهدا فى الدنيا وكان ذلك صحة لهم وكانوا يحافظون على النظافة وعلى السواك وللسواك اليوم القدح المعلى وكانوا يأكلون الخبز غيرمنخول الدقيق زهدا وظهر اليوم انه أعظم وأفيد للصحة وظهر الآن بعض سرّ قوله تعالى ــ ولتسألنّ يومئذ عن النعيم ــ وبعض سرّ قوله تعالى ــ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ــ الخ وأن الاكثار من أكل الحلوى وأنواع اللحوم . كل ذلك مقصر للأعمار مخرّب للأمم مذلّ للنفوس . (اقرأ هذا المقام فى سورة طه عند قصة آدم وابليس فى آخر السورة)

وكان (افلاطون) يقول ﴿ الجسم السليم يرقى بالنفس كما ان النفس السليمة ترقى بالجسم ﴾ إذن النابغة يحسّ بنقص فى الشرف وفى الجسم فهو أبدا يجتهد فى اكمال نفسه فيهما

(٣) وقد ثبت بالاحصاء أن هذه الطائفة تعيش طويلا فقد أحصى أحد الأمريكان عدد الذين بلغوا السبعين بين العبقريين فوجد انهم خمسة أضعاف نسبتهم بين سائر الناس فقد بلغ (تيتيان) الرسام الطليانى المائة من عمره ومات بالطاعون ولكن كان موته أمرا مستغربا عند أصحابه لما كانوا يعرفون فيه من القوّة

وكان (كارليل) ممعودا فبلغ ٨٢ سنة وكان يسير فى هذه السن خمسة أميال فى اليوم . وكان (فاجنر) ضعيف الجسم فعاش الى السبعين . وكان (نابليون) مزاجه أشبه بمزاج الأنثى فقاوم نفسه حتى صار يدوس الدول دوسا . انتهى

إذن تبين من هذا كله أن قول بعض أساتذتنا فى قوله تعالى ــ وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ــ له شاهد من الواقع الحاصل فى الأمم وأن حصول الخرف والجهل بعد العلم يتأخر فى هذه الطبقة أولا يكون وانما قلت هذا ليكون نموذجا لأناس يظهرهم الله فى أمة الاسلام ويرون فى أنفسهم همة عالية فليعلموا أن الله مع المحسنين وأن هذه القاعدة التى وضعها للناس فى أنه يجعلهم مخرّفين تتأخر فى هذه الطائفة النافعة للناس لأنه خصصهم لنفع عباده وخير الناس أنفعهم للناس والحمد لله ربّ العالمين

(القِسْمُ الثَّانِى)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِى جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ *

ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ *

(١) اعلم أن هذه السورة متصلة بما قبلها فان آخر سورة (الأنبياء) كان فى أمر القيامة كقوله تعالى ـ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ـ وماقبلها من الآيات كقوله ـ واقترب الوعد الحق ـ الخ وأوّل هذه الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية

(٢) ان السور المتقدّمة قد أقيمت فيها الحجج الطبيعية والنبوية على الالوهية غالبا . أما فى هذه السورة فقد جعل العلم الطبيعى من براهين البعث كما انه من براهين وجود الله . لقد جاء ذكر العلوم الطبيعية فى (سورة الحجر) على مقتضى ترتيب المواليد . وهكذا تكرر ذلك فى السور بعدها . وهاهى ذه هذه السورة قد جىء فيها بعلم الأجنة استدلالا على البعث وكذا بنظام المواليد الثلاثة استدلالا عاما فى قوله ـ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات والأرض ـ الخ فهنا سلسلة المواليد منتظمة تماما . كواكب للاضاءة عليها وجبال وشجر ودواب والناس ثم حشرهم وهذه هى المواليد من أوّلها الى آخرها عناية بالعلوم الطبيعية

(٣) تقدّم فى السورة السابقة وماقبلها ذكر الأنبياء و براهينهم لقومهم . أما فى هذه السورة فالخطاب من الله رأسا للأمم الحاضرة وهو خطاب يسترعى السمع و يوجب علينا ولوعلى سبيل فرض الكفاية تفصيلا وفرض العين اجمالا أن نعرف جميع ماصنع الله فى أرضه وسمائه وما دبر فى خلق الأجنة والنبات والحيوان

(٤) ولما تمّ الكلام على الاستدلال على البعث وماالحق به شرع سبحانه يذكرنا بما يناسبه وهو أماكن الحج وأعماله فان الحج انتقال من حال الى حال جديدة . ففيه يترك الانسان وطنه وملابسه المعتادة و يصرف ماله و يلبي دعوة ربه رافعا صوته بالتلبية تاركا لبس المخيط مهرولا ما بين جبلين طائفا حول بيت الله واقفا والشمس فوق رأسه وهو مخبت خاشع والناس معه كذلك ملبين لربهم خاضعين له واقفين معا فلا أهل ولامال ولاولد راجعين الى منازلهم تائبين من الخطايا منتظرين الموت . كل هذا أشبه بالحشر فى أكثر صفاته لذلك ذكر الله الحج بعد البعث فقال (إنّ الذين كفروا و يصدّون عن سبيل الله) أى وهم يصدّون (و) عن

(المسجد الحرام) أى الدخول فيه (الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه) أى المقيم (والباد) الطارئ أى جعلنا المسجد الحرام للناس مستويا فيه العاكف والبادفهما مرفوعان بسواء الذى هومنصوب عندحفص * وقرئ - العاكف - بالجر على البدل من الناس (ومن يرد فيه) فى المسجد الحرام أى مراد (بالحاد بظلم) حالان مترادفان أى عادلا عن القصد ظالما (نذقه من عذاب أليم) فى الآخرة وخبر إن فى قوله - إن الذين كفروا - مقدر تقديره نذيقهم من عذاب أليم (و) اذكر (إذ بوأنا لابراهيم مكان البيت) أى حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أى مرجعا ليعبد فيه و يعمره إذ رفع البيت أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله ابراهيم مكانه بريح أرسلها فكنست مكان البيت فبناه على أسه القديم وأوحينااليه (أن لاتشرك بى شيأ) من الأصنام (وطهر بيتى) من الشرك والأوثان وكل قذر (للطائفين) أى الذين يطوفون بالبيت (والقائمين) أى المقيمين فيه (والركع السجود) أى المصلين (وأذن فى الناس) ناد فيهم وأعلم . والأذان فى اللغة الاعلام والناس أهل القبلة (بالحج) بدعوة الحج (يأتوك رجالا) مشاة جمع راجل كقائم وقيام (وعلى كل ضامر) أى ركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد السفر فهزله (يأتين) صفة لضامر أى جماعة الابل * وقرئ - يأتون - صفة لرجال (من كل فج عميق) طريق بعيد (ليشهدوا) ليحضروا (منافع لهم) دينية ودنيوية كالمغفرة والتجارة (ويذكروا اسم الله) عنداعداد الهدايا والضحايا وذبحها (فى أيام معلومات) هى عشرذى الحجة عند أبى حنيفة وآخرها يوم النحر وعند ابن عباس أيام عرفة والنحر وأيام التشريق وقيل انها أيام النحر وثلاثة أيام بعده (على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها) أمر إباحة (١) اذا كان الهدى تطوعا وكذلك الأضحية . وأما الواجب فلا يأكل منه عند الشافعى (٢) ولا يأكل من جزاء الصيد والنذر ويأكل مما سوى ذلك عند ابن عمر وأحمد واسحق (٣) وقال مالك مثل ذلك وزاد فى التحريم فدية الأذى (٤) وأصحاب الرأى حرموا الأكل من كل واجب الادم التمتع والقران وانما يأكله الزمن الذى لاشئ له وهو قوله تعالى (وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم) أى ليزيلوا أدرانهم أى ليخرجوا من الاحرام بالحلق وقص الشارب ونتف الابط وقلم الأظفار والاستحداد ولبس الثياب . والحاج أشعث أغبر مادام لم يزل هذه الأوساخ (وليوفوا نذورهم) ماينذرون من البر فى حجهم (وليطوفوا) طواف الركن الذى به تمام التحلل أوطواف الوداع (بالبيت العتيق) القديم لأنه أول بيت وضع للناس أوالذى أعتقه الله من تسلط الجبابرة . الأمر (ذلك ومن يعظم حرمات الله) أحكامه وكل مالايحل استباحته ومنه الحرم وتكاليف الحج والكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام فكل هذه من حرمات الله التى لايحل انتهاكها (فهو) أى فالتعظيم (خير له عند ربه) ثوابا (وأحلت لكم الأنعام) أى أحل لكم أن تأكلوها بعد الذبح وهى الابل والبقر والغنم (إلا مايتلى عليكم) تحريمه فيما تقدم فى سورة ﴿ المائدة ﴾ وهو - حرمت عليكم الميتة والدم - الخ (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) أى اتركوا الرجس الذى هوالأوثان فهى نجاسة معنوية أقبح من النجاسة الحسية (واجتنبوا قول الزور) وهو أعم من عبادة الأوثان كتحريم السوائب والبحائر وغيرها وكشهادة الزور * يروى أن النبى ﷺ قال ﴿ عدلت شهادة الزور الاشراك بالله ثلاثا وتلا هذه الآية ﴾ والزور من الزور وهو الانحراف (حنفاء لله) مخلصين له (غير مشركين به) وهذا وماقبله حالان من الواو فى اجتنبوا (ومن يشرك بالله فكأنما خر) سقط (من السماء) الى الأرض (فتخطفه الطير) أى تسلبه وتذهب بسرعة (أوتهوى به الريح) أى تميل وتذهب به (فى مكان سحيق) بعيد . هذا تشبيه مركب وهوأبلغ التشبيهات ، يقول من أشرك بى فقد أهلك نفسه هلاكا ليس وراءه هلاك بأن صورت حاله بصورة حال من خر من السماء فتخطفته الطير ففرقت أجزاءه فى حواصلها . أوعصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة . الأمر (ذلك ومن يعظم شعائرالله) أى دين الله ومنه فرائض الحج ومواضع نسكه والهدايا وتعظيم هذه اختيارها غالية الثمن

حسانا سمانا (فانها من تقوى القلوب) أى فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب . ولاريب أن القلب منشأ كل فجور وكل تقوى (لكم فيها منافع) من الركوب عند الحاجة وشرب ألبانها عند الضرورة (الى أجل مسمى) أى الى أن تنحر (ثم محلها) أى وقت وجوب نحرها منتهية (الى البيت العتيق) والمراد انها تنحر فى الحرم والحرم فى حكم البيت إذ الحرم حريم البيت . تقول بلغت بلد العدوّ وأنت انما اتصل مسيرك بحدوده . وأولى من هذا أن تجعل الشعائر عامّة كما تقدّم وتعظيمها اتمامها . والمنافع التى للناس فيها تكون بالتجارة الى وقت المراجعة ثم وقت الخروج منها منتهية الى الكعبة بالاحلال بطواف الزيارة (ولكل أمة) ولكل أهل دين (جعلنا منسكا) متعبدا كما جعلنا لكم هذا المنسك لأنا هكذا نجمع قلوب الناس باجتماعهم فى مكان العبادة (ليذكروا اسم الله) وحده ويجعلوا نسيكتهم لوجهه إذ لاغرض من النسك إلا تذكر المعبود (على مارزقهم من بهيمة الأنعام) عند ذبحها (فإلهكم إله واحد فله أسلموا) أخلصوا التقرّب (وبشر المخبتين) المتواضعين المخلصين (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) هيبة منه لاشراق نورجلاله عليها (والصابرين على ما أصابهم) من البلاء والمرض والمصايب التى لايقدرون على إزالتها (والمقيمى الصلاة) فى أوقاتها (ومما رزقناهم ينفقون) يتصدّقون (والبدن) جمع بدنة وسميت بذلك لضخامتها (جعلناها لكم من شعائر الله) من اعلام دينه (لكم فيها خير) منافع دينية ودنيوية (فاذكروا اسم الله عليها صوافّ) قائمات قد صففن أيديهنّ وأرجلهنّ . وكيفية الذكر أن تقولوا عند ذبحها ﴿الله أكبر لاإله إلا الله والله أكبر اللهم منك واليك﴾ (فاذا وجبت جنوبها) سقطت على الأرض أى ماتت (فكلوا منها) أمر اباحة (وأطعموا القانع) الراضى بماعنده وبما يعطى من غير مسألة (والمعترّ) والمعترض بالسؤال * وقرئ — والمعترى — (كذلك) مثل ماوصفنا من نحرها قياما (سخرناها لكم) مع عظمها وقوّتها حتى تأخذوها وهى منقادة (لعلكم تشكرون) انعامنا عليكم بالتقرّب والاخلاص (لن ينال الله) لن يصيب رضاه ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) المتصدّق بها (ولادماؤها) المهراقة بالنحر من حيث انها دماء ولحوم (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن ترفع اليه الأعمال الصالحة والاخلاص وهو ماأريد به وجه الله ثم كررها ثانيا تذكيرا بالنعمة فقال (كذلك سخرها لكم لتكبروا الله) لتعرفوا عظمته باقتداره على مالايقدرعليه غيره (على ماهداكم) أى أرشدكم الى معالم دينه ومناسك حجه فتقولوا الله أكبرعلى ماهدانا والحمدلله على ما أولانا (وبشر المحسنين) المخلصين فيما يأتونه ويذرونه . انتهى التفسير اللفظى . وهنا ﴿خمس لطائف﴾

(١) فى قوله تعالى — والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد —

(٢) فى قوله تعالى — فكلوا منها —

(٣) فى قوله تعالى — لكم فيها منافع الى أجل مسمى —

(٤) فى قوله تعالى — ولكل أمة جعلنا منسكا —

(٥) فى قوله تعالى — لن ينال الله لحومها ولادماؤها —

﴿اللطيفة الأولى فى قوله تعالى — والمسجد الحرام الذى جعلناه — الخ﴾

اعلم أن هذا المقام وهومقام الحج قد استوفيته فى سورة (البقرة) فارجع اليه إن شئت ولنخص الكلام الآن بما فى هذه الآية واعلم أن الله عزّوجل لم يخلق الخلق سدى ولم يطلقهم فى أرضه سبهللا بل أحاطهم بضروب الحوافظ التى تحفظهم وهى المعقبات التى تمنع عنهم الأذى كما تقدّم فى قوله تعالى — له معقبات من بين يديه ومن خلفه — وأن الله يعامل الناس معاملة الرحمة واللطف والعطف ولكن أكثر الناس يجهلون ذلك جهلا تاما لما انهم مشغولون بامور المعاش والأخلاق القاطعة للمرء عن التذكر والتفكر . ولقد تقدّم لك فى هذه السورة انه جعل الهواء صلة بين النبات والحيوان بحيث يكون موصلا لمادّة الفحم من نفس الحيوان

الى النبات وبه يمو النبات و يتخلص الاكسوجين فيذهب الى الحيوان . أما الكربون الذى يبقى فى النبات فانه يدوم فيه حتى يأكله الانسان . والمقصد من هذه الجملة أن الناس والحيوان والنبات على الأرض أشبه بأعضاء جسم واحد فالنبات يغتذى بكربون خرج من الانسان والانسان يغتذى بنفس النبات وفيه الكربون ثم هذا الكربون يذهب الى النبات ثانيا وهكذا . وانما ذكرت لك هذا اتكالا على فهمك ماتقدم قريبا فى هذه السورة وليكون مقدمة الى ماسيأتى فى هذه الآية . فانظر كيف كان كل من الحيوان والنبات يرسل الى الآخر منافع ولا يعلم كل منهما بذلك بل هم جميعا غافلون فالنبات والحيوان والانسان كل هؤلاء غافلون إلا بعض ذوى العقول الكبيرة . فانظر كيف أحاط الله الانسان بصنوف النعم ودفع عنه النقم وهو لايشعر . ومن دفعه النقم عنه أن خلق فى الأرض جبالا لتفصل بين الأمم ليصفو فيها الهواء لئلا يكون التعفن فيفسد الجو لتلاصق العمران ولئلا يتعدى المرض والعدوى والوباء بلدة الى أخرى وأيضا ليتحصن بها من هربوا من الظلم والجور فى المدن الظالمة فيهرعوا الى جوار ربهم فى أعلى الجبال و يعيشوا مع الوحوش التى فرت من ظلم الانسان . فالجبال إذن أمان للناس من هذا القبيل . هذا هو الأمان الطبيعى والديانات نزلت مصداقا لما فى الطبيعة واقرارا لما هو نافع وتحريما لما هو ضار . فمن أبدع المنافع وأجل المفاخر الدينية أن جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس وجعل الحرم للناس سواء العاكف فيه والباد وجعله حرما آمنا لايصاد صيده ولا يقتل فيه أحد ومن دخله فهو آمن . اليه يهرب كل مظلوم و يلجأ كل مضطهد فقام فى الدين مقام الجبال الشاهقات يكون حصنا يأوى اليه الخائفون وهذا مقامه رفيع وفضله عظيم ففيه يعبد الله وتشرق النفوس وتبتهل الى ربها . وهاك آراء العلماء فى الآية

(١) يستوى فى البيت العاكف فيه والبادى فى تعظيم حرمته وقضاء النسك فيه وفضل الصلاة فيه وهو قول مجاهد والحسن

(٢) أو المراد من المسجد الحرام جميع الحرم والتسوية فيه أن المقيم والبادى سواء فى النزول فيه ليس أحدهما أحق بالمنزل من الآخر غير أنه لايزعج أحد أحدا اذا كان قد سبق الى منزل وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وابن زيد قالوا هما سواء فى البيوت والمنازل * و يقال ان الحجاج كانوا اذا قدموا مكة لم يكن أحد من أهل مكة أحق بمنزله منهم وأمر عمر أن لاتغلق أبوابهم فى الموسم . وعلى هذا لايجوز بيع دور مكة واجارتها والأرض إذن لاتملك ولوملكت لم يستو فيها العاكف والبادى . فلما استويا كان حكمها حكم المساجد وهو قول أبى حنيفة . وعلى القول الأول يجوز بيع دور مكة واجارتها وهو قول طاووس وعمرو بن دينار وهو مذهب الشافعى وقد قال الله ــ الذين أخرجوا من ديارهم ــ فنسبها اليهم واشترى عمر ابن الخطاب دار السجن بأربعة آلاف درهم اهـ

فانظر كيف حرم ابراهيم الحرم ودام تحريمه فى الاسلام ليكون ذلك أمنا للناس وموطنا للعبادة وموضعا لاجتماع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وقد امتن الله بذلك فقال فى آية أخرى ــ ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض وأن الله بكل شئ عليم ــ

يقول الله انى جعلت البيت الحرام قياما للناس الخ لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض أى لتنظروا أولا فى حكمة كون الحرم قياما للناس ثم تفكروا فى بقية حكمه فى السموات والأرض التى هى من قبيل العناية والحفظ من الآفات الطارئة عليكم من السماء والأرض فأنا أحفظكم منها ولن تقدروا على معرفتها إلا بالدراسة والعلوم ولن يقدر الناس أن يدركوا شيأ من عنايتنا بهم إلا بدراستها فاذا أمنتهم فى الكعبة بطريق الدين . فياحسرة على العباد لجهلهم . فكم من مصيبة عنهم رفعناها . وكم من نازلة دفعناها . وكم من قاصمة كسرناها . وكم من داهية أزلناها . فنحن نكلؤكم بالليل والنهار وأنتم لاتشعرون . فأنا حرمت

الحرم ليفكر العقلاء فيه و يقولوا ان ربنا حرّمه لنأمن فيه وهل له أفعال غير هذه وإذن يدرسون نظام هذا الوجود و يقولون نعم تحيط بالانسان الرزايا من كل ناحيـة ولكن هناك عطف ولطف يمنع المصائب عنه ومنه المسألة المتقدّمة فى الكربون المتواصل بين الحيوان كله والنبات . هذا هومعنى قوله تعالى فى سورة (المائدة) ـ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام ـ الى قوله ـ ذلك لتعلموا أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض وأن الله بكل شئ عليم ـ . فهذه المسألة التى يظنها الناس سهلة وهى تحريم الحرم فتح باب لدراسة نظام الله فى حفظنا فى السموات والأرض

ولقد ألهم الله أهل أوروبا أن يجعلوا (سويسرا) ملجأ للذين يفرّون من الظلم أوالمجرمين السياسيين وقد اصطلحوا على ذلك . فتعجب كيف ألهم الله الناس أن يعملوا عملا قد أنزله الله على ابراهيم بطريق الوحى . فهنا ملجأ سياسى اختاره الناس وهناك ملجأ دينى اختاره الله . ذلك ليعلم الناس أن ربنا هوالذى يلاحظ عباده و يرحمهم فى هذه الدنيا . فلما لم تكف الجبال للفارّين من الظلم ألهم قوما أن يلجؤا الى مكان يصطلحون عليه ليأمنوا فيه . فالجبال مأمن طبيعى إلهى وسويسرا ملجأ سياسى والحرم ملجأ إلهى دينى والله يقدّر الليل والنهار

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى ـ فكلوا منها ـ الخ واللطيفة الثالثة فى قوله تعالى ـ لكم فيها منافع الى أجل مسمى ـ ﴾

أما اللطيفة الثانية فقد اتضحت فى تفسير الكلمات فلانعيد ماذكرناه وانما نبين أن أهل الجاهلية كانوا لايأكلون من لحوم هداياهم شيأ فأمر الله بمخالفتهم . وأما اللطيفة الثالثة فاعلم أن المنافع المذكورة فى الآية كدرّها ونسلها وصوفها ووبرها وركوب ظهرها . فهذه المنافع قد اختلف فيها العلماء

(١) اذا جعلها الانسان هديا وسماها لذلك لم يكن له بعد ذلك شئ من منافعها عند مجاهد وقتادة والضحاك ورواية عن ابن عباس ومنافعها له قبل ذلك التعيين

(٢) للهدى تلك المنافع بعد التعيين للهدى فيركبها و يشرب لبنها عند الحاجة الى أجل مسمى أى الى أن تنحر عند عطاء

(٣) يجوز ركوبها والحمل عليها من غير ضرر بها عند مالك والشافعى وأحمد واسحق و يجوز كذلك أن يشرب من لبنها بعد مايفضل عن رى ولدها

(٤) لايركبها إلا أن يضطر اليه وهذا لأصحاب الرأى

(٥) والشعائر غير ذلك من المناسك منافعها بالتجارة والأسواق الى أجل مسمى أى الى الخروج من مكة و بالأجر والثواب الأخروى فى أعمال مناسك الحج الى انقضاء أيام الحج

﴿ مسامرة فى قوله تعالى ـ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ـ ﴾

حادثنى رجلان قد حجا فى هذا العام (سنة ١٣٤٦ هجرية) أحدهما ممن يجوبون الأقطار و يتبوّؤن الأمصار و يعاشرون الكبراء والأمراء وأهل الحل والعقد . والثانى من العامّة وأهل الصناعة فاتحدت آراؤهما على ما يأتى

﴿ إن الحجاج اذا حلوا (منى) ونصبوا خيامهم بعد الافاضة من عرفات يتقرّبون الى الله عزّوجل بالهدايا والضحايا من الابل والغنم و يتركون أكثر تلك الهدايا على الجبال المحيطة بهم صباحا فلاتجىء الضحوة الكبرى إلا وقد انتشرت الروائح المنتنة الخبيثة فلكت الهواء ودخلت الانوف واحتلت كل رئة من رئات الحجاج الذين هاجروا الى ربهم . وهذا التغير السريع وفساده بسبب الحرارة الشديدة من الشمس والآن هذا الزمان يكون

الحج فيه صيفا والصيف قوى الحرارة لاسيما فى الأقطار الحجازية المحرقة بالحرارة الكاوية القاتلة فلاعجب اذا امتلأ الجو بالعفونة فى بضع ساعات فلاترى القوم إلا أناسا مالت رؤسهم وتقلصت شفاههم وحانت منيتهم وأودعوا حفرا . ولاسبب لهذا إلا فساد الجو بما خالطه من تلك الروائح الكريهة القاتلة من الهدايا والضحايا فى العيد وفى أيام التشريق . فلما سمعت ذلك منهما فى حديث طويل . قلت لهما . أليس هناك فقراء يتناولون هذه اللحوم . قالوا . كلا . ثم كلا . قلت ان هذا أمر منكر . كيف يغفل المسلمون عن هذه الامور المحزنة ثم سألتهما كم عدد الذين يموتون . فقالا مامن عشرة أو ثمانية إلا مات منهم واحد أو اثنان . فقلت كم عدد الحجاج فى هذه السنة . فقالوا يقربون من ثلثمائة ألف . فقلت وبكم تبلغ الهدايا التى يتقربون بها . فقالوا تقدر بمبلغ (٥٠٠) ألف جنيه أو أقل قليلا . فقلت ياعجبا . ان صح هذا تكون هنا ﴿ مصيبتان ﴾ بل معصيتان وهما هلاك أنفسنا وهلاك أموالنا . أما الأموال فهى تلك الضحايا التى جعلها الله لأهل مكة وسكان حرمه الشريف حلالا يأكلون منها كما قال تعالى على لسان ابراهيم - فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون -

اللهم إنك قد استجبت دعوة ابراهيم عليه السلام . وهاهى ذه القلوب تهوى اليهم . وهاهى ذه الثمرات قد رزقوها ولكنهم لم يتعاطوها . فياعجبا لأمتنا الاسلامية . يقول الله تعالى - لعلهم يشكرون - فهل شكر أهل الحرم على هدايا تقدم لتعطى الجو عفونة ورائحة خبيثة . هذا ماكان من أمر الهدى . أما الأنفس وهلاكها فان هذه الضحايا والهدايا بدل أن كانت نعمة لبقاء النفوس وحياة المسلمين من أهل الحرم أصبحت وبالا وهلاكا للحجاج القادمين من الأقطار . فكأن هذه النعم انقلبت نقما على أولئك الحجاج بهلاكهم وعلى نفس أهل الحرم لأن الناس اذا عرفوا أن الوباء يحل بساحتهم فى منى بسبب الضحايا وشاع ذلك وذاع ينفر العقلاء وأهل العلم عن الحج ولايحج بعد ذلك إلا الجهلاء ، فاذا فرضنا أن (٣٠٠) ألف حاج يموت منهم فى (منى) عشرة آلاف أوعشرون ألف فهذا عدد لايستهان به وهذه مصيبة كبرى لايحتملها دين الاسلام فما كدت أنطق بهذا حتى ابتدرنى أحد أهل العلم وكان حاضرا فى المجلس فقال ماهذه الضجة وماهذه المخاوف ومن أين أتيت بهذه الأقوال ومن قال لك ان رائحة الذبائح والهدايا والضحايا تورث الموت والطاعون . قلت أسمعك كلام المؤرخين والأطباء فتبسم قايلا وقال قل . فقلت . قال العلامة ابن خلدون فى مقدمته تحت عنوان ﴿ فصل فى وفور العمران آخر الدولة ومايقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات ﴾ مانصه

﴿ وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرنا أوكثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل أووقوع الوباء . وسببه فى الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة مايخالطه من العفونات والرطوبات الفاسدة واذا فسد الهواء وهوغذاء الروح الحيوانى وملابسه دائما فيسرى الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض فى الرئة وهذه هى الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة وان كان الفساد دون القوى والكثير يكثر العفن و يتضاعف فتكثر الحميات فى الأمزجة وتمرض الأبدان وتهلك وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة فى هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة ﴾ انتهى المقصود منه

هذا كلام (ابن خلدون) وهومن أجل علماء الاسلام المطلعين على العمران بل يقل نظيره فى الأمم المتأخرة الاسلامية . وقد جاء فى كتاب ﴿ كنوز الصحة ﴾ المؤلف حديثا أيام عصر محمد على باشا الكبير بمصر مانصه (فى صفحة ١٧١ عند الكلام على الطاعون)

﴿ إن مرض الوباء يكون فى الغالب قاتلا ومن أصيب به يموت سريعا بعد ٢٤ ساعة أو ٤٨ ساعة وذكر العلاج ولامحل لذكره هنا . ثم قال أغلب الأطباء يقولون بعدوى هذا الداء وانه ينتقل من شخص لآخر بالملامسة لاسيما أطباء أوروبا فلذا اخترعوا (الكرنتينا) وهى كلمة معناها (أربعون) أعنى ان الأشخاص

المظنون

المظنون فيهم ذلك يمكثون مدة أربعين يوما فى محل واحد لايخالطهم أحد معرّضين للهواء ﴾ انتهى

فلما سمع جليسنا العالم ذلك ضحك واستغرق فى الضحك وصار يضرب كفا على كف وقال — قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن — . أبهذا تجيبنا . أتقول فى دين الله وتستدلّ عليه بكلام مؤرّخ تارة وطبيب تارة أخرى . مالنا ولابن خلدون . ومالنا ولكتاب (كنوز الصحة) . انت تقول ان ترك الضحايا على الجبال أورث الموت لبعض الحجاج فطلبت منك أن تبرهن على أن هذا الترك منكر فلم تشف غليلا . ترك الناس هداياهم التى أمرهم الله بها على الجبال بمى والشرع لم يحرّم ذلك . هذه سنة متبعة لايسأل الله أحدا عن ذلك . ذبحنا الضحايا وتركناها أما تعفن الجوّ وما أدراك ماتعفن الجوّ فهذا أمر لادخل له فى الدين فمن مات من الحجاج مات بأجله وسواء أكان سببه مازعمته من الروائح الكريهة أوغيره فهذا شئ والهدايا والضحايا شئ آخر . المسلم لايلزمه أكثر من ذلك ولم نسمع من علمائنا مثل ماتقوله وقد قال الله تعالى — ماجعل عليكم فى الدين من حرج — . ذبحنا الهدايا وتركناها ونحن لسنا مسؤلين عن شئ غير هذا . أما قولك فى الهواء الطاعون والكرنتينا فهو بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . فدعنا من هذه الأراجيف واتق الله ولاتضيع وقتك فيما لايفيد . فلما أتمّ صاحبى مقالته صدّق عليه الحاجان اللذان ألقيا الىّ هذا الحديث وأمّنا على كلامه وقالا بلسان واحد إن بعض المتنوّرين هناك سألوا بعض العلماء فقالوا لهم هذا أمر الشرع فلم نفهم أما الآن فقد عرفنا الحقيقة . فتح الله عليك أيها الشيخ فاقد أنرت بصائرنا وشرحت صدورنا وقد كان الشيخ طنطاوى يكاد يضلنا عما وجدنا عليه علماءنا والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . فلما أتموا مقالتهم قلت لهم جميعا هذا بيت بنيتموه على غير أساس فلأسمعنكم مايهدمه من أساسه ولتعلمن نبأه الآن . فقالوا ليس فى الامكان أبدع مما كان والا فائت ببرهان . فقلت قد ذكرت فى (سورة الكهف) فى التفسير ما قاله ابن القيم وهذا نصه تحت عنوان ﴿ تغير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والعرف ﴾ قال هذا فصل عظيم النفع جدّا وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة وتكليف مالاسبيل اليه ومايعلم أن الشريعة الباهرة لاتأتى به فان الشريعة مبناها وأساسها على الحكم والمصالح وهى عدل كلها ورحمة كلها وحكمة كلها وكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور وعن الرحمة الى ضدها وعن المصلحة الى المفسدة وعن الحكمة الى العبث فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل . وقد ذكر لذلك أمثال منها انه شرع لهذه الأمة وجوب انكار المنكر وتغييره ولكن اذا كان انكار المنكر يستدعى منكرا أشدّ منه فانه لايسوغ الانكار فى هذه الحالة الخ . انتهى المقصود من كلام ابن القيم الذى نقلته فى سورة الكهف وهو صريح فى أن المفسدة تجتنب فى الاسلام . فبالله أى مفسدة أكثر من ضياع ٥٠٠ ألف جنيه بلا فائدة لأهل الحرم وهلاك آلاف من حجاج بيت الله الحرام . فقالوا بلسان واحد أيها الأستاذ إذن أنت تريد أن تهدم نفس الاسلام فان الهدايا التى ورد بها صريح القرآن تريد أنت تحريمها . إن تلك الضحايا والهدايا منها الواجب ومنها المندوب فأنت بهذا التقرير قد جعلت الواجب أو المندوب حراما . فقلت حاشا لله فان هذا كفر وانى أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وانما الذى أبتغيه أن نسير على سنن القرآن والقرآن لم ينزل لما يضرنا بل نزل لما ينفعنا . وهذه الهدايا اذا صحّ ماقلتموه لى انقلب خيرها شرا وهذا لايرضاه جاهل فضلا عن عالم وهذا قول امام من أئمة المسلمين عرف حقيقة الاسلام وفهم قوله تعالى — لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة — فالله أمرنا بالتفكر فى الدنيا قبل الآخرة . فابن القيم رحمه الله تفكر وصرّح بالحقيقة ومن لم يحكم أمر الدنيا فليس له فى الآخرة من نصيب . إن الهدايا فى (منى) مصلحة ولكن ترتبت عليها مضرّة ضياع الأنفس والأموال وهى انما كانت لبقاء الأنفس لا لهلاكها . فليجدّ المسلمون للتخلص من هذا المرض والجهل العظيم والعار على أمة الاسلام . اللهم ان هذه غفلة وعلى المسلمين أن يتخلصوا منها . فقالوا فهل أنت عندك

مخرج لذلك . فقلت أنا لا أقول شيأ فربما يوافق مذهبا ويخالف مذاهب ولكنى أترك الأمر لمجلس يجتمع فيقرر ذلك من علماء الأمة فيكون اجماعيا . فقالوا ان ما ذكرته عن ابن القيم حسن وأقرب الينا من كلام المؤرخين والأطباء ولكنه قول عام ونحن الآن فى أمر دينى عظيم فنحن نرفض الاكتفاء به فان كان عندك علم فائتنا به والا فأرحنا من مقالك الذى أطلت به فى هذا المقام . فقلت أليس دين الاسلام يجرى على مقتضى سنن الله عز وجل والعقل . فقالوا يظهر أنك ليس عندك فوق ماتقدم لأن هذا القول داخل فى قول ابن القيم فدعنا منه وائتنا ببرهان والا فسلام عليك . فقلت ها كم ماورد فى السنة جاء فى الربع الرابع من (الإحياء) فى باب التوكل (صفحة ٢٦٠) مانصه

﴿ فان قيل ان من شرط التوكل أن يترك الانسان الحجامة والفصد عند تبيغ الدم فانه يجب أيضا أن يكون من شرط التوكل قياسا على ذلك أن من تلدغه عقرب أوحية لاينحيها عن نفسه إذ الدم يلدغ الباطن والعقرب تلدغ الظاهر فأى فرق بينهما فان قال قائل وذلك أيضا شرط التوكل فيقال ينبغى أن لايزيل لدغ العطش بالماء ولدغ الجوع بالخبز ولدغ البرد بالجبة وهذا لاقائل به ولافرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وأجرى بها سنته . ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ماروى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة فى قصة الطاعون فانهم لما قصدوا الشام وانتهوا الى الجابية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما ووباء ذريعا فافترق الناس فرقتين فقال بعضهم لاندخل على الوباء فنلقى بأيدينا الى التهلكة وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولانفر من قدر الله تعالى ولانفر من الموت فنكون كمن قال الله فيهم — ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم — فرجعوا الى عمر فسألوه فقال نرجع ولاندخل على الوباء فقال له المخالفون فى رأيه أنفر من قدر الله تعالى فقال عمر نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . ثم ضرب لهم مثلا فقال أرأيتم لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعبتان إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة أليس ان رعى المخصبة رعاها بقدر الله تعالى وان رعى المجدبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبدالرحمن بن عوف يسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبدالرحمن فسأله عمر عن ذلك فقال عندى فيه ياأمير المؤمنين شئ سمعته من رسول الله ﷺ فقال عمر الله أكبر فقال عبدالرحمن سمعت رسول الله يقول « اذا سمعتم بالوباء بأرض فلاتقدموا عليه واذا وقع بأرض وأنتم بها فلاتخرجوا فرارا منه » ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله اذ وافق رأيه ورجع من الجابية بالناس . فاذن كيف اتفق الصحابة كلهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات ان كان أمثال هذا من شروط التوكل ﴾ اهـ

ثم ان صاحب الاحياء بعد ذلك أخذ يبين الحكمة فى نهى الناس عن الخروج من أرض الوباء فعللها بأنهم لوخرجوا من أرض الوباء وتركوا المرض به لم يجد هؤلاء المساكين من يعول أحياءهم أو يدفن موتاهم وضرر الباقين بالمرض بخروج الأصحاء محقق وضرر الأصحاء غير محقق بالبقاء . فاذن فى الخروج الاحتراس من ضرر مظنون والوقوع فى ضرر محقق﴾ هذا ملخصه . انتهى ماقصدته من الاحياء ولكنى أقول إن هذا السر أظهره الله فى عصرنا الحاضر فقد أجمع أطباء الأمم أن انتقال الموبوئين من الأماكن التى بها الوباء ينشر جراثيم المرض فى العالم وهذا قام عليه البرهان وصار محققا من غير شك . إذن سر النبوة ظهر الآن وأن الدخول بأرض الوباء قاتل لنفس الداخلين والخروج منها قاتل للناس فى الأقطار الأخرى . وهذا السر من الأسرار التى أتى بها الاسلام وظهرت حديثا . فقالوا لقد شفيت صدورنا وشرحت قلوبنا وأنرت بصائرنا بحسن بيانك وانا لمسرورون ولكن القول يحتاج الى مزيد بيان وايضاح . الله ذكر هذه الهدايا فى نفس القرآن وأنت أتيت بكلام عمر فى أمر الوباء وانه يفر من قدر الله الى قدر الله . أتريد بذلك أن يفر الحجاج من (منى) أى انهم لايحجون . إن المسألة مشكلة تحتاج الى بيان . ماذا تريد بقولك هذا . أتريد ان الناس لايذبحون

فى

فى (منى) لأجل هذه المفسدة . قلت لقد قلت لكم سابقا ان هذا لايقول به مسلم جاهل أوعالم . فقالوا ماذا تريد إذن . فقلت أنا أترك المسألة لأهل الحل والعقد من علماء الاسلام فهذا شأنهم . فقال أحدهم لماذا لايتحد المسلمون على حلّ هذه المشكلة فينتفع أهل مكة الفقراء بالهدى و يمتنع الهلاك عن أرواح حجاج بيت الله . فقلت ان الله علم هـذه الحيرة قبل أن يخلق مكة والحرم وحلّ هذه المشكلة حلا اجماليا . فقالوا كلهم بلسان واحد فتح الله عليك فأسمعنا كلام ربنا . فقلت قال الله تعالى فى (سورة الحج) ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله فى أيام معلومات (وهى أيام النحر) على ما رزقهم من بهيمة الأنعام * فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ـ ثم قال أيضا ـ ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام ـ أى عند ذبحها وقال بعد ذلك ـ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافّ فاذا وجبت جنوبها ـ أى سقطت على الأرض ـ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ ـ أى الراضى والسائل ـ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ـ ثم قال بعد ذلك ـ كذلك سخرناها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ـ أى الى تسخيرها والتقرّب بها

(١) فههنا ذكر انهم يذكرون اسم الله عند اعداد الهدايا والضحايا وذبحها ـ على مارزقهم من بهيمة الأنعام ـ فعبر الله بأنه رازقنا وماذبح وترك على الجبل ليس رزقا لنا بل هو رزق الحيوانات التى لاترى وتخرج فى الهواء وتدخل أجسام الأحياء فيموت الحجاج

(٢) ثم قال ـ فكلوا منها ـ أى من لحوم الهدايا والأضحية اذا كانت للتطوّع وهكذا من الهدى الواجب بالشرع مثل دم التمتع والقران والدم الواجب بافساد الحج وفوته وجزاء الصيد على خلاف فى ذلك لا نطيل به

(٣) ثم قال ـ وأطعموا البائس الفقير ـ والأمر هنا للوجوب . أوجب الله علينا أن نطعم البائس الفقير أما ذبح الهدى على الجبل وتركه ليقتل المسلمين فهو مضاد لكتاب الله تعالى والله هو الذى قال ذلك

(٤) وقوله تعالى ـ ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الأنعام ـ فالتعبير برزقهم يدل على أنه يراد أن تكون تلك الذبائح رزقا لنا لا رزقا للحيوانات الذرّية التى تقتل المسلمين بالوباء

(٥) وقوله تعالى ـ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ـ تأكيد لما تقدّم فى هذا المقام

(٦) وقوله ـ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ـ أى تشكرون انعامنا عليكم كما قاله المفسرون وأى انعام فى ترك الذبائح فى الجوّ لتكون هلاكا للحجاج ووباء يقتلهم . فهذه ليست نعما لنا نشكر عليها بل هى نقم توجب الرضا والصبر وفرق بين الشكر والصبر فالشكر على نعمة والصبر على نقمة فلوجعل الله هذه الانعام نقمة لنا بحيث تكون سببا فى الوباء لقال غيرهذا فكأن يقول سخرناها لهلاك بعضكم وابتلينا كم بها لعلكم تصبرون فسنكفر عنكم سيآتكم

فلما سمعوا ذلك قالوا والله ان العيون مقفلة والجهل عمّ أكثر الناس و يظهر أن العقلاء فى الأمم الاسلامية لايريدون أن يتفكروا فى هذا والله ان هذا هو الحق المبين والله لتنشرنّ هذه الفكرة بين المسلمين فليس بعد هذا بيان . فهل عندك بعد هذا بيان . فقلت . وليس وراء الله للمرء مطلب . هذا كلام الله وهذا كلام رسول الله وهذا كلام العلماء . فماذا يقول المسلمون بعد هذا . فقالوا نظنّ ان الوهابية يعارضونك . فقلت أشهد الله أن هذا الكلام اذا وقع فى أيديهم و بلغتموهم ماقلته الآن وكانت الحال هناك كما وصفت فانهم لايخالفونه انهم ينصرون السنة ومتى وجدوا حقا اتبعوه . فقالوا وكيف تحلّ المشكلة . ليس فى منى أحد يأخذ تلك الذبائح . فقلت كم لهذه المسألة من حلول فاذا اتفق علماء الاسلام على أن تجعل تلك الذبائح فى (منى) فى يد قوم عقلاء من أمم الاسلام وتصنع بصناعة لحفظ تلك الأجسام من التعفن ثم توزع على المحتاجين فيأ كلونها

فان هذا حل سهل إن أقره العلماء ووافق مذاهبهم فانى واثق أن علماء كل مذهب لايتحوّلون عنه فليحلوا هذه المشكلة بحل يوافق الجميع وأما ماقلته فانما هو ضرب مثل لاحل لأنى لاأريد أن أدخل فى التفصيل كما تقدم وانما أختم قولى بأن أذكركم وأذكر المسلمين جميعا بقول الله تعالى ــ جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ــ فالكعبة والبيت الحرام قيام للناس بالأمان من القتل مكانا وزمانا وما يهدى الى الحرم يكون قياما للناس من حيث الثواب للهدى باطعام الفقراء وهذا فى (سورة المائدة) فمن نصب مائدة أمّن أضيافه زمانا ومكانا وقدم لهم الطعام . ويقول فى سورة (النساء) ــ ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما ــ أى لانعطى نحو الأطفال مثلا المال لئلا يضيعونه فى غير موضعه والمال عليه مدار حياتنا فكيف نسلمه لمن لايحفظه . فالمال قيام لنا أمرنا بالمحافظة عليه من سفهائنا والهدى والقلائد قيام لنا فاذا نحن حافظنا على المال فلاندعه فى أيدى السفهاء لأنه قيام لنا فمن باب أولى نحافظ على ماهو قيام لنا من الأنعام فلاندعه يطيح منا فوق رؤس الجبال ويهدينا طاعونا وموتا زؤاما أى لانجعل ماهو قيام لنا هلاكا لأجسامنا . واذا لم ندع أحد القيامين للسفهاء فهل ندع القيام الآخر يهلكنا بدل أن يكون حياة لنا . هذا خارج عن العقل وعن الدين فالدين يرفضه والعقل ينبذه ألا فليفكر علماء الاسلام فوالله ان الله يحاسب كل من اطلع على هذا ولم يفكر فيه ــ إنّ الله عزيز ذو انتقام ــ

﴿ اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى ــ ولكل أمة جعلنا منسكا ــ متعبدا ﴾

اعلم انه مامن أمّة خلت إلا ولها أماكن للعبادة وذلك ليجمع الناس على رأى واحد ومكان واحد لتتحد القلوب وتجتمع المختلفات وتتفق المشارب . إن من اطلع على هذا التفسير وأمعن فيه النظر واطلع على ما اقتطفنا فيه من ثمرات العلوم وجمال الثمرات وبهجة الحكمة يوقن أن العالم الذى نحن فيه خلق للتضامن والاتحاد . واذا تبين لك فى هذه السورة كيف كان تعاون مملكة النبات ومملكة الحيوان على الحياة وهما لايعلمان وكيف كان الهواء جاريا بينهما ناقلا مادّة الفحم من نفس الحيوان معطيها الى النبات وهو يغتذى بها معدّا نفسه لتغذية الحيوان ثم يدور الدور . ثم اذا نظرت فى سورة (الحجر) وفى سور غيرها ترى هناك كيف كان النحل والحشرات الأخرى رسلا بين الأزهار ملقحة الاناث من الذكران شاربة العسل . وترى فى سورة (الرعد) كيف كانت كل ورقة فيها قوّة تمنع الصواعق ولولا الورق والشجر لأهلكت الصواعق كثيرا من الحيوان . وترى فى سورة (البقرة) وغيرها كيف كان السحاب فى بعد مخصوص فلاهو بالقريب جدا ولاهو بالبعيد جدا والا لبل الثياب فى الأوّل وعطل الحركات ولفاجأ الناس المطر فى الحال الثانية من غير انذار فاذا رأى الناس السحاب حسبوا له ألف حساب وكانوا منه على حذر خيفة ألا يبقى ولايذر . واذا نظرت فى سورة (الرعد) أيضا عند قوله تعالى ــ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ــ تعلم أن كل ما حولنا من غاز وسائل وجامد يؤدّى الينا منافع على شرائط مخصوصة ولولاها لكان كل نافع ضرا علينا . اذا عرفت هذا أيقنت أن الاتحاد سار فى هذا الكون وأن كل جزء مرتبط ببقية الأجزاء بطريق مخصوص

اذا كان هذا فى العالم كله فانظر فى نوع الانسان الذى نحن بصدده فقد جعل الله له فى كل أمة مكانا يتعبدون فيه ومنسكا يجمعهم ليكون الاجتماع رابطة بينهم ارتباطا عقليا روحيا لا ارتباطا طبيعيا كارتباط الانسان بالحيوان والنحل بالزهر والذكور بالاناث والمطر والسحاب والبرق بالمخلوقات الحية . ان ذلك رابط طبيعى ولكن الله عزّ وجل يريد ترقية الانسان ترقية روحية فحثه على العبادة ليتصل بربه وحثه على الاجتماع ليرتبط بأبناء جنسه ارتباطا قلبيا روحيا حتى اذا عرفهم فى الدنيا كانوا معه بعد الموت فى صفاء وهناء . فهنا مدرستنا وهناك محل عملنا والنهايات على مقتضى البدايات والأعمى هنا أعمى هناك والمهتدى هنا مهتد هناك والله لم يجعل الرزق بسعينا ولاالحج والعمرة والجهاد بجدّنا إلا لاثارة الحية والنخوة واظهار الثمرات العقلية

لتكون لنا هناك نورا مبينا قال تعالى - نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم - والدين الواحد يجمع الأمم المختلفة فى الأخلاق والأعمال والعادات فكأن الأرواح المختلفة كرة كوكبية ذات عناصر مختلفة وصور متقنة صنعها الخالق لمنافع هناك سنعرفها ومن يمت يرها

﴿ اللطيفة الخامسة فى قوله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - ﴾

هذه الآية وآيات أخرى فى هذا القسم أبانت مقاصد الحج فليست ظواهر الأعمال مقصودة لذاتها . إن ظواهر العبادات والمناسك والطواف والسعى ورمى الجرات والوقوف بعرفات والتجرد من المخيط وغير ذلك كلها يراد بها مايقوله الحاج ﴿ لبيك اللهم لبيك لاشريك لك لبيك ﴾

يراد بهذا كله خلوص القلوب من علائقها بهذه المادة الأرضية وحنينها الى العالم الأعلى على شريطة أن يكون الناس إخوانا لأن الهناء هناك على مقدار التعاب والارتباط وشعور الانسان بالاخوة العامة والصداقة التامة بين الاخوان . واعلم أن الله قدجعل بين الناس روابط طبيعية كاللغة وكالجنس وكالوطن وكالملك الجامع لأمم مختلفة وذلك كله جعله بالصفة التى خلقها وأهداها للناس والدين جاء لأعمّ من ذلك . جاء ليجمعهم كلهم على رأى واحد وهو التعاون بالمودّة للخلاص من هذه الأرض ونبذ العلائق الدنيوية . إن المدار على ماذكرناه فلاصلاة بنافعة ان لم يكن الله فى ذكر العبد كأنه يخاطبه و يكلمه و يشافهه فى الصلاة . إن الحج لاثمرة له مالم يكن نتيجة اطراح هذه الحياة . إن الزكاة إن الصيام إن الصدقات كل ذلك للتخلص من ربقة هذه الحياة . فالجوع و بذل الصدقات للتبرّى من العادات والصلاة للعروج الى عالم الجمال وخطاب الله المطلع المشرق نوره فى القلوب . انتهت اللطيفة الخامسة

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

إِنَّ اللّٰهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللّٰهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللّٰهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللّٰهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّٰهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللّٰهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلّٰهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ * وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

* وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
* وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ
عَقِيمٍ * الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ *
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ
مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ
عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ
وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً
إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ *
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ
تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ
ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ * لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ
فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ * وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

اللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا) أى يدافع غائلة المشركين عن المؤمنين . ومن هذا القبيل ـ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ـ وانما يدافع عنهم لأنه يحب من يؤدّون الأمانات والشاكرين للنعماء ويبغض غيرهم (إنّ الله لايحب كل خوان كفور) أى خوان لأمانة الله كفور لنعمه وبهذه الآية فلتستمسك أيها الذكى . ولتعلم انك اذا نشرت ما نكتب فى هذا التفسير من الحقائق العلمية وأذعتها فى الأمة الاسلامية بالطريق الذى سلكناه والمنهج الذى أثبتناه والسبيل الذى اتبعناه فاعلم انك منصور والله يدافع عنك لأن الأمة اليوم فى حاجة الى التطوّر فى أعمالها والترقى فى أخلاقها والخروج من سقطاتها . واذا قمت بما أشرت اليك فان الله معك . ولتعلم أن أمثالك فى الأقطار الاسلامية يسلكون هذه السبيل ويجدّدون مجد الاسلام وينشرون نحو ما أقول فى هذا التفسير فثق بوعد الله كما وثقت به وانى لولا ايقانى بأن هذا اليوم له مابعده وأن الأمة اليوم غيرها بالأمس وأن المسلمين سينقلون الى أطوار أخرى وأحوال أعلى ومقام أسمى ماسطرت حرفا . ولتعلم أن هذه السبيل وحدها هى المسرعة الى ذلك الرقى فان ديننا فيه عناصر الرقى وقد تركت جواهرها فهاأنت ذا بشر الناس وعلمهم وقم فيهم خطيبا والله معك واقرأ ـ إنّ الله يدافع عن الذين آمنوا إنّ الله لايحب كل خوان كفور ـ (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) أى بسبب كونهم مظلومين . وذلك أن مشركى مكة كانوا يؤذون أصحاب النبى ﷺ أذى شديدا جدا حتى طفح الكيل وكانوا يأتون رسول الله ﷺ مابين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم صبرا فانى لم أؤمر بالقتال حتى هاجر فأنزل الله هذه الآية وهى أوّل آية نزلت بالإذن بالقتال بعد مانهى عنه فى نيف وسبعين آية (وإن الله على نصرهم لقدير) وهذا وعد لهم بالنصر كما وعدهم بدفع أذى الكفار عنهم . فانظر كيف وعد الله مريدى الاصلاح بدفع الأذى عنهم

ووعدهم أيضا بالنصر عندالحرب . فاعلم انك أيها الذكى منصور فى حربك العلمى وجهادك الاسلامى كما نصر رسول الله ﷺ فى جهاده هو وأصحابه الحربى

ولقد رأيت كيف نصر الله الأنبياء فى سورة (الأنبياء) السابقة ثم أتبعها بهذه السورة لتستبين السبيل فيقول الله ها أناذا نصرت الأنبياء وأنت يامحمد تكون مثلهم فلأنصرنك على الكفار كما نصرتك على الأنبياء

إن الله جمع الحج والجهاد والبعث فى سورة واحدة لأنها من قبيل واحد . فالحج للخروج من المألوفات والولوع برب البريات والجهاد لخلاص النفس من أسر العادات والانطلاق الى عالم الشهادات أو الرجوع بالحرّية والاستقلال والبعث مكمل لهما لأنه انطلاق من عالمنا الأرضى الى العالم السماوى . فالجهاد والحج بعث مصغر يتلوهما البعث المكبر ولذلك قدّم أكبرها وألحقا به

﴿ نصر الله الأنبياء المذكورين فى السور السابقة ونصر سيدنا محمدا ﷺ وأصحابه ﴾

واعلم أن الجهاد فى هذه العصور هو الجهاد العلمى فانه لاحرب ولاضرب ولاسيف ولامدفع إلا بالعلم والعلم يفعل اليوم مالاتفعله أعظم المدمرات فهو ينبه الشعوب و يغرس فى القلوب حبّ الكرامة والبحث والاتحاد والجهاد . فاذا نشرت ما يكتب فى أمثال هذا التفسير فأنت قائم بالجهاد بل هو الجهاد فى مستقبل الزمان . إن العقائد فى مستقبل الزمان هى الملجأ الوحيد للأمم فانشر ما كتبناه وما يكتبه سوانا . فسترى آثار العمل ظاهرة فى الاسلام ولقد وعد الله بالنصر

﴿ برهان دينى ﴾

واعلم انك كما قال الامام الغزالى رحمه الله « اذا أردت أن تصدق دينا فاعمل بما فيه فان كانت النتيجة كما جاء فيه فذلك دليل على صدقه » وأنا أقول بين للناس مافى هذا ومافى أمثاله مما يحبب الناس فى العلوم وانظر ماذا يفعل الله وهو القائل - إن تنصروا الله ينصركم - والقائل (وان الله على نصرهم لقدير)

إن الذى يهمك من هذه الآيات أن تتخذها نبراسا لك واياك أن تتوهم أن هذا خاص بنبينا ﷺ وأصحابه انه لنا الآن وهو يتلى علينا فنحن المبشرون (بفتح الشين) به فاذا متنا بشر به من بعدنا ووعدوا بثمراته . فجاهد ثم جاهد ثم جاهد وانى موقن برقى الاسلام فى القريب العاجل ثم أبدل من الذين قوله (الذين أخرجوا من ديارهم) بمكة (بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) كقول الشاعر

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم * بهنّ فلول من قراع الكتائب

أى ما أخرجوا من ديارهم إلا بسبب قولهم ومحل - أن يقولوا - جر بدلا من - حق - (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بالجهاد واقامة الحدود (لهدّمت صوامع) هى معابد الرهبان المتخذة فى الصحراء (و بيع) هى معابد النصارى فى البلاد (وصلوات) هى كنائس اليهود وهى بالعبرانية صلوتا (ومساجد) هى مساجد المسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) يعنى فى المساجد أى فلولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض لهدّمت فى شريعة كل نبىّ معابد أمته كالصلوات لليهود الخ (ولينصرنّ الله من ينصره) من ينصر دينه وقد تمّ ذلك فعلا فقد سلط الله المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم . أقول وسيدور الزمان دورته على نحو غير الذى مضى فينصر الله دين الاسلام و يكون مافى هذا التفسير وأمثاله مما ألقاه الله على أفئدة المصلحين من أجلّ الأسباب التى بها ينبغ فى أمة الاسلام رجال فى العلوم الطبيعية والفلكية والاقتصادية بها تفتح المدارك وتقوم الدول وتنظم الشؤن و يكون العالم السياسى المسلم داهية فى السياسة وقد كان بالليل متهجدا ذاكرا لربه مصليا مستغفرا . هذا الذى سيكون فى المستقبل القريب . وستشيع فى أمتنا العلوم التى امتازت بها أوروبا علينا وسيصير الفحم والكهرباء والطيارات وأمثالها من أقلّ الأشياء علما عند المسلمين وتصبح كلمة اسلام وكلمة شرق أرقى من كلمة غرب وكلمة أوروبيين و يرجع المجد كما كان أوّلا وقد

وعدنا

وعدنا الله بالنصر وقد وعدت أنا بذلك من أيام الشباب بأنى سأأتى هذا التفسير وليس المقام مقام شرح كيف كان هذا الوعد فذلك ليس محله ولكن الذى يدهشنى جدّ الدهش انى أبشر به تبشيرا فى الصغر ثم انى أعيش الى هذه السنّ وأجد الخاصة والعامّة من الأمة الاسلامية تودّ أن أتمّ هذا التفسير هذا مصداق لهذه الآية ولينصرنّ الله هذا الدين بل هذا الأسلوب من الدين وهو اجتماع العلم والدين الذى قد أنزل القرآن لأجله وقد خبئ فى القدر وبرز اليوم ظاهرا جليا واضحا يتلألأ فى سماء الجمال وبهاء الكمال فى بحبوحة المجد العلمى والشرف الانسانى . سينصر الله هذا الأسلوب من الدين . سينصرك الله أيها الذكى فقم فى المسلمين بشرهم بمستقبلهم أثر العزمات والقوى الكامنة . إن فى الشرق لقوى كمنت وعقولا نامت فأيقظها بقلمك وجاهدها بلسانك فالاسماع أذن الله أن تكون واعية والقلوب أذن الله أن تكون عاقلة ولينصرنك الله وهو خير الناصرين كما نصر المسلمين فى القرون الأولى (إنّ الله لقوى) على نصرهم (عزيز) لايمانعه شئ . ثم بين السبب الذى من أجله ضمن النصر لهم بأنهم مصلحون و بأنهم هم فى أنفسهم صالحون وهذه الطائفة جديرة بالمساعدة الإلهية فقال مبدلا من الموصول وهو لفظ من (الذين ان مكناهم فى الأرض) كملت نفوسهم باقامة الصلوات ومناجاة الله فى أكثر الأوقات وهذه المناجاة توصل لهم روحانية خاصة بها يهتدون فى دياجير الحياة وهذا لايعرف إلا بالتجربة وهو قوله (أقاموا الصلاة) ولامعنى للصلاة ولافضل فيها إلا باستحضار المعبود والتوجه اليه فيها على قدر الطاقة بحيث يجعل العبد نفسه كأنه انسلخ من البشرية وانطلق الى حال الملكية . فهذه الصلاة هى المعبر عنها بانها أقيمت من قوّمت العود اذا عدلته ولا معنى لاعتدال الصلاة إلا باتمام أركانها ولامعنى لأركانها إلا استحضار المعبود وحضور القلب عند نطق اللسان . هذه هى الصلاة التى جعلها الله من صفات من ينصرهم ويكونون خلفاءه فى الأرض وهو حين مناجاته يلهمهم الخيرات فيما بين الصلاة والصلاة وقوله (وآتوا الزكاة) ليكونوا عونا لأممهم ولايتقيدوا بالقيود الثقيلة المالية التى تقعد النفس عن أشرف الامور (وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فهم بعد أن كملت نفوسهم بالامور العلمية والروحية الدال عليها مناجاة الله فى الصلوات وبذلوا الأموال ليخلصوا الأنفس من شحها والعقول من عقالها ولينعموا على من حولهم أخذوا يكملون غيرهم كما كملوا هم فيفيضون على الناس من علومهم كالنهر يفيض بالماء وكالشمس تشرق على الآفاق ويمنعون المفاسد الناشئة فى الأمم لتزول من طريق كمالهم . هذه هى الصفات التى جعلها الله لمن تولى نصرهم وهذا هو الذى تمّ فعلا زمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم فقد قلبوا الأرض قلبا وزينوا وجهها بالعلم والعمل أيام الأمويين والعباسيين فنعم العلم ونعم العلماء ونعم الدين ونحن ان شاء الله سنخلفهم وستخلفهم أنت أيها الذكى فاذا كانوا قد زينوا آسيا وافريقيا و بعض أوروبا بالعلوم ثم خمدوا وركدت ريحهم وأخذت أوروبا علومهم وطردتهم من بلادهم فان الدور سيدور وسنأخذ دورنا فى الاصلاح وسنقيم الصلاة كما أقاموها ونؤتى الزكاة كما أدّوها ونملأ الأرض عدلا كما ملؤها ولانتكل على أحد فان الهداية ستعم ربوع الاسلام ويكون الناس اخوانا واياك أن تقول ان زمانه بعيد بل هذا هو زمانه والعلم هو المرشد الأمين ولابد أن يكون العلم هو أوّل السعادة وهو آخرها . فلتكن الهداية حالة فى سائر القلوب وليعم العلم الربوع وليلهج بجمال هذا الوجود الأطفال والنساء والصبيان والشيوخ الركع وليقم بالأمر القائمون ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ (ولله عاقبة الامور) فهى الى حكمته راجعة . ولما كان هذا القول ربما استبعدته العقول ونفرت منه النفوس أيام النبوّة قبل حصول النصر وهكذا أيضا الآن عند كتابة هذا التفسير فيقول المسلم ويك من أين لنا النصر وأكثر بلاد الاسلام فى يد الفرنجة وهم لنا غالبون . أقول على رسلك هكذا كانت بلاد العرب أيام نزول هذا القرآن فكانت بلاد العرب مرسحا للدولة الفارسية وللدولة القياصرة وكان لهم فيها نفوذ وأى نفوذ فلم يمنع ذلك من تحقيق هذا الوعد بعد نزول هذه الآيات . أقول لما كان الأمر كذلك وهذا يدعو قوما للتكذيب وآخرين للشك أردفه الله بقوله

(وان يكذّبوك فقد كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذّب موسى فأمليت للكافرين) أى أمهلتهم حتى مضى زمن آجالهم المقدّرة (ثم أخذتهم فكيف كان نكير) أى فكيف كان انكارى عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكا والعمارة خرابا . هذا ما قاله الله ونزل فى زمن لم يكن للمسلمين فيه نصر وقد ضرب لهم أمثال الأمم السالفة المذكورة فى سور تقدّمت . فهؤلاء الأنبياء مضت قصصهم فذكرهم لأن قصصهم معلوم للسامعين فلم يبق إلا الاعتبار بهم . أما نحن فى هذا التفسير فانا نقول اذا نصر الله المسلمين بالصفات الأربعة المذكورة فانه الآن أسرع الينا نصرا لأن العبرة عندنا بنفس المسلمين لأنه وعدهم ثم نصرهم كما قرأت الآن . فالمثال عندنا محسوس . فهم اعتبروا بعاد وثمود وأن أتباع الأنبياء نصروا وان غيرهم خذلوا وكانت أقرب أمة اليهم أمة اليهود فلذلك كثر ذكرها فى القرآن . أما نحن فأقرب الأمم الينا أمة الاسلام أسلافنا وأسلافنا توالت عليهم النعم أوّلا والنقم آخرا فهم فى القرون الأولى كانوا يعقلون فلما انقضى أجل النصر انقلبوا جاهلين لحق عليهم القول فى الهند فى الشام فى مصر فى شمال أفريقيا وهانحن الآن نعيد الكرة ونقول ان شاهدنا من نفس أمّتنا فليكن الله أسرع نصرا لنا لأننا لسنا مكذّبين ولكننا غافلون نائمون . فايقاظ الأمم أسهل من إحيائها وايقاظ أهل الكهف أسهل من إحياء الأموات . إن الله ضرب المثل لآبائنا بالأمم وضرب المثل لنا بآبائنا الأوّلين فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون . ثم أخذ يفصل ما أجمله من حال هذه الأمم مبينا مناظرها بعد هلاكها ليعتبر المسلمون وليزيلوا الظلم من الأمم شرقا وغربا فقال (فكأين من قرية أهلكناها) باهلاك أهلها (وهى ظالمة) أى أهلها (فهى خاوية على عروشها) ساقطة حيطانها على سقوفها بأن سقطت السقوف وخرّت من فوقها الحيطان أو خاوية خالية مطلة على عروشها التى سقطت بينها والحيطان مائلة مشرفة عليها (وبئر معطلة) أى وكم من بئر معطلة متروكة مخلاة عن أهلها كانت عامرة فى البوادى فهى اليوم متروكة لا يستقى منها لهلاكهم (وقصر مشيد) أى مرفوع أو مجصص أخليناه عن ساكنيه . ومن الآبار المذكورة والقصور بئر فى سفح جبل بحضرموت وقصر مشرف على قلته كانا لقوم حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوه أهلكهم الله تعالى وعطلهما وذلك أن أربعة آلاف نفر ممن آمن بصالح لما نجوا من العذاب أتوا حضرموت ومعهم صالح فمات فى حضرموت فبنوا مدينة حاضوراء وقعدوا على هذه البئر وأمروا عليهم رجلا منهم فأقاموا دهرا وتناسلوا حتى كثروا وعبدوا الأصنام وكفروا فأرسل لهم حنظلة المذكور وكان حمالا فقتلوه فى السوق فكان ماتقدّم * ويقال ان حضرموت سميت بذلك لموت صالح فيها لما استقرّ بها وكأين منصوب بمقدّر يفسره المذكور . ولما كانت أحوال الأمم مكشوفة فى خرائبها مسطرة فى قصورها المخرّبة وآبارها المعطلة وقراها المهدّمة والعقول لا تفهمها والناس لا تذكرها أردفه موبخا الأمم مقرعا لهم فقال (أفلم يسيروا فى الأرض) ليروا مصارع الجاهلين ومصير الظالمين (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) ماحلّ بتلك الأمم إذ نسيت عقولها فأهملتها وعاشت فى دعة فى قصورها فخربت عليها وأن سنة الوجود أن لا يقوم إلا بالعلم والعمل فأما الظلم فان مرتعه وخيم (أو آذان يسمعون بها) ما يتلى عليهم من الوحى الذى يحضهم على التشمير لدراسة حال الدول ونظام الأمم دارسها وقائمها غائبها وحاضرها حيها وميتها ليقتبسوا من الأحياء ويعتبروا بالأموات . فالوحى هذا دأبه وهذه وجهته فهلا سمعوه بآذانهم فقاموا بالأعمال حقّ القيام ولما كان الناس جميعا بأبصار وبآذان قال الله ليس كل مبصر مبصرا ولا كل حامل سيف بشجاع ولا كل راكب جواد بفارس أردفه بقوله (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) عن الاعتبار فالقلب قد يعقل وان عميت الأبصار ويعمى وان سلمت الأبصار . وذكر الصدر للتأكيد ونفى التجوّز وللتذكير بأن العمى الحقيقى ليس هو المتعارف (ويستعجلونك بالعذاب) المتوعد به استهزاء وقد شاهدوا الأمم الهالكة ولكنهم عمى عن الاعتبار بها (ولن يخلف الله وعده) فهو على صراط مستقيم ونظام ثابت فكما فعل فيمن

قبلكم يفعل فيكم (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدّون) لأن السنن واحدة فسيكون ماسيحل بكم مضاهيا لما حلّ بمن كان قبلكم . واذا قلتم قد طال العهد ولم يحل العذاب فأين العذاب فانّ الله حليم وألف سنة عنده كيوم عندكم بل ليس عند ربك صباح ولامساء بل الصباح والمساء تحت أمره وعلى ذلك ينفذ وعده بعد أمد طويل عندكم قريب عنده كما قال - إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا - لأن كل ماهو آت قريب وذلك اشارة لعذاب الآخرة فاذا تأخر عشرين ألف سنة مثلا فهي كعشرين يوما عندكم وهذا شئ قليل ولا يكون ذلك اخلافا للوعد . هكذا خراب الأمم فان الأمة العربية حلّ بها الانحلال بعد أزمان النبوّة بنحو ستمائة سنة فهو كنصف يوم ونصف اليوم شئ قليل جدّا . فالله تعالى يقول سنتي لابد من اتمامها ولابد من اهلاك الظالمين ولو بعد حين أمما وأفرادا فى الدنيا والآخرة أوأعذّبهم فى الآخرة فقط مع الأكدار فى الدنيا وهم لايشعرون ثم أتمّ ماذكره من عدم اخلاف الوعد وان طال الأمد فأبان انه كم من أمم أمهلت فطال عليها الأمد وهذا قوله (وكأين من قرية) وكم من أهل قرية (أمليت لها) أمهلتهم كما أمهلتكم (وهى ظالمة) مثلكم (ثم أخذتها) بالعذاب (والىّ المصير) والى حكمي يرجع الجميع

﴿ لطيفة لتبيان ماتقدّم ﴾

هل تحب أن تسمع أيها الذكى نفس هذا فى أممنا الاسلامية . انظر كيف قام أسلافنا بالعلم والحكمة واشتغل الخلفاء وأهل النظر من علماء المسلمين فى الشرق والغرب بالعلم وقد نقلوا العلم عن الأمم ومنهم اليونان وهناك أزهرت فى الشرق علوم هى الفلسفة العربية وهكذا امتدت الحكمة والعلم الى أوروبا فى دولة اسلامية هى الدولة العربية الأندلسية التى جمعت الحجازيين والعراقيين واليمنيين والمصريين وأمما أخرى واستمرّت على ذلك أمدا طويلا ونبغ من بينهم ابن رشد الفيلسوف المشهور فأهانه المسلمون وأذلوه وطردوه الى مراكش وشتتوا شمل تلاميذه وأكثرهم من اليهود وقد كانت للرجل فى العالم صولة فاقرأ كتابه أيها الذكي وانظر كيف يقول ان علم التوحيد اليوم بين المسلمين نظريات وقواعد أصعب جدا من معرفة الله وانما معرفة الله بما نشاهد من الطبيعة . وسرد على ذلك أدلة ومنها ماسيأتى فى سورة (النبأ) فذكر كيف جعل الله الأرض مهادا والجبال أوتادا . وبالجملة دعا فى مؤلفه الصغير الى ماندعو اليه الآن هو وأمثاله فى ذلك الوقت كأن الله يريد أن يجرى على سنته أى انه يعزّ قوما بعد ذلهم ويذل قوما بعد عزّهم على مقتضى سنة الوجود فلم يرض المسلمون هذا العالم ونفوه وشتتوا تلاميذه فذهبوا الى أوروبا وتركوا التكلم بالعربية ونقلوا علم ابن رشد الى العبرية ومن هؤلاء انتقل العلم الى أوروبا فان مؤلفات ابن رشد التى هى شروح على كتب (أرسطو) ترجمت الى اللغة اللاتينية ودرست بالجامعات الاوروبية وظلت الفلسفة العربية قائمة مقام كتب (أرسطاطاليس) فى البيآت الفلسفية الى آخر القرون الوسطى بل عاشت الى النصف الأوّل من القرن السابع عشر . قال (ڤولتير) ان اللاهوت المسيحى قد اتخذ (أرسطاطاليس) أستاذه الوحيد أما فى الجامعات فان العلوم حين بدأت تدب فيها الحياة فى آخر القرن السادس عشر لم يزد أهل العلم على أن رجعوا الى مبادئ (أرسطو) واتخذوها قاعدة لأعمالهم ثم زادوا عليها الى أن وصلت الى الحال العجيبة الآن ومازالت تدرس بالجامعات الاوروبية والأمريكية الى اليوم باللغات المختلفة

هذا مجمل العلم فى العالم الانسانى وأنت ترى من هذا أن ابن رشد فى الأمة الاسلامية كان السبب فى انتشار علم الفلسفة الى نصف القرن السابع عشر أى منذ قرنين ونصف تقريبا من تأليف هذا التفسير . فانظر يارعاك الله . انظر وتعجب من أمة طال الأمد عليها فقست قلوبها فطردت علماءها وعصت كبراءها . طلب القرآن البحث فى كل شئ ، فى البئر المعطلة وفى القصر المشيد . طلب السفر فى الأرض للنظر والاعتبار . وقد قال علماؤنا ان السفر ﴿ سفران ﴾ سفر جسمي يتبعه سفر عقلي فبعد أن يطوف الانسان الأرض ويشاهد مافيها

من عامر وخراب يرجع فيفكر ويجعل لذلك فكرة علمية ينفع بها الناس هذا هو القصد . فالسفر الجسمى أشارله بقوله ــ أفلم يسيروا ــ والسفرالعقلى أشارله بقوله ــ فتكون لهم قلوب يعقلون بها ــ ولكن المسلمين إذ ذاك كانت قد خضدت شوكتهم وآنت جهالتهم فاستمرؤا مرعى الجهالات وبغضوا العلماء

﴿ نظر المسلمين فى المستقبل ﴾

نظرالمسلمين فى المستقبل القريب سيكون فى ﴿أمرين﴾ فى أمرالأمم المعاصرة لنا والأمم الفانية الهالكة فاذا رأوا أمة العرب فى الأيام الأولى قد أهلكها التتار من ناحية المشرق لما استمرؤا مرعى الجهالة وأمم أوروبا من جهة الغرب فانهم ينظرون الى قصرالحمراء وقصورالخلفاء فى الأندلس وآثارهم المشهورة وأعمالهم العظيمة وينظرون الى آثارالفراعنة فى مصر وآثارالدولة العباسية فى العراق والأموية فى الشام ليرجعوا المجدالذى فقدوه وليدرسوا العلم الذى هجروه . هذا من جهة . ومن ﴿جهة أخرى﴾ يدرسون أمم أوروبا وأمم أمريكا وأمم اليابان ويكوّنون من هذا كله دروسانافعة ويكونون لهم دروس من ذلك فى نظام مدنهم وحياتهم ويعتبرون بما ولده الجهل من هلاك أهل استراليا وأهل أمريكا الأصليين وقصورهم المشيدة المهدّمة وآبارهم المعطلة . ولقد وجدوا فى أمريكا اهراما كاهرام مصر . ولقد قرأت فى الجرائد العربية منذ ١٥ سنة أنهم كشفوا هناك مدينة قديمة تحت الردم وتلك المدينة مسورة بسور من حجر شكله على شكل ثعبان عظيم

هذا هوالنظراللائق بالمسلمين الذى يدعواليه القرآن . فليقرأ المسلمون آيات الله فى الشرق والغرب وانما القرآن مرآة تريك أعمال الأمم . فاذا قال الله سيروا فى الأرض فانظروا فهذا هو المقصود من السفر ومن النظر ثم قوله ــ وهى ظالمة ــ اشارة الى ظلم الجهل وظلم الأحكام والاغارة على الناس وغير ذلك فليس الظلم خاصا بالمعاصى بل ان تعطيل الأرض والقعود عما فيها من الثمرات وعما فى باطنها من المعادن وأمثال ذلك أيضا من الظلم . واذا كان فى الأرض منافع وليس لنا فيها فائدة فلنأذن لمن يهمهم أمرها باستخراجها لمنفعة الناس ونشاركهم فى الثمرات

﴿ علوم الحكمة أيضا فى الأمم ﴾

وقد أصاب اليونان قبل العرب ما أصاب العرب فى العلم فأوّل مانعق ناعق الخراب بديارهم كان بالتبرّم من فلسفة (أرسطو) فأعقب ذلك قانون صدر بنفى الفلاسفة جميعا سنة ٣١٦ ق م ثم عفت آثارالفلسفة من اليونان كلها ففقدوا استقلالهم باستيلاء الرومان عليهم فهذا يماثل ماحلّ بأمة العرب بعدذلك بنحو ١٥٠٠ سنة فان الفلسفة والعلم والحكمة طردت من بلادهم وأصبحت ديارهم مأوى للأجانب يقيمون فيها وهم ظالمون ولاقاعدة لاستقلال البلاد سوى علوم وحكمة ونظر وهل هذا سوى قوله تعالى ــ أفلم يسيروا فى الأرض ــ الخ وهل التعقل شئ سوى علوم الحكمة والفلسفة . إن هـذا الدين دين الفلسفة والحكمة . ولما جهل بعض الناس العلوم الحكمية أبعدها عن القرآن فحقّ القول على أكثرهم لأنهم لايعلمون . وقدتقدّم ملخص رقى العلم وانحطاطه فى الاسلام عند قوله تعالى ــ تجعلونه قراطيس ــ الخ فى سورة الأنعام . تمّ الكلام على اللطيفة التى أردناها فلنشرع فى تفسير بقية القسم (قل ياأيها الناس إنما أنا لكم نذيرمبين) أى أوضح لكم ما أنذركم به (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم) فى الجنة (والذين سعوا فى آياتنامعاجزين) مسابقين مشاقين للساعين فى نشرها والمعاجزة مغالبة تقول عاجزه فأعجزه وعجزه اذا سابقه فسبقه فى التعجيز لأن كلا منهما يطلب اعجاز الآخر عن اللحوق به (أولئك أصحاب الجحيم) النار الموقدة . ولما كان أولئك الساعون فى المعاجزة يكذّبون بالدين إما عنادا واما جهلا لشبهات طرأت عليهم وأمور فى الدين جعلتهم يشكون فيه فأخذوا يبنون على ذلك الشك أقوالهم ومساعيهم للحط من قيمة الدين أفاد سبحانه أن ذلك هوديدن الدنيا ومايبزل فيها من العلوم والديانات فقال (وماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) فالرسول من جاء بشرع جديد

والنبى

والنبي يعم ذلك و يعم من جاء لتقرير شرع سابق كأنبياء بنى اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام ومثلهم علماء الاسلام فهم كهؤلاء الأنبياء فكل عالم مفكر فى الاسلام فهو كنبى لهذه الأمة * ولقد قيل ان النبي ﷺ قال « ان الأنبياء ١٢٤ ألفا وأن الرسل ٣١٣ » وقوله (إلا اذا تمنى) أى قرأ كما قال حسان ابن ثابت فى عثمان حين قتل

تمنى كتاب الله أوّل ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر

وقوله (ألقى الشيطان فى أمنيته) أى ألقى الشيطان على سامعيه ومتبعى دينه الشبهات فى معانى قراءته فيقول قوم انه سحر وقوم انه كهانة وهكذا . ويقول آخرون بعد عهد النبوّة إن هذا الدين لا يصلح للعلوم وانما هو للعبادات وقارئ العلوم رجل طبيعى وهكذا . أو يقول قوم ان محمدا ﷺ يعلمه بعض الناس وذلك قول الذين كانوا فى زمانه ﷺ (فينسخ الله مايلقى الشيطان) بأن يقيض للأمة من يزيل الخرافات أو الأحاديث المكذوبة ومن ذلك أن هذه الآية نفسها قد جاء فيها أحاديث لم ترد فى كتاب من الكتب الصحيحة كالموطأ لمالك وصحيحى البخارى ومسلم وجامع الترمذى والسنن لأبى داود والنسائى فهذه الكتب الستة لم يرد فيها هذا الحديث الآتى الذى شغل المفسرين وجعل لهذه الآية معنى غير ما كتبناه فان كتاب ﴿ تيسير الوصول لجامع الاصول ﴾ الذى جمع مافى هذه الكتب الستة لم يذكر هذا الحديث فى تفسير هذه السورة . فإذن هو حديث ليس مما يستحق أن يذكر فضلا عن أن يرد عليه أو يجاب عنه وهو أن الشيطان وسوس الى النبي ﷺ عندما قرأ قوله تعالى ــ ومناة الثالثة الأخرى ــ فجرى على لسانه أن قال ﴿تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى﴾ ثم نبهه جبريل بعد ذلك فاغتمّ فعزاه الله بهذه الآية وهذا كذب صراح . وفى هذه الكلمة لفظ الغرانيق عبارة عن الأصنام شبهت ببعض طيور الماء (ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) ثم قال الله تعالى مبينا سبب تمكين الشيطان من إلقاء الشبهات (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) شك (والقاسية قلوبهم) المشركين (وان الظالمين) أى الفريقين (لفى شقاق بعيد) عن الحق (وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به) بالقرآن (فتخبت له قلوبهم) بالانقياد والخشية (وانّ الله لهاد الذين آمنوا) فيما أشكل عليهم (الى صراط مستقيم) وهو النظر الصحيح الموصل الى الحق (ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه) أى فى شك مما ألقى الشيطان فى قلوبهم عند قراءة القرآن عليهم (حتى تأتيهم الساعة) القيامة أو أشراطها أو الموت لأنه القيامة الصغرى أو الساعة الصغرى (بغتة) فجأة (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر وهو يوم عقيم لا خير فيه ولا ريح (الملك يومئذ لله) أى يوم القيامة (يحكم بينهم) بالمجازاة للكافرين والمؤمنين (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم * والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين * والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا) فى الجهاد (أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا) الجنة ونعيمها (وان الله لهو خير الرازقين) فانه يرزق بغير حساب (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) وهو الجنة (وان الله لعليم) بأحوالهم (حليم) لا يعجل بالعقوبة

﴿ فصل فى تفصيل الكلام على قوله تعالى ــ إلا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ــ ﴾

اعلم أن الله عزّ وجل جعل نظامه فى الدين كنظامه البديع فى الطبيعة . تأمّل فيما فعله الله فى الحقول وانظر . ألست ترى انه خلق القمح والذّرة والقطن وسائر النباتات التى يحتاج اليها الناس ومع ذلك تراه خلق بجانبها نباتات أخرى تخلق فى الأرض معها وتقتات من الأرض فترى الحشائش مخضرة مع الذّرة ومع القطن ومع سائر البقول والأشجار وترى أن الفلاح لا ينام ولا يسكن حتى يزيل تلك الحشائش فيتوفر الغذاء لنفس الشجر ولنفس النبات . هذا هو الأمر الذى حصل فى نفس القرآن . ترى أن الله أنزل القرآن فيقرؤه الرسول وترى أن العرب قالوا ساحر كاهن وهكذا فاستبان الحق وجاءت غزوة بدر ونصر الله المسلمين مصداقا لمثات

الآيات التي يقول فيها انه منصور . هكذا في زماننا ترى أمم أوروبا ترسل جيوشا من القسيسين يفتحون المدارس في الشرق وقد طردوهم من بلادهم لاضرارهم بسياساتهم فيقولون للمسلمين ان دينكم مملوء ومحشو بالخرافات والأكاذيب فيشككون المسلمين في الدين . وترى المسلمين أنفسهم دخل عليهم الغش والخداع من جهلة الوعاظ وصغار العلماء ان هذا الدين لا يعيش مع العلوم فجعلوه دين خمول . وكما نسخ الله وساوس الشيطان أيام النبوة هاهوذا ينسخها اليوم بالعلم والعمل . أما العلم فانظر فيما يكتبه المسلمون اليوم في أقطار الأرض وانظر في هذا التفسير ألست تجد أن هـذا الدين هو دين المدنية العالية . أفليس هذا ناسخا لما ألقاه الشيطان في القلوب . وأما العمل فتعجب كيف ألهم أمة الترك أيام هذا التفسير أن تطرد القسيسين من بلادها مع أنها أعلنت أن صبغة حكومتها ليست دينية بل هي صبغة دنيوية . أليس هذا نسخا لما ألقاه الشيطان على ألسنة القسيسين من أن هذا الدين دين تأخر ثم هم يعلنون دياناتهم في بلاد الاسلام . أولست ترى أن هـذا معجزة ومصداق لهذا الوعد . ألم تر أن الله نسخ ما ألقى الشيطان . نعم ان الله نسخه وسينسخه أكثر . فلتقم أيها الذكي بنشر أمثال هـذه المسائل بين الأمة المسكينة . هذا والله من معجزات القرآن . هاهوذا نسخ ما ألقى الشيطان في العقول لما تقهقرت الأمم الاسلامية وأصبح كل من ارتقى منصبا في أمم الشرق من المسلمين انما يكون من المتعلمين في مدارس المسيحيين الذين جعلهم الله فتنة واختبارا لعقول الأمة ـ ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ـ

إن حشائش الوساوس الشيطانية حول المعاني القرآنيـة في العقول الاسلامية أخذت تحصـدها مناجل البراهين في أمثال هـذا التفسير ويزيلها من أرض الاسـلام أمثال الترك والأفغان ـ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ـ

﴿ جوهرة في ايضاح تفسير قوله تعالى ـ وما أرسلنا من قبلك من رسول ـ الخ ﴾

وذلك فيما أورده السيد أحمد بن المبارك مؤلف كتاب ﴿ الابريز ﴾ ذلك العالم المحقق المطلع على كتب الدين وعلى كتب الحكمة المعروفة في بلاد الاسلام منذ قرنين من الزمان إذ سأل الشيخ عبـد العزيز الدباغ ذلك الرجل الأمي الذي كان يسمع (بضم الياء) ذلك العالم من العلم ما يجهله جميع علماء الاسـلام قاطبة فقد سأله ابن المبارك المذكور عن مسألة الغرانيق وقال له هل الصواب مع عياض ومن تبعه في نفيها أو مع الحافظ ابن حجر فانه أثبتها وقال بعد أن ذكر أسانيده عن سعيد بن جبير قال قرأ رسول الله ﷺ ـ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى ـ فألقى الشيطان على لسانه ﴿ تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى ﴾ فقال المشركون ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا . قال ثم ذكر تخريج البزار في القصة وكلامه عليها وما يتبع ذلك واعترض على أبي بكر بن العربي الذي رد هذه الرواية وعلى عياض كذلك إذ جعل روايات الحديث مضطربة ضعيفة . ثم قال أحمد بن المبارك المذكور للشيخ الدباغ بعد ذلك فما هو الصحيح عندكم في هذا وما الذي نأخذه عنكم فقال رضي الله عنه الصواب في القصة مع ابن العربي وعياض ومن وافقهما لا مع ابن حجر وما وقع للنبي ﷺ شئ من مسألة الغرانيق واني لأعجب أحيانا من كلام بعض العلماء كهذا الكلام الصادر من ابن حجر ومن وافقه فانه لو وقع شئ من ذلك للنبي ﷺ لارتفعت الثقة بالشريعة وبطل حكم العصمة وصار الرسول كغيره من آحاد الناس حيث كان للشيطان سلاطة عليـه وعلى كلامه حتى يزيد فيـه ما لا يريده الرسول ﷺ ولا يحبه ولا يرضاه فأي ثقة تبقى في الرسالة مع هذا الأمر العظيم ولا يغني في الجواب أن الله ينسخ ما يلقي الشيطان ويحكم آياته لاحتمال أن يكون هذا الكلام من الشيطان أيضا لأنه كما جاز أن يتسلط على الوحي في مسألة الغرانيق بالزيادة كذلك يجوز أن يتسلط على الوحي بزيادة هـذه الآية برمتها فيه وحينئذ يتطرق الشك الى جميع آيات القرآن والواجب على المؤمن الاعراض عن مثل هذه الأحاديث الموجبة لمثل هذا الريب

في

فى الدين وأن يضربوا بوجهها عرض الحائط وأن يعتقدوا فى الرسول ﷺ مايجب له من كمال العصمة وارتفاع درجته ﷺ الى غاية ليس فوقها غاية ثم على ماذكروه فى تفسير قوله تعالى ـ وماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ـ الآية يقتضى أن يكون للشيطان تسلط على وحى كل رسول مرسول وكل نبى منبى زيادة على تسليطه على القرآن العزيز لقوله تعالى ـ من رسول ولا نبى إلا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ـ فاقتضت الآية على تفسيرهم أن هذه عادة الشيطان مع أنبياء الله وصفوته من خلقه ولا ريب فى بطلان ذلك

هذا ما قاله الشيخ عبد العزيز الدباغ . ثم قال الشيخ أحمد بن المبارك بعد ذلك ﴿ ما أدق نظر الشيخ (يريد الشيخ عبدالعزيز) مع كونه أميا ﴾ ثم أورد كلام البيضاوى الذى يفيد مايقرب من المعنى المتقدم ثم قال ابن المبارك أيضا ﴿ ان العصمة من العقائد هى التى يطلب فيها اليقين . وقد عدّ الأصوليون الخبر الذى يكون على تلك الصفة من الخبر الذى يجب القطع بكذبه ﴾ وردّ على ابن حجر الذى يدعى صحة الحديث بأن ذلك فى الامور العملية التى يكفى فيها الظنّ من الحلال والحرام . أما الامور العلمية الاعتقادية فلايفيد خبر الواحد فى ثبوتها فكيف يفيد فى نفيها وهدمها . ثم قال ابن المبارك المذكور ﴿ ثم قلت للشيخ رحمه الله ما الصحيح عندكم فى تفسير قوله تعالى ـ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ـ وماهو نورالآية الذى تشير اليه فقال رضى الله عنه نورها الذى تشير اليه هو أن الله تعالى ما أرسل من رسول ولا بعث نبيا من الأنبياء الى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الايمان لأمته ويحبه لهم ويرغب فيه ويحرص عليه غاية الحرص ويعالجهم عليه أشدّ المعالجة ومن جملتهم فى ذلك نبينا محمد ﷺ الذى قال له الرّب سبحانه وتعالى ـ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ـ وقال تعالى أيضا ـ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ـ وقال ـ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ـ الى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى ثم الأمة تختلف كما قال الله تعالى ـ ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ـ فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوساوس القادحة له فى الرسالة الموجبة لكفره وكذا المؤمن أيضا لايخلو من وساويس لأنها لازمة للايمان بالغيب فى الغالب وان كانت تختلف فى الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات . اذا تقرّر هذا فمعنى تمنى انه يتمنى الايمان لأمته ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح . فهذه أمنية كل رسول وكل نبى وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه فى قلوب أمة الدعوة من الوساويس الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك الله عزّوجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به نخرج من هذا أن الوساويس تلقى أوّلا فى قلوب الفريقين معا غير انها لاتدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين ﴾

وبعد ماذكر هذا الشيخ ابن المبارك عن الشيخ الدباغ قال ان هذا التفسير من أبدع مايسمع وأخذ يورد الطرق التى فسرت بها فوجدها كلها ضعيفة أومخالفة للعقيدة . ولما كتبت هذا واطلع عليه أحد الاخوان الفضلاء قال إن هذا الشيخ قد نقلت أنت عنه فى (سورة الكهف) عجائب عن العلم لم نسمعها من أكثر العلماء إذ قال هناك ﴿ ان المسلم يعبد الله لذاته بدون نظر الى جزاء فى الدنيا ولافى الآخرة وهذا مقام عال جدا ﴾ فهل تسمعنا شيأ من تفسيره لبعض الأحاديث حتى نرى وجهته . فقلت نحن الآن فى تفسير القرآن . فقال هذه مسألة عجيبة رجل أمى يفسر القرآن ويعترض على رجال الحديث ولاتعجبه آراء ابن حجر ويصوّب كلام عياض ثم بعد البحث يرى الشيخ ابن المبارك العالم العظيم أن هذا حق من حيث الحديث ومن حيث علم مصطلح الحديث ومن حيث علم الاصول ومن حيث المنطق . فرجل مثل هذا نريد أن نشم رائحة تفسيره لأى حديث من الأحاديث أو بعض آيات أخرى . فقلت له . لقد سأله الشيخ ابن المبارك عن قوله ﷺ ﴿ ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ﴾ فأجابه الشيخ الدباغ بجواب استغرق ما كتبه منه ٤٠ صفحة فى

النسخة المطبوعة وجمع فيها مابين القراآت المشهورة ومابين الأخلاق النفسية . وهنا زاد عجبي حين قرأت هذه المعاني التي ذكرها الشيخ الدباغ فانها ترجع الى علم النفس وتنتهي الى اسعادها اسعادا تاما بحيث يصبح الانسان وهو في هذه الدنيا كأنه في أعلى عليين في الجنة . فهذه المعاني التي ذكرها ذلك الشيخ الأمي لو اتصف بها انسان أصبح كأنه روح طاهرة سعيدة في الدنيا قبل الآخرة . فقال صاحبي فأرجو ذكر بعض هذه المعاني التي ذكرها . فقلت ذكر في معنى نزول القرآن على سبعة أحرف ﴿ سبعة أصناف ﴾ من العلم وهي

(١) الآيات الآمرة بالصبر والدالة على الحق والمزهدة في الدنيا

(٢) الآيات الدالة على الدار الآخرة

(٣) النور الذي وضعه الله في بني آدم وأقدرهم به على الكلام وخص النبي ﷺ بخصائص فيه

(٤) الآيات المتعلقة بصفات الله تعالى

(٥) الآيات الدالة على أحوال الخلق الماضين وهي القصص

(٦) الآيات التي فيها الكلام على الكفار

(٧) الآيات التي ذكر الله فيها نعمه الفائضة على خلقه

وسمى هذه السبعة هكذا بالترتيب (حرف النبوة . وحرف الرسالة . وحرف الآدمية . وحرف الروح . وحرف العلم . وحرف القبض . وحرف البسط)

فقال صاحبي هذه أشياء لافائدة منها فأين العجائب التي فيها وأين البواطن . الرجل قسم القرآن أقساما وجعل لكل قسم اسما صفات الله وأخبار الماضين وهكذا . أعطى كل واحد منها اسما وكفى فأين الأسرار وماهذه إلا أشياء مكررة لما عرفه الناس في القرآن فما هذا الذي تذكر انه يأتي بغرائب . فقلت أنا ذكرت لك انه أتى بالمعنى في ٤٠ صفحة فهل هذه الكلمات هي كل ما قاله . فقال ما الذي أدهشك من كلامه . فقلت الذي أدهشني من كلامه انه دخل من هذه الاصول السبعة الى غوامض النفس الانسانية . فقال أريد أن تذكر نبذة منها . فقلت قد قسم كل واحد من هذه السبعة الى سبعة أخرى فجعلها (٤٩) * مثلا تجده في البسط الذي جعله دالا على ذكر نعم الله على عباده فيما تقدم قد قسمه الى ﴿ سبعة أقسام ﴾ فالأول منها الفرح الكامل وهو نور في الباطن ينفي عن صاحبه الحقد والحسد والكبر والبخل والعداوة مع الناس لأن هذه الأوصاف ونحوها منافية للفرح واذا وجد نور الايمان مع هذا الفرح في الذات نزل عليه نزول مجانسة وموافقة وتمكن من الذات على ما ينبغي وكان بمثابة المطر النازل على الأرض الطيبة فتتولد من ذلك أخلاق طيبة ﴿ والثاني ﴾ منها سكون الخير في الذات دون الشر وهو نور يوجب لصاحبه أن يكون الخير سجية له وطبيعة فترى صاحبه يحب الخير و يحب أهله ولايجول فكره إلا في الامور الموصلة اليه ومن فعل معه خيرا لاينساه أبدا وأما من فعل معه سوأ ووصله بأذية فان مضى وقته ينساه ولايبقى في فكره حتى انك اذا اختبرته بعد ذلك وجدت قلبه فارغا من ذلك وهو مطمئن مستبشر بمثابة من لم يقع له شئ يؤذيه فهذا من كمال البسط ﴿الثالث﴾ منها فتح الحواس الظاهرة وهو عبارة عن لذة تحصل في الحواس الظاهرة وذلك بفتح العروق التي فيها فتتكيف تلك العروق بما أدركته الحواس و بهذه اللذة يكمل البسط . ففي البصر لذة بها يحصل الميل الى الصور الحسنة وفي السمع لذة بها يحصل الخضوع عند سماع الأصوات الحسنة والنغمات الشجية وهكذا بقية الحواس . ففي كل حاسة لذة زائدة عن مطلق الادراك والفرق بين فتح الحواس الظاهرة الذي هو من أجزاء البسط و بين كمال الحواس الذي هو من أجزاء الآدمية التي هي أحد الأحرف السبعة المتقدمة أن فتح الحواس يزيد على كمالها بفتح العروق السابقة فان فتح العروق زائد على الادراك الذي في كمال الحواس و بذلك الفتح الحاصل في العروق والتكيف الجاذب لصاحبه يقع الانقطاع الى المدرك فترى صاحبه ينقطع مع كل نظرة الى كل مايراه

وقد تحصل له غيبة خفيفة مع ذلك الانقطاع بخلاف مطلق الادراك فانه لايحصل معه هذا الانقطاع . وكم من شخص يرى أمورا حسنة ولايتأثر بها . وكم من آخر يسمع أصواتا حسنة ولاتقع منه على بال . وبهذا الفتح والتكييف يحصل كمال البسط . انتهى ما أردت منه

فقال صاحبي ولماذا اقتصرت في الاختيار على هذه المسائل الثلاث دون باقيها البالغة (٤٩) مسألة مكتوبة في (٤٠) صفحة وهل من هذا دهشك . فقلت نعم . قال ولماذا . قلت لأنها تناسب آية ــ وما أرسلنا من قبلك من رسول ــ الخ وتناسب هذا التفسير عموما . قال فأوضح لي ماقلت . فقلت إن هذا التفسير قد شرح الله صدري فيه الى جمال هذا العالم ونظامه وبهائه وحسنه ولولا انشراح صدري ما أمكنني أن أكتب مما كتبت حرفا واحدا . ألاترى أن عجائب هذه الدنيا وبدائعها ومحاسن النجم والشمس والقمر والنهر والجبل والشجر والزهر مبذولة كلها لكل انسان وحيوان ولكن ادراك بني آدم أكثرهم لهذا الجمال وادراك الحيوان ليس يعطيهم لذة بل أكثر الناس وجميع الحيوان يدركون هذا الجمال ولكنهم لايحسون بالجمال فيما يشاهدون والمختص بادراك هذا الجمال طوائف اختصهم الله بذلك فطروا على هذا الذوق والاحساس بالجمال . وبهذا الاحساس بالجمال يثبت الايمان الناشئ من الاطلاع على العجائب في العالم وهؤلاء هم الذين نسخ الله ما ألقى الشيطان في قلوبهم كما تقدم في قوله تعالى ــ وما أرسلنا من قبلك من رسول ــ الخ . أليس هذا هو الأمر الثالث في مقام البسط الذي هو من الأحرف السبعة التي أنزل لها القرآن . إن هذا المعنى الدقيق والفكرة التي لاتخطر ببال أكثر الناس قد أوضحه هذا الأمي لنا ايضاحا شفى الصدور وهو عجيب جدا . هو أمر حاضر عند النفوس ولكنها لاتعبر عنه فعبر عنه هذا الأمي الذي فتح الله عليه وهذا الجمال وادراكه هو الذي قاله علماء التربية . إن علامة النبوغ انما هو الاعجاب فاذا رأينا صبيا مغرما بالمشاهد العجيبة فهذا الغرام دليل على رقيه وقبوله للعلم وعلى قدر جمود العقل عن ادراك الجمال وذوقه يكون ضعف ذلك المدرك . أفلا تعجب أن يكون تعبير هذا الصالح أعجب مايصفه الواصفون في هذا المقام ثم ان كل ماجاء في هذا التفسير وغيره من جمال هذه الدنيا مهما أطر بنا حين قراءته ومهما أدهشنا جماله . أفليس مقصود ذلك كله اسعاد النفس وحليتها بالعلم والحكمة أولا والعمل بما يمكن العمل فيه ثانيا . قال بلى . قلت فاذا كانت النفس مشغولة بالحسد بحيث يحل في القلب الحزن لما يرى من نعمة أسبغها الله على أحد أقاربه أو أصحابه مثلا أو كانت مغتاظة حاقدة على من أساء اليها . أفليس ذلك الحقد وذلك الحسد ينغصان على النفس حياتها ويحجبانها عن الاقتداء بما انطوت عليه جوانحها من الصور العلمية الجميلة التي أدركت جمالها وأحست ببهائها وكيف ينسخ الله مايلقي الشيطان من قلب معمور بالرذائل والعداوات والوساوس . إن النور والظلام لايجتمعان وأي سعادة أعظم من سعادة امرئ أصبحت نفسه مشرقة بهجة بهية في نفسها ثم ازينت بالصور العلمية ــ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ــ فأنا أيها الأخ اخترت هذه المسائل الثلاث لهذه الحكم . ثم قلت . إذن هذا الصالح الأمي يريد بأحرف القرآن في النهاية أن تكون الروح خالصة من الشوائب بحيث تكون قريبة من ربها والقرب كل القرب انما يكون بأمثال هذه الصفات . فما التوراة ولا الانجيل ولا الزبور ولا الفرقان ولا كتب الحكمة اليونانية والرومانية والاسلامية والاوروبية إلا طرق لاسعاد النفس وأجل سعادة لها أن تكون هذه بعض صفاتها وأن الذي نكتبه في هذا التفسير مما يفتح أبواب السعادة لها وسيأتي بعدنا أناس يشرحون هذه المعاني إذ تكون الأمة قد استعدت لها والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبي . أما ماذكرته فحسن جدا لأنك ربطت الكلام الذي استطردت به في حديث نزول القرآن على سبعة أحرف بالمعاني التي في آية الغرانيق حتى لايتوهم القارئ انه ابتعد عن الموضوع ولكن أين الثريا وأين الثرى فأين سبعة الأحرف التي جعلها معاني وأذواقا وأخلاقا شريفة وسبعة الأحرف اللفظية . ان هذا

الكلام بعيد عن ظاهر الحديث . فقلت إن هذا قاله نفس الشيخ ابن المبارك للشيخ عبدالعزيز إذ قال له مانصه «إن المراد بالأحرف السبعة مارجع الى كيفية النطق بألفاظ القرآن كقول عمر رضى الله عنه « سمعت هشام بن حكيم يقرأ القرآن على حروف لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فقال رسول الله مصوّبا لكل من حروف عمر وحروف هشام إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ماتيسر منه وهذه الأحرف التى ذكرتم أوصاف باطنية وأنوار ربانية فى ذاته ﷺ لايمكن أن يختلف عمر وهشام فيها حتى يجيبهما رسول الله ﷺ بأن القرآن أنزل عليهما » فقال رضى الله عنه اختلاف التلفظات التى فى أحاديث الباب فرع عن اختلاف الأنوار الباطنية فتسكين الحروف ورفعها ينشأ عن القبض والنصب ينشأ عن حروف الرسالة والخفض ينشأ عن حروف الآدمية ولكل آية فتح خاص وذوق معلوم . فلما سمعت هذا الكلام المنوّر بادرت فقرأت عليه الفاتحة وصدرا من سورة البقرة فسمعت منه فى بيان ذلك التفريع مايبهرنى ثم أعدت القراءة وقرأت بسبع روايات قراءة نافع وابن كثير وأبى عمرو بن العلاء البصرى وأبى عامر وعاصم وحمزة والكسائى فسمعت فى ذلك العجب العجاب ورأيت القراآت السبع تختلف باختلاف الأنوار الباطنية فظهر لى والحمد لله وله المنة ماكنت أطلبه منذ نيف وعشرين سنة فى معنى الحديث وقد طلبه قبلى الحافظ ابن الجوزى نيفا وثلاثين سنة فظهر له وجه فى معنى الحديث ثم ذكر انه وقف عليه لغيره ولكنه قاصر على التلفظات واختلافها فذلك الوجه وغيره مما قيل فى الحديث (انما تعلقوا فيه بظل الشجرة الخ) وقال الشيخ ابن المبارك قبل ذلك «إن جلال الدين السيوطى نوّع الأقوال فيه الى أربعين قولا ومع وقوفى على كل ذلك لم يحصل عندى ظنّ بمراده ﷺ بل بقيت على الشكّ حتى عرفت الحقيقة من شيخنا ذلك الأمى » انتهى ملخصا

فلما سمع صاحبى ذلك قال إذن الشيخ الدباغ ربط ظواهر الألفاظ ببواطن الأنوار واختلاف العلماء رجع الى الألفاظ مع الجهل بتلك الأنوار . قلت نعم . قال عجبا . كيف يكون فى العالم عقول ونفوس مشرقة الى هذا الحد . أليست هذه النفوس أرقى من نفوسنا نحن . فقلت نعم ان هذه النفوس التى تتصف بالصفات التى ذكرها الشيخ الدباغ عجيبة فهى صفاء لاكدر معه وعلم لاجهل معه ونور لاظلمة معه . واذا كانت نفس الشيخ الدباغ على هذا النمط فهى من عالم أسمى من مستوانا الذى نعيش فيه . واعجب لما ذكره هو ونقلته فى سورة (الكهف) من وصفه لطبقات الصوفية فى الأمم الاسلامية وشرحه مسألة ذكر الأسماء والأوراد وأن أكثر هؤلاء لاينالون من الفتوح قليلا ولا كثيرا وشرح طرق الصوفية فى أدوارها الثلاثة وكيف يقول هناك «إن أكثرهم طلاب دنيا لاطلاب آخرة » . فقال وما الحكمة فى ظهور أمثال هؤلاء فى أمة الاسلام . قلت يظهر لى أن هؤلاء يخلقون فى الأرض لامور منها

(١) ان الانسان اذا فتح الله عليه بشئ فألف فى العلوم يعلم أن علمه بالنسبة لغيره كالعدم وأن هذه الظواهر ليست شيأ بالنسبة للحقائق

(٢) ومنها أن المسلمين اليوم أصبحوا أجهل الأمم بسبب الشيوخ الجهلاء الذين يوهمونهم أنهم عندهم علوم مكتومة عندهم فيقال لهم أيها الشيوخ الجهلاء انظروا لهذا الشيخ هل أفضتم علوما على تلاميذكم كعلوم هذا الشيخ الأمى مع أنكم تجهلون ظواهر القرآن والعلوم . إذن هذه الدعاوى كاذبة . ولقد أحسن مصطفى كمال باشا فى اخراجه أولئك الشيوخ من زواياهم وجعلهم مع الناس يعملون كما يعملون لأنهم لم يفيدوا الأمة شيأ

(٣) أن يجدّ العلماء فى العلم لأنه لاساحل له واذا جهل علماء الاسلام ظواهر العلوم فكيف يصلون لبواطنها فعليهم أن يقرؤا سائر العلوم والله هو الذى يصطفى للحقائق من يشاء

(٤) ان هذا الشيخ قد اطلع على بعض العلوم قبل ظهورها كما سيأتى فى سورة (النور) فسأنقل عنه هناك انه رأى جبال الثلج فى الجوّ مريدا بذلك تفسير قوله تعالى — وينزل من السماء من جبال فيها من برد —

فقال

فقال انى شاهدت جبال الثلج فى الجو والبرد يصنع من ذلك الثلج بفعل الله تعالى وهذا حقا قد كشف بالطيارات فى عصرنا الحاضر وستراه مرسوما فهذا عجب بل معجزة للقرآن فكيف ينزل القرآن بذلك ولم يكن معلوما ثم كيف يأتى رجل أمى فيخبر به قبل حصوله والمسلمون وأهل أوروبا جميعا كانوا يجهلون ذلك ثم يظهر فى هذه الأيام فقط وقد رسم فعلا . أفليس هذا عجبا وهذا فى زماننا ليس بدعا فاذا اطلعت على كتابى المسمى (الأرواح) رأيت عجبا فان الصبى الجاهل وقت التنويم ينطق بما يجهله أكبر فيلسوف فى أرضنا . وهذه (لورا) بنت الحاكم الأمريكى نطقت بعشر لغات لم تكن لتعرفها من قبل . ولقد تقدّم بعض هذه المسائل فى هذا التفسير كالذى جاء فى سورة البقرة عند مسألة السحر وبابل وهاروت وماروت وفى مواضع أخرى فيها وفى غيرها

(٥) ان ذلك يوجب على المسلمين أن يكونوا أعلم الأمم بهذه العلوم الجوّية والسماوية والأرضية

(٦) ان هذه تحلّ لنا مشاكل كثيرة فان العقلاء فى هذه الأرض يدهشون إذ يرون كواكب مشرقة وأنوارا متلألئة وحسابا منظما وسحابا ماطرا وأنهارا وجبالا وحيوانا وجمادا ونباتا . فهل كل ذلك لأجل خدمة هذا الانسان فى الشرق والغرب ونفوسهم على ماهى عليه من الضعف والجهل والحقد والحسد . ووجه الحل أن يقال ان هناك أرواحا عالية أرقى من هذه وأن هذه الأرواح الأرضية الانسانية اليوم لاتزال فى حال الطفولة ولاضير فى ذلك فالرجل العاقل والحكيم الفيلسوف يربون الصبيان الذين لايدركون إلا قليلا . إذن نفوسنا فى هذه الأرض اليوم تربى بالنعم والنقم والبأساء والضراء وهى تتخبط حتى تموت وترتقى فى عوالم حتى تصير فى عالم أعلى وهى فيه متحدة مع اختلافها أشبه باتحاد أضواء الشمس السبعة مع اختلافها فان الزرقة تخالف الحمرة وهى معها متحدة اتحادا تاما وهذه الألوان اجتمعت واتحدت لرقى العوالم الأرضية . فإذن تزول الحيرة من نفوسنا أوتقل فى هذا النوع الانسانى المصنوع أبدع صنع ثم هو فى الرذائل مدفون . فاننا نقول اذا كنا نحن الآن على هذه الحال فلاعجب فنحن يربينا الله و يعطينا من العلم والأخلاق على مقدار طاقتنا و به نفهم قوله تعالى ــ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين ــ فالأرواح فى أحسن تقويم على حسب جبلاتها كما ظهر من أحوال وأقوال (الشيخ الدباغ) فهو يصف لنا صفاء النفوس وجمالها و بهاءها ولعله من الأرواح العالية التى أنزلها الله من عالم الأرواح لتعطينا حكمة وعلما وليست من درجتنا ولامن جبلتنا التى قد غمست فى حمأة هذه الأرض . ومن عجب أنه فى تفسير هذا الحديث وهوحديث ﴿ أنزل القرآن على سبعة أحرف ﴾ أتى بزبدة الرذائل والفضائل التى أدرجها (الغزالى) فى الجزء الثالث والرابع من (الاحياء) وسماها (المهلكات والمنجيات) فهذه كلها تضمنها الحديث عند هذا الشيخ العظيم الذى لم يتعلم . ومن عجب انه لما سأله ابن المبارك العلامة المتقدّم ذكره عن الحديث المذكور أجابه بقوله اصبر الليلة حتى أسأل النبى ﷺ ثم أخبره فى اليوم الثانى بما سمعت بعضه هنا . إذن هذه روح كبيرة أشرقت فى أرضنا لتدلنا على نقصنا أوّلا ولترينا أن هذا القرآن ليس القصد منه هذه الظواهر وحدها فالألفاظ والمعانى المتعارفة مقدّمات لامور وراءها وهذه العلوم وهذه المعارف وراءها علوم ومعارف ــ فليرتقوا فى الأسباب ــ وهذا يفسر لنا ماجاء فى (علم الأرواح) حديثا . ان بعض الأرواح لما سئلت لماذا نرى الكاملين عندنا تكذب عليهم الأرواح أجابت لا كامل فى أرضكم فالأولى أن تقولوا صالحين ولوكنتم كاملين ماحشرتم فى هذه الأرض. إذن نحن هنا فى الأرض ناقصون ونحن يربينا الله الآن ولم يصل أكثرنا للكمال ولاقارب ه واذا كان هناك بعض الكاملين أمثال الدباغ المذكور فاننا لانعرفهم ولانخالطهم لعدم الملاءمة بيننا و بينهم . وغاية الأمر أن أهل الأرض الآن يتشبهون بالأرواح الكاملة فى أمور . منها أن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن فى هذه السنة أى سنة ١٩٢٨ السلام العام بين الأمم وقد وافقته كتابة أكثر الدول على ذلك كما ستراه موضحا فى سورة (المؤمنون) عند قوله تعالى ــ وان هذه أمتكم أمة واحدة ــ ومعلوم أن هذا كله اتحاد لفظى الآن فهم جميعا متحدون لفظا ولكنهم يصنعون

السلاح ليلا ونهارا . إذن ليسوا كألوان الشمس السبعة بل هم كالذئاب العاويات وقد لبسوا ثوب الملائكة وعسى أن تكون هذه الظواهر مقدمات لحقائق فى مستقبل الزمان . ومنها أن عمال كل حكومة يعملون لمصلحة واحدة وهم متعددون ولكن هذا اتحاد صناعى وانما هذا كله يفهمنا أن هذه النفوس تفعل ظواهر ماخلقت له وان لم تصل اليه فعلا كما ترى الصبيان يركبون أعوادا كأنهم ركاب خيل إذ يفعلون ماخلقوا له وهم لا يعلمون فأهل الأرض الآن يفعلون فى سياساتهم ماظواهره تنبئ عن الحقائق وأن هذه النفوس الانسانية لن تنال سعادتها إلا بعد قطع عقبات فى عوالم أخرى بعد الموت وتترك قيودا وقيودا من الأخلاق الشائنة والأكاذيب والنفاق ومادامت لم تصل لهذه الدرجات فهى فى سجين الجهالة معذبة مضطربة فى جهنم البرزخ

و يظهرلى أن قراء هذا التفسير من الأمم الاسلامية سيكونون على رأى واحد وعلى مشرب واحد فى الشرق والغرب . ذلك لأن الدين الاسلامى فيه ليس متشعبا بل هو دين واحد ورأى واحد وفكرة واحدة ففيه ظهر أن هذه العلوم التى تدرسها الأمم كلها هى أصول دين الاسلام . فأمم الاسلام بعدنا هم الذين سيقرؤن كل علم وكل فن . إذن سيتحدون مشارب وآراء ولايختلفون ولا يكونون كالذين تقدمونا من أمم الاسلام المتأخرين فى الزمان الذين ظنوا أن الاختلاف فى فروض الوضوء أوفى مدة الحيض أوفى ركعات الوتر أمر عظيم فقراء هذا التفسير يعلمون حق العلم أن اختلاف الأئمة فى الفروع لايوجب التفريق . فاذن هؤلاء القارئون لهذا التفسير وأمثاله فى عصرنا سيكونون هم الذين عليهم نظام جمهور المسلمين يقودونهم الى اصلاحهم وسعادتهم واتحاد ممالكهم ودولهم ونظامها والله خير حافظا وهوالهادى الى سواء الصراط

هذا ماعنّ لى فى تفسير قوله تعالى ــ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبىّ إلا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ــ ومانبع ذلك من تفسير حديث ﴿ أنزل القرآن على سبعة أحرف ﴾ وماشا كل ذلك والحمدلله رب العالمين

فقال صاحبى . اذا كان الله قد خلق أناسا بيننا قد امتازوا امتيازا عظيما بحيث أصبحت معارفنا بالنسبة لمعارفهم شيأ قليلا . فاذا صحّ هذا كان ذلك موجبا ﴿ لأمرين * أوّلا ﴾ حزننا على جهلنا بالنسبة لهم ﴿ ثانيا ﴾ أن النفس تشرئب الى هذه المرتبة وتبقى طول حياتها مؤملة أن تنالها . ولايخلص الانسان من هذين الأمرين إلا اذا كان غيرمطلع على مثل هذا أواطلع عليه ونبذه وكذّبه وأراح نفسه وليس كل امرئ قرأ هذا يستطيع التكذيب فان الاراء التى تقال فى تفسير آية أوحديث مثل ما تقدّم هنا لاتدع عاقلا يشك فى تفوّق قائلها . فقلت اعلم أن المراتب التى نحن عليها والسير الذى نسيره فى حياتنا هوالذى سنه الله عزّوجل وهوالأقرب لسعادة نفوسنا ورقيها فى الدنيا والآخرة وهذا هوالقانون العدل والصدق والنورالالهى . فأما ما يكون بالمصادفات والامورالنادرة فهوالذى لايلائم حالنا ولايصلح لنا نظامنا الذى فى هذه الدنيا . ألاترى رعاك الله أن الجنين لايتكوّن إلا تدريجا ولم تجر عادة الله أن يجعل النطفة رجلا سويا فى يوم أو بعض يوم ولو أن الله ألقى علينا العلوم دفعة واحدة وازدحمت فى أفئدتنا وشاهدنا فى هذه الدنيا مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطرعلى قلب بشر فان ذلك لاتحتمله عقولنا ونحن فى هذه الأجسام الأرضية . فاذا حجبنا الله الآن فليس هذا لاذلالنا . كلا والله بل هولسعادتنا لأننا لوتحملنا ذلك لأعطاه لنا كما أتاح للجنين أن يقتحم المشيمة والرحم و يشق له طريقا و يخرج من سجن الرحم الى هذه الدنيا الواسعة و ينظركوا كبها وشموسها وأقمارها . فاذا كان مدبر هذا العالم لم يحجب الجنين عن مشاهدة عوالم لاحصر لعدها بعد أن استكمل مدة النموّ فى الرحم وهولايشاهد هناك شيأ إلا انه مسجون فى الظلمة . هكذا لايحجب صانع هذا العالم ومدبره أرواحنا فى هذه الأجسام الأرضية عن الاطلاع على ماوراء الحجب لأنه لوأطلعنا عليها قبل أوانها لكان ذلك و بالا علينا وذهابا لعقولنا واهلاكا لنفوسنا . هنالك قال صاحبى هذا القول مقبول والبرهان حق وصدق ولكن لوأردفته بآراء من كلام هؤلاء المفتوح عليهم لنرى ماذا يقولون فانهم إن أيدوا رأيك وطابق مقالهم برهانك هنالك تطمئن

النفوس وتهدأ القلوب وتنشرح الصدور و يقول كل امرئ منا (رضيت رضيت) واذن يكون قارئ هذا التفسير وأمثاله منشرح الصدر لايحزن على ماحرم من مراتب عالية علمية ولايندم على ماذهب منه من تلك الثمرات العلمية . فقلت نعم هم الذين قرّروا هذه الحقائق بأوضح مما ذكرت وأبين مما شرحت . قال إنى لفى شوق لسماعه . فقلت لقد نقل الشيخ أحمد بن المبارك المذكور عن شيخه الدباغ انه ذكر مايشاهده المفتوح عليهم من السموات والأرضين وأفعال العباد فى خلواتهم و يشاهدون نار البرزخ وهى الممتدة بين السماء والأرض وهى التى تذهب اليها الأرواح بعد خروجها من الأشباح على درجاتها وهناك الأرواح الناقصة فيها وهى هنالك فى منازل ضيقة كالآبار والكهوف والأعشاش وأهلها فى صعود ونزول دائما لايكلمك الواحد منهم كلمة واحدة حتى تهوى به هاويته وقال ان هذه النار غير نار جهنم فجهنم وراء هذه العوالم . وهنا ذكر أن هذا المفتوح عليه يشاهد الأفلاك والنجوم وهكذا ثم قال ويجب عليه أن لايستعظم شيأ من هذه الامور وأن يستصغر كل مايرى والا وقف به الحال وصار أمره الى الانتكاس لأن الذات فى زمن الفتح شفافة تشف كل ماتستحسنه وهذه الأشياء المشاهدة كلها ظلام فاذا ركن الى شئ منها وقف فى الظلام وانقطع عن الله عزّ وجل ولذلك كان غير المفتوح عليه فى ساحة الامن وكان المفتوح عليه فى غاية الخطر إلا من عصمه الله . واذا كانت الذات قبل الفتح مشغولة عن الله عزّ وجل بنحو اللوز والزبيب والحمص فضلا عن الدرهم والدينار والنساء والأولاد فكيف لايفتتن بعد الفتح بمشاهدة العالم العلوى والسفلى ومساعدة الشياطين له على مايريد ولاعصمة إلا بالله . قال ومن وقف مع شئ من هذه الامور السابقة كانت الشياطين معه يدا بيد وصار من جملة السحرة والكهان . ثم ذكر المقام الثانى وهو الكشف النورانى فذكر انه مقام مشاهدة الأنبياء والملائكة على حقيقتهم ومع ذلك يحتاج أيضا الى عناية وضبط نفس انتهى

﴿ رأى الشيخ الخوّاص والشيخ الشعرانى فى هذا المقام ﴾

ولقد قال مثل ماتقدّم الشيخ الخوّاص لتلميذه الشعرانى إذ قال له ﴿ أكمل الأولياء من دخل الدنيا وعمل فيها بالأعمال الصالحة ولم يشعر بكمال نفسه ولاشعر به أحد من الخلق حتى يخرج من الدنيا وأجره وافر لم ينقص منه ذرّة قال فقلت له وهل ينقص الولى بمعرفة الناس بكماله فقال نعم أما سمعت قوله ﷺ (خصّ بالبلاء من عرفه الناس) فلايزال الودّ يقوم له فى قلوب المعتقدين الى أن يستوفى جزاء أعماله الصالحة كلها لأن الودّ والمحبة ماقاما فى باطن الخلق إلا من ظهور كماله لهم فأحسن أحوال من ظهر كماله للخلق أن يخرج من الدنيا مفلسا بالأعمال الصالحة سواء بسواء قال فقلت له فهل يدخل الفتوح الالهى استدراج ومكر فقال نعم يدخله المكر والاستدراج ولذلك ذكر الله الفتح فى القرآن على نوعين (بركات وعذاب) حتى لايفرح العاقل بالفتح قال تعالى ــ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ــ وقال تعالى فى حق قوم آخرين ــ فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ــ وتأمل قول قوم عاد ــ هذا عارض ممطرنا ــ لما حجبتهم العادة قيل لهم ــ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ــ تدمر كل شئ بأمر ربها ــ قلت له فما علامة فتح الخير وفتح الشرّ فقال كل فتح أعطاك أدبا وترقيا وذل نفس فليس هو بمكر بل عناية من الله لك وكل فتح أعطاك أحوالا وكشفا واقبالا من الخلق فاحذر منه فانه نتيجة عجلت فى غير موطنها فتنقاد الى الآخرة صفر اليدين مع إساءتك فى الأدب إذ طلبت ذلك فان كل من طلب تعجيل نتائج أعماله وأحواله فى هذه الدار فقد عامل الموطن بما لايقتضيه حقيقة قال فقلت له فاذا حفظ الله العبد واستقام فى عبوديته وعجل له الحق نتيجة ما أوكرامة فهل من الأدب قبولها أوردّها فقال الأدب قبولها ان كانت مطهرة من شوائب الحظوظ النفسانية . ثم ذكر أن الكمال أن يقابل الانسان جميع العوالم بما يناسبها و يعطى كل ذى حق حقه و يأخذ الأشياء بالحق و يردّها بالحق انتهى

و بعدأن سمع صاحبي هذا قلت له . أفلست ترى أن كلام هذين الصالحين هوعين ماقلته لك وأن استعجال الاطلاع على العوالم فى الحياة الدنيا يشابه من كل وجه استعجال الأم اسقاط جنينها قبل موعد مولده . فانظر لهذا التحذير والتخويف وأن المطلع على هذه العوالم معرّض للخطر العظيم . ولتعلم انى أنا كنت أحب أن أقف على هذه الحقيقة من كلامهم فاستقرّت نفسى الآن وانشرح صدرى ورضيت رضاء تاما بما نحن عليه الآن من هذه الحال فلنسر فى التفسير ولينشرح صدر من يقرؤه فلايحزن على أنه لم يطلع على عوالم جميلة فان هذه قد عدّوها شهوة نفسية توجب الانقطاع عن الله وجعلنا نحن أشبه بالسقط اذا سقط من الرحم قبل تمام المدّة . ثم قلت له وانى أيها الأخ لم أكن لأجاريك فيماسألتنى عنه فى هذا المقام مع خروجه عن موضوع تفسير قوله تعالى ـ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى ـ الخ إلا لما أترقبه من توالى الحسرات والوساوس فى قلوب الذين يقرؤن التفسير إذ يقولون لماذا يفتح الله على أمثال الدباغ و يتركنا وهذا الحزن يضرّ بالقارئ ضررا بليغا و يعطل رقى الأمم الاسلامية كما انه فعل ذلك مع آبائنا وقرؤا فى كتب المتقدمين أمثال ماذكرناه هنا فتقطعت نفوسهم حسرات وأضاعوا الزمان فى التلهف على درجة الكشف وهم فى بحرلجى ّ أما الآن فقد حصحص الحق واستبان السبيل واستوفينا هذا المقام عقلا ونقلا بحيث لايبقى فى نفس الأذكياء من قراء هذا التفسير وأمثاله حسرة أولوعة بل يقرؤن و يعلمون الأمة و يسيرون فى رقيها محبين للعلم ولله مرقين للشعوب الاسلامية خصوصا والانسانية عموما مريدين بذلك وجه الله

فيا أيها الأذكياء اعملوا فى هذه الدنيا كما تعمل الكواكب والشموس والأقمار تسير مطيعة لربها لاتبغى جزاء ولا شكورا . واياكم وأن تطلبوا حظوظ نفوسكم بل كونوا عبادا لله مخلصين . هذا ما أرجوه لنفسى وسيكون هذا رجاء من يقرؤن هذا التفسير

هذا ولكن أيها الذكى مفكرا فى أهل زمانك فان الأمم الاسلامية اليوم على ما كانت عليه منذ قرون فانك ترى فى كل قرية شيوخا لهم مريدون والنادر فيهم من فتح عليه وهم جميعا يتغنون بهذا القول يوهمون الناس انهم وارثون هؤلاء الأعلام فيجب تحذير الناس منهم فأكثرهم خطر على الأمة الاسلامية إذ يقولون لهم ان علم الغيب هوالعلم الحق والناس محجوبون و يبغضونهم فى العلوم المشهورة وهذا ضلال فلقد تحقق أن تلك العلوم لاتحصل إلا للنادر منهم وهى فى غير أوانها وأن أكثر من فتح عليهم يصبحون سحرة وكهانا . و بناء عليه اذا وجد المسلمون منهم من يخبر بالغيب فهذا ليس ولاية بل قد أصبح هذا الرجل كاهنا أوساحرا فأما الولى الاسلامى فهو غير هذا ولذلك يجب تطهير البلاد الاسلامية ممن يدّعون الاخبار بالغيب ولوصدقوا أومن تظهر على أيديهم الخوارق ليظهروها للناس فان هؤلاء غالبا ضارون بالأمم الاسلامية ولذلك أحسن مصطفى كمال باشا فى طردهم من البلاد . فما أكثر هؤلاء إلاقوم عاطلون يأكلون من أموال الأمة ولايعملون لها شيأ . هذا ولما أتممت هذا واطلع عليه صاحبى قال والله لقد أخرجتنى من مأزق صعب . ذلك انى كنت أقرأ اسمين من أسماء الله تعالى قد حسبتهما بالجمل ليطابقا اسمى فى حساب الجمل فكنت أقرؤهما كل صباح وكل مساء بمقدار عددهما ظانا أن الله سيفتح علىّ بهذه القراءة و يرينى العجائب فى الدنيا ولكن تبين لى الآن انى مخدوع لأن هذا الذكر ليس لوجه الله وأيضا لوفرض انى فتح علىّ وشاهدت مافى قلوب الناس لم يكن لذلك فائدة وانى أتلهى بما أشاهده من أحوال الناس و بما فى قلوبهم وأعتقد انى وصلت الى الله ولم أصل فى الحقيقة إلا الى شهوتى والى موافقة الشيطان فان نتيجة ذلك على فرض حصوله أن يعتقد الناس فىّ و يقبلوا يدى و يأتونى بالخيرات من عرق جبينهم . وأىّ شيطان أضلّ من شيطانى حينئذ وهنالك لا يكون للناس منى فائدة إلا انى أوهمتهم بأنى وقفت على علوم تقطع دونها الاعناق فيقفون متحسرين ويحقرون علوم المسلمين من تفسير القرآن وعجائب المخلوقات التى ستظهر فيهم وتنتشر بعد ظهور أمثال هذا التفسير و يبقى

المسلمون فى درجة الذل والانحطاط وأوروبا تسبقهم شى وأمريكا والصين واليابان ويحيطوا ببلادهم من كل جانب وذلك كله بسرّ وصولى واطلاعى على المغيبات التى لاتفيد المسلمين إلا أن يعظمونى . أنا أقول هذا وأنا موقن أن الشيوخ فى بلاد الاسلام هذا شأنهم قدأضلوا المسلمين وأبعدوهم عن العلوم فساءت الحال واعتقدوا فى شيوخهم انهم أعظم العظماء حتى انى سمعت عن بعض المسلمين فى بلاد الغرب انه قال هل سيدنا محمد ﷺ أعظم شرفا من شيخنا فلان وأنا لا أحب أن أذكر اسمه هنا لأن تلاميذه يملأون الأقطار وانما قال ذلك لأنهم يسمعون انه يطير فى الجوّ ويحيي الموتى ويعمل أعمالا لم تسمع لنبيّ من الأنبياء . هذا قولى وأستغفر الله لى وللمسلمين والمسلمات . ثم قلت ان ماشرحته الآن هو الذى كان يجيش بنفسى لاسيما انى لما قرأت كتاب (راجا يوقا) المترجم من الهندية حديثا الى الانجليزية وجدت هذا الكتاب يجعل السعادة خاصة بمن يصلون الى ماوراء الحس ويكشف لهم عن عوالم الغيب مع انهم وثنيون ولهم ذكر خاص ورياضة خاصة بأن يحبسوا التنفس داخل الرئة أوخارج الفم وانما يفعلون ذلك كله لأجل الكشف والظاهر أن هذا نقل كله الى متصوّفة المسلمين المتأخرين ونوّعوا فيه بدليل أن النقشبندية عندهم هذا التنفس عينه ويمزجونه بذكر الله أما أولئك فيمزجونه بلفظ (اوم) وهى حروف ثلاثة تدل على الآلهة الثلاثة عندهم التى هى ثلاثة وهم واحد فهوكدين النصارى سواء بسواء . ولما قرأت هذا المذهب عجبت كل العجب كيف يقول هؤلاء انهم قد كشفت لهم العلوم وكيف يتبعهم قوم عندنا من المسلمين وهذه حال محيرة جدا ولعلّ الله ألهم الشيخ الدباغ والشيخ الخوّاص الذين عرفا هذه الحقائق ودوّنوها حتى نستأنس بها الآن فى هذا التفسير فتكون أشبه بنبراس لمن بعدنا إذيعلمون أن هذا الكشف هوالكشف الظلمانى وانه نوع من السحر أوالكهانة . ولقد كنت أحير فى أمرى وأقول اذا كان أرباب الكشف قد ملؤا بلادالاسلام فلماذا نرى هذه البلاد متأخرة كما ان الهندكذلك وهل هذا الكشف قد سلخ المكشوف عليهم من الانسانية حتى تركوا اخوانهم فى المذلة ولايساعدونهم فأما الآن فقد عرفنا أن ذلك ليس مقصود الانسانية وأن هذه شهوات نفسية وانا نستعيذ بالله منها وانها كالمال والولد والذكر والصيت قد تغرّ الانسان وقد يضلّ بها أقوام وقد يصيرون مشعوذين مشعبذين . فهذه الحال لاتدل على رقى نفس فهى كالرجل المنوّم (بفتح الواو) تنويما مغناطيسيا فليس حضور الروح به دالا على سموّ المنزلة بالأخلاق العالية والمنزلة الشريفة فى العلم والحكمة والفضيلة ومنفعة العموم . وأنا أرجو أن يكون قراء هذا التفسير هم الذين يبعثون فى نفوس المسلمين الحية ويفهمونهم بما يفتح الله به عليهم . وانى أحمد الله عزّوجل إذ علمنا مالم نكن نعلم وفهمنا هذه المسألة التى لم أكن آمل أن أقف على حقيقتها فانى كنت أقول أنا لا أقدر أن أحكم هذا الحكم إلا اذا كنت مطلعا على ماوراء الحجب أما الآن فقد علمت أنا وعلم كل من قرأ هذا التفسير حقيقة الحال من غير أن نقع فى خطر كشف الحجاب الذى كنا نظن انه لابد منه لمعرفة هذه الحقيقة واذن نقول ماقاله بعض كرام الصحابة ﴿لوكشف عنى الحجاب ما ازددت يقينا﴾ انتهى

اللهم ان المسلمين الذين أحاطت بهم الدول من كل جانب وقفوا حيارى بين مادرسوه فى كتب السادة الصوفية وبين مايشاهدونه حولهم من أعمال الأمم النافعة لهم ولغيرهم فهم أصبحوا عالة على الأمم ولايبدون حراكا وسكت علماؤهم لأن نفس العلماء متحيرون . فسيرى المسلمون الكهرباء والمغناطيس والبخار وغيرها قد انتفع الناس جميعا بها وهم لم ينفعوا الأمم اليوم بشئ مطلقا فهم يقرؤن كتاب ﴿الفتوحات المكية﴾ لابن العربى وفى ﴿الإحياء﴾ للامام الغزالى عن الفتح الربانى . وفى رسالة أيها الولد للغزالى أن هناك فتحا ربانيا به يرى الانسان ماوراء الحجب والمسلمون بين ذلك متحيرون هل ينقطعون عن العالم للذكر حتى يصلوا لهذا المقام أو يغمضوا الأعين عن كتب أسلافهم مرة واحدة كما فعل مصطفى كمال فى أمة الترك أم ماذا يصنعون والله لقد حرم المسلمون من أمثال (توماس الفا اديصن) الذى بلغ سن الثمانين فى (١١ فبراير سنة ١٩٢٧)

والذى اخترع المصباح الكهربائى والآلة الحاكية (الفونوغراف) وآلة الصور المتحركة (السينما) وغيرها حرم المسلمون من رجال العمل . وقد كان آباؤهم هداة العالم قاطبة . فلولاهم لم يكن أولئك المخترعون والمستنبطون كما تقدّم فى سورة (التوبة) وغيرها . إذن فليكن ما كتبناه فى هذا التفسير وما كتبه العقلاء فى أمم الاسلام نبراسا . فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض علما ليس بالظن أن محاولة كشف الحجاب قد خاف منها رجال الصوفية وجعلوها أشد ابعادا عن الله من المال والولد والله يقول – واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا – فالخسار هناك يكون أكثر كما تقدّم . فليقم المسلم الآن بخدمة المجموع الانسانى كله ان أمكن والا فأى مجموع يقدر عليه واذن يكون خليفة لله خالق الشموس والأقمار الطائعات لرب العالمين والحمد لله رب العالمين

﴿ النبات والديانات ﴾

ان الله أنزلنا فى هذه الأرض لاسعادنا وليس اسعادنا أن يعطينا العلم أو الرزق ونحن ساكتون ان الرزق اذا أعطى بلا اجتهاد والمال اذا أعطى بلا عمل وكذا العلم اذا أتى بلا كد ذهن والدين اذا نزل الى الأرض ولم يكن هناك فيه شبه تعترض العقول وتقف الشبهات المذكورة فى طريق فهم الديانات أصبحت الأجسام معطلة والعقول كاسدة فان الرزق لو عمّ الناس أجمعهم بلا تعب لأصبحوا نباتا فان النبات يحيا و يعيش على العناصر المحيطة به والناس هم الذين يأتون له بالسماد . لذلك جعل الله رزق الناس موقوفا على عملهم لتقوم بذلك أجسامهم وتجرى دماؤهم وتصلح أحوالهم وتقوى عضلاتهم وأكثر الناس جهال لايفهمون أن العمل الشاق لابد منه لصلاح أجسامهم . لذلك حرم عليهم الكسل وألزمهم العمل لتحصيل القوت كى تقوى أجسامهم وتصلح حالهم وسلط الحشائش على زرعهم وتلك الحشائش تضعفه وتقلل ثماره . فعل ذلك كرما منه ليكثر مادّة الحيوان من تلك الحشائش والحيوان لاقدرة له على الزرع و يحوج الانسان لازالته فتزيد قوّته الجسمية وادراكه العقلى فى استنباط الحيل لابادة ذلك

﴿ حياة الحيوان والديانات ﴾

هكذا ترى الحشرات والهوام والحيوانات الصغيرة المسماة بالمكروبات قد سلطها الله على الحيوانات النافعة فى ديارنا من الطيور التى تربى ومن حيوانات الحرث والسقى كل ذلك ليبتلينا بالعمل لاصلاح حيواننا . فحيوانات الله التى أنزلها لاهلاك زرعنا وقتل حيواننا وكذا نباتاته التى سلطها على زرعنا وملأ به أرضنا جعلهما معا يملآن السهل والجبل وملأ بهما الجوّ وأحاطنا بها من كل جانب وسلطها علينا ولم يؤثر الجوّ فيها كما يؤثر فينا وفى أنعامنا فجعلها أقدر على الزمهرير فى الشتاء والحرور فى الصيف ونحن وحيواننا ونباتنا ضعاف أمام كل شئ . هذا من الله ليبتلينا مريدا بذلك تقوية أجسامنا بالعمل وعقولنا بالحيل . ولولا هذا لكنا مترفين منعمين منغمسين فى الملاهى فيكون الفناء العاجل . هكذا الديانات لو أن الدين نزل الى الأرض ولم يكن شبهات ولاخيالات كالدين الاسلامى وقبل الانسان القضايا ولم يبحث فيها ولم يكن بحث ولاتنقيب . لو كان كذلك لماتت العقول ولضاعت الأمم وأصبحت الأمة كلها من العامة الجهلاء فان الناس ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ عامّة مقلدون . وحكماء محققون . وأوساط متشككون . فالعامّة تابعون العلماء والحكماء وقفوا على الحقائق . أما الشاكون فانما هم الشبان الذين ارتقت عقولهم عن طبقة العوام ولم يصلوا الى طبقة الخواص فهؤلاء هم الذين يبتلون بالبحث حتى يصلوا فمن وصل الى مرتبة الحكماء وعرف الحقائق فهم الذين قال الله فيهم – وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم – وهو البرهان بعلم الحكمة كما تقدّم . وأما القاسية قلوبهم فهم الذين حين شكوا تركوا النظر وحقروا كل شئ وناموا

فالعامّة ليس عليهم ملام انما اللوم على الذين امتازوا عن العامّة فعرفوا أن هناك شبهات لابد من تمحيصها فأعرضوا عنها وماهذه الشبه إلا باب الحكمة والعلم فاذا تركوها بقيت فى عقولهم وتراكمت عليهم

واعلم أن هـذا المقال الذى ذكرته قد رمى طيرين بحجر واحد فان الشبه القائمة فى الديانات على نفس الأنبياء ومانزلوا به تقوم على نظام الكون وجماله فكيف يكون الكون جميلا منظما وخالقه هكذا يفعل إذ يوقع الناس فى مشاكل فى حقولهم وزروعهم ودياناتهم وأعمالهم . فالجواب قد عرفته فى ﴿ الأمرين * الدين ونظام الطبيعة ﴾ فالشيطان يوسوس ليشك الانسان فى النبوّة قائلا ان القرآن ليس منزلا لما فيه من كذا وكذا و يوسوس قائلا إن هذا العالم ليس منظما فاذن ليس له خالق فيجاب بما أجبنا به مؤقتا وأن هذا باب من أبواب الحكمة فاجتهد أن يفتح عليك وسترى من آيات الله العجب فتوجه الى الله وهو يعلمك ـ واتقوا الله و يعلمكم الله والله بكل شئ عليم ـ

﴿ فصل فى أن العقاب يجب أن يكون على قدر الذنب وتمثيل ذلك بايلاج كل من الليل والنهار فى الآخر ﴾

قال تعالى (ذلك) أى الأمر ذلك وقد استأنف سبحانه بعده فقال (ومن عاقب بمثل ماعوقب به) ولم يزد فى الاقتصاص (ثم بغى عليه) بالمعاودة الى العقوبة . يقول الله ان من جازى بمثل مافعل به من الظلم ثم ظلم بعد ذلك فحق على الله أن ينصره سواء أكان ذلك من الأمم أم من الأفراد (لينصرنه الله إنّ الله لعفوّ) يمحو آثار الذنوب (غفور) يستر أنواع العيوب . وانما ذكر هذين الوصفين لأن من بغى عليه قد كان الأولى له أن يصبر ولايعاقب الباغى لما جاء فى القرآن من طلب العفو كقوله تعالى ـ ولمن صبر وغفر انّ ذلك لمن عزم الامور ـ وقوله ـ وان تعفوا أقرب للتقوى ـ وقوله ـ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ـ فالمنتقم قد ترك الأفضل والله قد تكفل بنصره اذا بغى عليه كرة ثانية أيضا اذا عاقب بمثل ماعوقب به فهو عفوّ له غفور لتركه الأفضل وهو العفو عن الباغى منهما على أن العفو خير وأبقى (ذلك) النصر (بأن الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل) أى ذلك النصر للمظلوم بسبب انه قادر على مايشاء ومن عجائب قدرته انه يدخل ساعات الليل فى النهار فيأخذ الليل فى القصر والنهار فى الطول وذلك فى فصلى الشتاء والربيع و يدخل ساعات النهار فى الليل فيجعلها فى الليل و يأخذ النهار فى النقص والليل فى الزيادة وذلك فى فصلى الصيف والخريف ولايأخذ أحدهما من الآخر إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه وذلك فى بلاد مصر لايعدو أربع ساعات فأقصر نهارعندنا عشر ساعات وأطوله ١٤ وهكذا العكس فلايأخذ النهار من الليل ولايأخذ الليل من النهار إلا بحساب واحد فلذلك جعلت الانتقام من الباغى على مقدار جرمه لايزيد ولاينقص كما جعلت كل ليل لايأخذ من كل نهار إلا ما أخذه الآخر منه

(١) فاذا كان ذلك فى مصر أربع ساعات أى ان كلا منهما ينقص فى النهاية و يزيد فى النهاية عن الآخر أربع ساعات

(٢) ففى أطراف الهند والصين يكون ساعتين

(٣) وفى بلاد السند و بعض البلاد الفارسية أربع ساعات كالقاهرة

(٤) وفى البحر الاسود وقرب القسطنطينية ست ساعات

(٥) وفيما يقرب من باريس و برلين ونحوذلك ثمان ساعات

(٦) وفيما يقرب من بحر الشمال وماوالاه (١٠) ساعات

(٧) وفيما وراء ذلك ١٢ ساعة و١٤ و١٦ و١٨ ساعة شمالى بحر البلطيق وفيما بينه و بين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما عن الآخر فى النهاية الى (٢٠) و (٢٢) و (٢٤) ساعة ثم تكون الزيادة بالأشهر و يكون أطول نهار يصل الى ستة أشهر وأطول ليل يكون ستة أشهر وهنا يتساوى الليل والنهار كما تساويا فى خط الاستواء . ففى خط الاستواء كل منهما (١٢) ساعة دائما وفى القطبين كل منهما ستة أشهر دائما فيما بعد جزائر (جرولنده)

هذا معنى الآية . يقول الله ان الليـل لايأخذ من النهار ولاالنهار يأخذ من الليل إلا على مقدار ما أخذ الآخر منه فانظروا حسابى فى الدلك وافعلوا مثل مافعلت ولاتنتقموا إلا على قدر الذنب لأن هذا هوالعدل وأنا العدل وانى أسست السموات على العدل وماـكى قام على العدل . هذا هوالعدل وهو المساواة والانصاف فى كل شئ . فإياكم أن تنتقموا فوق مارسمته لكم لأنكم قد خالفتم القواعد التى رسمتها . واياكم والحقد على من عاقبتموه ودوام الغضب بل ارجعوا بعد ذلك للصافاة والاخافتم عدلى ونظامى فليكن كل شئ فى أعمالكم وأخلاقكم بميزان وعدل . انى قد جعلت المساواة فى كل شئ نموذجا للعدل عندكم ورسمت لكم الخطة فاتبعوها وأنا القائل - والسماء رفعها ووضع الميزان - فهذا هوالميزان - أن لاتطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان - فكما وزنت الزيادة والنقص فى الليـل والنهار بحسابى فزنوا أعمالكم فى الانتقام كما وزنت أنا وانى لن يرانى إلا الذين يسيرون على صراطى وهـذا صراطى فاياكم أن تحيدوا عنه . فأنا نصرت الذى بغى عليه كرة أخرى اذا كان عقابه الأوّل بمثل ماعوقب به لأنه فعل مافعلته فى الليل والنهار من الحكمة والمساواة (وأنّ الله سميع) يسمع قول المعاقب والمعاقب (بصير) يرى أفعالهما فلايهمل مثقال ذرّة (ذلك) الوصف بكمال القدرة والعلم (بأن الله هوالحق) الثابت فى نفسه الذى هو مبدأ لكل موجود فاذا اختلف الليل والنهار وتقاصّ المتعاديان من الناس فهومصدر هذه الخلائق المتدخلة وهى تزيد وتنقص وهوثابت لادارة شؤنها فالمتحركات لابد لها من محرّك فان لم يكن ثابتا فلا بقاء لها (وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) لأن الأصنام وكل مايعتقدفيه الالوهية غيرثابت إذ هومتغير تنتابه الأعراض كسائرالمخلوقات (وأن الله هو العلىّ) على الأشياء (الكبير) عن أن يكون له شريك

﴿ لطيفة فى قوله تعالى - ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار - أيضا ﴾

لما كان القول المتقدّم فى شأن المحاربة والقتال وأن ذلك لازم لبقاء المساجد والكنائس وما أشبهها وقد طال المقام فى منازعات أهل الأرض ومنازعهم أراد الله سبحانه أن يفرح العقول ويخرجها من انحصارها فى الامورالجزئية الأرضية الى باحات الجمال وساحات الجلال و يقول ارفعوا رؤسكم الى أعلى . إن قتالكم مع الكفار ونصركم عليهم وعقابكم للباغين عليكم ونصرى لكم ليس هو المقصود من الدين ولامن الحياة . هب انكم نصرتم على الباغين وعلى الكافرين . فهل هذا هو المقصود من وجودكم . كلا . هذه أمور أخلاقية والأخلاق اعتدالها صراط مستقيم والصراط المستقيم لايقصد لذاته بل هوموصل لغيره . الصراط فى الآخرة فوق جهنم يتوصل به الى الجنة ولايمكن ذلكم لكم إلا بانتهاج الصراط السوى فى الدنيا بالأخلاق الفاضلة كالعفو او كالانتقام على قدر البغى وهذا كله ليس مقصودا لذاته بل المقصود أن نفوسكم بعد هـذا تتفرّغ الى ماهوأعلى فالاخلاق فى الدنيا بيدها الفتح بالعلوم فيها تكون صراط الآخرة فالجنة على مقتضى الاخلاق فى الدنيا والعلوم فيها بل ان أولى الألباب من الناس فى الدنيا يرون أن العلم فى الدنيا والابتهاج به جنة حقيقية بجناتهم و يفرحون بالموت اذا أتموا ماوجب عليهم على قدرطاقتهم لعباد الله و يقولون إنا اذا متنا ازددنا علما و يقرؤن - وقل ربّ زدنى علما - و يقرؤن - نورهـم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم - وذلك النورهو العلم الذى كسبوه فى الدنيا و يقولون معنى ماورد ﴿ وعليون لأولى الألباب ﴾ أى ان أعلى لذّة للنوع الانسانى الوقوف على الحقائق . و يقولون إن لذّة الطفل بالغرائب حوله وازدياد الفرح بكل جـديد عنـد سائر الناس مبادئ يعرف منها أن فطرنا لاسعادة لها إلا بالعلم . فاذا ذكر الله الليل والنهار فى معرض القتال والانتقام وأبان كيف يكون العدل مع ان الناس لا يشعرون عادة بالمناسبة بينهما فما ذاك إلا لأن الأمر عظيم وأن الحياة ظلمات والحكمة والوقوف على الحقائق نور . فاذا حار بنا فلتكن النهاية نصب أعيننا وهى الاغتباط بالعلم . واذا عفونا فليكن كذلك ولتكن وجهة الانسانية العلم . وقد أصبح هذا العصر عصر العلم فلادنيا إلا بالعلم ولامال إلا بالعلم ولانار إلا بالجهل

ولافقر ولاذلّ إلا بالجهل . هـذا هوالسبب فى ذكر الليل والنهار فى هذا المقام . أفليس ذلك بعجيب فبذلك فلتفرحوا هوخير مما تجمعون وبمثل هذا فلتعرف بلاغة القرآن . هنا تتضاءل الفصاحة والبلاغة المجرّدة من الحكمة والعرفان . هنا يذوب علم البلاغة المعروف . إن عالم البلاغة الذى لم يذق من علوم الحكمة حظا ولامن علوم العجائب السماوية والأرضية كفلا خاق ايكون مقدمة لمن ينظر فى العوالم فهوأشبه بصراط مستقيم يتوصل عليه الى جنة العرفان . فالبلاغة التى يدرسها الناس فى المدارس أشبه إذن بعلم الأخلاق الذى لاعلم بالحقائق إلا بعد الاتصاف بمضمونه . واذا كان علم الأخلاق النفسى لابد منه للوصول الى الحقائق العلمية فى السموات والأرض هكذا يكون علم الأدب اللفظى من البلاغة وماتحتاج اليه من العلوم كالنحو والصرف واللغة والمعانى والبيان والبديع والاشتقاق والتاريخ وما أشبه ذلك فهى كطريق مستقيم يتوصل به المطلعون على عجائب هذا العالم الى فهم تلك الحقائق من القرآن . فاذا سمعت قول المبتدئين فى العلم القائلين ان القرآن لايعرف إلا بالبلاغة العربية فاعلم أن تلك المعرفة هى الصراط الموصل لغيره وليست هى نفس علم القرآن والمقصود منه كلا بل هى طريق يوصل لما هوالمقصود وهوادراك الحقائق مثل ما أكتب لك الآن بعضها . فبلاغة القرآن شئ ومعرفة معانى القرآن وعلومه شئ آخر فالمقدمات غيرالمقاصد والمقدمات بلامقاصد شجر بلاثمر ولفظ بلامعنى والقانع بها مغرور والله هوالولىّ الحميد اه

﴿ فصل فى ذكر عجائب الأرض بعد العجائب السماوية ﴾

قال تعالى (ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء) استفهام تقرير (فتصبح الأرض مخضرة) بالنبات (إنّ الله لطيف) باستخراج النبات فيصل علمه ولطفه الى كل ماجلّ ودقّ (خبير) بكل تدبيرظاهر وباطن (له مافى السموات ومافى الأرض) ملكا وخلقا (وان الله لهوالغنى) فى ذاته (الحميد) المستوجب الحمد بصفاته وأفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم مافى الأرض) جعلها مذللة لكم معدّة لمنافعكم (والفلك تجرى فى البحر بامره) الجملة حال (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بأذنه) إلا بمشيئته ـ يوم تبدّل الأرض غيرالأرض والسموات ـ فترجع الأرض والسموات رتقا كما كانتا رتقا وقدتقدّم ايضاحه فى ﴿سورة الأنبياء﴾ إذ تصير كرة الشمس وجميع السيارات حولها فى حال كالحال الأولى مشتتة مفرّقة ثم تصيركرة نارية وهكذا (إنّ الله بالناس لرؤف رحيم) إذ جعل هذه العوالم بنظامها الحالى ولم يرجعها الى الحال الأولى فيفنى ماعليها وتكون هى كرة نارية غازية (وهوالذى أحياكم) بعد أن كنتم جمادا مما سبب لكم من بقاء العالم على هذه الحال ولم يعثره فتصطك الأرض بالسموات (ثم يميتكم) عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) بالبعث (إنّ الانسان لكفور) لجحود لنعم الله لأنه محفوظ محوط بأنواع النعم وهولايشكر عليها

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ـ ﴾

نرجع الى مسألة الحرب كرة أخرى ولننظركيف ذكرالله انزال الماء من السماء فى حيزالكلام على الانتقام بعد أن ذكر أوّلا ايلاج الليل فى النهار . يقول الله إن الانتقام من الباغى يكون بالعدل كاعدات وأنا خلقتكم للعلم فلتكونوا علماء . فهكذا هنا يقول أفلم تنظروا الى الأرض كيف أنزلنا عليها الماء من السماء فاخضر النبات . اعلم أن الأمم ان لم تهذّبها الحوادث ولم تؤدّبها الكوارث ولم توقظها النوازل ولم تعلمها التجارب بقيت بلهاء نائمة نائهة . فالأمم كالأفراد لايقومون من غفلاتهم ولايستيقظون من نومتهم إلا بموقظات الأيام ومزعجات الليالى . ولعمرك لم يبعث الحرب الكبرى فى أمم الغرب والشرق (سنة ١٩١٤) إلا تلك الكتب التى أبرزها علماء الألمان قائلين ﴿الأمة بلاحرب ميتة﴾ فاذا رأينا أمة قد غفل أبناؤها وجهل شبانها وتنعموا وانغمسوا فى اللذات فلينزل عليها مطر الحرب وليسبب لها امطار القنابل ونيران الصواعق المرسلات من الطيارات ولتزعجها الجيوش الجرارة والجحافل الكرارة فى حنادس الظلم وفى حمارة القيظ . هنالك ينبت يبسها

ويخضر شجرها وتزهر حدائقها بأفانين الحكمة وأزاهير العلم . هنالك يستيقظ الشبان من سباتهم . هنالك الأفراح والمسرات . هنالك تبتهج البلاد . إن البلايا والمنايا رافعات الأعلام فى الأمم مثيرات كوامن الأخلاق والمواهب والسجايا . لن تظهر كوامن الأخلاق وعجائب الغرائز وصنوف الفضائل إلا بانزال ماء المحن عليها فهنالك تهتز النفوس وتنبت من كل زوج بهيج من المكارم والسجايا والفضائل والمزايا . هذا ملخص ماقاله علماء الألمان حتى أثاروا ثائرة الحرب الكبرى . وقد قال ذلك من قبلهم (سقراط) فى كتابه الى الاسكندر وقد تقدّم فى هذا التفسير وهو أن الأمم لاتطيق النعيم والراحة والدعة فان ذلك يميت العزائم ويخمد الهمم وانما يرفعها الى العلا ادامة الأعمال واثارة العزائم . أقول فما الرصاص المتهاطل ولا القذائف من القنابل إلا كالطل والوابل أصاب أرض النفوس فأنبت ريحان الهمم وأشجار الحكم فأزهرت وأثمرت وأغنت الواردين والصادرين

ولقد جاء فى علم الأرواح أنهم سئلوا عن الحروب فأجابت إحداها قائلة «ان الحوادث العظمى فى الأرض والحرب الطامة تكون لغرض احداث تبدّل عام فى نظام أرضكم وتكون فيها أرواح قد حلت الأجسام الأرضية غير صالحة للارتقاء فيحل بها الفناء وتسكن أخرى أعلى منها أرضكم بحيث يخلق الله فى بطون الأمّهات أرواحا أرقى عزيمة من أرواح الموجودين فتحل محل الذاهبين ولذلك يكون الاختراع والتقدّم دائما بعد النوازل العظيمة كالحروب الطامة والزلازل والوباء» انتهى

فانظر قول علماء الألمان وقول (سقراط) وقول الأرواح . أليس هذا عين مافى القرآن . أليس ذكر اخضرار الأرض بعد انزال الماء عليها هو عين ارتقاء النوع الانسانى بعد الحروب والرصاص والوباء والزلازل والاهلاك العام فى بقعة أوجهات متحدة . لعمرك إن هذا من أسرار القرآن . إن من يسمع القرآن وهو لم يدرس الحكمة واكتفى باللغة العربية وتوابعها و بلاغتها يظن أن ذلك تكرار وتكرار فالله ذكر فى أوّل السورة انه ينزل الماء على الأرض فتهتز وتنبت من كل زوج بهيج يستدل به على البعث . وهنا ليس لذلك ولالغيره بل ليدلنا على ماذكرناه وأن الأمم يتجدّد شبابها بالحروب ويقاس عليها النوازل الكبرى كالزلازل والوباء العام . ان من يسمع القرآن وهو لم يدرس العلوم لأشبه بمن يسمع لغة أجنبية وهولايفهمها فانه يظن أن كلماتها عبارة عن نغمة واحدة ليست مفصلة ولامختلفة كمن يرى الشبح من بعيد فانه لايعرف أعضاءه ولا ماهو . هكذا نحن نرى الكواكب وهى لبعدها عنا لانرى فيها إلا قطعا لماعة كالماس ولانرى مافوق ذلك هكذا كل علم وكل فن نجهله ومن ذلك القرآن . فذكر اخضرار النبات مرة بعد أخرى وذكر ايلاج الليل فى النهار وايلاج النهار فى الليل فى مواضع مختلفة يجعل أكثر الناس لايعلمون ماالقصد من هذا التكرار والعلم هو الذى يجلى الحقائق . إن القرآن لايعرف إلا بقراءة علوم طبيعية ورياضية وفلكية وسياسية واجتماعية وروحية والله الهادى الى سواء الصراط اهـ

﴿ بهجة العلم فى قوله تعالى أيضا _ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير _ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على نعمة العلم والحكمة . اللهم إنا نحمدك على ماعلمت وعلى مانشرت من الحكمة فى الشرق والغرب وعلى ما ألهمتنى فألفت كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ فى نحو سنة ١٩١٠ أى قبل كتابة هذه الأسطر بنحو ١٨ سنة وأحمدك على أنك شرحت صدرى لهذا التفسير وانى ذكرت فيه كثيرا من الحقائق العلمية والسياسية وقلت إن الشرق والغرب يجب أن يكون عقلاؤهما وعلماؤهما متحدين لارتقاء نوع الانسان وانهم الآن لجهلهم قد تركوا مواهب العقول مبعثرة هنا وهنالك ومنافع الأرض والهواء والأضواء متروكة منبوذة وهم هائمون فى ضلالهم جادّون فى غواياتهم وحروبهم يأخذ زيد مافى يد عمرو من المال جهالة ونذالة وقد ترك أضعافه وأضعاف أضعافه فى خبايا الأرض وخفيات الطبيعة ونسى السوّاس وعظماء الأمم فى كل أمة من الأمم أرضا منبوذة لاتزرع ومنافع مهجورة لاتعرف ذلك للجهل العام فى هذا العالم . فالأرض الصالحة للزرع

فى الأمم المنبوذة المهجورة تنادى بلسان فصيح قارئة قوله تعالى ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ـ . الماء ينزل من السماء ويملأ الأنهار والأنهار تجرى على اليابسة وتمر والناس غافلون عن انعام نظامها . هذا نهر النيل ببلادنا يجرى الى البحر الأبيض المتوسط ويقولون إن البلاد بها نحو مليون وسبعمائة ألف فدان تصلح للزرع ويريدون أن يدبروا الماء الواجب لها حتى تخرج للناس رزقا . هذا مثل واحد من أمثال كثيرة . فالناس لشرههم فى الشرق والغرب يتركون أمثال هذا أضعافا مضاعفة فى كل أمة وتمتد أعينهم الى مافى أيدى اخوانهم جهالة قديمة العهد توارثتها الأمم كابرا عن كابر لأن العقول لم تكن مهيأة لأن تعقل ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ـ فليس الرزق خاصا بانتهاب مافى أيدى الناس قاصرا عليه بل هنا رزق أوسع وهو أن الأرض تخضر بانزال الماء عليها . إن الأمم لم تكن عندها مواصلات كما فى عصرنا ولم تكن العقول وصلت الى هذا النمو وعلى قدر اختلاط الأمم واتصالها يكون التفاهم والتعقل وسيعرف الناس قيمة الأرض وزرعها ومنفعتها ومنافع الاشتراك العام فى الثمرات

ان الأرض لله والناس كلهم أمة واحدة كما سيأتى فى سورة (المؤمنون) وكل أمة قصرت فى تعليم أبنائها أوفى نظام أرضها أوفى استخراج منافعها العامة فالأمم كلها يجب عليها أن تشاركها فى استخراج تلك المنافع طوعا أوكرها وتلزمها بذلك وتأمرها بتعليم جميع من فيها . إن فى كل أرض من المنافع ماليس فى غيرها وفيها من الخواص ماينفع المجموع فى الكرة كلها وتفويت خواص أرض فى أمة من أمم الأرض أوخواص عقل من عقول أبنائها حرمان لأهل الأرض كلهم من تلك الخواص فى الحالين . فلكل الأمم الحق فى مطالبة كل أمة بابراز مالديها من المواهب العقلية والخواص الأرضية وغير الأرضية . هذا هو الذى كتبت معناه فى كتاب ﴿أين الانسان﴾ وعرفه أهل أوروبا وكتبوا فيه . وأنا أزيد عليه الآن مالم أكن أعلمه إذ ذاك من العلم ـ وفوق كل ذى علم عليم ـ

هل كان يخطر لأهل العلم أن النبات كالانسان سواء بسواء . هل كان يخيل لنا ونحن ندرس فى الفلسفة القديمة ونقرأ فيها أن النبات يحس بالضوء وبالجهات بدليل أنه يميل الى جهة النور اذا نفذ من نافذة وينحرف عن الظلمة وانه يسير على حبل نصب له بين حائطين ولايميل عنه وانه يميل الى الرطوبة ويتجافى عن اليبوسة بعروقه الضاربة فى الأرض . وبالجملة له احساس بما يلائمه احساسا مبهما . أقول هل كان يخطر لنا ونحن نقرأ تلك الفلسفة ثم نكتبها فى هذا التفسير فى (سورة الرعد) ونحن نوازن هناك بين القديم والحديث . إذ رسمنا هناك بالتصوير الشمسى أنواعا من النبات الذى يصطاد الحشرات ويهضمها وقد رسم بعضه وهو قابض على الحشرة ليبتلعها وقد زود وقوى بالعسل وبالشكل الجميل وبالدهاليز المسواة المنمقة الملساء التى تغرى الذباب بالولوج حتى اذا دخل المكان فرحا بعسله وجماله ونعومته انقض النبات عليه فافترسه افتراس الآساد للغزلان والنمور للبقر الوحشى . أقول هل كان يخطر لنا إذ ذاك أن عالما نباتيا يظهر فى الهند فى أيامنا هذه ويقابل الوزير المصرى أثناء طبع هذه السورة تقريبا فى أوروبا ويدعوه الوزير المصرى الى مصر ويحضر اليها ويلقى محاضرة فى دار (الجمعية الجغرافية) يوم الاثنين ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٨

ان هذا العالم المسمى (جاجاديس بوز) الهندى قد برع فى هذا العلم حتى اخترع مالم يخترعه أحد فى أوروبا ولافى اليابان ولافى أمريكا إذ وصل علمه الى أن النبات كالانسان سواء بسواء فهو يحس وهو يتحرك وله دورة عصارية (أى بعصارة النبات) كالدورة الدموية للانسان وله احساس بألياف جعلته يحس أسرع من احساس الانسان وهو يمرض ويتأثر بالسم ويشفى من المرض بعقاقير طبية . وبالجملة أصبح النبات كالانسان سواء بسواء فى كل أحواله وكأنه نطق بقوله تعالى ـ والله أنبتكم من الأرض نباتا ـ فاعجب كيف جعل الله الانسان نباتا وهذا العالم (جاجاديس بوز) يقول كذلك بل انك سترى فى نص خطبته وتجربته أن الشرارة الكهربائية

أثرت فى النبات قبل أن تؤثر فى الانسان كما ستراه قريبا . أفلا ترى أن هذه نعمة أنعم الله بها علينا إذ أرسل هذا العالم الخطيب الى مصر أثناء طبع هذه السورة لنجعلها درسا وشرحا لما فى هذا التفسير من العلم ومن نظام الأمم العام . ومن عجب أن القرآن أكثر من التمثيل بالنبات فى أطوار كثيرة فان زهد فى الدنيا قال ــ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ــ الخ وان استدل على البعث قال ــ وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ــ وهكذا والعلماء يقولون ﴿ إن الانسان نبات مقلوب أغصانه يداه ورجلاه ورأسه هى جذر النبات ﴾

اذا عرفت هذا فلأذكر لك خطبة هذا العالم الذى قام دليلا على ماقلته فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ من أن عالم الشرق ينفع الغرب وبالعكس وأن جهل الأمم بمنع العز عن بعض أمم الشرق اضعاف للأمم كلها ومنها تلك الأمم المستعمرة لغيرها لأن ثمرات العقول فى الأمم المغلوبة قد ضاعت على الناس جميعا وعلى هذه الأمة القاهرة . ذلك العالم الذى أدخلته النمسا فى المجمع العلمى لديها وزاره ملك (بلجيكا) فى معهده العلمى (بكلكتا) . ذلك العالم الذى أدهش نوع الانسان باختراعه فقد كان الناس قد اخترعوا (الميكرسكوب) الذى يجسم الأشياء ألفى مرة ولكنه هو اخترع (كرسيكوغراف) يكبر الأحجام خمسين مليون مرة وهذا أمر عظيم وبهذا أظهر لنا سر النبات الذى يحس أكثر من الانسان . وقبل أن أنقل اليك الخطبة بحذافيرها أضرب لك مثلا فى إحساس الانسان وحركاته لأن احساس الانسان وان كنا نعرف ظواهره فيه خفايا وغرائب تحتاج الى ضرب الأمثال

﴿ طرق البريد وطرق المواصلات فى يد الانسان ﴾

سترى فى سورة (المؤمنون) فى نفس هذا المجلد عند ذكر الانسان ونموه انى سأشرح لك نظام اليد الانسانية مقتصرا عليها لتكون نموذجا لمعرفة غرائب جسم الانسان . فسترى هناك أن اليد الواحدة من يدى الانسان قد وجدوا لها (١٢) طبقة . ولما كان هذا الشرح ستراه هناك عدلت هنا الى ضرب مثل ليكون تنويعا فى الشرح مع سهولة فى التعبير لمناسبة ماهنا حتى نقيس عليه عجائب النبات حتى اذا قرأت خطبة العالم الهندى فهمت معنى ألياف الحس وقوة الحركة فى النبات فلأمثل لك اليد بمدينة عظيمة وهذه المدينة عليها سور من الخارج يحفظها ومتى دخلنا من باب السور وجدنا (ادارة البريد البرقى) أى التلغراف الذى لاسلك له ووراءها (ادارة الطرق والمواصلات) ووراء هذين (أنابيب المياه) لسقى أهل المدينة

هذا كله حاصل فى يد الانسان من جهة ظاهرها وحاصل نظيره فيها من جهة باطنها وتفصيله كما ستراه هناك موضحا بعضه بالتصوير الشمسى . إن ظهر يد الانسان عليها جلد فهو أشبه بسور المدينة وتحت الجلد مباشرة أعصاب الحس أى التى توصل مايقع على الجلد من إحساس بمكروه ومحبوب الى المخ ولولا هذه الأعصاب الموصلات لم يحس الانسان بحرق يده أو بقطعها فيضرب أو يحرق وهو لايحس بألم . فهذا الاحساس مركزه فى الدماغ وفى داخل الفقار أى فى الجهاز العصبى . فهذه الأعصاب عليها مدار الحياة إذ لولم تكن لهلك الناس والحيوان عن آخرهم وهم لايشعرون . ثم وراء هذه الطبقة طبقة أخرى يشرحها علماء الطب بأيديهم مستقلة فيها أعصاب الحركة . ومعنى هذا أن أعصاب الحس حينما توصل الخبر بالضار أو النافع وبالمؤلم أو السار من الجلد الى المخ تأمر القوة الحاكمة فى المخ بأسرع من لمح البصر أعصاب الحركة أى التى فى الطبقة التى تحت هذه الأعصاب التى سميناها (ادارة المواصلات) كالطرق الحديدية والطيارات وأنواع السيارات . فهذه الأعصاب أى أعصاب الحركة تقبض اليد مثلا أو تبسطها أو نحو ذلك من الأعمال المختلفة . فان كانت تلك الأعصاب من جهة ظاهر اليد بسطت وبالعكس فان أمرت القوة العاقلة فى المخ أعصاب الحركة بقبض اليد مثلا هيأت أعصاب الحركة التى فى جهة باطن اليد فقبضت اليد وان أمرتها بالبسط هيأت أعصاب الحركة التى فى جهة ظاهر اليد

فبسطت اليد . فللبسط أعصاب وللقبض أعصاب والمخ هو الآمر لكل حال بما يناسبها

اذا فهمنا هذا فى أمر اليد فهمنا مامعنى الاحساس فى الحيوان ومامعنى الحركة . واذا عرفنا أن وراء أعصاب الحس فى اليد وأعصاب الحركة الأوردة والشرايين التى تغذى الجسم بالدم فهمنا معنى قول هذا العالم الهندى أن فى النبات عصارة تفعل فعل الدورة الدموية فى الانسان

فلخص مايأتى فى أمر اليد أن هناك سورا يحيط باليد ووراء السور طرق البريد بجميع أنواعه ووراء البريد طرق الحركة والأعمال بجميع أنواعها ووراء هذه الطبقة الأنهار والترع والخلجان وهذا الترتيب عجيب فان وضع الطرق البريدية والبرق (التلغراف الذى له سلك أولا سلك له) وراء الجلد الذى سميناه سور المدينة لأجل أن تصل الأخبار حالا الى المخ ولولم يكن هذا الوضع على هذا النظام لاختل أمر الحياة لأن الجلد إذن لايحس بما ينتابه من قطع أوحرق فيهلك الانسان لعدم الاحساس لأن الاحساس قد وضع بعيدا عن هذه الطبقة وهذا سر عجيب وحكمة منظمة غريبة . ومعلوم أن مابعد العلم إلا العمل والعلم مقدم على العمل والعلم هنا يكون بأعصاب الحس فوجب أن تكون أعصاب الحركة تالية لها ليكون العمل . لذلك كانت أعصاب الحركة تحت أعصاب الحس كما نرى سلوك التلغراف فى بلادنا المصرية فوق الأعمدة المنصوبة . ونرى القضب المنصوبة أسفل منها على الجسور وعليها القطرات تمر . ولاجرم أن هذه تقابل أعصاب الحركة فى اليد ثم اننا نشاهد على جوانب الجسور التى عليها قضبان السكة الحديدية ترعا جانبية تسقى الحقول . فهنا أسلاك التلغراف تحتها قطار السير فى الأرض وتحتهما الأنهار لسقى الأرض وهنا كذلك سواء بسواء فأعصاب الحس فى مقابلة أسلاك التلغراف وأعصاب الحركة تحتها فى مقابلة قطار السكة الحديدية والشرايين تحت ذلك فى مقابلة الترع التى بجانبى الجسر الذى عليه تجرى القطرات . جل الله الذى شرح لنا مافى أجسامنا باظهار نظيره فى الخارج وأصبحنا نرى الأعمال فى المدن تضارع أعماله هوفى أجسامنا وأجسام حيواننا وأجسام نباتنا . اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم وعلى نعمة الايضاح ونعمة الفهم اذفسرت لنا بهذه الأعمال قوله تعالى — وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون —

يقدم الله الآيات التى فى الأرض على الآيات التى فى الجسم . لماذا . لأننا لانفهم الآيات والعجائب التى فى نفوسنا إلا بعد أن ندرس العجائب التى فى الأرض كما رأيت الآن إذ صارت طرق سكة الحديد والترع بجوانبها والتلغراف من فوقها هى عينها نفس مافى أيدينا ومافى أجسامنا ومافى حيواننا ومافى نباتنا من الترتيب والنظام البديع . هذا ما أردت أن أقدمه لفهم محاضرة الاستاذ (جاجاديس بوز) الهندى فهاك نصها

قام السر (جاجاديس) فصفق له الحاضرون وبدأ بالكلام على الرابطة بين الشرق و بعضه وقال إن العلم لاوطن له ولادخل للدين فى البحث العلمى . وقد قوبلت هذه الكلمات بالارتياح والاستحسان . وعمل السر (جاجاديس) تجربة دلل بها على أن النبات يحس أكثر من الانسان فقد أوصل شرارة كهربائية الى بعض الأشخاص ثم أوصلها للنبات ولم تحدث الشرارة تأثيرا فى الشخص ولكنها على العكس أحدثت اهتزازا فى النبات ثم سلط بعد ذلك شرارة قوية على النبات فأماتته ثم امتحن النبات على أثر الحادث بجهاز يميز الحياة من عدمها فاثبت أن النبات قد مات . وأجرى تجربة أخرى فوضع مقدارا كبيرا من السم على النبات فحدثت به اهتزازات تدل على الفناء . ثم أخذ المحاضر مقدارا من مستخرج نباتى خاص وألقاه على النبات فعادت اليه الحياة . وكانت كل هذه الأعمال موضع الاهتمام من الحاضرين واستخدم الفانوس السحرى أثناء إلقائه المحاضرة وقد ظل يلقيها ساعة ونصف ساعة وهذا تعريبها

﴿ ليس فى تاريخ الجنس البشرى حوادث ذات مغزى مثل قيام المدينتين العظيمتين على ضفاف نهرى النيل والكنج . وقد كان هناك اتصال فكرى منذ (٢٢) قرنا مضت بين البلدين العظيمين (مصر والهند)

عند ما أرسل ملكنا العظيم (اسوكا) رسله الى هذا القطر وأوصاهم أن يقدموا معارفهم وأن يتحدوا بالشعب ويرتبطوا به برابطة الاخاء . فلما جاءتنى الدعوة التى وجهتموها الىّ أحيت فى نفسى ذكرى الماضى . ولقد لقيت من الوزراء دعوة الشرق الحارة ورأيت من الشعب ماجعلنى أشعر بأننى واحد منكم فقبلت مااقترحتموه علىّ وهو أن أتخذ بعض الطلبة منكم تلاميذا لى لأطلعهم على الطرق الحديثة التى تميط اللثام عن السر العظيم الذى تكنه الحياة . ومع ان العلم ليس متاعا خاصا بالشرق أو بالغرب وهو عام يشمل جميع الأمم والشعوب فان الشرق يصلح لتقديم مساعدات كبيرة لترقية العلم بفضل عقليته ومواهبه الموروثة التى تلقاها من جيل الى جيل . أما التصورات الشرقية المتقدة التى تستطيع أن تستخلص من مجموعة الحقائق المتناقضة فى الظاهر نظاما جديدا ففى الوسع ضبطها وكبح جماحها بقوة التركيز والعادة التى جرينا عليها فى حصر الفكر . وهذا الضابط هو الذى يمنحنا القوة التى تساعدنا على استقصاء الحقيقة بصبر لاحدّ له . ولما كان العالم أجمع يعتمد بعضه على بعض فقد زاد تراث الجنس البشرى ونما بفضل المجرى الفكرى المستمر الذى يفيض علينا جيلا بعد جيل . ولاريب أن الاعتراف بهذا الاعتماد المتبادل هو الذى ربط الشعوب البشرية العظيمة وقيدها معا وضمن استمرار المدنية ودوامها

﴿ حياة النبات والحيوان ﴾

إن الرأى المتفق عليه اجمالا هو أن حركة الحياة الميكانيكية تختلف فى الحيوان عنها فى النبات اختلافا كبيرا . فالحيوان يحس ويتأثر بهزة كهربائية سريعة . أما النبات فيعد اجمالا بأنه لايحس بضربات متوالية وللحيوان أنسجة نابضة لدورة الدم المغذى بخلاف النبات فان المزعوم انه لايشتمل على أنسجة نابضة وأعضاء الحواس فى الحيوان تلتقط رسائل الحوادث الخارجية وتنقل اختلاجاتها بواسطة الأعصاب فتحدث حركات عكسية أما النبات فالمزعوم أنه خلو من مثل هذه الأنسجة الناقلة . وعلى هذا فالمظنون أن هناك مجريين للحياة يجريان جنبا الى جنب دون أن تكون لأحدهما علاقة بالآخر ولكن هذا الرأى خطأ فى خطأ وكان من جراء النظريات الفاسدة وما أحدثته من أثر أن عرقل تقدم العلوم والمعارف . والعقبة الحقيقية التى عرقلت سير البحث فى حياة النبات هى الحقيقة الواقعة وهى أن تفاعل الحياة يقع داخل الشجر المظلم الذى لاتستطيع عيوننا اختراقه والوصول اليه فكان لابد لنا والحالة هذه من اختراع آلات غاية فى الدقة والحساسية تستطيع الوصول الى أصغر وحدة من وحدات الحياة لتدوين نبضها وهزاتها . وقد كان اختراع (الميكرسكوب) الذى يجسم الأشياء أنى مرة عهدا جديدا فى تقدم علم الحياة . أما جهازى المعروف باسم (كرسيكوغراف) الذى يكبر الأحجام تكبيرا هائلا يبلغ خمسين مليون مرة فقد أخذ الآن يميط اللثام عن غرائب عالم جديد فبدأ النبات نفسه يكشف عن أسرار حياته الخفية . وقد صنع هذا الجهاز هنود ميكانيكيون تدربوا فى معهدى . ومعلوم أن التقدم الاقتصادى فى أية بلاد يتوقف على التقدم فى الاكتشاف والاختراع . ومن هذه الوجهة يستطيع العقل الشرقى اظهار مافيه من قوى كامنة . وقد كانت النتائج الجديدة التى حصلنا عليها فى معهدى فيما يتعلق بتأثير العقاقير الطبية فى الحيوان والنباتات ذات شأن عظيم فى ترقية الطب . وقد كان لمراقبات النمو التى سجلها جهازى المجهر الفائق فضل فى جعل تفاعيل النمو من المرئيات وتسنى بواسطته تحديد ناموس النمو ومعرفة هذا الناموس من الامور الجوهرية للتقدم فى الزراعة العملية التى يتوقف عليها اعداد المواد الغذائية للعالم

﴿ النبات أشد إحساسا من الناس ﴾

ماكان الناس يظنون أن النباتات العادية حساسة أما الآن فقد عرف ذلك بالاختبار العجيب بواسطة الجهاز الذى يسجل أدنى حركات التقلص

﴿ نزع الموت فى النبات ﴾

وضعت نباتة فى الكرسى الكهربائى بعد بلها قليلا لتسهيل سير الكهرباء فيها وقد ظلت النباتة هادئة هنيهة كما تبين ذلك من ثبات خط الضوء المنعكس من الجهاز المجسم ثم أدير مفتاح كهربائى فسمع دوىّ كالرعد فى الجهاز فأحدث ذلك تقلصا من النباتة واندفع خط الضوء بعنف الى اليسار ولكن النباتة لم تكن قدماتت بعد ثم سمعت دمدمة التيار الكهربائى المهلك أعقبه تقلص آخر شديد وانحرف خط الضوء مباشرة نحو اشارة الموت الذى لارجوع بعده الى الحياة وقد سلط تيار آخر على النباتة ذاتها فلم تتأثر بل سكنت سكون الموت

﴿ دورة العصارة ﴾

إن الدورة الدموية فى الحيوان يسببها دفعات الأنسجة النابضة التى تتخذ فى الحيوانات الدنيا شكل أنبوبة مستطيلة وهذه الدفعات تسير الى اتجاه خاص بواسطة حركة دودية فى النبات أيضا وبها تقوم الدورة العصارية فى النبات . وأعجب من ذلك ما للعقاقير من التأثير نفسه فى ضربات النبض فى الحيوان والنبات سواء . وقد بلغت دهشة الحاضرين أشدها عند ما عرض (السرجاجاديس بوز) أمامهم تأثير السم وترياقه فى ضربات بعض النبات فان استعمال السم جعل النبض يضعف شيأ فشيأ على حين كان ضغط العصارة الذى هو بمثابة ضغط الدم فى الحيوان ينخفض باطراد حتى كاد يتلاشى وكانت النباتة فى هذه اللحظة تختلج بحيث لومالت قليلا شطر الموت لوقف دولاب حياتها ثم استعملت كمية من خلاصة نبات هندى فشاهد الحاضرون إذ ذاك النضال بين الحياة والموت الى أن تغلب فعل الترياق فى النهاية فاستطاعت النباتة الافلات من مخالب الموت وعلى هذا المنوال اكتشف تأثير عدد كبير من النباتات الهندية وخاصياتها الطبية التى لم تكن معروفة قبلا وفائدة بعض هذه النباتات هى أعظم جدا من أية عقاقير أخرى معروفة فى عالم الطب وقد وقع فعلا أن استعملت خلاصة إحدى هذه النباتات فى ضفدع سكن قلبه كلية فعادت اليه الحياة . ولاريب أن هذا البحث سيؤدى الى وضع (فرماكونيا) جديدة تضاف اليها من العقاقير لتخفيف آلام الانسانية وأوصابها

﴿ تدرّج الحياة من النبات الى الحيوان ﴾

يمكننا أن نتتبع مدارج سلم الحياة الطويل ونرى أن النبات هو أقرب الينا كثيرا مما كنا نظن وندرك أنه ليس نموّا نباتيا فحسب بل ان أليافه الدقيقة كلها إحساس وقد تبين لنا أن النبات يتأثر بالصدمات الخارجية بحركة تقلص تبدو منه وأن جسم النباتة يرتبط بعضه الى بعض بخيوط موصلة حتى ان الهياج الذى يحدث فى أى جزء منه يسرى فيه كله . وقد تسنى لنا أن نسجل ضربات نبض حياة النبات ونجد انها تقوى وتضعف بحسب درجة قوّة الحياة فيه وانها تسكن عند موت النباتة ونرى من هذه الحال وغيرها من الأحوال الكثيرة أن تفاعيل الحياة فى النبات والانسان متشابهة وانه بالاختبارات التى يمكن أن نجريها فى النبات يتسنى لنا أن نخفف آلام الناس وأوجاعهم ﴾ انتهت الخطبة

هذه هى الخطبة التى خطبها ذلك الضيف الهندى النابغة فى علم الحيوان وبه صحّ ماطالما قلته فى هذا التفسير كما سيأتى فى سورة (المؤمنون) عند قوله تعالى ـ وأن هذه أمّتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ـ وأن الناس جميعا يساعد بعضهم بعضا فى العلم وأن الانسانية اليوم لاتزال طفلة جاهلة فما العلماء فى الأمم إلا كالملائكة وما الدوّاس فى الأمم إلا كالملائكة ظاهرا وكذئاب ووحوش باطنا فهم ذئاب يلبسون لباس الملائكة هذا هو العالم الأرضى الآن وربما يأتى زمان يصبح الناس فى هذه الأرض كلهم متساوين فهم إذن يسعدون سعادة لم يحلم بها نوع الانسان . ولكن إياك أن تظنّ أن أهل الأرض مهما نالوا من الاتحاد والعلوم يصلون الى منتهى السعادة فى هذه الأرض بل ينالون سعادة نسبية . ألاترى أن أهل الأرض اليوم محبوسون فيها لايستطيعون الصعود لعالم الأفلاك وهم فى هذه الأرض ولايقدرون على الصعود فى جوّ أرضنا إلا بطيارة

لها شرائط مخصوصة فاذا اختلّ شرط منها أحرقتها النار وأحرقت من فيها كما قال تعالى ـ يامعشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان * فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان ـ وإنما لم يكن لهم سلطان على ذلك لأن الأرض اليوم تجذبنا اليها بشئ يقال له الجاذبية وماهذه الجاذبية إلانوع من المقامع المذكورة فى أوّل السورة لأن أرضنا من عالم المادّة الغليظة فلها بجهنم نوع شبه فعندنا مقامع يقعدنا فى الأرض ويبعدنا عن الجوّ ومقامع يؤلمنا بالجوع وآخر يؤلمنا بالعطش ثم بالشبق ثم بالغضب ثم بالطمع ثم بالحسد الخ فعندنا الآن مقامع تعدّ بالعشرات كلها تؤذينا وتقهرنا على الأعمال للضر والنفع والجلب والدفع فهى كالمقامع الحديدية فى جهنم . فهانحن أولاء نحسّ بدافع يدفعنا عن الارتفاع فى الجوّ نسميه الجاذبية والهواء الجوّى يضغط على أجسامنا بعشرات القناطير لحفظها كما تقدّم فى (سورة النحل) عند قوله تعالى ـ إنّ الله يأمر بالعدل ـ الخ

نحن هنا أجسامنا غليظة لانقدر أن نطالع الأفلاك ولاأن نسيح فى المشترى أوالمريخ فضلا عن الشمس والجوزاء وما أشبه ذلك . أهل الأرض جميعا محبوسون فيها قد منعوا من أقطار السموات العلى لغلظ أجسامهم لأن أرواحهم لاتزال طفلة فاذا ارتقت وخفت ساحوا فى أقطارها وعرفوا أخبارها . إن الله حبسنا هنا وجعل حبسنا مرقيا للمحبوسين بدليل أنه جعل محل الحبس دار أعمال فأتى لهم بجميع مايحتاجون اليه فى أعمالهم من أعمال الكسوة والغذاء والزينة . فهاهوذا زرع الأرض وشقّ أنهارها وزانها بكل جمال وكمال وقال لهم هذه أرضى فهى وان كانت سجنا لم أجعلها محل عقاب بل دار تعليم فمن لم يتعلم أولم يتهذّب فأنا له بالمرصاد وعلى ذلك تكون هذه الدنيا مهما ارتقى أصحابها لايبلغون الكمال المطلق لأن الكمال المطلق فى عوالم الجنات والحمد لله رب العالمين

﴿ فصل فى ذكر أن كل أمة لها شريعة ونحوذلك ﴾

قال تعالى (لكل أمة جعلنا منسكا) أى لكل أهل دين جعلنا شريعة تعبدوا بها (هم ناسكوه) عاملون به (فلاينازعنك فى الأمر) فى أمر الدين (وادع الى ربك) الى توحيده (إنك لعلى هدى مستقيم) طريق الى الحق سوىّ (وان جادلوك) وقد ظهر الحق ولزمت الحجة (فقل الله أعلم بما تعملون) من المجادلة الباطلة (الله يحكم بينكم يوم القيامة) يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بالثواب والعقاب كما يفصل بينهم فى الدنيا بالحجج والآيات (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين (ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض) فلايخفى عليه شئ (إن ذلك فى كتاب) هو اللوح المحفوظ (إن ذلك) أى ان الاحاطة واثباته فى اللوح المحفوظ (على الله يسير) لأن علمه مقتضى ذاته (ويعبدون من دون الله مالم ينزّل به سلطانا) حجة على جواز عبادته (وماليس لهم به علم) حصل لهم بالاستدلال (وما للظالمين) الذين ارتكبوا هذا الظلم (من نصير) يدفع العذاب عنهم (واذا تتلى عليهم آياتنا) من القرآن (بينات) لأن القرآن يبين مايحتاج اليه فى الدين وفيه دلائل العقائد الحقة (تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر) الانكار لغيظهم ولما جدوا عليه من المذاهب الباطلة (يكادون يسطون) يبطشون (بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشرّ من ذلكم) من غيظكم على التالين وسطوتكم عليهم هو (النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) النار

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ لكل أمة جعلنا منسكا ـ ﴾

لما جاء قوله تعالى ـ ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ـ وبين به كيف تتجدّد الأمم بأهوال الحروب ويصلح الناس وتنشأ شعوب أرقى مما قبلها كماينشأ فى الأرض بسبب ماهطل من المطر فيها نبات على آثار النبات الهشيم الذى كان فوق الأرض أعقبه بتبيان بعض ذلك كأنه مثال له فقال هانحن أولاء أرسلنا أنبياء وخلقنا أمما وقد طال الأمد عليها فقست القلوب فأردنا أن نجدّد ملكنا ونحيي مادرس من

دروس الاصلاح الأخلاقى والعلمى فأرسلناك وأمرناك أن تمزّق الأغشية التى غشت على العيون والأباطيل التى ربطت على القلوب والحجب التى نصبت بين الحلق و بين الحق تارة بالقول وتلاوة القرآن وتارة بالحرب وسجال الطعان حتى نخرج أمة للناس وشريعة جديدة تجدّد ما اندرس وتحيى ما مات من فضائلنا فى خلقنا واصلاحنا لشؤنهم فجعلنا لك شريعة غير شرائعهم حديثة النشأة أوجبها الجهاد العلمى والحربى كما ينبت نبات جديد أثر المطرفتخضر الأرض لمالنا من اللطف فى الجليل والصغير . فكما وصلنا الى دقائق النبات وجليل الشجر مواهب ومحاسن وجليناهما للناظرين هكذا أبدعنا شريعتك وجعلناها قائمة مقام الشرائع الدارسة والديانات المائتة لنحيى الآمال ونجدّد الأمم كما نجدّد النبات بعد النبات والشجر بعد الشجر فكيف يجادلونك فى أمر نحن قدرناه أو ينازعونك فيما اخترناه . إنانحن قدّرنا أن نجعل هذا العالم فى ارتقاء كما نجدّد مااندرس ونحيى الموات فهكذا نحيى الأمم . ان الأمم من الأرض فلهم شأنها فانا نحن المنزلون مطرا والموحون علما نحن المزجون السحب المرسلون الرسل والزارعون النبات والمجدّدون الأمم بشرائعها إذ لانبات لأمّة إلا بشريعتها ولاشريعة باقيـة ولا كتاب إلا مع رسول فكيف يجادلونك وقد ظهر الحق وأصبح البرهان واضحا على مقتضى سنن الكون المشاهد لهم وهم لايفقهون فأجبهم ان جادلوك بأن الله بأعمالهم عليم وهل يخلف وعده ويخرم سننه و يقف حركة الأمم الأرضية المستقبلة لأناس لايعقلون . ان الحق غالب والباطل زاهق فلتغلبنّ فى الدنيا وليحكمن عليكم بالعقاب فى الآخرة فان الله يعلم ماتفعلون وكيف لا يكون ذلك وهو يعلم مافى السموات والأرض قد كتبه فى اللوح المحفوظ

﴿ بدائع القرآن ﴾

من تأمّل فى هـذه الآيات عجب من أسلوب الكتاب العزيز فبينما نحن فى حرب وجدال مع أعداء الدين اذا نحن بين الكواكب المشرقات و بدائع السموات وأضوائها المشرقات والأنوار والظلمات ثم انتقلنا الى الرياض النضرات والمزارع الخضرات والأزهار الجيلات والأثمار النضرات ثم انتقلنا الى فلك فى البحر جاريات ونظرة سامية الى السموات وابتهاج بحفظها وهى سائرات

فهذا معرض تجلت فيه صور جميع ﴿ المواليد الثلاث ﴾ الانسان والنبات والحيوان فالحيوان مما سخر لنا فى الأرض . ففى هذه السورة ذكرت المواليد مرّتين مرة فى أوّلها ومرة فى أواخرها حثا على النظر فى الموجودات وتنبيها أن الحرب والقتال ممهد لدرس العلوم فطرد العدوّ من البلاد وحفظ الثغور واقامة الحدود سبيل لاقامة الامن وحفظ البلاد من الاضطراب . هنالك يتفرّغ العقلاء للنظر فى هذه المبدعات والتحلى بهذه المكرمات . وانى أحمد الله عزّ وجل إذ جعل أوّل حياتى فى الحقول فدرستها درسا سطحيا قبل أن أعرف تفسير القرآن وعجبت من بديع الاتقان وصنع الرحمن ولما اطلعت على العلوم الحديثـة ودرست الفلسفة القديمة رأيت أن القرآن ينحو نحو الحكمة ودراستها والحقول وفهمها والجنات وعلمها والأشجار وأنوارها والأزهار ولقاحها والثمرات ومنافعها والعيون وجريانها فلتكن الحقول درس المسلمين ولتكن السموات لنار المتعلمين ودرس المفكرين والشموس والكواكب محور تعليم المتعلمين ـ لمثل هـذا فليعمل العاملون ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ـ

﴿ بهجة العلم ومسامرة فى قوله تعالى ـ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلاينازعنك فى الأمر وادع الى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ـ ﴾

إن الله عزّ وجل جعل المناسك مختلفات ولكنها تصبح كأنها عادات عند الأمم ودين الاسلام هو الهادى الى خير المناسك . إن من ينظر ديانات الأمم وعاداتها يجد اختلافا كاختلاف الألوان واللغات والأطعمة وهكذا. تذكر ماتقدّم فى أوّل سورة (طه) إذ ذكرت لك هناك قوما من السودان عنـد ساحل الذهب بأفريقيا فى

مملكة (اشانتى) وكيف كان دينهم وعاداتهم من أشق العادات والديانات وترقب مايأتى فى أوّل (سورة الفرقان) عند قوله تعالى - ليكون للعالمين نذيرا - إذ ترى هناك قوما على نهر (نيجر) قد أسلموا وتبدّلت عاداتهم بالنظافة والصلاة والعدل بعدأكل الرمم والظلم وقبيح العادات . فالله يقول أيها الناس أنتم مختلفون فى أحوالكم وهذا الدين هو الهدى فاتبعوه . فهل لك أن أحادثك بماجاء به المستر (ممسون) العالم الأمريكى الرحالة الشهير ذكره حين رجوعه من رحلة فى أواسط افريقيا حيث قضى خمسة أعوام مقيما بين القبائل هناك . وقد نشر بعض الأخبار عما شاهده فى هذه الأقاليم والى القارئ تعريب احداها وهى خاصة بالمرأة

﴿ الزواج ﴾

قال « مررت بقبائل عديدة من العبيد منهم رحالة ينتقلون من جهة الى أخرى كما يفعل العربان فى البادية ومنهم مقيم فى قرى صغيرة يبنون بيوتها من القش والطين . والمرأة عند جميعهم تقوم بأعمال شاقة قلما يقدم عليها رجل حتى انى مررت بقبيلة لاعمل للرجل فيها إلا اعداد الطعام والقيام بالأعمال البسيطة فالمرأة هى التى تخرج الى الصيد والقنص فتعود بالطيور والحيوانات الى زوجها وتلقيها بين يديه ليعدّها للأكل بينما تستمر هى فى العناء والتعب . أما اذا هوجمت القبيلة واعتدى عليها عدوّ ما فان الرجال تهبّ حينذاك مع النساء للدفاع عن الجنس المشترك فيتناول كل واحد قوسه ونباله . على أن النساء يتولين بأنفسهن القيادة . ورأيت قبيلة أخرى تعيش فيها المرأة بعكس ماذكرت فهى لاتعد انسانا فى نظر الرجال بل حيوانا داجنا ترسله الأرواح العالية كما يسمون آلهتهم لخدمة الرجال فاذا ماوضعت المرأة طفلا يدخل الوالد عليها و يسأل من يحيط بها من النساء (ذكر أم أنثى) فاذا أجابوه (ذكر) هلل ورقص وتقدم من زوجته ووضع على عنقها قبلة والقبلة فى عرفهم أن يعض بأسنانه عنق زوجته ثم يأخذها بيده و يوقفها و يخرج بها الى الهواء الطلق حيث ينادى جيرانه من أبناء القبيلة و يطلعهم على الخبر السار مفاخرا بزوجته . أما اذا أجابوه (أنثى) فانه يغطى وجهه بيديه و يلعن امرأته وساعة زواجه بها و يخرج غاضبا ولايعود الى مواجهتها إلا بعد أن يكبر الطفل و يستطيع السير على قدميه . هذه هى العادة المرعية عندهم . ومن أفظع مارأيت أن الأخ يتزوّج بأخته وأن الرجل الواحد كثيرا مايتعاقد مع رجل آخر على أن يزوّجه بناته جميعهن أيا كان عددهن » أما الزواج فيتم عند تلك القبيلة بالطريقة الآتية « يوجد على مقربة منهم فى إحدى الغابات الكثيفة حيوان صغير نادر الوجود جدا يسمى (غومى) وهو من نوع من الغزلان لايزيد حجم جسمه على جسم الخروف الصغير فيجب على الرجل الذى يرغب الزواج من احدى الفتيات أن يقدم لها هدية غزالا من تلك الغزلان فيخرج الرجل بعد الاتفاق مع والد الفتاة ولايعود الى القبيلة إلا حاملا الحيوان المطلوب . أما اذا لم يوفق الى صيده وحمله الى عروسه فانه لايعود الى القبيلة بل يرحل عن تلك البقعة و يبحث عن مكان آخر يعيش فيه . واذا ساعده الحظ وعاد بفريسته فانه يقدمها الى الفتاة التى تصبح بعدذلك ملكا له يفعل بها مايشاء و يملك عليها حتى الموت والحياة . ومررت بقبيلة أخرى من عادة النساء فيها أن ينزعن عنهن الشعر سواء كان من الرأس أو من الجسم فاذا نظرت الى امرأة منهن لاتجد على جسمها كله من رأسها الى قدمها شعرة واحدة . أما الرجل فانه يترك شعره ينمو وكثيرا مايلجأ الى دهن جسمه بمركب نباتى يستعمله القوم لانماء الشعر فترى الرجل وهو أشبه بالقرود كثير الشعر كثيفه والمرأة هناك تمتاز عن أخواتها بكبر شفتيها وضخامتها فالمرأة الجميلة هى التى تكون شفتاها أضخم من شفتى غيرها من نساء القبيلة فتراها والحالة هذه تستعمل طرقا غريبة وتستنبط الحيل لتضخيم شفتيها كما يستعمل الرجل طرقا أخرى لانماء شعره . ومن أغرب مارأيت قبيلة لا يطلب فيها رجل امرأة للزواج بل المرأة هى التى تختار زوجها وتطلبه من أمه فاذا رضيت الأم تمّ العقد بين الفريقين ولارأى للرجل فى ذلك . واذا كان لايرضى بالمرأة التى طلبته لزواجه فان الزواج يعقد بالرغم منه وليس عليه إلا الطاعة العمياء . ورأيت

ايضا

أيضا قبيلة من العار فيها أن تكون المرأة نحيلة الجسم كما انه من العار فيها أن يكون الرجل ضخم الجسم بل يجب أن تكون المرأة ضخمة والرجل نحيلا . والمرأة النحيلة الجسم لاتجد من يرضى بها زوجة كما ان الرجل الضخم لايجد من ترضى به زوجا ولله فى خلقه شؤن »

هذه بعض مايختلف الناس فيه من العادات والأديان والله يقول ـ فلاينازعنك فى الأمر وادع الى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ـ اهـ

﴿ كيف كان مبدأ اشتغالى بالعلم ﴾

لقد ساقنى لذكرهذا الموضوع تكرار الآيات القرآنية للعلوم الفلكية والطبيعية فآثرت أن أذكر لك أيها الذكى ماشاقنى الى هذا وما أثر فى النفس فى أوّل حياتى لترى كيف أنعم الله عليك وساق لك العلم سهلا شهيا حلوا جنيا فأقول ايضاحا لما رمزت اليه آنفا مايأتى

لقد كتبت هذا الموضوع فى أوّل كتاب ﴿ التاج المرصع ﴾ الذى نشرمنذ (٢٠) سنة فلأذكر هنا ما أذكره فى النفس من تلك الأحوال فأقول

كنت فى أوّل أمرى مجاورا بالجامع الأزهر ثم قامت الحوادث العرابية ودخل الانجليز بلادنا فانقطعت ثلاث سنين عن العلم وكنت فى أثناء ذلك أزاول الأعمال الزراعية بيدى مع من يزرعون وقد اعترانى مرض طويل فى المعدة لازمنى وقدكان والدى فى مرض أيضا وفوق ذلك كله كنت أفكر فى هذه الدنيا وأقول ياليت شعرى ألها خالق . وهل الأنبياء كلموه انى لا أصدق إلا اذا عرفت أنا بنفسى ولا أتكل على أحد . ان هذه الطرق الحديدية تجرى عليها القطرات وليست من صنع المسلمين . فياليت شعرى ماذا يقول الفرنجة الذين صنعوه . هل لهذا العالم إله أنا لا أصدق إلا اذا عرف عقلى . ان هذا العالم ليس فيه شئ من النظام . انه مبعثر . انه مختل معتل . انى أرى هذه البقرات وهؤلاء الرجال والنساء وهذه الحبات من الذرة توضع فى الأرض وهذا الماء الجارى فيها وهذه المحاريث التى تشق الأرض كل ذلك غيرمتناسب ولامنتظم فالمرأة واقفة والرجل كذلك والمحراث ممتد مستطيل من الأرض الى أعلى كأنه زاوية والثوران رؤسهما الى الامام والرجال والنساء رؤسهم الى أعلى والماء يجرى على الأرض لايرفع رأسه مثلهما . فهذه الدنيا مضطربة مرتبكة مختلة لا أرى فيها نظاما ولا احكاما واذا فقد النظام والاحكام فلا إله خالق ان هى إلا أحوال متغيرة وأمور مبعثرة ولدها الاتفاق وأظهرتها المصادفات . فلما أحسست بهذه الخواطر رجعت الى نفسى وقلت ان العلماء فى الدين يقولون اننا ننظر للعالم العلوى والسفلى فهاأناذا نظرت فلم أجد إلا خللا ولم أزدد إلا شكا فلم يبق عندى أمل إلا فى أمر واحد وهو أن أوجه قلبى الى من صنعنى فان كان موجودا أجابنى وهذا هو الأمر الذى أجعله نصب عينى حينئذ شمرت عن ساعد الجد وأخذت أصوم بعض الأيام وأصلى بعض الليالى فكنت أجد فى ذلك لذة وسرورا وتوجهت اليه سائلا بقلب محترق . ولكم قلت ياخالق هذه الدنيا . أنا لم أخلق نفسى بل وجدت انى هكذا وانى أوجه قلبى الى ذلك الموجود الذى خلقنى واذا كان خالقا لى فهو عظيم وكبير ورحيم وأن لى جسما وروحا فلتتوجه الروح اليه ولتسأله أن أقف على الحقيقة . يا الله أنت خلقتنى فعلمنى . أواه . ومن لى بأن أقف على هذا الوجود وسرّه فأكتب ما أقف عليه لمن بعدنا حتى اذا وجد فى الدنيا من احترق فؤاده لمعرفة هذه الدنيا رأى أمامه ماجربت من الأعمال وماقاسيت من الأحوال فيهتدى ولايجد هذا العناء . وصرت أطلب ذلك فى الحقول وعلى شطوط الأنهار . ولكم دعوت فى الخلوات وناجيت فى الصلوات فى المنزل وعلى شطوط الأنهار . وتارة أحضر تفسير القرآن للجلالين وأقرأ تفسير الألفاظ الذى كتب هناك فأقول يارب هذه الظواهر لم أقف على سرّها أما اللفظ ففهمته فأين عجائب الدنيا . وبينما أنا كذلك إذ وقع فى يدى كتاب جاء فيه حديث ﴿ لقد أنزلت علىّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له ثم قرأ ﷺ ـ إن فى خلق

السموات والأرض ـ الخ ﴾ فقلت هذا حسن أمن هذا الباب كان دخول الأنبياء فصرت أقف على شواطئ الأنهار وفى الحقول وأنظر الى السحاب وأفكر فيه وهذا ابتداء العجب . وتارة كنت أجلس على شاطئ نهر يسمى (أبا الأخضر) ومعى كتاب (الجلالين) وكتاب ابن عقيل فى النحو وأطالع فى هذا وفى هذا وأقول ياسبحان الله ان القوم حولى فى الحقول لا يسمعون لابن عقيل ولا لغيره فكيف أقرأ هذه الأشياء ولا شأن لها فى بلاد الفلاحين ولكن كان الوجدان يسوقنى والفكر يشوّقنى . وتارة أبحث على حشرات بين الأعشاب عسى أن أجد فيها مايشم منه رائحة النظام والاحكام . وأذكر انى مرة عثرت على حشرة صغيرة مستطيلة الشكل قد خطت عليها خطوط بيض ناصعات وأخرى حرقانيات وقد كان منظر الخطوط جيلا بهيا وقد رسمت الخطوط بهيئة نظامية وان لم أكن أعرف إذ ذاك شيأ من الهندسة فقلت إن صانع هذا الكون قد جعل فى هذه الحشرات نظاما فلأبحث عن النظام وعن الاحكام فعسى أن أوفق وتذكرت ماكنت أسمعه من الأشياخ أن العلم كله أصله فارسى لأن الأزهر إذ ذاك لم يكن كهيئته اليوم وماكنت لأظن أن أحدا فى الدنيا يعرف شيأ من هذه الكائنات وأن الذين عرفوها قد ماتوا أيام تدهور المسلمون مع ان المدارس فى مصر كانت زاخرة بتلك العلوم وأورو بامشحونة بها ولكن التلميذ يتبع مايلقى اليه اتباع الولد لأمه والمسيحى للقسيس والمسلم للشيخ والولد لأبيه والناس جميعا محبوسون فيما يعلمون يجهلون ماوراءه بل ينكرونه ثم أخذت أطالع تفسير القرآن كل يوم ربعا وكان الجزء يتمّ فى ثمانية أيام وكنت أحفظ التفسير عن ظهر قلب حفظا عقليا ظنا منى أن فهمه حرام كما كان يقال إلا بتوقيف من الشيخ ثم أخذت أدرس ذلك أشهرا قليلة وأنا أدعو الله فاستجاب الدعاء ووصلت الى الأزهر ثانيا وزال خطر الانقطاع منه وأتممت العلوم التى كانت فيه على وجه التقريب ثم دخلت الى مدرسة (دار العلوم) وكانت زاخرة بكل ما أريده ووجدت فيها كل ماكنت أصبو اليه وأنا فى الحقول وكنت أتعجب أن يكون هذا فى بلادنا وأنا عنه محجوب فوجدت أن النفوس الانسانية قد بحثت وفكرت . ولقد كنت أعتقد أن الدروس التى أقرؤها عبادات وانها خير العبادات حتى فن الرسم فكنت أرسم فى الدرس وأنا معتقد أنه عبادة لأنه مشحذ للذهن مقوّ للعلم معلم للنظام الذى كنت أبحث عنه فى الحقل فلا أجده . كل ذلك بعد مادرست القرآن فى الأزهر الشريف على جلة الشيوخ الكبار ثم صرت مدرّسا فى المدارس المصرية الابتدائية والتجهيزية والعالية وكذا (الجامعة المصرية) أيضا فى قليل من الزمن . وفى أثناء ذلك كنت اختلس من الوقت ما أقدر عليه وأؤلف كتبا فبلغت الرسائل والكتب مايقرب من أربعين ونشرت بين المسلمين وذلك لأنى بعهدى الذى عاهدت الله عليه ولم يكن فى شئ من ذلك منى تكلف بل كان الوجدان هو الذى يسوقنى وهناك تجلت فى النفس أحوال تدعو الى النشر بين المسلمين لامحل لذكرها الآن . وهاأنا ذا أكتب فى هذا التفسير مايفتح به علىّ . أقول وانى الآن أحمد الله عزّ وجل إذ وصلت فى التفسير الى هذه السورة وما كان ذلك من الميسور ولا بعضه ولكن الله هو الذى أعاننى وهو الذى سهل ذلك لى وان أقصى ما أردته فى هذه الحياة أن أتم هذا التفسير وأن ينشر وعند ذلك أعتقد انى أدّيت ما أعتقد انه واجب علىّ دينا ووجدانا وهناك هناك أشعر بإتمام المطلوب وأن ولوعى بنشر هذه الآراء كولوعى بمعرفتها فأنا اليوم كنفسى من قبل يوم أن كنت صغيرا هنالك الاهتمام بالتعليم وهنا الاهتمام بالنشر وهما فى النفس سواء بل انى أجد فى القلب شديد الاهتمام بثانيهما أكثر منه بأوّلهما . وهاهو ذا أمانة فى يديك أيها الذكى وستقرأ فيما كتبه الكاتبون من الأمة الاسلامية فى الشرق والغرب فاجعل نصب عينيك هداية المسلمين ـ ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوى عزيز ـ

﴿ أمة الاسلام والعلوم ﴾

هذا هو الدين الاسلامى وهاهو ذا القرآن يذكر المواليد الثلاثة فى سورة (الحجر) ومابعدها الى هذه السورة نحو ست مرات منها مرتان فى النحل ومابعدها الى هنا وهذه أوروبا المسيحية فانى لما قرأت اللغة الانجليزية

واطلعت

واطلعت فيها وفيما ترجم من لغات أخرى ألفيت العلوم هناك زاخرة وألفيت صلاتهم ليس فيها شئ إلا مايقرب من قولهم « ربنا آتنا خبزنا يومابيوم الخ » ووجدت أمة الاسلام هذا شأنها ودينها غنى بالمباحث فى العالم كله وهى غافلة نائمة . ومن عجب أن المسلم لم يدعه الى العلوم كلها القرآن فحسب بل نرى انه فى صلاته يقرأ كل صباح ومساء ـ الحمد لله رب العالمين ـ والحمد هنا على التربية العامة للعالم كله ويكون الحمد على مقدار ماعرف الانسان من النعم ولامعرفة للنعم إلا بالعلم . وترى المسلم فى ركوعه يقول مخاطبا لربه ﴿خشع لك سمعى و بصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين﴾ فكيف يقرأ السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وهو يجهلها ور بما مات المسلم وهو لايدرى ماعصبه ولاماهى وظيفته . والأقرب من ذلك قول المسلم فى السجود ﴿سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشقّ سمعه و بصره ـ تبارك الله أحسن الخالقين ـ﴾ فكيف يعرف انه أحسن الخالقين وهو يجهل تشريح العين وطبقاتها السبع ورطو باتها الثلاث ويجهل طبلات الأذن ومافيها من العجائب . أما العامة فهم مشغولون فكيف ينام الخاصة . وكيف ينام الأذكياء . وكيف تكون صلاة المسلم حائلة له على علم التشريح وعلى علم وظائف الأعضاء وعلى علم الحس والمحسوس وهو لايحسّ بهذا كله . أنا لا أقول ان الجهل بهذا يخرج عن الدين . كلا . فان رحمة الله واسعة وليست تسع المسلم وحده بل تسع جميع الناس والحيوان وكل مخلوق ولكن المقام مقام ارتقاء العقول والشعوب بقدر الامكان . يقول المسلم عند الرفع من السجود ﴿سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد﴾ وهذا هو كل العلوم فالعالم كله ليس شيأ سوى هذه الأربعة فهذا حثّ على تعليم هذه الدنيا

إن الدين الاسلامى دين حكمة وشريعة . دين يأمر بجميع العلوم . وهاأنا ذا أدّيت ماعلىّ من النصح وتركت الأمر لمن بعدنا وسنفارق الدنيا وسيقوم بهذا رجال ذوو عقول كبيرة ونفوذ وشوكة بين المسلمين وسيقلبون نظام الدنيا و يملؤنها حكما وعدلا ـ ولتعلمنّ نبأه بعد حين ـ

﴿ فصل فى ضرب المثل بالذباب والأصنام ﴾

قال تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل) بين لكم حال مستغربة أوقصة رائقة (فاستمعوا له) لبيانه وأنتم متفكرون فيه (إنّ الذين تدعون من دون الله) من الأصنام (لن يخلقوا ذبابا) لايقدرون على خلقه مع صغره وضعفه (ولواجتمعوا له) أى لخلقه واذا كانت هذه الأصنام تعجز مع اجتماعها عن خلق أضعف المخلوقات فكيف تعبد وهل يعبد إلا الخالق (وإن يسلبهم الذباب شيأ) من الطيب الذى كان العرب يضعونه على الأصنام أو الطعام الذى يضعونه بين يدى الأصنام فيقع الذباب عليه فيأكل منه و يسلبه (لايستنقذوه منه) لايستنقذوا مايختطفه من طيبها ومن الطعام الذى بين أيديها فهى لم تعجز عن خلق الذباب فحسب بل الذباب سطا عليها فسلب ماتجملت به فعجزت عن دفع أضعف مخلوق (ضعف الطالب والمطلوب) الذباب والأصنام فالذباب طالب لما سلب من الطيب الذى على الصنم والمطلوب هو الصنم للاستلاب منه وهو عاجز (ماقدروا الله حقّ قدره) إذ أشركوا به مالايمتنع من الذباب الذى هو أضعف الخلق ونظير هذا قول الشاعر

فلو انى بليت بهاشمى * خؤلته بنو عبد المدان
لهان علىّ ما ألقى ولكن * تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

ثم قال تعالى (إن الله لقوىّ) على خلق كل ممكن (عزيز) لايغلبه شئ أما الأصنام فانها لاتقدر على خلق أضعف الأشياء وهى من الذلة بحيث يغلبها أضعف المخلوقات فلاقوّة لها إن الله قوى عزيز فلم يكن لمخلوق أن يكلمه وكيف يتسنى للمخلوق التكلم مع الخالق عظيم القوّة رفيع الجانب إلا اذا تحلى بالفضائل وتناهى فى الكمالات فهناك يستعدّ للأخذ عنه والتلقى منه كالملائكة والأنبياء فالأوّلون رسل للآخرين لأن العلم لله وهو منزّه عن المادّة وهو يلقيه الى الملائكة والملائكة يوصلونه الى الناس باذن الله تعالى . فهذا تقرير لقدر الله

وعظمته وأن الكفار ماقدروه حق قدره لذلك قال تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) ليدعوا سائر الناس الى الحق والاستقامة والارتقاء وهؤلاء يقتدى بهم الناس ليخرجوا من الجهالة الى أعلى الدرجات فى العلم لاهذه الأصنام التى زعمتم انها شافعة لهم عند الله . فالأصنام حجرية والملائكة أجسام نورانية أقرب الى الله من أكثر البشر وهم يعلمون الأنبياء الذين هم صفوة الخلق وبهذه الوسيلة ينشر الدين وهناك تكون الشفاعة بعد انتهاج خطة العلم فأين الثريا وأين الثرى وأين الأجسام الكثيفة من الأرواح الشريفة (إن الله سميع بصير) يدرك سائر الأشياء (يعلم مابين أيديهم) ماقدموا (وماخلفهم) وماخلفوا وماعملوا وماهم عاملون (والى الله ترجع الامور) فى الآخرة (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أى صلوا (واعبدوا ربكم) وحدوه وأخلصوا له (وافعلوا الخير) صلوا الأرحام وتحلوا بمكارم الأخلاق (لعلكم تفلحون) لكى تسعدوا وتفوزوا بالجنة (وجاهدوا فى الله) أى من أجله أعداء دينه ممن يسطون على المؤمنين من الأمم ومن الشهوات الكامنة فى النفوس والجهالة التى تحصر الدين فيما لايؤدى الى سعادة المؤمنين (حق جهاده) أى استفراغ الطاقة فيه * قال ابن عباس ﴿ لاتخافوا فى الله لومة لائم فهو حق الجهاد ﴾ وقال أكثر المفسرين أن يكون بنية صادقة خالصة ولتكون كلمة الله هى العليا واستدلوا بحديث الصحيحين ﴿ من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ﴾ ولما كان جهاد النفس أحد الجهادين بل هو الجهاد الأكبر لأنه لاجهاد لعدو ممن لم يتصف بصفة الشجاعة والشهامة وهذه لاتكون إلا بأخلاق راقية ولذلك قال رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك ﴿ رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر ﴾ ثم قال تعالى (هو اجتباكم) اختاركم لدينه والاشتغال بخدمته وعبادته ولنصرته (وماجعل عليكم فى الدين من حرج) أى ضيق ففتح باب التوبة لمن أذنب برد المظالم للظالمين والاستغفار ورخص فى المضائق لهم وشرع الكفارات والديات فى حقوق العباد إن الله وسع دينكم توسعة (ملة أبيكم ابراهيم) وانما كان أبانا لأنه أبو نبينا ﷺ والنبى أب لأمته لأنه أحياهم حياة روحية (هو سماكم المسلمين من قبل) من قبل القرآن فى أيامه (وفى هذا) القرآن لأنه جاء فيه قول ابراهيم ــ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ــ فهذه التسمية التى ذكرها من قبل جاءت فى نفس القرآن بسبب تسميته قديما وقوله تعالى (ليكون الرسول شهيدا عليكم) بأنه قد بلغكم (وتكونوا شهداء على الناس) متعلق بقوله ــ وجاهدوا فى الله ــ الخ ومابينهما اعتراض . وقد تقدم فى سورة البقرة أن ذلك يلزم المسلمين أن يكونوا أمة أرقى الأمم أخلاقا ومعارف وعلوما وحكمة وعدلا ونظاما حتى يكونوا شهداء على الناس والشاهد عالم بما عند المشهود عليه مطلع على أحواله حتى يفصح عن شهادته ويقدمها . وهذه الأمة الاسلامية قد أخذت دورا مهما من تلك الشهادة وسيرجع لها دورها أوفر مما كان ويقوم فيها حكماء وعلماء يدرسون الأمم ويعرفون دخائلها ويكونون مصلحين لما اعوج من أخلاقها سواء دخلت تلك الأمم الاسلام أم لا وشهادتهم عندالله يوم القيامة يسبقها العلم فى الدنيا بالمشهود عليه والعلم لابد أن يكون عن حقيقة فنحن شهداء على الأمم والنبى شهيد علينا «ليكون شهيدا على الأمم طبعا» والله شهيد على النبى وعلينا وعلى الأمم . فالله شهيد والنبى شهيد ونحن شهداء . فانظر الى هذه الصفة العجيبة . وصف الله فى القرآن انه شهيد فالله شهيد على مايفعل جميع الناس مطلع عليهم والنبى ﷺ شهيد على أفعالنا ونحن على أفعال الأمم . هذا هو الذى ينتج من جهاد المسلمين فهم يجاهدون جهادا علميا وجهادا عمليا وجهادا خلقيا ليكونوا متخلقين بأخلاق الله أى مرشدين للأمم نافعين للعباد ليرشدوهم اذا رأوا منهم تقصيرا كالأنبياء للأمم وكما يفعل الله مع الأنبياء . ولقد كان المسلمون فيما مضى سبب انتشار العلوم العقلية فى الأمم وهم السبب فى اسقاط هيبة وسلطان رؤساء الدين على الأمم حتى أذلوهم فلهذا نشطت المدنية فهذا مما جاء من لوازم الشهادة لأن الشهادة عن علم . ولما علم المسلمون سابقا أحوال الأمم فى دينها أخذوا يذكرون لهم بطلان تقاليدهم فزال كثير منها . وعسى أن يكون فى الأمة بعد حين أمم أعلى من معاصريها

فيكون

فيكون درسهم لأحوال تلك الأمم ونقدهم لعقائدها ونظاماتها ومعاملاتها مع بعضها بمثابة تحمل الشهادة الذى يسبق أداءها عادة وبهذا يمو فى تلك الأمم شرف المقاصد وجلال الأعمال . ثم قال تعالى (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) لما خصكم به من أنواع الفضل والشرف فمن حق من أشرف على قوم أن يكون خيرهم وأنتم جعلكم الله أشرف الأمم فليس من اللائق أن تكون أوروبا المسيحية هى المشرفة على العالم الانسانى . كلا بل يجب أن تكون الأمم الاسلامية فى الأرض هى التى تشرف على العالم الانسانى بالحكمة والعلم والاخلاق والعناية بالأمم وتكميلها وارشادها واسعادها والوصاية عليها فان الرسول شفيق بأمته التى هو شهيد عليها فلتكن أمته التى هى شهيدة على الناس ذات علم وشفقة على العالم الانسانى تعلمه وتحمى الأمم المظلومة سواء أكانت على دينها أم على غير دينها لأن رسولنا شهيد علينا وهو بنا شفيق رحيم فلنكن نحن شهداء على الناس ونحن لهم مصلحون معلمون مرقون مهذبون أكثر مما فعل آباؤنا الأولون . ولما كان ذلك قد يكون فيه ريب فيقال كيف نكون شهداء على الناس وقد مر على المسلمين زمان ضعفت فيه شوكتهم ذكر ما يزيل ذلك الشك فقال (واعتصموا بالله) وثقوا به فى مجامع أموركم (هو مولاكم) ناصركم (فنعم المولى ونعم النصير) فلامثل له فى الولاية والنصر بل لامولى ولاناصر سواه . وفى ذكر ابراهيم فى هذا المقام وانه سمانا المسلمين وانا نكون شهداء على الناس تذكير بما جاء فى سورة البقرة إذ جاء فيها — لتكونوا شهداء على الناس — واذا قرأت ما كتبناه هناك علمت كيف كان عليه السلام مشغوفا بالعلوم الفلكية والطبيعية . ففى ذكر ابراهيم هنا اشعار بذلك فهو سمانا مسلمين وهو نفسه كان مغرما بالعلوم الطبيعية والفلكية فاذا سرنا على منواله سعدت بنا الأمم وكنا شهداء عليها (انظره فى سورة البقرة)

﴿ لطيفة فى قوله تعالى — يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له — الخ ﴾

ربما يظن المسلمون أن هذا المثل للكفار وحدهم وأن الله يقول لهم أنتم عبدتم الأصنام والأصنام فى غاية الضعف وأحقر مخلوقاتى كالذباب سلب منها طيبها وطعامها والصنم لايقدر على دفعها عنه وعلى ذلك أنتم تعبدون أضعف شئ فليس بقادر على أن يخلق أضعف مخلوق بل أضعف خلق يسلبه وهو لاحراك له بل لايحس ولا يعقل . يقرأ المسلم هذه الآية ويظن انه خرج منها لاله ولاعليه . كلا . إن المسلم واقع فى شرك هذه الآية مخاطب بها كما خوطب الكافر بالله . يقول الله هذا الذباب أضعف مخلوقاتى وقد اختطف من الأصنام طيبها وما كلها وهى ضعيفة والعاقل يفكر فيجد هذا المثل فتح باب علم الحيوان . فتح باب الحكمة . ألم تر كيف كان الذباب مسلطا علينا كما هو مسلط على الأصنام . أليس الذباب يسلبنا بعض ما نملك كما يفعل بالأصنام ألسنا نحن ضعافا أمام هذا الذباب . أليس هذا الذباب اذا أحس فينا بقذر فى أعيننا أو رأى رطوبة فى منازلنا أو طعاما بين أيدينا انقض على أعيننا فوضع فيها بيضه فأفرخ البيض دودا والدود يعمى العيون أو يضعفها

أليس الذباب ينقض على طعامنا فيضع فيه بيضه فيكون أذى للآكلين وفيه مادة سمية من ذلك الذباب لأن الله خلقه من المواد القذرة التى تراكمت فى المدن ليصلح الهواء . أليس ذلك داعيا لدراسة علم الذباب وعلم الحشرات وعلم الحيوان لنعرف مافيه من المضار والمنافع لنحترس من الضار ونأخذ النافع . إن الله لم يذكر هذا المثل اعتباطا بل ضربه لتعليم المسلمين . إن القرآن يقرأ لنا الآن ونحن نسمعه فلسنا مشركين بالله كلا . ولكنا جاهلون بنعمته والجاهل بالشئ محروم منه مبعد عنه وأوروبا سبقتنا بهذه العلوم فسلطها الله علينا فلندرس تلك العلوم

﴿ درس من كتاب انجليزى مترجم عن الفرنسية على الذباب ﴾

هذا هو الدرس الذى يلقيه المعلمون فى العالم الغربى على تلاميذهم وبعض المسلمين لاهون ساهون نائمون لايعلمون أن ديننا يأمرنا بدرس هذه المواليد من كتاب ﴿ العلوم الطبيعية ﴾ تأليف (پول بيرت)

المطبوع سنة ١٨٩٠ م . يشرع الاستاذ معلما لتلاميذه صفحة (٩) من الكتاب ومابعدها . خاطب الاستاذ تلميذا قائلاله « أىّ فرق بين الذبابة والحصان . فأجابه الحصان كبير والذبابة صغيرة . فقال الاستاذ حسن . ولكن ليس المدار على الجسم صغرا وكبرا فقد نرى الحصان صغيرا والذباب كبيرا عند الاستعانة بالمناظير المكبرة وتسليطها على الذباب فيرى انه أكبر من الحصان وأمثاله . فأجاب تلميذ آخر . كلا . إن الذبابة لها جناحان والحصان لاجناح له . فقال الاستاذ لوقطع الجناحان والذبابة حية أفليس الحصان إذن كالذبابة . فما الفرق . فقال تلميذ آخر . كلا . بل الذباب لاشعر له والحصان له شعر . فقال الاستاذ أواثق أنت بما تقول . امسك بالذبابة وانظر اليها بهذه الزجاجة . انظر الشعر عليها فلها شعر كما للحصان . فقال آخر إن الذبابة لها ستة أرجل والحصان له أربعة أرجل . فقال الاستاذ هذه ملاحظة مهمة ولكن أليس يجوز أن تكون الذبابة قد فقدت رجلين كما فقدت الجناحين . فأىّ فرق إذن بينها و بين الحصان . حينئذ جاء دور الاستاذ فقال اضغطوا على الذبابة فضغطوا عليها فلم يبق إلا الجلد والأرجل والجناحان . قال لهم . فأما الحصان فانه لو وقع البيت عليه فتهشم فانا نجد أن الحصان فيه موادّ باقية صلبة فأما الذبابة فلم نجد من هذه شيأ فيها وهذه المواد الصلبة هى العظام إذن يكون الحصان وأمثاله حيوانات ذات عظام ولها هيكل عظمى يحفظ البدن ولها مادّة ملونة وهو الدم ذلك لأن الذبابة لم نجد فيها تلك المادّة الملونة فتكون النتيجة هكذا إما أن تكون الحيوانات فقرية لها هيكل عظمى واما أن لاتكون كذلك . فذات العظام يلاحظ أن لها دما والتى لاعظام لها لادم لها » ومن هذا الدرس السهل قسم جميع الحيوانات أى من تشريح الذبابة وتشريح الحصان . واستمرّ الاستاذ يلقى الدروس حتى شرح الحيوانات كلها . ولألخص لك الكتاب كله فى موجز من اللفظ لترى عجائب القرآن — ماذا أراد الله بهذا مثلا يضلّ به كثيرا — من الجاهلين الذين لا استعداد عندهم — ويهدى به كثيرا — من العلماء المفكرين

﴿ أقسام الحيوان أربعة ﴾

(القسم الأوّل . الحيوانات الفقرية) وهى التى ذكرناها الآن وهذه تشمل

(١) الانسان (٢) وذوات الأربع (٣) والطيور (٤) والزواحف (٥) والسمك

فهذه الخمس هى أقسام الحيوان الذى اشتمل على هيكل عظمى وفقرات ودم . فالانسان والبهائم من الخيل والبغال والحمير والأنعام من الإبل والبقر والغنم والسباع كالذئب والكلب والطيور الجارحة وغير الجارحة والزواحف كالحيات والعقارب والسمك فى البحر وهو معروف . كل هذه لها عظام ودم ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة ﴿ القسم الثانى . الحيوانات الحلقية ﴾ أى التى تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمات يكون منها جسم هذا الحيوان وهذا القسم أنواع وهى

(١) الحشرات (٢) والعناكب (٣) وذوات الأرجل الكثيرة (٤) والحيوانات القشرية (٥) والدود

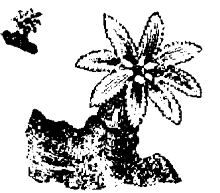
أما الحشرات فهى ما كان لها ستة أرجل ولها إما جناحان كالذباب الذى هو أصل الدرس واما أربعة أجنحة كأبى دقيق الذى يعيش فى بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذى يفسد شجر القطن وهذا سلبنا قطننا فلذلك يدرسه الناس الآن فى مصر بعض الدراسة . وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الافرنجى (دراكوفلاى) . وأما العناكب جمع عنكبوت فهى مالها ثمانية أرجل ضعف مال لذوات الأربع وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهى ماقد تصل أرجلها الى عشرين زوجا من كل ناحية عشرون رجلا و يقال لها فى بلادنا المصرية (أم أربعة وأربعين) . وأما الحيوانات القشرية فهى تشمل قرّاض الخشب وحيوانا يسمى (كرايفش) باللسان الافرنجى وهو مركب من حلقات مدمجة قوية . وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق وهذان رؤسهما متصلة بجسمهما وليس لهما أرجل وليس جلدهما صلبا قشريا كجلد (كرايفش)

﴿ القسم الثالث ﴾ من الحيوانات الهلامية التى جسمها أشبه بالفالوذج الذى هو نوع من الأطعمة ومن هذا حيوان

يسمى (القوقعة) وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام . وقد أعطى وقاية من المحار تقيه العاديات والمهلكات وهى معدّة كمنزل تسكن فيه . ومنه حيوان يسمى باللسان الافرنجى (ميوزل) وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار . فهذا القسم وهوالثالث من أقسام الحيوان لاعظم له فليس من ذوات الفقرات ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات فهو إذن حيوان هلامى ﴿القسم الرابع . الحيوانات الشعاعية﴾ وهذه منها ماهو على شواطئ البحار المسمى (سمك النجم) ومنها ماهو فى البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكوّنة من تلك الحيوانات الصغيرة ومن اجتماعها تتكوّن أجسام صخرية وقد تتكوّن منها جزائر . فترى هذين النوعين يختصان ﴿بأمرين * الاول﴾ أن لهما فما مركزيا يشاهد فى الوسط ﴿الثانى﴾ أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع الى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أوالمدخل . ثم ان مشاهدة صورتها تدخل فى النفس عجبا فان (سمك النجم) تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها وتلك الفروع كأنها أصابع الانسان وذلك الوسط كالكف وكل أصبع من هذه الأصابع محلى بأهداب تغطيه وفى أصول تلك الأهداب تشاهد نقطا مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع وهذه صورته (شكل ٥)

وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الافرنجى (بوليبا) فانك ترى الفم المتقدم أو المدخل ليس متسعا كما فى سمك النجم بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لاحصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جيلات ذات شعاع جيل وهذه صورته (شكل ٦)

(شكل ٥ ـ صورة السمك النجمى)



(شكل ٦ ـ بوليبا)

أما الحيوانات التى تتكوّن كهيئة مستعمرات وتكون فى وسط البحار فهى حيوانات جسمها مكوّن من كتلة هلامية ليس لها أعضاء متميزة وتفرز رواسب حجرية تأخذ شكل نباتات ولذا تسمى (الحيوانات النباتية) وتسكن قاع البحار وأشكالها مختلفة و بعضها يستعمل فى الصنائع وذلك كالمرجان والاسفنج فالمرجان حيوان معروف يستعمل حليا وتفرزه حيوانات اخطبوطية لتسكن فيه وهو يشبه شجرة عديمة الأوراق وهو كثير الوجود فى البحر الأبيض والأحمر مثبتا على الصخور وتكون الحيوانات على المرجان كأزهار وهذا هوالذى حمل العلماء قديما أن يعتبروه نباتا زمنا طويلا وهذه صورته (شكل ٧)



(شكل ٧ ـ رسم المرجان)

هذه أقسام الحيوانات التي خلقها الله و بثها في الأرض وجعلها درسا لنا . وقد نقلت لك عن الفيلسوف (اسبنسر) انها تبلغ نحومليونين أعني ألفي ألف وهذا العدد هوالمقسم على هـذه الأنواع فمنه ذوات الهيكل العظمى وهي الحيوانات الفقرية ولها دم وهي الانسان وذوات الأربع والطيور والزواحف والأسماك . ومنه ذوات الحلقات وهي الحشرات والعناكب وذوات الأرجل الكثيرة والحيوانات القشرية والدود ومنه الحيوان الهلامي كالقواقع التي على شواطئ البحار . ومنه الحيوان الشعاعي الذي ترى أطرافه لامعة حتى سمى (سمك النجم) . فهذا مجمل هذه المخلوقات . انظركيف ذكرالله هذا المثل ونادىالناس جميعا والمسلمون من الناس طبعا فنحن من الناس واذن هذا النداء لنا . يقول الله ـ يا أيها الناس ضرب مثـل فاستمعوا له ـ ياعجبا هل الله يقول استمعوا له إلا اذا كان المثـل عجيبا وفيه علم كثير . قال الله في هذا المثل ـ فاستمعوا له ـ وقال في القرآن ـ واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ـ فكأن الله أمرنا باستماع القرآن كله وأمرنا باستماع هذا المثل على الخصوص ثم أورد هذا المثل . نحن نسمع القرآن لنقرأ فيه علما . وهانحن أولاء قد سمعناه وسمعه آباؤنافكوّنوا ممالكعظيمة وهي الدولة العباسية والأموية وغيرهماقديما وهكذا الدولة الأفغانية والفارسية حديثا وعسى أن يلحق بهما بقية الاسلام . ومن استماع القرآن كان علم الفقه الذي تشعبت مذاهبه فاذا استمعنا لهذا المثل فماذا نصنع به . ندرس الحشرات ودرس الحشرات يستلزمدراسة الحيوان كله ودراسة الحيوان فيها سرّ الربوبية وعجائبها وحكمها والمواهب التي أسديت اليها و بها ارتقاء العقول و بها ارتقاء الدولة

كل ذلك من دراسة الذباب . الذباب الذي ألف كتاب الحيوان كله على التمثيل به والله مثـل به ليقول انظروا خلق . فكأنه لما ذكر المواليد مرارا وكررها في هذه السورة مرتين أتى هنا للحيوان بمثال وهو الذباب النشط ذوالأرجل الستة والجناحين

﴿ جوهرة في قوله تعالى ـ وان يسلبهم الذباب شيأ ـ أيضا ﴾

كيف يسلب الذباب منا ومن الأصنام طعامنا كالعسل وغيره وهوصغير . وكيف ترى عيناه تلك الدقائق فتخطفها لأن الخطف لا يكون إلا بعد العـلم وعلمها بنظرها فهل تقدر على ذلك النظر . ثم ان الذبابة شديدة الحرص فمن أين أقبلنا عليها لنذبها عنا طارت حالا فكيف كان ذلك مع ان الانسان منا لايرى إلا ما أمامه وستأتي الاجابة على هذا السؤال قريبا هنا . وذكر الذبابة هنا وهي من نوع الحشرات مقدمة لذكر أمثالها كالنمل الذي سيأتي ذكره قريبا والعنكبوت الذي سيذكر بعده فالنحل والذباب والنمل المذكورة في القرآن من الحشرات وقد عرفتها والعنكبوت نوع آخر ليس من الحشرات بل هو مستقل ولذلك ذكر بعد ذكرها مستقلا . أما بقيـة الحيوان فأكثرها مذكور في القرآن اجمالا ومالم يذكر فهو في قوله تعالى ـ ويخلق مالاتعلمون ـ ثم أمرنا باقتفاء آثار العلماء لنعلم الأشياء فقال ـ وقل ربّ زدني علما ـ وقال ـ وفوق كل ذي علم عليم ـ

﴿ روضات الجنات ومناهج الحكمة في قوله تعالى أيضا ـ وان يسلبهم الذباب شيأ لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حقّ قدره إنّ الله لقويٌّ عزيز ـ ﴾

اللهم أنت المحمود على نعمة العلم والحكمة التي عشقناها وتمتعنا بها في هـذه الأرض إذ هي رياض غناء لأولي الألباب . أينما أدرنا العين ووجهنا وجوهنا نرى إحكاما وهندسةوبهجة وجمالا . اللهم لست أقول هـذا تقليدا ولاتزويقا . ولكني أقول الآن والفؤاد مفعم بالبهجة والحكمة . يرى أكثر الناس الجمال في الورد والزهر والثمر وأنواع الحدائق الغناء ولايتعدّى نظرهم الجمال الظاهري وهانحن أولاء نراه في كل مكان ـ فأينما تولوا فثم وجه الله إنّ الله واسع عليم ـ نراه في المواضع التي يأنف الانسان أن ينظراليها وفي الذباب والحشرات الطائرات . تلك الحشرات التي خلقتها لتطهير الأرض من الرطوبات وأنواع العفونات حتى لايعم

الطاعون والوباء والأمراض القتالة فخلقت تلك الحشرات وجعلتها ملطفة للجو مبعدة للمرض إذ تستحيل تلك المواد العفنة الى أجسامها الحية فينقلب الضرر نفعا والموت حياة ولكن جاء فى الحديث ﴿ كل أم يتبعها ولدها ﴾ فهذه العفونات والرطوبات مع انها استحالت الى أجسام تلك الحشرات حفظت ما كانت عليه من الاضرار إذ لا معطل فى الوجود فتحوّل ضررها العام ووباؤها فى تلك الحشرات الى مافطرت عليه تلك الحشرات من أنها تنقل المرض من زيد الى عمرو فتعمى الأبصار وتورث الوباء والطاعون وأنواع الأمراض المختلفة الأخرى .
ذلك شأن الحشرات كالذباب المذكور فى الآية فهى نعمة تدفع الأذى ولكنها تكون رسلا بين المريض والصحيح وسفراء بين الأحياء فتنقل الأمراض وتعطى العدوى وتعمها . هذه وظيفة الحشرات . فاذا كانت هى مخلوقة من القاذورات متغذية بها عاكفة عليها فهى صالحة لحفظ خواصها وهى الاهلاك والابادة والشئ من معدنه لا يستغرب وهى من عناصر اختصت بالاهلاك واحداث المرض فهى تكون قيمة على ماخلقت منه قائمة بشأنه مساعدة لإبادة الأحياء فوق هذه الأرض وتشارك الحيات ونحوها الحشرات فى انها مخلوقة من القاذورات والرطوبات فهى تكون سامّة اذا كانت أمكنتها قذرة ضارّة وتكون غير سامّة اذا كانت أمكنتها التى تعيش فيها غير قذرة ولا رطوبة فيها وهذا عجب فانها ان تغذت باصول نظيفة زال منها السم وان تغذت بأغذية قذرة منتنة تضرّ بالصحة كان فى جسمها السم وأضرّت بالناس . إذن ليست كل حية سامّة . فالسم نتيجة الأغذية إذن الأغذية هى التى تنتج النتائج التى تضرّ والتى تنفع فلما كان الذباب كله ضارا كان سببه أن غذاءه كله من العفونات والرطوبات كالحيات السامّة لا غير

﴿ بيان أوصاف الذباب والحشرات وكيف كثرت وكيف سلط الله عليها مهلكاتها ﴾

الحشرات كلها لها ستة أرجل وأجنحة وأنبوبتان ممتدّتان عند رأسها بها تتفاهم مع غيرها ولكل من هذه الحشرات رأس و بطن وصندوق وهى تبيض كما يبيض الطير ولكن الفرق بينهما أمور منها

(١) أن الطير تحضن بيضها وتعتنى بأطفالها . أما هذه الحشرات ومنها الذباب الذى نحن بصدد الكلام عليه منه مايعتنى ببيضه كالطيور وذلك كالنحل والنمل ومنها مالا يعتنى ببيضه بل يتركه ولا يعرف أين تفقس ذرّيته كالذباب وكالجراد . فهذان النوعان وأمثالهما يتركان بيضهما ولا يلزمان بحفظه بل تقوم بحفظه العناية الإلهية فى البرّ والبحر

(٢) ومن الفرق بين الطيور والحشرات أن الطيور يخرج جنينها من البيضة مباشرة تام الخلقة والأعضاء مثل مانرى فى الدجاج والحمام والعصافير فهذه تخرج ذرّيتها من البيضة تامّة كما كانت آباؤها . أما الحشرات كالزنابير والذباب والنحل والنمل فهى على غير هذا النمط . ذلك انها تخرج من البيض أشبه بدود صغير جدا وهذا الدود ينتحى من جلده مرات متعدّدة ويكون ذا أطوار فى خلقه و يأكل أكلا بشراهة و ينتهى ذلك بأن ينسج على نفسه نسجا حريريا قليلا كأكثر الحشرات أو كثيرا كدود القز وتنام تلك الدودة مدة ثم تخترق تلك الكرة التى نسجتها على نفسها وتخرج حشرة تامة كأمها . هذه هى الحشرات وهذه درجاتها فى خلق ذرّيتها

﴿ ادّخار الحشرات وعدم ادّخارها ﴾

وهنالك تخرج الذرّية فى الجوّ ومنها ذرّية الذباب فتأكل من هذه المائدة التى نصبها الله لها وهى المواد الرطبة كما قدّمنا والعفونات فى كل مكان . فالرزق لها موفر والغذاء حاضر لا يكلفها نصبا ولا مشقة . وليس للذباب عناية بخزن أرزاقها ولا تحمل مؤنة لها ولا تفعل مايفعله النحل والنمل فهذان فطرهما الله على حب الادخار كالانسان . ذلك أن الذبابة والجرادة والناموسة وأمثالها لا تعيش للعام المقبل فلم يضع الله فى فطرتها الادّخار . أما النحل والنمل والناموس فانها لا تعيش للعام المقبل فانها ان سلمت من المهلكات لها الآكلات

لأجسامها لم تسلم من برد الشتاء المهلك لأجسامها المريح لأهل الأرض من إيذائها وحملها الأمراض وتوزيعها على الناس ومساعدتها على إهلاك الأحياء على هذه الأرض . ثم إن الذباب والجراد والناموس وأمثالها قد امتلأت الأرض بأرزاقها فلاحاجة للادّخار . فهذان سببان من أسباب عدم ادّخار الذباب وأمثاله للقوت

تباركت يا الله . إنك لم تعط إلا بقدر . أعطيت النمل غريزة الادّخار ولم تعطها الذباب . فالاعطاء بحكمة والمنع بحكمة ولذلك ملأت بهذه الحشرات البرّ والبحر والسهل والجبل - إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم -

﴿ العنكبوت والطيور والنبات الحيوانى ﴾

تباركت يا الله . أكثرت من الذباب وأمثاله من الحشرات وجعلته ملطفا للرطوبات مقللا لها ثم انك لم تذره يفسد فى الأرض بما بقى فى طبعه مما استمدّ من غذائه بل خلقت الطيور وأنواع العنكبوت والنبات الحيوانى وأمرتهنّ أن يتغذين من هذه الحشرات الطائرات تخفيفا للمرض وتقليلا للألم . عجبا يا الله خلقت العنكبوت كما سيأتى شرحه قريبا عند قوله تعالى - وخلق كل شئ فقدّره تقديرا - فى (سورة الفرقان) وأمرتها أن تنصب خيامها وتنسج نسيجها وقات لها أيتها العنكبوت اصطادى من الذباب ماتشائين وكليه فى بيوتك إنك ذات صناعة والذباب لاصناعة له ولاحيلة فكليه هنيئا مريئا . ولقد خلقت أيضا النبات الحيوانى المتقدّم شرحه ورسم صوره المتعدّدة العجيبة فى (سورة الرعد) عند قوله تعالى - يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل - فهناك أنواع من النبات مرسومة مشروحة مبين فى شرحها أنها لاتخلق إلا فى المستنقعات والبرك والأماكن القذرة وقدجعلت مهيأة لصيد الذباب . ذلك الذباب الطائر القوى الذى أعطى الله كل واحد منه أربعة آلاف عين صغيرة كل عين منها مستقلة بحيث لونظرها الانسان بالمنظار المعظم لرآها كهيئة عيون الغربال كثيرة تبلغ هذه الآلاف فالعين الواحدة مقسمة عيونا على هذا النمط . فهذه الحشرة مع قوّتها وعيونها وأجنحتها يصطادها العنكبوت التى لا أجنحة لها والنبات الصياد الذى لاحول له ولاقوّة وانما أمدّه الله بالعسل فى داخله وفتح فيه نوافذ أشبه بالمقاصير والقصور وجعلها مسوّاة مهندمة مصقولة تنزلق الأرجل اذا لامستها وفيها من الداخل موادّ سامّة حتى اذا جاءت الذبابة وقد رأت ظواهر النبات جميلة الأشكال حسنة بهية ذات رائحة جميلة تقدّمت اليها ودخلت فى دهاليزها لتشرب عسلها الذى رأت منه بعضه على أبواب تلك الحجرات فلاتمشى بعض خطوات حتى تنزلق أرجلها وتغمس فى سائل يغمرجسمها فيقتنصها النبات ويهشمها ويهضمها بالمادّة الهاضمة التى وجدوها فيه تشبه المادّة الهاضمة فى معدة الانسان

فياعجبا . نبات ثابت فى مكانه يصطاد ذبابا سميعا بصيرا طائرا فى الجوّ وعنكبوت لاجناح له جعل طعامه من الذباب الطائر رحمة بالبلاد والعباد . هذه قصة الذباب المذكور فى الآية إذ يقول الله تعالى - إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولواجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب - أما الطالب فهو الذباب وأما ضعفه فهو مع ما أعطى من الأعين ومن القوّة والأجنحة ووفرة الرزق فى الدنيا ورغد العيش قد التقطه الطير وأكله العنكبوت التى بيتها أوهن البيوت . فالعنكبوت ذات الثمانية الأرجل أكلت الذباب ذا الستة الأرجل والأجنحة فهو أخف حركة من العنكبوت . ومع ذلك صار طعاما لها وهكذا النبات الحيوانى الذى جعله الله خاصا بأكل الحشرات لتنظيف الأرض من الذباب وأمثاله ، الذباب ضعيف لأن الذى بيته أوهن البيوت اصطاده والنبات الذى لاقوّة له اصطاده وأىّ ضعف بعد ذلك . فهذا الذباب مع هذا الضعف كله غلب الأصنام فأكل ما عليها من الطيب وذلك بحدّة بصره ونفوذه . فالله يقول من ذا يقدر أن يخلق هذا الذباب الضعيف ومن ذا الذى يقدر أن يحكم النظام فيجعل تلك الحشرات مخلوقة بقدر بحيث تكون لغاية وهى تقليل الرطوبات ثم هو يصير طعاما لغيره ويكون بيضه بقدر وقد أعطى

غريزة هو وأمثاله كالناموس والجراد انه لايضع البيض إلا فى مكان يصلح لأن تعيش فيه ذرّيته متى فقست فهو وان لم يربّ الذرّية قد حرص عليها قبل وجودها فوضع البيض فى الأماكن التى منها تغتذى بعد فقسها فمن هذا الذى يقدر أن يعلم هذا كله ويخلق هـذه الخلائق ويعطيها آلاف العيون التى لاتدركها الأبصار وهى تدرك مادقّ من الموادّ الصغار . فهل تخلقها هذه الأصنام التى لاسمع لها ولا بصر ولا أجنحة ولاحياة

هذه يا ألله عجائب الذباب الذى خلقته ونشرته فى الأرض ــ ليهلك من هلك ــ بالأمراض منه ــ عن بينة ويحيا ــ بالعلم والمعرفة والدرس ــ من حيّ عن بينة ــ . فالأوّل بتقصيره والثانى بتشميره وجدّه والله هو السميع العليم

خلقت يا الله هذا الذباب منذ خلقت الدنيا وأعطيته هـذه القوّة وزوّقته بالأجنحة والأعين ولكنّ أكثر أهل الأرض ما كانوا يعلمون وانما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن العلوم والحكمة غافلون . لذلك أرسلت لهم أنبياء فعلموهم وقالوا لهم إلهكم إله واحد فانظروا فى عجائب الخلق فى البرّ والبحر فسمع ذلك أقوام وضلّ آخرون و بتوالى الزمان ضلّ أكثرهم . فماذا يفعل الكهنة ورجال الدين . نصبوا لهم الأصنام والمعابد وشرحوا لهم أوصاف تلك المعبودات وأعظموها لأنها أقرب لعقولهم وأدنى من متناولهم ولم يقدر أكثر الناس على فهم هذه العجائب التى ذكرناها فى خلق الله فترى الأصنام شاخصة فى كل مكان فى مصر فى العراق فى الهند فى الصين . وسترى وصف آلهة الصين فى أوّل سورة (الفرقان) وانهم وضعوها فوق الجبال الشاهقة المرتفعة فوق سطح البحر (٥٠٠٠) قدم والدرجات التى توصل اليها عددها (٧٠٠٠) قدم والذاهب اليها يحجها يجد نصبا وتعبا فيحمله قوم الى المعبد فوق الجبل . ذلك فعل الناس من قديم الزمان . إن كهانهم لما رأوا قصور عقولهم مثلوا لهم القدرة الإلهية والدوام والثبات والحكمة والرفعة والعلوّ بأصنام هائلة صخرية ثابتة مصنوعة صنعا متقنا مرتفعة فوق الجبال يراها الابن كما يراها الأب جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن فيتحدّث بها الأب ويلقى أحاديثه للابن لأنها ثابتة موطدة فوق الجبل كما أن الله العلى ثابت لايموت رفيع علىّ عظيم حكيم

فهذه الأصنام وضعها الناس قديما لتكون مثالا لجلال الله وعظمته أومثالا للنجوم الزاهرات كزحل والمشترى التى كانوا يعتبرونها آلهة عند كثير من الأمم وهى الكواكب السيارة التى تديرها الملائكة والملائكة عباد الله المكرمون . هذه عبادة المتقدمين . هذه يا ألله عبادة الأمم القديمة وديننا لم يقل ان قوما يعبدون الأصنام ولم يرسل لهم نبى قبل الاسلام يدخلون النار . كلا . بل هم يحاسبون على حسب اعتقادهم ــ وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولا ــ

هذه هى الأصنام وهذا سبب عبادتها وهذا هو الذباب وهذا المتقدّم عند الكلام عليه سبب ضعفه ومع ضعفه غلب الأصنام وسرق ماعليها . إذن لتكن الأمم الحاضرة أطول باعا وأرقى همة من الأمم السابقة . سبحانك اللهم فلتكن عبادة الأمم الحاضرة فى الشرق والغرب لخالق الذباب المبدع العجيب الصنع الحكيم الفعل . فلئن عجز السابقون عن فهم هذا الوجود وجهلوا بدائع الاتقان فى أصغر المخلوقات كالذباب لن يقصر باع الأمم الحاضرة عن معرفة عجائب الحكمة فليرتقوا فى العلم وليدخلوا حظائر الحكمة وليدرسوا كل شئ ومنه الحشرات والذباب الذى غلب الأصنام . ان الأمم فى مستقبل الزمان حين يطلع فجر الحكمة وتشرق شمس العلم فى الأرض لن يقدروا أن يعبدوا الأصنام بل هم يدرسون ماهو أعجب من الأصنام وذلك هو هـذه الدنيا والمواليد الثلاثة التى رمز لها هنا بالذباب . إن هذه الحشرات وأمثالها لها شأن عظيم فى العالم لذلك خصها الله بالذكر ولم يقتصر على انه قال ــ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ــ وقوله ــ وفى الأرض آيات للموقنين ــ . كلا . بل قال ــ إن الله لايستحيي أن يضرب مثلاما بعوضة فما فوقها ــ رادا على المشركين إذ لم يعجبهم ذكر الذباب وذكر العنكبوت فى القرآن . إن الله مهد بالاسلام للأمم دراسة العلوم وأشار الى أن العقول اليوم ستفقه هذا الوجود وتستبدل معرفة الصانع فى الحيوان والحشرات بالأصنام والشيوخ والمقابر

ومن يعش يره والسلام

﴿ اعتراض على المؤلف فى مسألة أعين الذبابة التى تعدّ بالآلاف وذكرمادار بينه و بين مدرسى المعارف ﴾

ههنا لما وصلت الى هذا المقام واطلع عليه بعض الفضلاء قال لقد ظهرهنا عجائب الذباب والعنكبوت وأن الثانى يصطاد الأول الذى هوضعيف وأن الطيور والعنكبوت تطارد الذباب وأن الأضعف طعمة للأقوى وأن العيش الرغد للذباب ليس دالا على رفعة القدر بل عيشة النصب عند العنكبوت أكسبته شرفا وجاها . وهنا سؤالان أبديهما ﴿أولهما﴾ اذا كانت العنكبوت نافعة بأكل الحشرات وكذلك الطيور إذن يجب المحافظة عليهما فى الحقول والحدائق . فقلت نعم قال العلماء فى عصرنا الحاضر « يجب على صاحب البستان وعلى الفلاح أن يحافظا على العنكبوت لأنها تأكل آلافا من الحشرات فهى نعمة على الفلاح . وعلى الطير كذلك » ولقد تقدم هذا الثانى فى (سورة يوسف) وهناك صور الطيور الممنوع صيدها بمصر وهناك فى (سورة طه) طيور أخرى وجدوها نافعة للزرع وجب حفظها . فقال هذا عجب أن تكون العنكبوت مما تجب المحافظة عليها كأن الله سماها فى القرآن مشيرا للمحافظة عليها . فقلت ان هذه الحقائق غير منتشرة اليوم فى بلاد الشرق انتشارا تاما فقال كيف لاتكون منتشرة وهذه المعارف تدرس لصغار الطلبة . فقلت له ولكنها تدرس بغير تشويق وانما يقرأ الأساتذة الدروس فى أمثال هذا فى التعليم الابتدائى والثانوى لمجرد المطالعة اللفظية والاعراب وتحليل الجمل وصرفها و يصدّون التلاميذ عن معانيها لعلمهم انهم لايمتحنون فيها . ومما كان يؤلمنى أنى وجدت رؤساء المدارس بمصر أيام اشتغالى بالتعليم فيها لايأبهون لمثل هذه الامور وقد كنت يوما فى بهو مدرسة (دار العلوم) وأنا واقف أمام دوحة صغيرة فيها نسيج عنكبوت وذلك النسيج واضح فجاء حين ذلك ناظر المدرسة فرأى منى التفاتا الى ذلك النسيج وهو بيت العنكبوت . فقال وماذا أعجبك منه . قلت ان شكله محفوظ على حاله والأولى بقاؤه لينظر اليه التلاميذ فيعرفوا شكله للدراسة وتوجيه النظر . فقال هذا أمر لاقيمة له ولولا انه بعيد عن الأنظار لازلته وما فائدة هذا وأىّ علم فيه أوحكمة . هذا أمر لاقيمة له فعجبت كل العجب وعرفت مااشتهر عن أهل أوروبا انهم اذا احتلوا أمة من أمم الشرق شرعوا يميتون النفوس المتعلمة فيلقون العلم اليهم قشورا ولايحببونهم فيه خيفة أن تنبعث النفوس الى الحكمة فيفلتون من أيديهم

اللهم إنى أحمدك انك ألهمتنى أن أؤلف هذا التفسير حتى يكون نموذجا تقرؤه الأمم الاسلامية التى حكم عليها بالاستعمار فلاتحرم مما يحببها فى العلم على الوجه الصحيح فيكون ذلك سبيلا لرقيهم واستقلالهم و يقرؤه الذين هم مستقلون فى بلادهم فيزيدهم شوقا الى العلم والحكمة و يجدونه موافقا لما يدرسون من علوم هذه الدنيا التى هى علوم القرآن الذى هو كلام الله والعلم فعله والفعل والقول متلازمان . فقال صاحبى هذا هو السؤال الأوّل قد استوفيناه ﴿السؤال الثانى﴾ إنك قلت إن الذبابة لها أربعة آلاف عين فهل هذا القول تقبله العقول اللهم لا ومن ذا الذى يظنّ أن للذبابة ثلاثة عيون فضلا عن ١٠ فضلا عن الألف بل الآلاف إن هذا خارج عن العقول والمنطق فأىّ منطق هذا وأىّ عقل يقبله والله إن كتاب ﴿ألف ليلة وليلة﴾ وكتب الخرافات لم تجرؤ أن تقول مثل هذا القول بل كتب الخرافات لأصحابها عذر فيها فان الناس لعلمهم أن صاحبها وضعها على سبيل الرواية لايزدرون كلامه أما هنا فان جملة مثل هذه يسمعها القارئ لهذا التفسير فينصرف قلبه و يقول يظهر ان هذا المؤلف ينقل الكلام بلاعلم ولاهدى ولا كتاب منير فما هو إلا أن يقرأ كتابا افرنجيا مثلا فيعتقد أنه كتنزيل من حكيم حميد والافرنج فيهم المخرّفون كغيرهم . فاذا قلت لنا إن الذبابة لها أربعة آلاف عين فمعناه اننا قوم لاعقول لنا . فقلت أتم كلامك . قال نعم . فقلت أذكرك بما مضى فى هذا التفسير وأن قطرة الماء فيها مئات الالوف من الحشرات وكل حشرة لها عينان وسمع فكيف وسعت هذا كله . وأذكرك أيضا بأن قطرة الماء تحتوى على ذرات بحيث تعدّ بعدد (٥) وعلى يمينه (١٨) صفرا .

وأذكرك بأن كل جسم من الأجسام فيه مسام وهذه المسام بينها فتحات عظيمة جدًا بالنسبة للذرات المتلاصقة فهل تستبعد أن يكون للذبابة أربعة آلاف عين وماذا تقول اذا أخبرتك أن هناك حشرة تعيش على العليق كبيرة الحجم تكون عيناها مشتملة على عيون صغيرة تبلغ (٢٧) ألف عين . فقال هذا كله زيادة فى الاستغراب وأن ماذكرته لايفيد إلا امكان الحصول وفرق بين الممكن حصوله و بين الموجود الحاصل فعلا . فقلت هل لك أن أقصّ عليك قصصا يناسب حديثى معك الآن ومنه يتضح المقام و يصير الغائب عنا الآن كالعيان . فقال حبا وكرامة . فقلت

﴿ محاورات بين المؤلف و بين بعض المدرّسين بوزارة المعارف أيام الامتحان ﴾

لقد كنت يوما جالسا مع بعض الرفاق بعدالعصر أيام الامتحان بقصردرب الجاميز وذلك كان فى امتحان آخر السنة لاعطاء التلاميذ الشهادة الابتدائية والثانوية كالمعتادكل سنة فقال لى قائل منهم وذلك فى سنة ١٩١٥ تقريبا . انظر الى هـذا الغصن وأوراقه البديعة المنمقة الحسنة الشكل . إن بعض الاخوان يقول ان نظامه أجل من نظام النمل الفارسى لحسن الاتقان . (أقول ولقد كنت قبل ذلك ألفت كتبا وكتبت فى بعضها أن عين النملة مركبة من مائتى عين لأنى كنت رأيتها فى كتاب صغير من الكتب الانجليزية التى يدرسها التلاميذ فى المدارس الثانوية . ولقد كان هو و بعض الاخوان اطلعوا عليه فأرسلوا هذا ليحادثنى هذا الحديث حتى أذكر ذلك فيكون سببا فى الأخذ والردّ والقدح فيما أقول كما هى العادة فى كل الأمم فى أمثال هـذا الشأن) فلما قال ذلك أجبته . كلا ياصاح . فقال ومالبرهان . فقلت (أوّلا) ان الحيوان أرقى من النبات (ثانيا) ان عين النملة مركبة من مائتى عين . فقال أيها الاخوان من منكم يعرف أن عين النملة مركبة من مائتى عين . فقالوا جميعا . كلا لانعرف ذلك . فقلت أنا قرأتها فى كتاب انجليزى . فقال يافلان يافلان هل قرأتها وأنت فى انكلترا . قال . كلا . ثم كلا وهذا غيرمعقول وصارت هذه حديث القوم فى ناديهم وسمرهم وطاروا بها فرحا يتغنون بها و يفخرون و يفرحون إذ أظهروا خطأ فى بعض هذه الكتب . فقلت لهم يقول الله تعالى ـ فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر ـ فتوجهت الى أكبر مدرّس فى (مدرسة الزراعة) بحلوان فأحضر عين النملة ووضعها تحت المنظار ورأيت بعينى رأسى تلك العين عبارة عن أعين أشبه بأعين الغربال أقل عدد لها مئتا عين ثم قرأ أمامى ما كتبه علماء النمسا والألمان فى القرن العشرين وانهم حللوا كل عين تحليلا تاما وشرحوها فوجدوها عيونا مستقلة تامّة الاستقلال . إذن تكون النملة لها (٤٠٠) عين على الأقل . فلما تمّ ذلك ألفته فى رسالة اسمها ﴿ رسالة عين النملة ﴾ وستقرؤها فى (سورة النمل) مع قصتها المذكورة بهيئة أدبية وترى هناك شرحا لها وافيا ونشرت هذه الرسالة فى الجرائد وقرئت أمام محفل المدرسين فسكنوا للحقيقة أجمعين . وأذكر أن أرفعهم مقاما وعلما وقد تعلم فى ألمانيا قد كان خاطبنى قبل ذلك منكرا هذا الرأى فقلت له هو فى الكتب الألمانية والنمساوية والانجليزية فقال كذب الاورو بيون فقلت هلم معى الى (حلوان) فان مدرّس العلم مستعدّ لمقابلتنا هناك وهو يريك عين النملة فهنالك سكت واعتذر و بعد ذلك ألفت الرسالة وقرأها واحد منهم عليهم أجمعين كما تقدّم

فقال صاحبى هذا عجب ولكنى أريد أن أعرف فى أى كتاب رأيت أن عين الذبابة مركبة من أربعة آلاف عين . فقلت هى تقرأ الآن فى مدارس الشرق والغرب لاجدال فيها وهى الآن تدرس فى مدارسنا فى الكتب المنشورة بين أيدى تلاميذ المدارس باللغة الانجليزية فى ﴿ كتاب الانشاء ﴾ . فقال ياعجبا كل العجب وكيف يعرفها التلاميذ و يجهلها المدرسون . فقلت إن المدرسين صرفت أبصارهم عن أمثال هـذا فهى فى الكتاب أمامهم ولكنهم يحقرون النظر اليها والتفكر فيها . ألم تر أن المسلمين يقرؤن صباح مساء ـ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ـ وهكذا حتى ان شيوخ الصوفية قد أمروا تلاميذهم بقراءة آيات دالة على

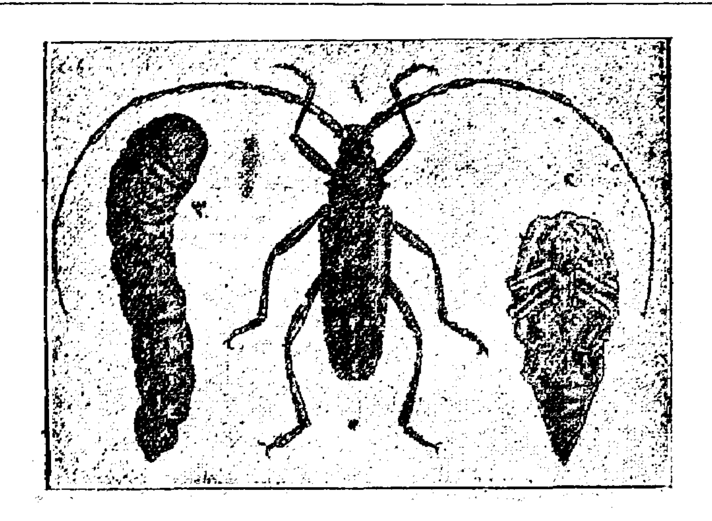
أمثال هذا النظر مثل قوله تعالى ــ قل اللهم مالك الملك ــ الخ ونحو ــ شهد الله أنه لا إله إلا هو ــ ومثل قوله ــ إنّ فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ــ الخ . هم يأمرون تلاميذهم بذلك ومع ذلك لاهم ولا تلاميذهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض . فقراءة الكتاب وحفظه غير حب العلم وعشقه . ألم تر الى ماتقدّم فى قول الشيخ الدباغ ﴿ ليس المدار على أن ترى الجمال وانما المدار على أن قوتك الادراكية تذوق الجمال ﴾ فالنظر للجمال شئ وذوق الجمال شئ آخر فكثير من أمم الشرق اليوم حجبوا عن ادراك الجمال أى ذوقه وذلك لأسباب طارئة وعوارض حاجبة قال تعالى ــ واذا قرأت القرآن جعلنا بينك و بين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ــ فهذا حجاب مستور مسدول على هذه العقول وهى متى أزيلت حجبها المسدولة عليها أدركت الجمال وارتقت الى حال الكمال . فقال إذن كأنك تقول إن هذه الآية وهى قوله تعالى ــ إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ــ تدخل فيها هذه المعانى كلها وأن الله أنزلها ليوقظ الأمم لقراءة الذباب والحشرات وكل حيوان ونبات . فقلت نعم أنا أقول ذلك والله عزّ وجل لما أنزل الآية أراد هذه المعانى وأراد معانى لم نصل نحن اليها الآن وهذا فتح باب لرقى الأمم التى تقرأ هذا الكتاب المقدّس لأنهم متى علموا أن عناية الله بذكر هذه الحشرة موجهة لهم هم أخذوا يتنافسون و يجدّون فى العلوم والحكمة و يستلذون بقراءتها و يفرحون بدراستها وأن الأمم التى حولنا فى الشرق والغرب جميعا يقولون ﴿ إن الرجل لا يكون رجلا نافعا لأمّته فاضلا إلا اذا درس هذه العوالم وأشرب قلبه حب حكمتها وأدرك بدائعها . فهنالك يسمو بفكره الى النظام العام فى العالم و يرقى أمته لأن عقله قد أشرب النظام والجمال فصار الجمال من طبعه بما اكتسبه من النظر فى العجائب هنالك يشرق من قلبه ولسانه ويده نور العرفان والعدل واسعاد أمّته ﴾ والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

فقال صاحبى وما مناسبة قوله تعالى ــ ماقدروا الله حقّ قدره ــ فى مسألة الذباب والأصنام . فقلت هذا ظاهر واضح لأن قدر الله انما يعرف بصنعه لا بصنع البشر أصناما وليس الذباب أعجب شئ فى صنعه واذا كان الأدنى من صنعه فيه عجائب كثيرة فكيف بالأعلى . فاذن الناس لا يعرفون قدر الله ولا عظمته ماداموا يجهلون صنعه وابداع نظامه . انتهى

﴿ الدود والجنادب والذباب والحشرات والأصنام ﴾

لقد اعتاد الناس فى القرى ببلادنا المصرية أن يضعوا على اللبن ملحا و يسمونه (مش) و يبقونه فى القدور أسابيع وقد سدّوها سدّا محكما وقد وضعوا مع هذا المش جبنا فاذا فتحوها وجدوا هناك ذبابا كبيرا فى جوّ القدر ودودا فى نفس المش فلا يفكرون فى ذلك الدود ولا فى الذباب من أين جاء واذا سألتهم من أين جاء الدود قالوا لك بلسان واحد ﴿ دود المش منه فيه ﴾ وهذا مثل جرى على ألسنتهم وهو خرافة لا حقيقة لها وهكذا يجد الناس اللحم المنتن فيه دود فيظنون انه كالمش أيضا ودوده منه وهكذا

واعلم أن الله عزّ وجل أكثر من هذا الذباب وجعله كأنه سياط يضرب به أهل الأرض ليستيقظوا من الجهالة لاسيما المسلمين . إن هذا الدود هو الذى فقس من البيض الذى وضعه الذباب فى المش المذكور وفى اللحم وفى كل منتن من الطعام ثم يصير هذا الدود جندبا أو (شرنقة) ثم تصير ذبابة تامّة (انظر صورتها فى الصفحة التالية . شكل ٨)



(شكل ٨)

(١) الفراشة التامة (٢) والشرنقة التى تراها كأنها محنطة ملفوفة فى كفنها (٣) الدودة تتغذى وتنمو لعل المصريين القدماء اقتبسوا تحنيط الجثث من هذه الحشرات

إن الله عز وجل أرسل هذه الحشرات بين أيدينا ومن خلفنا لتنغص علينا العيش وتذيقنا الأمراض الوبيلة لندرس هذه الدنيا كأنه يقول لنا أيها الناس هذه الحشرات خلقتها فى الرمم وألهمتها أن تضع بيضها فى طعامكم وشرابكم تشاهدونها كل حين فتعلمون أن القاذورات التى تعافونها وتأبون النظر إليها قد خلقت منها حشرات طائفات عليكم تعطيكم الدروس وهى ذات ألوان زاهية باهرة مابين أزرق زاهر وأبيض يقق وأخضر ناضر وأصفر فاقع وأحمر قان وذهبى اللون وعقيقيه و بنفسجيه . أفلا يبهر عقولكم أيها الناس هذا الجمال . أنا اشتققته من الرمم البالية والقاذورات المنبوذة الكريهة الرائحة والطعم واللون وهذه الحشرات عوالم أعداد أنواعها أكثر من مجموع أنواع الحيوان وأنتم لم تعرفوا منها الآن إلا نحو (٢٠٠٠٠٠) وربما تكشفون فى المستقبل ألف ألف نوع وكلها تتقلب فى الأدوار الثلاثة السابقة . فبينما ترونها دودة لدنة الملمس تنسل بين التراب والأعشاب اذا هى جندب صلب القشر يثب وثبا فاذا هى فراشة ذات أجنحة ذات لون بهيج والدود قد يأكل التراب و يهضمه ولكن الجندب والحشرات لاتهضم إلا الأعشاب . ومثل الذباب فى نشأته بين القاذورات الجعلان والعناكب والخنافس والنحل وقد قدروا أنواع الخنافس وحدها (٨٠٠٠٠) نوع . ولما كان أمر هذه المخلوقات عجيبا بديعا رأى قدماء المصريين تقديس الجعلان (جمع جعل) لهذا ولما لها من مزايا أخرى كأن تضع بيضها فى كرة وتدحرجها مرات حتى تكمل العمل فيها ومنها يخرج صغارها وقد جعلوها رمزا للخصب ورسموها فى كتاباتهم على (البابيروس) ونقشوها على الهيا كل وصنعوا لها التماثيل وكانوا يصلون لها . إذن كان المصريون أولا يجعلونها دلالة على جمال الحكيم المبدع وقدرته ثم تناسوا ذلك وعبدوها هى إذن هناك مناسبة بين ذكر الذباب الذى يعيش فى الرمم البالية و بين الجعل الذى هذا وصفه فكلاهما دلالة على مبدع هذا الوجود حتى عبده قوم . ولاجرم أن الحشرات ومنها الذباب المذكور فى الآية أبدع من الأصنام وأرقى منها وكلاهما بالضعف موصوف ولكن أحدهما أضعف من الآخر فكيف عبدوا أضعف الضعيفين . إذن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام أكثر سخافة ممن عبدوا الجعلان وهؤلاء وهؤلاء فى الجهالات سيان . فلتقرأ الأمم جميعها نظام الخليقة و بدائع الخلقة ليعرفوا الصانع بصنعه والحكيم بفعله — وفى ذلك فليتنافس المتنافسون — . ولقد اطلعت على جملة فى عجائب الحشرات فرأيتها توضح مانحن بصدده أيضا من كتاب ﴿علم الدين﴾ فأحببت ذكرها لجمالها وحسن نسقها وهاهى ذه

﴿ إن الحيوان يخلق أوّلا فى صورة ثم يتغير و ينقلب الى صورة ثانية ثم الى ثالثة وليس التغيرخاصا بالصورة بل يعترى الطباع والأحوال أيضا حتى لايبقى فيه شئ من أحواله وطباعه الأولى فتراه يكون فى أوّل مرة كدودة قذرة قبيحة المنظر راسبة فى قاع البحرمستورة بما فى قراره من الوحل والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة وأراد الانخراط فى سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته فعندذلك يتخلى عن ثوب الديدان و يتحلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الألوان ذات أجنحة كاللؤلؤ والمرجان فيطير بها فى الهواء الى حيث يشاء . فانظركيف خرجت هذه الدودة المائية عن ذاتها الأوّلية الى صفة الحيوانات الهوائية . و بتغير صورتها كما ذكر تتغير جميع طباعها وأحوال معيشتها واحتياجاتها وسائر حالاتها و بعد أن كان غذاؤها مما فى قاع البحرمن الحشيش ترعاه دائما ولاتمله ولاتستغنى عنه صارت لاتهواه ولاتقر به كما انها بعد أن قضت مدة حياتها الأوّلية تحت الماء فى الطين صارت لاتحب إلا فضاء الجوّ ونسيم الهواء تمرح فيه وتعيش به ولاتألف المكث تحت الماء بل لاتطيقه ولاتقدر عليه حتى لوكلفت أن تقيم تحته لحظة لهلكت فى الحال فلامناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الأوّلية وكذلك أمثالها من الحيوانات التى تتغير طباعها وأشكالها فان الحيوان ذا الأجنحة الزمرذية الذى تسميه العوام (بالجعران) وكان المصريون يعظمونه أصله من دودة تدب فى بطن الأرض لانسبة بينه و بينها بوجه من الوجوه وكان الأقدمون يجهلون ذلك الى زمن (أرسطو) وهوأوّل من فتح باب البحث فى هذه المسألة إلا انه تكلم فيهابالظن والحدس واستمرالأمر على ذلك الى هذه القرون الأخيرة فنظرفيها كثير من الحكماء ومشاهيرالطبيعيين فظهرأن الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجردا عن الأجنحة فى هيئة دودة صغيرة ثم يأخذ فى الكبر وازدياد الجسم يأكل بعض الحشيش وغيره من المواد الأرضية حتى اذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثو به وعدم الحركة بالكلية وصار فى مقرّه كأنه قد مات ودفن فى قبره فيبقى كذلك مدّة تنعدم فيها جميع الأحوال الدودية بتدبير إلهى لاعلم لأحد به ثم يظهر بعد ذلك فى صورة أخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عندالعامة (بفرقع لوز) وقد شوهد أن الدودة فى حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرّها تكون كقطعة عجين ملتفة فى مادّة زرقاء تكون لها كالكفن لرمم الموتى التى ترى فى قبور الأقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا الكفن وخرجت منه وصارت فى الصورة الجديدة . ومن الغريب أن هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذى صار قبرا له من غير أن يحصل لأعضائه الدقيقة أدنى خلل وكثيرا ما يكون هذا القبر مركبامن ﴿ثلاث طبقات * الأولى ﴾ مركبة من موادّ موضوعة بحيث ينزلق المطرمن فوقها ﴿والثانية﴾ من موادّ ألطف من الأولى شديدة الامتزاج ببعضها وهى لوقاية الجسم من العوارض الجوّية ﴿ والثالثة ﴾ هى الثوب أوالكفن الذى تقدّم ذكره ومن نظرفى الحيوان المعروف بأبى دقيق وتتبع أحواله وأشكاله وجده يتغير ثلاث مرات ينقلب فيها الى ثلاث حالات ليس بين واحدة منها و بين الأخرى مشابهة البتة حتى يظنّ انه يموت ويحيا ثلاث مرات مع انه فى الواقع ونفس الأمر ليس كذلك وانما يعتريه سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدّة من الزمن تشتغل فيها القوّة الحيوانية بواسطة آلاتها الخفية بالانتقال من الصورة الحالية الى الصورة الجديدة فالدودة من أصل خلقتها مشتملة على جميع مايلزم للصور التى تتحوّل لها وتنقلب اليها فكأنما هى فى ثلاثة أثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ماتحته فتبقى فيه ماشاء الله ثم تخرج منه وهكذا حتى تظهر فى الهيئة الأخيرة فتبقى عليها الى أن تموت بها و بعض الحشرات لايظهرعليه عند تغير صورته ما قدّمنا ذكره من السكون وترك الحركة ولاتعتريه كل هذه التغييرات والتبديلات وانما ينتقل من صورة الى غيرها بتمدد أعضائه وكبرها مع التقدم فى السن و بعضها ينتقل الى عدّة صور يدخل فيها على التوالى من غيرأن تظهر عليه حالة السكون المذكورة وانما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الأجنحة وذلك كالحيوان المعروف بالبق .

ومن

ومن الديدان المائية مايبقى سنين عديدة على حالة واحدة و يتغـذى بما فى مستقرّ المياه من القاذورات ورمم الأسماك فاذا تحوّل الى الصورة الأخيرة وظهر فى تلك الهيئة اللطيفة لايعيش إلا زمنا قليـلا لايزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد أن تبيض الأنثى منه بيضها . فمن تأمّل فى هـذه الحيوانات وهى فى مستقرّها أو رآها وهى مستورة بكفنها فى قبرها ونظر تعدّد أشكالها وألوانها وصورها واختـلافها فى كبرها وصغرها وأنعم النظر فيما تظهر به وتنجلى فيه من المنظر البهج والكسوة الفاخرة المطرّزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدرى برونق الدّرر والجواهر من النقوش الغريبة بالألوان العجيبة أذعن بالربوبية لخالقها ومبدعها القادر العظيم المدبر الحكيم وخضع لجلال عزّه وعظمته وتبرّأ من علمه وحوله وقوّته فما معلومات الانسان ولوامتدّ به الزمان بالنسبة لمعلومات الله سبحانه إلا كنسبة المعدوم الى الموجود . فكيف يطلع على كنه هـذه الأسرار أو يستخرج جوهر هاتيك البحار إلا ان أمدّه الله باعانته وشمله بحسن عنايته . انتهى ما نقلته من كتاب ﴿ علم الدين ﴾

﴿ محاضرة على هذه السورة فى قوله تعالى ـ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ـ الخ ﴾

فى هذا اليوم وهو الثالث من جمادى الثانية سنة ١٣٤٣ هجرية أى بعد اتمام السورة بيوم واحد قابلنى أحد علماء الأزهر فسمع بعض هذه الأقوال فى قوله تعالى ـ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ـ فقال انى أريد مناسبة بين المثل و بين ماذكرته من العلم وكأنك جعلت ذكر الذبابة موضوعا وكتبت عليـه والا فالآية ليس فيها إلا شئ واحد وهو احتقار الأصنام التى كان أحقر المخلوقات يسلبها . وكانت تلك المحاضرة بجوار الجامع الأزهر بحضور الطلبة الجاويين . فقلت له إن فيما كتبته مايقنع بأن ذلك مناسب للآية وان أردت إلا الزيادة عليه فهاك مابه يتضح المقام

(١) قدقدّمت هنا أن الله قال ـ فاستمعوا له ـ فاستمعنا وقلنا لابدأن تكون هناك أمور وراء المثل المشهور وهذا كاف فى البحث فى الذبابة وماتبعها

(٢) اننا اذا سمعنا المثل فلنبحث فى جميع أطرافه وهى هنا الأصنام والذباب . وصفت الأصـنام بالقوّة والذباب بالضعف فلما بحثنا عن الذباب الذى وصـفه الله بقوله ـ وان يسلبهم الذباب شيأ لايستنقذوه منه ـ دعانا ذلك الى البحث فى تشريح الذباب وقوّته وعيونه التى سيأتى ذكرها فى (سورة النمل) وفى مهارتها فى ذلك ثم فى مضارّها للانسانيـة ومنافعها وليس ذلك بدعا فانا نقول إن عادة العرب أن يسترسلوا فى موضوع كهذا . ألم تر الى امرئ القيس فى معلقته كيف وصف القفر الذى قطعه بأن فيه ذئبا وذكر فى الذئب بيتين ونصف بيت فقال انه يعوى وانه لماعوى قال له امرؤالقيس أنا وأنت شأننا قليل الغنى وكل منا اذا نال شيأ اقاته ثم ذكر الحصان ووصفه بصفات بلغت نحو ١٧ بيتا . وترى طرفة بن العبد وصف ناقته فى ٢٩ بيتا فى معلقته وماهى الناقة . يقول انى أمضى الهم عند احتضاره بركوبها ثم استمر يصفها . وترى لبيد بن ربيعـة العامرى فى معلقته يصف الناقة التى يركبها بنحو ١٤ بيتا . ثم يوازن مابينها و بين البقرة الوحشية بنحو ١٧ بيتا فهذه كلها (٣١) بيتا كلها مذكورة لأجل الناقة . وعمرو بن كلثوم يصف محبوبته فى نحو عشرة أبيات وهكذا مما لاحصر له . فاذا كنا نرى العربى القح صاحب اللسان الفصيح يذكر الذئب فى عرض الكلام فيصفه و يذكر الناقة وهى ليست محبوبته ولامقصوده فيصفها وصفا عجيبا وأكثره خيالى مبالغ فيـه و يصف البقرة الوحشية التى جعل ناقته أفضل منها جريا وأكثر فى شرحها . لماذا . لأن لها علاقة بناقته من حيث ان الناقة أفضل منها ومتى كان المفضل عليه أشرف كان المفضل أكثر شرفا وهكذا . فاذا كنا نجد اللسان على هذا المنوال وقد وصفوا ماجاء فى عرض الكلام وأطنبوا وصفا ليس له فائدة إلا تسلية العقول وحسن القول واذاعة الفصاحة وأن يقال إن الشاعر بارع و براعته فى اختراع المعانى الدالة على اطلاعه على أمور كثيرة

أفلا يسوغ لنا أن نصف الذبابة التى ذكرها الله وصفا لامبالغة فيه وهو حقائق صادقة وليس المقام مقام بلاغة فحسب بل المقام مقام أمم ترتقى وتعيش وتأخذ حظها من الوجود . فاذا كان أهل اللسان وهم أجدادنا هكذا يفعلون لمجرد التسلية ووصف الشاعر بالبلاغة وتحدث الناس فى مجالسهم ليكون تسلية لهم ومضيعة لوقتهم فوالله لنحن أحق بأن نعطر المجالس بعبير الرحمة الإلهية التى تفيض على من يقرأ هذا الكتاب و ينظر فيرى آثار رحمة الله وليس يكون ذلك تسلية لمجالسهم فحسب . كلا . بل هو انعاش لمدنيتهم وترقية لأممهم واخراجهم من الذل الى العز . علم الله قبل نزول القرآن أن أمم العرب من شأنهم فى قولهم هذا فأنزل القرآن وضرب الأمثال وقال ـ ثم إن علينا بيانه ـ فلعمرك أن هذا من بيان القرآن فلنصف الذبابة كما وصف امرؤ القيس ومن على شاكلته دوابهم لأدنى مناسبة . ثم قلت بعد ذلك ﴿ على أنه لو لم يكن ذلك فرضا فليكن من الفكرة العامة فى القرآن وهو التفكر فى كل شئ كما قدمنا فى هذا التفسير فالذبابة لم تخرج عن كونها مما أمر الله بالنظر فيه . أليست مما فى الأرض . لهذا ننظر ونفكر

﴿ نمط آخر فى المحاضرة ﴾

ثم قلت واذا كنا نرى الذبابة تستلبنا ما علينا وما بين أيدينا وتجعل الطعام الذى أمامنا قذرا وتضع بيوضها فى عيون أبنائنا وفى لبننا الذى نضعه فى الجرار وهذا اللبن اذا غطيناه مدة أشهر ورفعنا الغطاء عنه لنأكله كما هى عادة بعض الفلاحين فى مصرنا و يسمونه (مش) فانا إذ ذاك نجد ذبابا كبيرا يعيش فى جو هذه الجرة وهو لم يسمع عن الدنيا ولا نظرها وما هذا الذباب إلا الذى أفرخ فى هذا اللبن وأصله كان دودا والدود كان أصله بيضا والبيض كان من الذباب والذباب كان ينزل على اللبن لتفريط الناس فى متاعهم وانما أنزل على اللبن أو على أعين أولادنا لأن الله هو الذى علمه . علمه انه لا يضع البيض إلا فى مكان صالح والمكان الصالح هو الذى فيه غذاء له فتخرج أولاده فى اطمئنان وسلام فى بيوتنا ومنازلنا أكثر من اطمئناننا نحن على أبنائنا فانا لا ندرى ماذا تعمل الفرنجة فيهم غدا ولا ندرى ماذا يراد بهم ولم نعمل ما عملته الذبابة ولم نحافظ عليهم

هذه هى القراءة التى يقرؤها المسلم فى الذباب و يقرأ المسلم أيضا فوق ذلك فيقول إن (أبادقيق) المتقدم ذكره والنمل والنحل والزنابير لها صفات ولها منافع ولها أحوال وهكذا بقية الحيوانات وكذلك الحيوانات الدقيقة المسماة (بالمكروب) التى تسطو علينا فتقتلنا وتمرضنا وتمرض أبناءنا بالحمى والجدرى وهى التى لم يعرفها الناس إلا فى هذا الزمان . فكل هذه حكمها حكم الذباب لها منافع ولها مضار . فيالله و ياللة و ياللعجب . يارسول الله انظر أمتك . انظر أمتك يارسول الله بعد ألف وثلثمائة سنة من الذى ينظر فى شؤنهم . تنظر فى شؤنهم أهل أوروبا فهم والله الذين يدرسون (علم المكروبات) وعلوم الأمراض و يقولون الطاعون له دواء كذا و يحللون تلك الأمراض . ولقد جاء رجل ألمانى الى مصر قبل الحرب وهو الذى نشر هذه العلوم فيها انتشارا مضيقا عليه لسيطرة الأجانب على البلاد . فهل يجوز فى شرعة الانصاف أن يجهل المسلمون هذه المضار . أليس الذباب وغير الذباب يعبث بحياتنا و يقتل المكروب أى الحيوانات الدقيقة التى لا ترى إلا بالمكرسكوب آلافا وآلافا من أبنائنا ونحن لا نعرف بل لا نصدق أن العلم ينفع وأوروبا تفوقنا و بالله ما الفرق بين الأصنام و بين الأمم النائمة التى سلطت عليها الهوام والحيوانات الدنيئة . لم يسلط علينا الذباب فقط بل سلط ما هو أنقص من الذباب ونحن لا ندرى أن الله خلق شيأ من ذلك . لا لا بل سلط علينا الحيوان ونوع الانسان فنحن تحت تأثير الحيوانات ولا ندرى انها تؤذينا بل لا ندرى أنها خلقت . ولا ندرى أن الجدرى والحصباء والطاعون والحمى كل ذلك بجنود يرسلها الله من الحيوانات التى عرفها الناس والمسلمون نائمون . حيوانات حية تعيش وتلد وتموت و ياليتها تسلبنا الطيب كما سلبت الأصنام ولكنها تسلبنا أبناءنا وزرعنا ولما ضعفنا وجهلنا سلط الله علينا أوروبا لتقوم بأمرنا وتأخذ الثمن أن تستعبدنا . فهذا هو ما فهمته فى قوله تعالى ـ إن

الذين

الذين تدعون من دون الله — وحاشا لله أن أقول ان معنى الآية هذا ولكن أقول إن هذه المعانى رمزية ولاغضاضة فى ذلك . فالكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه فالمعنى فى الآية على حاله ولكن يجاء بالمعنى الآخر تبعا ويكون هو المقصود والحمد لله الذى جعل فى الأمة علم البيان ليرجع اليه من لم يكفه مانقول

فاذا بقى المسلمون مستسلمين لليأس وقعدوا عن العلم والعمل فهم (والعياذ بالله) باقون على التقليد وتكون آراؤهم العتيقة المحصورة كأنها معبودة لهم لعدم انحرافهم عنها . ولعمرى ماذمت الأصنام إلا لأنها قيد للأفكار ولقد تقدم حديث « ان عبادة غير الله عبادة للأهواء » فتكون النتيجة أن من اتبع هواه فكأنه عابد له . فعبادة الأصنام ترجع لعبادة الهوى — أفرأيت من اتخذ إلهه هواه —

فإذن المسلمون هم الذين قيدوا الدين وهم اذا سمعوا قوله تعالى — ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا الى حين — قالوا هذا حق واذا قيل لهم انظروا فى بقية المنافع فان الله سخر لكم مافى الأرض جميعا ولما علم أن علمنا قليل قال — ويخلق مالا تعلمون — يريد بذلك أن نعلم مانجهل ويدل عليه — وقل رب زدنى علما — . اذا قيل لهم ذلك يقولون لا لا هذا حرام هذا خارج عن الدين لايبحث القرآن عنه وأشياخنا وكتبنا لم تقل ذلك . فلنقل لهؤلاء « أيها الناس ان الأمم اذا طال عليها الأمد قست قلوبها والأمة الاسلامية المسكينة حصل لها اليوم ماحصل للأمم السالفة . إن القسيسين فى أوروبا كانوا يتحكمون تحكما أدى الى التهلكة والقرآن ضربهم ضربة دوخت رؤساء الدين وشتتت شمل تلك العقائد والتحكم فى الأعراض والأشخاص والملوك كما تقدم فى قوله تعالى — وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين — وأمتنا المسكينة محبة لدينها ولكن طرأ عليها ملوك وأمم أذلوها من بنيها ومن خارجها وذلك فى نحو سبعمائة سنة وهاهى ذه تريد أن ترجع مجدها ورجوع مجدها بالاسلام أسرع من رجوع مجد أوروبا الذى ظهر فى نحو ثلثمائة سنة ونحن لايعوزنا هذا الزمن كله وسيكون رقى المسلمين فى نفس هذا القرن لأنهم أقرب الى الرقى . فقال أحد الحاضرين أوضح ما ذكرته من علم الحيوان فى أواخر السورة بمناسبة الذباب . فقلت انى قد ظهر لى العجب فى هذه الآيات بعد تمام تفسير الآية . فقالوا وماهو العجب . قلت أرأيتم قوله تعالى — إقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الانسان من علق — . قالوا هذه أول آية نزلت . قلت انظروا وتعجبوا . ألستم تعلمون فيما ذكرته أن العلقة إحدى الحيوانات التى تقدم شرحها . قالوا بلى . قلت أولستم تعلمون أن الله يقول — وجعلنا من الماء كل شئ حى — . قالوا بلى . قلت أولستم تعلمون أن العلم الحديث جاء فيه أن جميع حيوانات البر على مايظنون كانت فى البحر ثم انتقلت الى البر وان كانوا لايحسنون أن يعللوا كيفية ذلك . قالوا بلى قدفهمناها الآن . قلت نعم إن الضفادع تخلق فى الماء وتعيش فيه فى صغرها فاذا كبرت خلق الله لها رئة وجعلها من ذوات الدم البارد وأخرجها الى البر وتنزل الماء فى بعض الأوقات اذا أحست بأدنى خطر وربما اختفت فيه نحو ساعة لاغير ولاتتحمل أكثر من ذلك وقد تكون فيه أمدا طويلا اذا صارت خامدة فى زمن الشتاء شبه الميتة فاذا جاء الربيع حييت . قالوا وماتقصد بهذا . قلت أقصد أن حيوان البر على مايقوله الطبيعيون كان فى البحر فيكون قوله تعالى — وجعلنا من الماء كل شئ حى — أى انه كله كان من الماء وهو أشبه بالضفادع والضفادع تكون لنا مثلا ضربه الله لناليعرفنا انها كلها كانت فى الماء ولكن هناك نواميس لانعلمها قد عملها لتلك الدواب فأخرجها الى البر كما أخرج الضفدعة . قالوا حسن هذا ولكن ماذا تريد بهذا القول الآن . قلت أريد أن أقول ان العلق من الحيوانات الأرضية الطينية وقد خلق الله الانسان من علق فهو فى أول نشأته يشابه نشأة الحيوانات فى البحر فى قديم الزمان لأن جميع الأرحام مائية كأنها حفظت أصل الخلق وانه كان من ماء . قالوا ثم ماذا بعد ذلك . قلت قال العلامة (فون باير) حفظت جنينين صغيرين فى الكحول ونسيت أن أكتب اسم كل واحد منهما عليه واليوم يتعذر على أن أعرف من أى صنف

هما أمن القواضم أم الطيور أم ذوات الثدى نعم ان أطرافهما لم تكن تكوّنت وهب انها كانت فوجودها فى أوّل تكوّنها لايفيد شيأ لأن أطراف القواضم وذوات الثدى وأجنحة الطيور وأرجلها متشابهة حينئذ ولاتختلف إلا بعد ذلك كما يرى فى مقابلة صور جنين الانسان والكلب والدجاجة والسلحفاة . ويقول علماء العصر الحاضر ﴿ ان كل جنين صادر أوّلا من بيضة أو بزرة لايختلف بناؤها الجوهرى ولايختلف بعضها عن بعض إلا فى الحجم والشكل وهذه الخلية تنمو بالانقسام وأجنة الحيوان التى تنشأ من هذه البيضة تكون متشابهة فى الأطوار الأولى يصعب تمييز أجنة ذوات الثدى من أجنة الطيور وسائر أجنة الحيوان الفقرية ﴾

ويقولون أيضا ﴿ ان أصل الماهية العضوية فى نشوء الانسان (علقة نووية) مستديرة الشكل يبلغ قطرها ١ من ١٢٥ من القيراط فاذا ألقيت عليها نظرة بعين مجرّدة رأيتها نقطة صغيرة جدّا وانما تتكوّن الخلية الأولى فى حال نتاج البيضة أوفى حال اختلاطها بمنى الذكورة الخ ﴾

فانظر رعاك الله الى قول علماء العصر الحاضر ان الانسان فى أصله علقة صغيرة وهذه العلقة تطوّرت أطوارا شتى فانتقلت من حال العلق الى حال ذوات الفقار متنقلا فى أحواله من حال الى حال أرقى حتى يصل الى حال الانسانية . وقد تقدّم فى سورة (آل عمران) أن الفيلسوف (هيكل) الألمانى حاول جمع جميع الصور الحيوانية المتتابعة من أدناها الى أعلاها كما قدّمناها لك فوجد أكثرها فى صور الجنين ولم يجد باقيها وادّعى انه وجدها كلها فأسقطه القوم . والمقام الآن هو أن الجنين يتطوّر فى بطن أمّه من أدنى حيوان كالعلق متنقلا فى صور حيوانات أعلى من العلق الى أن يصل الى الانسان وان كان هذا لم يتم كشفه وهذا هو قوله تعالى ــ خلق الانسان من علق ــ فما ذكره الله منذ ألف وثلثمائة سنة ذكر اليوم بنصه وفصه وقد علمت أن العلق يكون مبدأ لذوات الحلقات وتلك هى الحشرات وذوات الأرجل الكثيرة والعنكبوت . وهذا الخلق وارتقاء الصورة عن أصلها العلقى الى الصورة الانسانية هو الذى سماه الله كرما إذ قال ــ يا أيها الانسان ماغرّك بربك الكريم الذى خلقك * فسوّاك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك ــ

عجبا للقرآن . يقول ان ربك أيها الانسان كريم . لماذا . لأنه ــ خلقك فسوّاك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك ــ . فالتسوية وتنظيم الهيكل الجسمى كرم من الله فالله كريم . لماذا . لأنه سوّى صورنا لما خلقها فى الرحم وجعلها متناسبة وقاسها بمقياس عجيب كما تقدم فى هذا التفسير فهذا هو الكرم . ثم نرجع الى سورة (العلق) فنراه يقول فيها بعد أن ذكر خلق الانسان من علق ــ إقرأ وربك الأكرم ــ

عجب . هو هناك كريم . كريم لأنه خلق الانسان من علق فسوّاه فعدله فى أى صورة ماشاء ركبه ولكنه هو أكرم . لماذا . لأنه ــ علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم ــ فالله كريم لأنه خلق الصورة الانسانية وخلصنا من الحيوانية التى مرّت عليها العلقة التى لاتصل الى الانسانية إلا بعد مرورها على صور شتى من الحيوانات وهو أكرم لأنه يعلمنا و يفتح المدارس و يفهمنا نظام الكون و يرفعنا الى أفق الملائكة . فهذا معنى قوله تعالى ــ الأكرم ــ فهو كريم لاخراجنا من الصورة الحيوانية وهو أكرم لاخراجنا الى الصورة الملكية بالعلوم والكتب

﴿ ملخص المحاضرة ﴾

(١) سؤال من أحد علماء الأزهر « مامناسبة علم الحيوان لمسألة الذباب »

(٢) الاجابة « ان المناسبة تقدّمت فى السورة وافية »

(٣) وايضا ان ذكر المثل يستلزم البحث فى صفات الممثل به فلنبحث فى صفات الذبابة ومنها أعضاؤها وقواها وعيونها

(٤) ونذكر مايناسبها من الحيوان كما فعل شعراء الجاهلية فى معلقاتهم

(٥) بل نحن أولى لأنهم كانوا يصفون لمجرّد الخيال واللهو بالقول والتفاخر به ولاينفعهم فى سعادتهم

(٦) وأيضا الذبابة تسلبنا هى وحيوانات أخرى ماعندنا من الصحة وتورثنا أمراضا كالجدرى والحصبة وذلك بالمكروب . فهل نكون معها كالأصنام ونحن عقلاء

(٧) إن ذلك يقصد بطريق الكناية والكناية من علم البيان وهو يدرس فى جميع المدارس فى مصر وغيرها

(٨) والمسلمون اذا امتنعوا عن البحث فى هذا فقد قيدوا الدين

(٩) والتقييد بالتقليد أشبه بعبادة الهوى وحاشا لله أن أقول اننا كفار ولكن أقول اننا نتبع الأهواء وكفى بهذا ضلالا فاننا عبدنا أهواءنا وذلك فيه على الأقل كفر النعمة

(١٠) وكفر النعمة قبيح جدا من المسلم

(١١) إن فى مسألة تشريح الذبابة واستخراج أنواع الحيوان منها سرا وذلك السر أن علماء الطبيعة يقولون ان الانسان خلق من علقة وتلك العلقة التى نطقوا بها وكشفوها تساوى $\frac{1}{120}$ من القيراط وليس من المعقول أن أحدا من البشر شاهد هذه العلقة وكونه عدلها وسوّاها فى أى صورة هو انتقالها الى الانسانية فى الرحم

(١٢) إن التعبير بالكرم فى جانب تسوية الجسم . وبالاكرام فى جانب الانعام بالتعليم بالقلم باب واسع لارتقاء الأمة المحمدية وغيرها . يقول الله خلقتكم فى صور مختلفة مرتقية فى الرحم فلأرفعكم فى صور روحية مختلفة فى حال الحياة الدنيا بالعلم والمعرفة لتخرجوا من هذه الأرض كاملين وهذا أشرف

ولما أتممت هذا القول سأل أحد طلبة بلاد الجاوه قائلا « فهل ترى أن العلم فى الاسلام اليوم لا يكفى وهل علم الفقه لا يكفى المسلمين وعلم التوحيد » . قلت اعلم أن علم الفقه قد نفع الاسلام وحفظه للآن ولولا البيوع والميراث والهبة والدعاوى وما أشبهها وكذا الصلاة والزكاة الخ لم يكن للمسلمين جامعة ولكن هذه محافظة على الموجود . فقال مامعنى هذا . قلت يسمع الفقيه قوله تعالى ــ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ــ الخ فيؤلف فيه علم الميراث وقد أحسنوا صنعا . ويسمع آية الدين فيؤلف فيه ويستوفيه . ويسمع ــ وأحلّ الله البيع ــ الخ فيؤلف فى الربا والبيع . ويسمع ــ الطلاق مرّتان ــ فيؤلف . ويسمع قوله تعالى ــ حافظوا على الصلوات ــ الخ فيؤلف . حسن كل هذا ولكن هذا محافظة على الموجود . ومعنى هذا أن المال الذى تصادف أن الناس جمعوه تكون عليه القضايا ومنه قسم التركات ومنه الصدقات ومنه بناء المساجد ومنه الدفاع عن البلاد الخ . ولكن اذا قيل لبعض العلماء (لا كلهم لأن علماء الاسلام اليوم غيرهم بالأمس بل لم يبق من تلك الطبقة إلا القليل) إقرأ ــ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ــ أوقيل له ــ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ــ واذا قيل له ــ وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ــ الخ واذا قيل له ــ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلكم تسلمون ــ واذا قيل له ــ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ــ أى ان الله علم داود عليه السلام صنعة الدروع وهو يأمرنا بالشكر عليها لأنها تحصننا من الحرب وهذا يلزمنا أن نبحث فى كل مايحصننا من بأسنا . اذا سمع هذا قال هذه أمور ليست فى علم الفقه ولاتدخل فى أحكامه وهذه ليس فيها شئ فهى تقرأ للتعبد وبها نعرف الله ومعرفة الله حاصلة عندنا . ونسى هؤلاء أن هذه الآيات تحتاج الى علوم تشرحها ويعمل بها . وبالبحث فى العالم المشاهد تزيد ثروة المسلمين وبزيادة الثروة تكون التركات والصدقات والزكاة وماأشبه ذلك . فالذى يحكم فى الشئ وهو قليل هو الذى يحكم فيه وهو كثير والحكم على الشئ فرع عن وجوده . فالمتعلمون فى الاسلام أيام سقوط الدول الاسلامية أذلهم الملوك حتى لزموا علوما خاصة واكتفوا بالفقه والتوحيد وتركوا الأمة حبلها على غاربها فحفظوا مائة وخمسين آية لأجل الأحكام ونسوا بقية القرآن الذى به العبرة لازدياد الثروة وارتقاء الشعوب وحفظ الأمم الاسلامية . فليكن بعض علماء

الدين علماء نبات و بعضهم علماء حيوان و بعضهم أطباء و بعضهم علماء السياسة و بعضهم علماء اقتصاد مع إلمام كل واحد بالعلوم التى فى الدنيا الآن ومنها علوم الدين . وليجعل العلماء الأبحاث العميقة فى هذه المقاصد لافى المقدمات كالعلوم العربية فانه من العار أن يضيع التلميذ زهرة حياته فى مباحث وفى علل لاتنفع و يترك المسلمين أذلاء بين الأمم . هذا هوالذى سيخاقه الله فى الأمم الاسلامية فى المستقبل والله هوالولى الحميد وهو حسبنا ونعم الوكيل ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم . فقال أحد التلاميذ انى أريد أن أعرف ايضاح عبادة الهوى بطريق مختصر فانى لم أفهمها . فقلت الأصنام عبدت بالهوى والنبى ﷺ قال لما قيل له حين قرأ ــ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ــ يارسول الله ما كنا نعبدهم انهم كانوا يشرعون لكم فتتبعون شرعهم فجعل اتباعهم عبادة لهم وهذا بطريق المجاز فالمعبود على كل حال الهوى . والمسلم اذا اتبع هواه وقد دله هذا الهوى على ترك مافى البحار من اللؤلؤ والمرجان وماعلى سطحها من السفن العظيمة وماعلى ظهر الأرض من المواليد الثلاثة ومافى باطنها من المعادن وقد أحاطت به نذر الأمراض بصغار الحيوان فكان الطاعون والتيفوس والتيفود الخ . وفوق ذلك الأمم القوية تفتك بالمسلم وهواه يقول له لايهم ذلك

أفليس المسلم إذ ذاك كأنه عبد الهوى . فالهوى كالصنم والذباب وغير الذباب من العاقل وغير العاقل المؤذيات له كالذباب فى مسألة الأصنام وماعنده من الأغذية والأموال كالطعام والطيب عند الأصنام . فهذا المثل منطبق تمام الانطباق . فالهوى فى أنفسنا لايدفع مايطرأ علينا من المصائب . فكل مايؤذينا فهوذبابنا . وكل مايقعد بنا عن المنافع فهو معبودنا والهوى مطلع على مانزل بنا وهولايبدى حراكا كالأصنام فصار معبودنا العملى (لأننا مؤمنون بالله ورسوله وندخل الجنة اذا كنا صالحين) وهوالهوى . يرى الحرب فى ديارنا فيوحى الينا أن توكلوا . ويرى خسارتنا فيقول لايهم ذلك فلايستحق الهوى الاتباع بل العبادة تكون لله وهوالذى يلهم العقول فتدفع الأذى عن الناس بالعلم . فكما أمر الكفار بنبذ الأصنام أمرنا بنبذ الهوى والتقليد الأعمى وكما أن الأصنام لاتقدر على دفع الأذى فهكذا آراؤنا التقليدية لاتدفع عنا الأذى . وكما ان الكفار يجب أن يؤمنوا بالله ورسوله هكذا نحن يجب أن نوجه عقولنا للفهم من القرآن والقرآن يقول الله فيه ــ قل أعوذ برب الفلق ــ الخ فنستعيذ بالله من شرّ خلقه واذا استعذنا به واتجهنا الى فهم القرآن بعقولنا علمنا العلوم ومتى علمنا عملنا فأزال الله عنا شرا و باد شر الحيوان وشر أنفسنا كما بيناه

فبهذا انطبق المثل تمام الانطباق من حيث جوهر المعنى وهذا هوالمعنى المهم الذى نزل له هذا المثل وهو وأمثاله السبب فى قوله تعالى ــ فاستمعوا له ــ . فالهوى عندنا يقول يامسلمون لايهمكم شئ وعلماء الفرنجة يقولون يهمنا كل شئ . ألم تر الى العالم الفرنسى (پول برت) المذكور سابقا فى كتابه المسمى ﴿العلوم الطبيعية﴾ الذى ترجمته زوجته الى اللغة الانجليزية حيث قال فى أوّله ﴿ انك أيها القارئ سيسرك هذا التاريخ الطبيعى وستعلم بأىّ طريق تفيدنا تلك الحيوانات و بأى طريق تضرنا وتحدث فينا خطرا وليس الأمر قاصرا على المضار والمنافع بل انك تعلم أننا نحن باعتبارات كثيرة نشبه الحيوانات لاسيما اذا لاحظنا تركيبنا الداخلى فاننا نعلم أن لنا قلبا له ضربات فى صدورنا ورئتين بهما نتنفس ومعدة وحواس كالأعين التى بها نبصر والآذان التى بها نسمع . واذا صادف انك نظرت الى مشرحة الجزار أورأيت مصادفة أرنبا مذبوحا مثلا فانك ترى أن الثور والخروف والخنزير والأرنب فى نظامها وترتيبها الداخلى بينها و بين الانسان مشابهة قليلة وكثيرة . وعلى ذلك اذا نحن درسنا الحيوان بتتابع ونظام فما درسنا إلا أنفسنا وكلكم تعلمون كيف يكون ذلك لذيذا وسارا ﴾ انتهى

هذا كلام العالم (پول برت) فقال بعض التلاميذ هذا كلام افرنجى وزوجته المترجمة للكتاب بالانجليزية قلت نعم . قال فتى يكون المسلمون على هذا النمط . قلت فلينشر فى الاسلام أمثال مايكتب فى هذا التفسير

وغيره بطرق مناسبة . فقال آخر . هـذا القول هو عـين قوله تعالى ــ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ــ وكأن قوله تعالى ــ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ــ الخ اذا درسناه فقد درسنا أنفسنا . قلت نعم . فدراسة هذه العلوم لدفع المضار وجلب المنافع ولدراسة علم التشريح لأجسامنا . هذا ملخص ما مضى حتى ان دراسة الذبابة المتقدمة دراسة لأنفسنا . وأما بصفتى مسلما أقول وهناك أمر رابع وهو حب الله والارتقاء والوصول اليه بالطريق العلمى وعلم التوحيد فيكون لنا أربع منافع بل خمس والخامس أن ترتقى العقول الاسلامية كما ترتقى عقول البشر بهذه العلوم ولذلك لما دخل الفرنجة بلادنا المصرية منذ (٤٥) سنة منعوا هذه العلوم عن المصريين ليحصروها فى الجهالة وقد كانت قبل ذلك فى مدارسنا حين كنا مستقلين لأن علماءهم أفهموهم أن تعليم الأمم المحكومة يجعلها مدركة الحقائق فتطرد المستعمرين وهذا شأن الغاصب مع صاحب البلاد . وانى أنصح المسلمين جميعا أن يعرفوا هذه العلوم و يقرؤها لينفعوا أممهم و يطردوا عدوّهم و يرضوا ربهم والحمد لله رب العالمين . انتهت المحاضرة و بها تمّ تفسير (سورة الحج)

﴿ تذكرة ﴾

قد اطلع بعض الفضلاء على جملة فى هـذه السورة تحت عنوان ﴿ مسامرة فى قوله تعالى ــ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها ــ الخ ﴾ فقال ان القول فيها قد طال جدا وكثر الأخذ والردّ فماذا تقصد . فقلت إن القول هناك تام . قال ولكن فى الاعتراض عليك أظهرت الحماسة وفى ردّ الاعتراض لم تظهر مثلها . قلت إن ملخصها أن بعض الحجاج أخبرنى انهم فى أيام (منى) يذبحون القربان ولا يعطونه للفقراء و بهذا يكون المرض فالموت . فقلت لهم ما ملخصه ان هذا حرام فى ديننا بدليل ان الله يقول ــ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ــ . إذن المقصود من القربان الاطعام لا انه يرمى فوق الجبل و يعفن الجوّ . و بدليـل قوله تعالى ــ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ــ وكيف يكون الشكر على رمم تؤذينا وسماها الله رزقا فهل الرزق هو الرمم الملقاة وقال أيضا ــ وأطعموا البائس الفقير ــ فأمر سبحانه مرتين بالإطعام والأمر للوجوب . إذن تركه على الجبل بدون إطعام الفقير منه حرام بنص الآية . فقال الآن فهمت انتهى

﴿ و بهذا تم الكلام على سورة الحج ﴾

سورة المؤمنون مكية وهي مائة وثماني عشرة آية

سنذكر مناسبتها لما قبلها في لطائف (المقصد الثاني) منها وهي ﴿ ثلاثة مقاصد ﴾

﴿ المقصد الأول ﴾ من أول السورة الى قوله ـ وعليها وعلى الفلك تحملون ـ وهو في خلق الانسان ونظام هيكله والنبات والحيوان

﴿ المقصد الثاني ﴾ من قوله تعالى ـ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه ـ الى قوله ـ الى ربوة ذات قرار ومعين ـ وهو قصص بعض الأنبياء

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى ـ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ـ الى آخر السورة وهو خطاب عام للرسل ونتائج الرسالة وأدلة ونصائح مختلفة

(المَقْصِدُ الأوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ * وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ *

التفسير اللفظي

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون) أي قد نجا وفاز وسعد الموحدون المصدقون (الذين هم في صلاتهم خاشعون)

مخبتون متواضعون لايلتفتون يمينا ولاشمالا ولايرفعون أيديهم فى الصلاة وهـم يجمعون الهمة و يعرضون عما سوى الله بقلوبهم و يتدبرون فيما يجرى على ألسنتهم من القراءة والذكر فهم على ذلك لايفرقعون أصابعهم ولايعبثون فيها . ومن لوازم جمع الهمة وتدبر القراءة أن لايعرف من على يمينه ولامن على شماله (والذين هم عن اللغو معرضون) عن الباطل والحلف وعن كل مالايعنيهم وعن كل كلام ساقط حقه أن يلغى كالكذب والشتم والهزل منصرفون . ذلك لأن لهؤلاء من الجد مايشغلهم فهم فى صلاتهم معرضون عن كل شئ إلا عن الخالق وفى خارج الصلاة معرضون عن كل مالافائدة فيه متجهون للجدّ والعمل الصالح فكأنهم أخذوا من جمع همتهم فى الصلاة درسا بعدها وتخلقوا بأخلاق الله فى النفع العام والآداب العامّة التى هى تخلق باسمه تعالى القدوس (والذين هم للزكاة فاعلون) مؤدّون مداومون (والذين هم لفروجهم حافظون) الفرج اسم لسوأة الرجل والمرأة وحفظه التعفف عن الحرام فهـم لايبذلونها وهم يلامون على كل مباشرة (إلا على أزواجهم أوماملكت أيمانهم) أى إلا على ما أجيز لهم (فانهم غير ملومين) عليه . وقال الفراء إلا من أزواجهم أى زوجاتهم أوسرياتهم فتكون على متعلقة بحافظين (فمن ابتغى وراء ذلك) المستثنى (فأولئك هم العادون) الكاملون فى العدوان (والذين هم لأماناتهم وعهدهم) لما يؤتمنون عليه و يعاهدون من جهة الحق أوالخلق عليه (راعون) حافظون يحفظون ما ائتمنوا عليه و يفون بالعقود التى عاقدوا الناس عليها . فالأمانات إما للحق كالعبادات واما للخلق كالودائع (والذين هم على صلواتهم يحافظون) تفسيرها ظاهر (أولئك) أى أهل هذه الصفة (هم الوارثون) فهم يرثون الأرض فى الدنيا و يرثون الجنة فى الآخرة . أما ارثهم الأرض فى الدنيا فلصلاحهم لها كما تقدّم فى ﴿ سورة الأنبياء ﴾ أن الله كتب فى جنس الكتب السماوية بعد كتابة اللوح المحفوظ أن الأرض يرثها عباده الصالحون لها . فبالدنيا بقيامهم بما يوجب حفظها ونموّ خيراتها والقيام بنظامها الى آخر ماتقدّم . ولاجرم أن هذه الصفات من رعاية الأمانة ومامعها من أهم صفات الأمم التى يثبت سلطانها وتعمر مدنها . ولما كانت الآخرة نتيجة للعمل فى الدنيا ذكرها هنا فقال (الذين يرثون الفردوس) أى البستان وهوهنا أعلى الجنة وهى مائة درجة مابين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش العظيم هكذا ورد فى حديث الترمذى (هم فيها خالدون) لايخرجون ولايموتون . ولما كانت الصفات المتقدّمة صفات خلقية بها يتحلى المرء فيصلح لما يلقى اليه من الأعمال صدّرت بها السورة التى عنوانها الفلاح . فالفلاح للمؤمنين متوقف على هذه الصفات وهذه الصفات جليلة القدر عظيمة الأثر . ألاترى الى ماروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ اذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل فأنزل الله عليه يوما فمكث ساعة ثم سرى عنه فقرأ ـ قد أفلح المؤمنون ـ الى عشر آيات من أولها وقال من أقام هـذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولاتنقصنا . واكرمنا ولاتهنا . واعطنا ولاتحرمنا . وآثرنا ولا تؤثر علينا . اللهم ارضنا وارض عنا » . ولقد كان ذكر الآيات الآتيـة من العلوم النفسية والتشريحية والمواليد والجمال السماوى من الزيادة التى طلبها النبى ﷺ فان هذه العلوم الآتية من تلك الزيادة فكأنه يقول ﷺ أنزلت علينا علوم الأخلاق النفسية والمعاملات الانسانية والعبادات الربانية فزدنا من العلوم التى نقف بها على مصنوعاتك و بديع مخلوقاتك فان النفوس المتحلية بالصفات الخلقية مستعدّة للاطلاع على جمال هذا العالم . ولاجرم أن هذه العلوم الآتية زائدة على المتقدمة فى السورة من الصفات الانسانية . و يؤيد هذا أن الله أمره ﷺ فى سورة طه أن يقول ـ رب زدنى علما ـ فالزيادة هنا هى الزيادة فى العلم أوتشمل الزيادة فى العلم وهذا قوله (ولقد خلقنا الانسان) آدم (من سلالة) خلاصة سلت من بين الكدر (من طين) فتلك الخلاصة المسلولة من طين هى الصفوة المجعولة آدم ولاعلم للناس بما كان من التطوّر الذى حصل لتلك الخلاصة الطينية

وهل كان أوّل خلقه تحت خط الاستواء كما جاء فى كتب قدمائنا أن أصل هذه الحيوانات الكبيرة قد خلقت عند خط الاستواء لأنه هوالمكان المستعد للتخلق للخصوبة وللحرارة وقد خلقت أوائل الحيوانات هناك ومن ذلك الانسان وأن أصل الآدميين خلق هناك . ثم ان الحيوانات حفظت فى أرحامها تلك الحرارة التى تولد آباؤها فيهافبقيت على ماهى عليه عند خط الاستواء بحيث تكون تلك الأرحام حافظة تلك الدرجة ليتولد فيها الذرية الى آخرالزمان . أم كان أصل التولد فى البحر لكل حيوان ثم ارتقت تلك الحيوانات من بحرية الى برّية ومنها الانسان فارتقى الى ماهوعليه . لايعلم أحد ذلك وانما الذى نعلمه أن الانسان يأكل الثمرات والحبوب واللحم فيصير ذلك دما ومنه تكون النطفة فيخلق منها الذرية الانسانية فى الانسان والحيوانية فى الحيوان فالمعلوم عندنا خلق نسل آدم كنسل الحيوان لا أصل آدم ولاأصل الحيوان وهذا هوقوله (ثم جعلناه) أى جعلنا نسله (نطفة) وهى المنى (فى قرارمكين) حريزوهوالرحم وانما سمى مكينا لاستقرارالنطفة فيه الى وقت الولادة فى درجة حرارة خاصة وربما كان ذلك الاستقرار فى الآية مشيرا الى مايقوله قدماؤنا من الفلاسفة أن تلك الحرارة حفظت وبقيت منذ كان الأصل فى خط الاستواء وسترى مايشير لذلك قريبا من المنقول عن النقوش اللوحية المترجمة من الآثار الهندية (ثم خلقنا النطفة علقة) أى صيرنا النطفة قطعة دم جامد (فخلقنا العلقة مضغة) أى جعلنا الدم الجامد قطعة لحم صغيرة قدرمايمضغ (فخلقنا المضغة عظاما) بأن ميزنا ما بينهما فما كان من العناصرالداخلة فيها موادّ للعظم جعلناه عظاما وما كان مواد للحم جعلناه لحما فان الموادّ الغذائية شاملة لذلك كله وهى بعينها منبثة فى الدم وهوقوله (فكسونا العظام لحما) وهناك ينموالجنين نماء مطردا وهوقوله (ثم أنشأناه خلقا آخر) بأن نفخنا فيه الروح وجعلناه حيوانا بعد ما كان أشبه بالجماد ناطقا لا أبكم سميعا بصيرا وأودعنا فيه من الغرائب ظاهرا و باطنا مالايحصى وجميع أعضائه مقسمات تقسيما حسنا مقيسة بشبره بحيث يكون طوله ثمانية أشبار بقياسه واذا مدّ يديه الى أعلى كان عشرة أشبار بشبره هو واذا مدّ يديه الى الجهتين كان طولهما كطوله على السواء . وقد تقدّم فى هذا التفسير عجائب خلقته فى مواضع مختلفة وفيها يظهرلك أن الجيل وغير الجيل من النسبة القياسية الشبرية فالشبركان الأساس الذى وضعه الله لقياس بدن الانسان . ولذلك لما كان قدماء المصريين يعلمون علوما يجهلها الناس الآن جعلوا أصل المقياس الشبر . ألاترى أن الهرم الأكبر للجيزة طول كل ضلع من أضلاعه ألف شبر بشبر الانسان وهذا الهرم مقيس على حسب مدارالشمس السنوى وطوله ومنسوب اليه ومن هذا الهرم وحسابه يكون الأردب والويبة والكيلة وكذلك الرطل والأوقية والدرهم وماأشبهها . كل ذلك مبنى على الهرم ومقياسه وكذلك الفدّان المقيس عندهم بمقياس غير « القصبة » الحالية وهوموضوع فى الهرم الأكبر . وعسى أن يذكرنى الله ذلك عند قوله تعالى — ووضع الميزان * ألاتطغوا فى الميزان — كما ذكرنى بذلك فى (سورة يونس) ووضحته فاذا وفقنى الله لذلك ووصلت الى ﴿سورة الرحمن﴾ شرحت هذا المقام ان شاء الله لتعجب من علوم الأمم وفقهها فى نظام الدنيا وكيف جعلوا شبر الانسان أصل المقاييس وكيف نكيل ونزن ونبيع ونشترى فى أسواقنا ولاعلم لنا أننا نقيس ونزن ونكيل بما هو من نتائج أشبارنا التى قدّرها الله لنا فى الأرحام وجعلها فى مضمون هذه الآية إذ أنشأنا الله خلقا آخر فيجعل انطفل مستهلا ثم قاعدا ثم قائما ثم ماشيا ثم يفطم و يأكل و يشرب و يبلغ الحلم و يتقلب فى البلاد (فتبارك الله) استحق التعظيم والثناء فى الأزل وفيما لايزال (أحسن الخالقين) المصوّرين والمقدّرين و يقال ان الناس يخلقون أى يقدرون الأشياء كما قيل

فلأنت تفرس ماخلقت و بعـ * ـض القوم يخلق ثم لايفرى

أى أنت تقدّر الامور وتقطعها وغيرك يقدّر ولا يقطع (ثم إنكم بعد ذلك لميتون) لصائرون الى الموت (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) للمحاسبة والمجازاة وليس خلقكم على هذا النظام و بعثكم بلاأسباب استوجبته فكما

خلقنا كم من ماء مهين والأسباب والمسببات متلاحقة منتظمة بحساب ونظام لا بالصادفة والاتفاق هكذا كانت الأسباب السابقة على خلقكم فأول الأسباب عالم الملائكة والعقول التى تهيمن على عالمكم و يلى هؤلاء عالم السموات ومنها الطرائق السبع التى هى أقرب اليكم من غيرها جمع طريقة وهى طرق الكواكب المعروفة عند البشر فى هذه الأرض وهى سبعة وهناك طرائق أخرى عرفها الناس حديثا وتقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة فالموضوع هناك مستوفى وكذا فى سور أخرى . فهذه الطرق السبعة تسير فيها الكواكب بحساب منظم متقن لاخلل فيها وهذا قوله (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق) وقوله (وما كنا عن الخلق) أى المخلوق وهى تلك الطرق وغيرها من جميع المخلوقات (غافلين) مهملين أمرها وكيف نهملها ولو انا أهملناها لحظة لاختلت الموازنة بأن يسير كوكب فى غير مداره أو يزل نجم عن سنن سيره فيختل النظام العام و بسير الكواكب ومنها الشمس تنتقل الحرارة فى الأقطار الأرضية وهذه الحرارة تكون أوفر فى خط الاستواء و ينشأ منها بخار يعلو الى طبقات الجو فيبرد تارة فى خط الاستواء فيهطل هناك وتارة فى المنطقتين المعتدلتين . و بتنوع الرياح من موسمية وتجارية وتجارية ضدية ودورية تتنوع الأمطار وتهطل فى أماكن مختلفة فالجو فى أعلاه بارد وحرارة الشمس تؤثر فى سطح الأرض فيرتفع البخار وتموج الرياح فاذا سارت من المنطقتين المعتدلتين الى الدائرتين القطبيتين قابلت هناك جوا باردا فأمطرت . فالأقطار الباردة والجو الأعلى سيان فى البرودة فهناك تكون الأمطار وتنزل على الأقطار . ومتى قابلت الريح الباردة جوا حارا وفيها بخار تفرق ذلك البخار فان الحرارة تفرق والبرودة تجمع وتضم . وقد تقدم تفصيل الكلام فى التفسير . وهذا المطر ينزل على الجبال وعلى السهول فيخزن فى الجبال و يصير فوقها ثلجا فاذا سلطت عليه حرارة الشمس ذاب الثلج من فوق الجبال قليلا قليلا فنزل على اليابسة ليمد الأنهار والأنهار تسير لتسقى المزارع وهكذا باطن الجبل يبرد الماء فيه فيكبر حجمه عند صيرورته ثلجا فيكسر مافوقه من الأحجار فتتفجر الينابيع فيجرى الماء فتزيد الأنهار . فالجبال مخازن خزن الله فيها الماء لينزل فى زمن لاينزل فيه المطر وهذه المعانى هى التى فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) بتقدير يكثر نفعه و يقل ضرره كما رأيت من احكام الجبال واتقان عنصر الماء بحيث يكبر حجمه اذا برد . وجميع السوائل ليست على هذه الشاكلة وخص الماء بهذا الوصف ليكون كبر الحجم مفتاحا تفتح به خزائن الرحمة وبدائع الحكمة ويكون درسا للمسلمين ونبراسا للشبان ليفتحوا به خزائن الحكمة كما فتح به خزائن الماء المخزون فى داخل الجبل المنصب من أعلاه فى المغارات والكهوف والأماكن الواسعة فى جوف الجبال (فأسكناه فى الأرض) أى جعلناه ثابتا فيها فنه مافى الجبال ومنه ما يكون فى مجارى تجرى من خط الاستواء مارة بباطن الأرض القريب والبعيد و يمر على معادن مختلفة فيتشكل بشكلها و يتصف بصفاتها فنه النوشادرى ومنه الكبريتى ومنه الملحى وهكذا من أنواع المياه وهذه المياه هى القريبة من سطح الأرض وهناك مياه بعيدة الغور بعيدة العمق يقال لها المياه الارتوازية وهذه مياه فى بلادنا المصرية صافية نقية جيدة خالصة لاتأثير لشئ عليها صالحة للشرب تبعد عشرات الأمتار عن سطح الأرض بل هو نيل آخر غير النيل الذى على وجه الأرض يأتى من « جبال القمر » التى منها ينبع نيل مصر و يمر كما يمر نيلنا من هناك الى البحر الأبيض المتوسط وهذا النهر لايتوصل اليه إلا بمشقة لشدة بعده والماء الذى يخرج منه يكون مرتفعا جدا لأن منبعه من خط الاستواء فى علو شاهق . ومن عجب أن ذلك النيل الباطنى صالح للشرب والنيل الظاهر صالح للزراعة ولا يصلح للشرب فى أيام النيل إلا بعد غليه وتصفيته مما فيه من المواد الغريبة لأن هذا الماء فيه حيوانات ضارة فغليه يقتلها فليكن صافيا من المواد وليكن مغليا . فهذه المياه كلها فى ظاهر الأرض و باطنها من ماء المطر النازل من السماء الذى كان بخارا من البحر الملح وغيره ثم صار سحابا فأجرته الرياح وكل ذلك بسبب الشمس التى تجرى فى طريقة من الطرائق المذكورة . فاذا كان هذا كله بتقديرنا فانا قادرون أن نغير الأسباب فنغير مجرى الشمس

عن المدار فيختل ذلك كله فلامطر ولاماء (وانا على ذهاب به لقادرون) أى على ازالتـه بافساده بأن نجعل الماء كله ملحا بحيث تجعل الملح صاعدا من البحر مع البخار بطرق أخرى أو بأن نزيد الحرارة على أنهاركم فيصير الماء بخارا أونفتح فى الأرض فتحات عظيمة فيغور ذلك الماء وغير ذلك . لم نفعل ذلك بل أبقيناه (فأنشأنا لكم به) بالماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) فى الجنات (فوا كه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) ومن الجنات ثمارها وزرعها (تأكلون) ترتزقون وتحصلون معايشكم (وشجرة) عطف على جنات (تخرج من طورسيناء) جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وهوطورسينين . يقول الله وأنشأنا لكم به شجرة وهى الزيتون تخرج من طورسيناء وسيناء اسم للمكان الذى فيه الجبل المذكور (تنبت بالدهن) أى ملتبسة بالدهن ومصطحبة به (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن فهى تنبت بالشئ الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه إداما يصبغ به الخبز أى يغمس فيه للائتدام به . واعلم أن زيت الزيتون له مزايا فلأذكر منه ما يهمّ فأقول

تعلم أيها الذكي أن الطاعون قد يحلّ بالبلاد أثر الحوادث الحربية والوقائع العظيمة وغير ذلك . ولقد كتب طبيب مصرى فى الجرائد المصرية يقول ان العلماء بحثوا فى أهم الأدوية لتجنب الطاعون وما الطاعون إلا مرض والأمراض لها أدوية علمها من علمها وجهلها من جهلها . ولقد عرف الناس اليوم أن المعامل التى فيها يعمل الزيت المستخرج من الزيتون لايستضر العاملون فيها بالطاعون بل يمرّ عليهم ولايؤثر فيهم . هكذا الذين يعملون فى الزيوت الأخرى ولكن أهمها زيت الزيتون . ولقد شرح ذلك شرحا وافيا على صفحات الجرائد فأردت ذكره هنا ليعلمه الناس ويدرسوه . ولقد وصف ذلك الطبيب وغيره وصفا مؤقتا لمن لم يعتد شرب الزيت أو الائتدام به فتم على المطعون أن يستكن فى حجرة ويدلك له جسمه كله بصفات خاصة فيكون ذلك دواء له . ولكن الذى يهمنا أن الآكلين له المؤتدمين به لايغشاهم الطاعون وهذا من سر قوله تعالى ــ يوقد من شجرة مباركة زيتونة ــ فهذه الشجرة مباركة ومن بركتها النجاة من الطاعون لمن أكل زيتها بل كل من اعتادوا أكل أنواع الزيوت الأخرى يتجنبهم الطاعون ولكن زيت الزيتون أهم منها وهذا لم يعرفوه إلا بالتجربة وبالمصادفة . إن فى ذكر الزيتون وحده واختصاصه بالذكر لمزيات ومنها ماذكرناه . إن أنواع الفوا كه إما سكرية واما مائية واما حمضية واما عطرية واما زيتية فالأولى كالتمر والعنب والثانية كالخيار والقثاء والثالثة كالليمون والرابعة كالتفاح والخامسة كالزيتون . فالفوا كه يدخل فيها هذه الأقسام فلم اختص الزيتون وحده بالذكر . إن الزيتون يضىء ويؤتدم به ويمنع الطاعون لمن أدام أكله ولما كان فيه مزية الاشراق والإضاءة جاء ذكره بعد هذه السورة فى التمثيل بقوله ــ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ــ الخ فليس فى التمر ولافى العنب ولافى بقية الفوا كه المعروفة ما يستضاء به فأفردها بالذكر وكأنه يقول لقارئ هذه السورة تأمّل فى شجرة الزيتون فقد أفردتها بالذكر وتنبه لها فان أهم مافى حياتكم الدنيا أن تكون نفوسكم مشرقة ولافائدة فى نخلكم ولاعنبكم ولابقية الفوا كه ولانجاتكم من الطاعون فكل هذا قليل فى جانب اشراق قلوبكم وخلوصكم من هذه الأرض المملوءة من الظلمة والرجس والخبث فتنبه أيها القارئ لكتابتى لهذه الشجرة فانها ستأتى فى المثل الذى ضربناه فى سورة النور بعد هذه وسميت السورة كلها بالاسم الذى جىء به من الضوء الذى يوقد من الشجرة المباركة التى ذكرناها هنا وحدها وأفردناها بالذكر وذكرناها فى ﴿ سورة التين ﴾

ولما كان الماء به يخرج الشجر والنبات وهما مقدمتان لخلق الحيوان كما هو مقرر فى الحكمة وكان هذا كله مقدمة لخلق الانسان شرع يذكر خلق الحيوان كما تقدم فى السور السابقة الحجر والنحل وطه والأنبياء والحج فقال (وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها) أى إن لكم فى الأنعام آية تعتبرون بها وذلك أن

اللبن يكون خلاصته من الدم المستخلص من الغذاء كالتبن وأوراق الشجر والحب الذى يزدرده الحيوان فيهضم فيكون كيموسا ثم كيلوسا ثم ينقلب دما ومابقى بعد الخلاصة التى تكون دما يصير فرثا يخرج من منفذه ومازاد من الماء يفرز فيخرج من منفذه . فالفرث والدم كلاهما فى جسم الحيوان . الأول فى الامعاء الغلاظ والدقاق والثانى فى العروق بقسميها وهى الشرايين والأوردة ومع ذلك لايختلط الفرث بمجارى اللبن ولا الدم ولوشاء الله لغير الوضع فلم يخلص لكم اللبن كما لوشاء لغير وضع الكواكب والرياح فلم يكن الماء على الأوضاع المتقدمة فشربتموه ثم قال (ولكم فيها منافع كثيرة) فى ظهورها وأصوافها وشعورها وغير ذلك مما يعرف بالبحث ومتى تركتم البحث فيها وفى غيرها من منافع خلقى حرمتكم منها وسلطت عليكم غيركم لأنى لاأعطى النعمة إلا لمن يشكرها وأيضا جميع العلوم فرض كفاية . فليقم فيكم من يعرفون ويخصص لكل علم طائفة ثم قال (ومنها تأكلون) فتنتفعون بأعيانها (وعليها وعلى الفلك تحملون) أى وعلى الأنعام التى منها الإبل تحملون والابل سفائن البرّ * قال ذوالرمة * سفينة برّ تحت خدّى زمامها * يقول الله — وعليها وعلى الفلك — أى سفن البحر تحملون فأنتم تحملون فى البرّ وفى البحر . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الأوّل وفيه

﴿ ثلاث لطائف ﴾

(١) فى قوله تعالى — ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين —

(٢) فى قوله تعالى — سبع طرائق —

(٣) فى قوله تعالى — وان لكم فى الأنعام لعبرة — الخ

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى — ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين — ﴾

قد قلت لك ان قدماءنا كعلماء كتاب ﴿ اخوان الصفا ﴾ كانوا يقولون إن أصل الحيوان تولد فى خط الاستواء ومن عجب أن يكون لهذا القول شبه دليل وان كانت الحقيقة لاتزال خافية . فانظر كيف جاء فى جرائدنا المصرية فى يوم الاثنين ٩ مارس سنة ١٩٢٤ فى أثناء تفسير هذه السورة مانصه

﴿ رأى جديد فى مهد البشرية وحضارة ماقبل التاريخ ﴾

كتب (الكولونل جيمس شيرشوار) الضابط بالجيش الانجليزى ومن المشتغلين بعلم الآثار يقول انه عثر فى الهندعلى (١٢٥) لوحة عليها كتابات قديمة وأنه ترجم هذه الكتابات بمساعدة كثيرين من علماء البوذيين واستخلص مما حوته أن مهد البشرية لم يكن فى (العراق) ولافى (الأناضول) بل فى قارة كانت قائمة على خط الاستواء اسمها (مو) قارة فى الاوقيانوس الباسفيكى قبل (١٥) ألف سنة وزاد على ذلك أن الكتابات التى عثر عليها تشير الى أن جنة عدن كانت فى هذه القارّة قبل ١٣ ألف سنة . ومما قاله (الكولونل جيمس شيرشوار) فى مقالاته المفصلة عن هذا الاكتشاف ان حضارة سلطنة (مو) كانت أعظم من جميع الحضارات التى عرفها البشر فيما بعد فقد كان لأجدادنا قبل (١٣) ألف سنة اختراعات ذهب سرّها مع الزمن وكانت جيوش سلطنة (مو) مجهزة بطيارات كبيرة تسع الواحدة منها (٢٠) جنديا وتسير بمحركات بسيطة مستخدمة لقوى الطبيعة التى يسعى العلم الآن الى الاستفادة منها فى هذه الأيام . وقد جاء فى الكتابة المكتشفة أخيرا أن قائدا اسمه (رمنسدر) من قوّاد سلطنة (مو) طار من عاصمة سيلان الى الهند الشمالية دفعة واحدة وأن جنوده كانت مجهزة بأسلحة نارية وأن البارود كان معروفا فى ذلك الحين ولكن وقعت زلزلتان قبل (١٣) ألف سنة دمرتا قارة (مو) فابتلعت مياه الاوقيانوس سكانها وقصورها ومدنها وآثارها . أما أسباب الزلزلة فقد وصفت فى الكتابات القديمة التى كشفها (الكولونيل جيمس شيرشوار) كما يلى

كانت قارة (مو) تحتوى على تجاويف مملوءة غازا وحدث أن ظهر بركان فيها فانفجرت النار فى هذه التجاويف ونسف القارّة إلا بعض أنحاء منها تعرف اليوم باسم (جزرهاواى) انتهى

واعلم أن هذا القول يشهد لما يقوله علماء الهند ونقله (اخوان الصفا) ان العالم يحصل له انقلاب فى كل (٣٦) ألف سنة فيصير البرّ بحرا والبحر برا والخراب عامرا والعامر خرابا فاذا صحّ هذا النبأ يكون مايقوله القوم له آثار لأنه منقول عن علماء البوذيين وهذه المدّة تسمى مدة تقدم الاعتدالين وقد حسبها علماء العصر الحاضر فوجدوها ٢٥ ألف سنة والله أعلم بالحقيقة . والذى يهمنا فى هذا المقام أنهم ذكروا أن هناك جنة عدن وأن القارة تحت خط الاستواء وجعلوها منشأ الجنس البشرى وهذا القول بعينه هو المنقول فى (اخوان الصفا) عن الهنود والله يعلم والناس يتعلمون

﴿ هداية نجمت من هذه الآيات ﴾

أيها العلماء . أيها الأذكياء فى الأمة الاسلامية . انظروا الى هذه الآيات كيف ابتدأ الله بخلقنا من طين وأخذ يتدرّج فى الخلق طبقا عن طبق وحالا بعد حال الى أن انتهى الى إنشائنا خلقا آخر ثم أماتنا ثم بعثنا أليس هذا هو التاريخ الطبيعى للانسان . طين ارتقى فصار حيا ثم ارتقى فصار روحا تقابل ربها . يظنّ صغار العلماء وجميع الجهلاء أن هذه مسألة قاصرة على خلق الانسان وعلى ظواهر القول . كلا . إن القرآن نزل هداية للناس . يقول الله تعالى ــ وانك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ــ ويقول ــ أدع الى سبيل ربك ــ الخ ويقول ــ إن ربى على صراط مستقيم ــ ويقول ــ كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ــ ويقول ــ وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون ــ فها هو ذا هنا سبحانه قد فصل لنا آيات الخلق الانسانى وأرانا سبيله وطريقته فى نظام التعليم الانسانى وكيف نسير فيه . يقول الله على لسان رسوله ﷺ ــ هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ــ فسبيل الله وسبيل النبى ﷺ هى اننا نقرأ تاريخ العلوم . فكما انه مرّ على أدوار الانسان من النطفة الى العلقة الى أن كبر ومات وقابل ربه . هكذا نفعل فى جميع العلوم أى انه يستحسن أن نسلك فيها هذا المسلك بعينه فاذا أردنا تلقين علم من العلوم كالنحو والصرف والبلاغة وعلم الهندسة والتاريخ والجغرافيا وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم النفس وعلم الفلك وعلم الموسيقى وهكذا وجب علينا أن نجمع تاريخ هذا العلم من مبدئه الى منتهاه فاذا درسنا علم الفقه فلنورد للطالب تاريخ الفقه مختصرا وكيف كان أصله من الاصول الأربعة الكتاب والسنة والاجماع والقياس ونتدرّج ونسير معه من عصر الصحابة الى الأئمة المجتهدين الى من بعدهم من العلماء الى وقتنا الحاضر ونستخلص الزبدة ليكون القارئ على بصيرة . وهكذا اذا درسنا علم النبات نبحث فى أصل تكوينه من الخلية الصغيرة وتكاثرها ثم أنواع النبات من أدناه الى أعلاه . وهكذا ندرس تاريخ علمه من حيث المباحث النظرية من مبدإ التاريخ المعروف الى الآن والاشارة الى أهم الكتب وأهم العلماء الذين ألفوا فيه . هذه هى الطريقة والسبيل الوحيد الذى به يكون فى الاسلام رجال مثقفون عقلاء علما وحكمة

ومامثل العلماء فى ذلك إلا كمثل الفلاحين لاينالون حظا من حقولهم ولا يكسبون غلة من زروعهم إلا اذا حرثوا الأرض حرثا جيدا وقلبوها قلبا تاما فتى وضعوا الحب ونزل عليه الماء نبت وازدهى وترعرع هكذا الطالب لاتبزغ شمس معارفه ولاتزهر إلا اذا بحثنا له عن تاريخ العلوم وفتشناها وأثرنا ماكمن فيها فهناك يكون نبوغه وظهوره لأنه نبت فى أرض العلم الصالحة للإنبات المتخلخلة الأجزاء فيتوغل فيها بعقله ويدرسها ويمتد فى أعماقها بعقله فيزكو فرعه ويزهو زهره ويجود ثمره فيكون خيرا لأمته

هذه سبيل الله فى التعليم وهذا هو الصراط المستقيم . واذا كنا نرى الامام الشافعى مثلا رضى الله عنه يدقق فى مسألة الوضوء ويأمر أن نغسل الوجوه أوّلا كما ذكرها الله أوّلا ويجعل اتباع ترتيبه واجبا فأغسل وجهى ثم يدى ثم أمسح رأسى ثم أغسل رجلى . لماذا هذا . لأن الله ذكرها هكذا مرتبة . اذا كان هذا رأى أكابر الأمة فى مسألة الوضوء الذى لايضرّ فيه أن نؤخر وجها عن يد ولاأن نقدّم رجلا على رأس فان

المقصود

المقصود من النظافة حاصل على كل حال . فكيف تكون حالنا فى العلوم التى هى واجبة وجوبا كفائيا على القادرين من الأمة . أقول كيف تكون حالنا فيها . أفلا ننهج النهج الذى سنه الله ونرجع دائما الى تاريخ كل العلوم فندرسها لأبنائنا أولا حتى يكونوا قد اطلعوا على ملخص تاريخها ليكونوا أقرب الى الحقائق وأكثر استعدادا للاجتهاد

هذه هى الحياة الاسلامية وهذه سبيل ربك وهذا هو الصراط المستقيم صراط الله . يأمرنا الشافعى رحمه الله أن نبدأ بما بدأ الله به . أفلا يجب علينا أو على الأقل ينبغى لنا أن ننهج ما نهجه الله فى تعليمنا فنلخص تاريخ العلوم كما لخص الله تاريخ خلق الانسان . ولقد قام بنوع من هذا العمل صاحب ﴿كشف الظنون﴾ التركى المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى فانه ذكر تاريخ العلوم وذكر الكتب المؤلفة فى كل علم . وهذه طريقة أوروبا فى تعليم العلوم جميعها ولذلك نسمعهم يقولون « التاريخ الطبيعى . التاريخ البشرى . التاريخ الأثرى . التاريخ الرياضى » وهكذا

بهذا فاقونا وازدروا بالشرقيين لجهالتهم ونومهم العميق . أوروبا نهجت نهج القرآن واتبعت سبيله فى التعليم ولكن لا تظنن انى أقول انها اتبعته فعلا . كلا . لأنها تجهله وانما هى سارت على السبيل الذى فى القرآن وان لم يعلموه فلما اطلعنا على طريقتهم رأيناها هى التى يرشد لها القرآن . فعلى المسلمين أن يسلكوا نفس هذه السبيل

إنك أيها الذكى سواء أكنت من ذوى المال أو الجاه أو العلم مسؤل عما أكتبه الآن فكن خير هاد ومرشد للعلماء وللطلبة وجاهد فى ذلك حق الجهاد واحذر أن تضن بموهبتك فالله سائلك كما انى مسؤل وقد قدمت لك ما أقدر عليه فلتقم بما وجب عليك شكرا لربك وتعليما لأمتك وازديادا لعقلك وعلوا لشرفك وعظمة لقدرك فسعيك لرقى أمتك نافع لك فى الدارين اهـ

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ـ ﴾

اعلم أن الله عز وجل لم يكرر خلق الانسان فى مواضع من القرآن إلا لما فيه من العجائب والبدائع واتقان الصنع وابداع التركيب . ولقد تقدم فى سورة (آل عمران) عند قوله تعالى ـ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ـ بدائع من تركيب جسم الانسان وبيان طبقات العين والأذن ورسمهما وعجائب نظامهما وكيف كان فى الأذن تعاريج فى الداخل مشروحة هناك بعد رسمها وكيف كان هناك ما يسميه علماء الطب الحديث (عصى كورتى) جمع عصاة وهى عبارة عن شعرات دقيقات لا ترى بالعين وانما ترى بالآلات المصورات ووظيفتها على ما يظن اليوم انها تؤدى صور الأصوات المختلفات بحيث توصل كل واحدة منهن نوعا من الصوت الى القوة الحاكمة فى الدماغ . فمنها ما توصل صوت الابرة مثلا عند وقوعها . ومنها ما توصل صوت قلة المدفع عند انطلاقها ومنها ما توصل الصوت الهادى . ومنها ما توصل الصوت المرتفع وهكذا مما لا يمكن إحصاؤه وتلك الشعرات قد خلقت فى مادة سائلة فى الأذن الداخلة وهذه وظيفتها فارجع الى ما هناك تجد شرحا وافيا . وهكذا ترى العين ووظائف طبقاتها طبقة طبقة وكيف كانت سبع طبقات وثلاث رطوبات وما وظيفة كل منها . وهناك أيضا تجد أجهزة الجسم الانسانى مفصلة موضحة مبدعة أيما ابداع بحيث تجد بينها و بين ما فى المدن من الصناعات موافقة تامة . فكما ان فى المدن من يصنعون اللبن و يحرقونه فيصير آجرا هكذا جسم الانسان فيه قوى أودع مبدع الكون الحكيم بها ما يصور من المادة الدموية عظاما صلبة . فهاهى ذه العظام المتينة قام بها الجسم الانسانى كما يقوم البيت بالآجر اذا بنى به ولكن آجر البيت قد صنعناه بطرق معروفة مشاهدة فاننا خلطنا التبن بالتراب ومزجناهما بالماء ووضعناهما فى قالب خاص ثم جففنا ذلك فى الشمس فصار لبنا جمع لبنة ثم وضعنا

ذلك اللبن بعضه على بعض بهيئة خاصة وأوقدنا عليه النار أياما وليالى حتى احترق ثم بنينا به المنزل . أما العظام فى جسم الانسان فاننا ألفيناها صلبة بلا عمل منا ولا نار أوقدناها بل الأمر فيها عجيب فانها صارت صلبة منظمة مرة واحدة فهى لبن فآجر مبنى منظم . ففى المنازل نرى الأعمال يتبع بعضها بعضا ونرى الصناع كذلك . اما هنا فانا لانرى من يضرب اللبن ولا من يجعله آجرا ولا من يبنيه ولا من يهندس البناء . ومع انا لانرى العمال التى فعلت ذلك نجد أن هذه الصناعات كلها تصنع فى آن واحد فيكون البناء مصاحبا صنع آلاته بنظام تام واتقان فى العمل . وأيضا كما اننا نرى فى المدن الكناسين والزبالين نجد فى الجسم الانسانى أجهزة لاخراج مافى الجسم من بقايا الأطعمة التى اذا بقيت فيه أضرّت به ﴿ مثال ذلك . الكليتان والحالبان والمثانة ومجرى البول ﴾ فهذه وضعت لاخراج الفضلة المائية وهكذا وضعت الامعاء وما يليها لاخراج الفضلات الغليظة . وأيضا كما أن فى المدن من ينسجون الحرير والرقيق من الثياب هكذا نجد فى الجسم الانسانى تلك الطبقات الرقيقة والأعمال الدقيقة فى العين التى لو خلقت خشنة لأضرّت بحاسة الابصار . وان أردت استيفاء هذا المقام فاقرأه هناك فانك تجد جدولا فيه صناعات المدن موازنة بالعجائب التى فى جسم الانسان بهيئة منظمة وعدد تلك الموازنات ٢٣ نوعا وقد شرحت هناك نظام العقل الانسانى بعد نظام الجسم ليكون العاقل على بصيرة من أمر جسمه وأمر عقله وان كان ذلك بطريق اجمالى

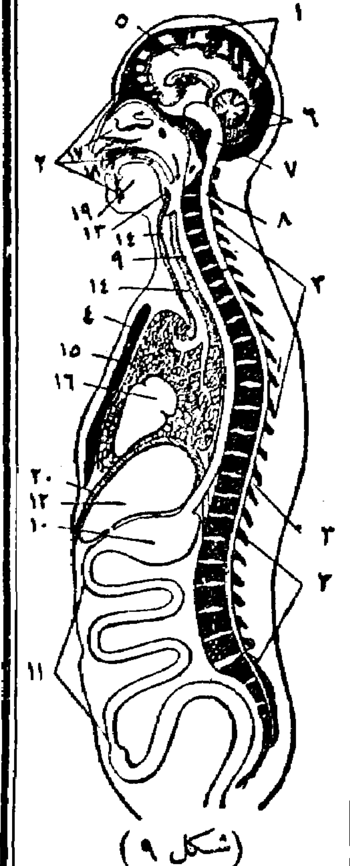
هذا ماذكرته هناك فاقرأه إن شئت ثم اسمع ما أتلوه عليك الآن من عجائب صنع الله وبدائع حكمه فى أجسامنا فوق ماتقدم ولعمر الله انى حينما قرأت ماستسمعه الآن خطر لى ﴿ خاطران متباينان ﴾ خاطر العظمة والمجد والشرف والعلوّ لأنى رأيت هذا الجسم الانسانى متقنا اتقانا لاحدّ لجماله ولانهاية لكماله كما ستراه وهو مسكن أرواحنا . وقد اعتنى صانعه به عناية تفوق العناية بتركيب الماء والهواء والمعدن والنبات وكل حيوان فأجسامنا مبدعة إبداعا غريبا بديعا عجيبا . فمن هذا الوجه قلت فى نفسى « نحن معاشر بنى آدم فوق متناول الوصف وأرواحنا بهية جميلة بديعة ودليلى على ذلك هذه المساكن التى أعدّت لها قبل هبوطها الى عالمنا الأرضى إنى قد خطر لنفسى هذا الخاطر وصار ثابتا قويا وما أشبه هذه الروح الانسانية إلا بملك عظيم الشأن رفيع المنزلة أراد ان يزور قرية من القرى أو مدينة من المدن فأعدّوا له منزلا شريفا ومقاما كريما على مقدار منزلته ولقد رأينا من طبع هذا النوع الانسانى أن يعدّ للقادمين من الاكرام مايوافق منازلهم ويناسب مقاماتهم . فعلى هذا القياس اذا قرأت ماسأكتبه لك الآن مفصلا ورأيت أن روحك قد حلت فى هذه المدينة البديعة المنظمة التى لانظير لها فى مدن الأرض وهى جسمك أيقنت لامحالة أن أرواحنا عالية الشأن وعلوّ شأنها على مقدار اتقان أجسامنا . هذا هو الخاطر الأوّل . أما ﴿ الخاطر الثانى ﴾ فهو يناقض الأوّل على خط مستقيم . ذلك انى قد خجلت واعترانى الأسف والأسى . ذلك أن هذا النوع الانسانى كله إلا قليلا يعيشون ويموتون وهم يجهلون هذا الهيكل كما يجهلون نظام أرواحهم وأنا واحد منهم فنحن نعيش ونموت ونحن نجهل بدائع التركيب فى أجسامنا ولاجرم أن هذا مما يخجل له الانسان فكيف تعيش روحى فى هذا الجسم وتستعمله وهو مركب تركيبا أبدع من كل تركيب فى أرضنا وهى لاتعقل منه شيأ واذا عقلت شيأ كالذى ستقرؤه فى نظام اليد الانسانية أيقنت أن ماجهلته هو كل شئ وأن ماعلمته هو لاشئ . فالانسان كله غافل عن نفسه يعيش ويموت وهو ظلوم كفار . ولعلك تقول ما الذى تريد ذكره الآن مما أثار فيك هذين الخاطرين من تشريح جسم الانسان أقول لك بعض ماجاء فى كتاب ﴿ قانون الصحة المنزلى ﴾ تأليف الدكتور (جون سايكس) الذى عرّبه قلم صحة المعارف المصرية المطبوع سنة ١٩٢٤ م وهذا نصه

﴿ الفصل الثانى فى تركيب جسم الانسان . يجب معرفة تركيب الجسم بالاختصار ليسهل معرفة وظائفه ﴾

يتركب الجسم الانسانى من الرأس والعنق والجذع والأطراف . فالرأس فيه المخ وجزء من النخاع وعضو

الابصار والسمع والتكلم والذوق ومنافذ جهاز الهضم والتنفس (انظر شكل ٩) والعنق فيه الحنجرة (وهى عضو الصوت) وفتحة القصبة الهوائية وهذه عبارة عن أنبوبة توصل الهواء من البلعوم الى الرئتين وفتحة المرىء وهو عبارة عن أنبوبة خلف القصبة الهوائية توصل الغذاء من البلعوم الى المعدة وفيه أيضا العروق التى يصعد فيها الدم الى الرأس وفيه الجزء العلوىّ من العمود الفقرى المحتوى على جزء من النخاع

والجذع مركب من جزأين علوىّ وسفلىّ فالعلوىّ هو الصدر وهو تجويف مخروطىّ الشكل محدود من الخلف بالعمود الفقرىّ . ومن الجانبين والأمام بالأضلاع وعظام القص والصدر يحتوى فى الجهة اليسرى المقدمة على القلب والشرايين الكبيرة وعلى الرئتين . وينتهى الصدر من الأسفل بالحجاب الحاجز الفاصل بين جزأى الجذع . ويخترق هذا الحجاب شريان عظيم (الأورطى) والمرىء والوريد الأجوف السفلى والقناة الليمفاوية والسفلى هو البطن المكوّن من الأمام والجانبين من عضلات ومن الخلف منها ومن العمود الفقرى وينتهى من أعلى بالحجاب الحاجز ومن أسفل بعظام الحوض . ويحتوى على الأعضاء الآتية وهى (الكبد والمعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والبنكرياس والطحال والكليتان والمثانة)



(شكل ٩)
قطاع عمودى لجسم الانسان وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض

فالكبد يشغل الجهة اليمنى العليا من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة . والمعدة معظمها فى الجهة اليسرى العليا . والأمعاء الدقيقة تملأ الفراغ أمام المعدة وأسفلها وطولها نحو ستة أمتار . والغليظة تبتدئ من أسفل الجانب الأيمن للبطن ثم تصعد نحو الكبد ثم تتجه الى الشمال مارّة أسفل المعدة ثم الى الأسفل مخترقة الحوض وتنتهى بالمستقيم وطولها نحو متر وثمانية سنتيمترات . والبنكرياس محله خلف المعدة . والطحال محله فى الجانب الأيسر تحت الحجاب الحاجز . والكليتان مجاورتان للعمود الفقرى واليمنى تحت الكبد واليسرى تحت الطحال . والمثانة موجودة فى أسفل البطن أمام المستقيم . والأطراف أربعة الذراعان والطرفان السفليان ولا حاجة لشرح أجزائهما وأجهزة الجسم هى

(١) جهاز الحركة ويدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الارادية وأوتارها

(٢) الجهاز الدورى وأعضاؤه ثلاثة (القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية)

(٣) الجهاز التنفسى وأعضاؤه أربعة (الحنجرة والقصبة والشعب والرئتان)

(٤) الجهاز الهضمى وأعضاؤه تسعة (الفم والأسنان وغدد اللعاب والبلعوم والمرىء والمعدة والبنكرياس والكبد والامعاء

(١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه مع الأسنان (٣) العمود الفقرى (فقرات العنق والظهر والبطن) (٤) القص (عظام الصدر) (٥) قطاع المخ (٦) قطاع المخيخ (٧) اتصال الدماغ بالجزء العلوى للنخاع الشوكى (٨) النخاع الشوكى (٩) المرىء (١٠) المعدة (١١) الأمعاء (١٢) الكبد (١٣) لسان المزمار (١٤) القصبة الهوائية والحنجرة (١٥) الرئتين (١٦) القلب (١٧) الحفرة الأنفية (١٨) تجويف الفم (١٩) اللسان (٢٠) الحجاب الحاجز

(٥) الجهاز اللينفاوى وأعضاؤه عروق الدم الأبيض والأوعية اللبنية والطحال و بعض الغدد

(٦) الجهاز البولى وأعضاؤه الكلى والحالبان والمثانة ومجرى البول

(٧) الجهاز الجلدى وأعضاؤه غدد العرق والغدد الدهنية والشعر والأظافر وطبقات الجلد

(٨) الجهاز العصبي وأعضاؤه المخ والنخاع والأعصاب بأنواعها وأعصاب الحواس الخمس

﴿ جهاز الحركة ﴾

يتكوّن هذا الجهاز من الهيكل العظمى الذى تتصل عظامه بعضها ببعض بواسطة المفاصل ومن العضلات التى تحرّكها وتحرّك العظام

الأطراف السفلى تحمل الحوض الذى يتصل بها وتحمل العمود الفقرى الذى يحمل من أعلاه الجمجمة ويتصل به فى جزئه الخلفى اثناعشر زوجا من الأضلاع وبذلك يتكوّن الصدر المتصلة به الأطراف العليا (انظر شكل ١٠)

ولما نقلت ماتقدّم من الكتاب المذكور واطلع عليه أحد الفضلاء قال لى هذا كلام الأطباء وهو مقال مجمل والاجمال غير التفصيل فاذكر لنا مثلا يبين تلك الأجهزة وعجائبها ثم بعد ذلك اذكر أبدع ماتراه فى هذا المقام . فقلت سأجعل ذلك فى ﴿ فصلين * الفصل الأوّل ﴾ فى عجائب تلك الأجهزة بضرب مثل ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى أبدع مارأيته فى هذا المقام

﴿ الفصل الأوّل فى ضرب مثل لعجائب هذه الحكم فى جسم الانسان ﴾

تصوّر أيها الذكي انك فى حديقة فيها من كل فاكهة زوجان ورأيت ضروب الثمار تحيط بك ونظرت عينك تلك الأنواع فاخترت منها فاكهة التفاح . فاذا حصل . اقتطفت منها تفاحة وقشرتها وأكلتها . فهذا هو المثل الذى أضربه لك . و بيانه انا نرى أن فى بيوتنا أزرارا كهربائية وتلك الأزرار متصلة بسلك الكهرباء واصلة الى داخل بيوتنا منتهية بأجراس فاذا ضغط الزائر على الزرّ

(شكل ١٠)

الكهربائى سمع أهل البيت صلصلة الجرس فأرسلوا خادما يفتح الباب و يدخل الزائر فى المنزل . هكذا يحصل فى أجسامنا . ألا ترى أن أعيننا لما رأت التفاح وصلت الصورة المرسومة على شبكية العين الى أعصاب الحس وعرفتها القوّة الحاكمة فى الدماغ فأوعزت الى أعصاب الحركة فحركت اليدين فاقتطفنا هذه التفاحة فالزائر فى مثال المنزل أشبه بنفس التفاحة هنا وارسال صورة التفاحة من شبكية العين الى القوّة الحاكمة فى الدماغ أشبه بمرور التيار الكهربائى عند الضغط على الزرّ الكهربائى ونفس العين أشبه بنفس الزرّ الكهربائى وأهل المنزل فى الداخل أشبه بالقوّة الحاكمة فى الدماغ وارسال الخادم لفتح الباب أشبه بما تفعله القوّة الحاكمة فى الدماغ

(١) عظام الجمجمة (٢) عظام الوجه (الفك السفلى والعلوى) (٣) الفقرات (٤) القص (٥) الفقرة الأولى الظهرية (٦) عظم اللوح (٧) عظم العضد (٨) عظم الزند (٩) عظم الكعبرة (١٠) عظام الرسغ (١١) عظام المشط (١٢) عظام الأصابع (١٣) الحرقفة (١٤) عظم الفخذ (١٥) و (١٦) عظما الساق (١٧) الرضفة (١٨) عظام القدم (١٩) عظام المشط (٢٠) سلاميات القدم (٢١) عضلات العمود الفقرى (٢٢) العضلات المستقيمة للبطن (٢٣) العضلات المقدّمة للعنق (٢٤) عضلات الذراع (٢٥) عضلات الساعد (٢٦) عضلات الفخذ المقدّمة (٢٧) عضلات الفخذ الخلفية (٢٨) عضلات الساق الخلفية (٢٩) عضلات الساق المقدمة

من تحريك أعصاب الحركة فتحرك اليد لأخذ التفاحة ووضع التفاحة فى الفم وأكلها أشبه بدخول القادم منازلنا هذا أول عمل من أعمالنا فى هذه التفاحة . ولقد تم هذا العمل بقوة الجهاز العصبى والجهاز المعد للحركة أما الجهاز العصبى فان العين لما رأت التفاحة وعرضتها على القوة الحاكمة لم تجد لها سبيلا إلا أعصاب الحس وأعصاب الحس متصلة من العين و بقية الحواس بالنخاع والمخ . فلولا هذا الجهاز وأعصابه ماأمكننا أن نعرف لون التفاحة وشكلها ووصفها ولا طعمها بل كنا لانفرق بين اللبن والآجر والتفاح والحجر . فالجهاز العصبى المذكور به أدركنا مزية تلك التفاحة . اللهم إنك أدهشتنا بصنعك فى أجسامنا وأخجلتنا بجهلنا العظيم حتى ان كثيرا من الأطباء يا الله لايعجبون من ذلك لعدم إحساسهم ببهجة الجمال وان كانوا يبصرون نظامه

أما الجهاز المعد للحركة وهو الذى تقدم انه يدخل تحته العظام والمفاصل والعضلات الارادية وأوتارها فان عمله فى التفاحة لا يكون إلا بعد تمام عمل الجهاز العصبى . ألاترى رعاك الله أن صورة التفاحة لما وصلت الى القوة الحاكمة فى الدماغ أسرعت تلك القوة الى تحريك أعصاب الحركة المتصلة بالعضلات وأوتارها فى اليد فاقتطفتها . فأعصاب الحس وظيفتها علمية وأعصاب الحركة وظيفتها عملية . سبحانك اللهم قد جعلت عمل أعصاب الحس مقدما على عمل أعصاب الحركة كما جعلت قراءة العلم مقدمة على العمل . فلاعمل إلا بعد علم كما لا اقتطاف للتفاحة إلا بعد إحساس بها . ووظيفة هذا التفسير علمية كوظيفة أعصاب الحس وسيكون العمل بعد العلم كما كان اقتطاف التفاحة بعد العلم بمنفعتها . فتعجب من صنع الله واعلم أن لهذا التفسير رجالا سيقومون برقى هذه الأمة فهم كأعصاب الحس و يتبعهم رجال العمل كأعصاب الحركة . فهذان جهازان من الأجهزة الثمانية المتقدمة قد استبانت أعمالهما فى هذه التفاحة . هنالك يأتى عمل ﴿الجهاز الثالث﴾ وهو الجهاز الهضمى فالفم يتلقاها والأسنان تمضغها وغدد اللعاب تفتتها وتهضمها والبلعوم يدحرجها والمرىء يزلقها والمعدة تطبخها والبنكرياس يزيد هضمها كما فعل اللعاب فى الفم . والكبد والأمعاء يقتسمان مواد هذه التفاحة فالكبد تأخذ الخلاصة الغذائية التى صارت دما والأمعاء تأخذ الفضلة التى لاتصلح للغذاء لتقذفها الى الخارج بعد تمام دورتها . هنالك يأتى عمل ﴿الجهاز الرابع﴾ وهو الدورة الدموية وعمل ﴿الجهاز الخامس﴾ وهو الدورة التنفسية فترى القلب والأوعية الكبيرة والأوعية الشعرية التى تحمل الدم الوريدى وهو الأسود والدم الشريانى وهو الأحمر تقوم بادارة الدم فى الجسم . وما هذا الدم إلا خلاصة تلك التفاحة فتعطى تلك العروق الشريانية لكل عضو من أعضاء الجسم قسطه وحظه ومايناسبه من خلاصة تلك التفاحة . وأما الدورة التنفسية التى تقبل الهواء الجوى فى الحنجرة وفى القصبة الهوائية وفى الشعب وفى الرئتين فانها هى التى بها يطهر الدم الذى يديره الجهاز الدموى فان الهواء حينما يصل الى الرئتين تلتقطان منه الاكسوجين وتعطيانه المواد السامة للجسم المسودة للدم التى هى أشبه بالفحم المسماة (المادة الكربونية) فيأخذها الهواء ويحملها الى الخارج بطريق الزفير . فجهاز التنفس مساعد للجهاز الهضمى . أما الجهاز اللينفاوى فهو أشبه بتابع لجهاز الدورة الدموية وهو الجهاز السادس . فاذا رأينا لبن اناث الحيوان ولبن المرأة التى أكلت هذه التفاحة فاننا نقول إن هذا الجهاز اللينفاوى قد قلب الدم الى مادة لبنية . وهكذا المواد التى فى الطحال و بعض الغدد . فهذه كلها من العوامل التى تعمل فى الدم وتصنع منه مواد تغاير الدم لمنافع خاصة . وأما الجهاز البولى المتقدم فهو الذى يأخذ من الدم المادة المائية الضارة بجسم الحيوان و يقذفها الى الخارج بطريق الحالبين والمثانة ومجرى البول وذلك فيه الماء الباقى من ماء التفاحة الذى لايلائم تركيب الدم . وهناك (الجهاز الثامن) وهو الجهاز الجلدى فان مافيه من الغدد الدهنية والشعر والأظافر وكذا الطبقات المختلفة يأخذ كل منها حظه من خلاصة التفاحة الجارية فى العروق الشريانية . هذا هو المثل الذى طلبته أيها الذكى وجعلت له الفصل الأول من الفصلين اللذين أردت ذكرهما فى هذا المقام

﴿ الفصل الثاني في أبدع مارأيته في هذا المقام ﴾

اعلم أيها الذكي اني في هذه الأيام أي في شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ قد أحاطت بي عوائق وموانع منزلية وخارجية فكادت تحول بيني و بين الأفكار الجميلة البهجة التي أضعها في هذا التفسير . فلما رأيتها قد أحاطت بي رفعت طرفي الى السماء ليلا ورأيت المجرّة السماوية التي يقول علماء عصرنا في آخر كشف كشفوه إن عرضها عشرون مليون سنة نورية وطولها مائة مليون سنة نورية . فأخذت أسأل مبدع هذا النظام المدهش ذلك الذي جعل عيني وأنا في هذه الأرض الصغيرة ترى وتدرك ادراكا سطحيا لاحدّ لمداه تلك المجرّة . يقول علماؤنا ان هذه المجرّة فيها مئات الملايين من النجوم وتلك النجوم أكثرها أكبر من شمسنا ولكل منها سيارات وأرضون وللسيارات أقمار . واذا كان عرضها (٢٠) مليون سنة نورية فمعناه أن اتساعها يخرج عن دائرة الفكر الانساني فمابالك بالطول ومابالك بالمجرات الأخرى . فكرت في هذا كله ليلا وشكوت الى الله ما أخافه من انقطاع الفكر الذي أنشره في هذا التفسير . فانظر ماذا جرى . اللهم إنك أنت اللطيف الرحيم الرؤف .

فماذا حصل . قمت صباحا يوم السبت أي يوم ١٨ أغسطس سنة ١٩٢٨ متوجها الى عملي الدنيوي وقابلت لأجل هذا العمل صديقا لي بضواحي القاهرة وكان ابنه قادما من أوروبا وهو يتعلم علم الطب ففرح إذ رآني فدار بيننا الحديث على الطب والتشريح فتذكرت في نفسي ما كان يخطر لي كثيرا في فترات من الزمان في أمر تركيب اليد ونظامها وعجائبها (انظر نمرة ١٠ و١١ و١٢ في شكل ١٠ المتقدم) وتذكرت انه يخيل للناس أن أمر اليد سهل وأن تحريكها بالحركات المختلفة ليس يعوزه أكثر من أن يكون هناك عظم وعلى العظم عصب ولحم وعروق وأوتار وهذه الأوتار تفعل كل مايطلب منها . ومعنى هذا أن العضلات والأوتار الموضوعة في أيدينا تفعل القبض والبسط وجميع أنواع الحركات الكثيرة وهي هي بعينها في الجميع ولكن ظهر أن الأمر على خلاف ذلك وأن كل حركة مهما صغرت ودقت لها أعصاب غير أعصاب جميع الحركات . ومعلوم أن عظام اليد تبلغ (٢٧) عظما منها (٨) في الرسغ وهي صفان و (٥) في راحة اليد و (١٤) في الأصابع في كل أصبع ثلاث وفي الابهام (عظمان * أحدهما) أكبر (والثاني) أصغر فتكون العظام (٢٧) وهنا يخيل لأكثر الناس أن الحركات بهذه العظام أمر لايحتاج الى عناية أكثر من ارادة الانسان ولكن هذا خطأ فان هذه العظام مرتبطة بعضلات في الذراع وهذه العضلات متصلة بأعصاب توصلها الى المركز العصبي وهو المخ والعمود الفقري . فمتى أراد الانسان تحريك إبهامه أو أصبع من أصابعه أو جميعها أو اثنين أو أكثر مجتمعة أو منفردة قبضا أو بسطا أو يمينا أو شمالا أو أوقف أصابعه بهيئة زاوية قائمة أو ضغط عليها الى الخلف أو أوقف يده فجعل إبهامه أعلى والخنصر أسفل أو بالعكس أو جعل يده أشبه بالملعقة أو الجرفة ليشرب الماء مثلا أو ضمها ضما مصمتا جامعا الأصابع للوكز بها أو ضمها ولها فراغ من الداخل بحيث يمكنه تخبئة شئ فيها أو جعلها بهيئة بحيث يمكنه أن يكتب بها أو جعل الابهام مع السبابة بهيئة حلقة وهكذا مع بقية الأصابع . فهذه هيئات تعدّ بالعشرات بل ربما تصل المئات لأن الهيئات المذكورة كثيرة جدا . فانظر ماذا يقول علماء التشريح . هاأنا ذا الآن أنظر أمامي للعضلات التي في الذراع التي بها تتمّ هذه الحركات المختلفة أنواعها والرسوم التي أراها الآن أمامي التي رسمها الاستاذ (تشيزمان) وأراها لي هذا الشاب تبلغ (١٢) رسما أوّلها رسم الجلد أي جلد اليد وقد وضع على ورق شفاف ثم رفع هذا الرسم فظهر تحته رسم ماتحت الجلد مباشرة وفيه الدهن وفيه الأعصاب الجلدية مباشرة والأوردة وهذه الطبقة وظيفتها إعطاء الاحساس بحيث يصل مايحس به الانسان الى دماغه فإذن هذه الطبقة الثانية لمساعدة الجلد والطبقة الثالثة تحت الأولى وفيها عضلتان بهما يقدر الانسان أن يثني يده من عند رسغه وكذلك عضلات لثني الأصابع كلها مجتمعة أو منفردة بواسطة أوتار تفعل ذلك فلكل أصبع عصب محرّك يحركه الى الأمام بوتره كما قلناه فيما تقدم والرابعة تحتها فيها الشرايين المغذية وهي تغذي هذه العضلات والجلد فوظيفتها للتغذية العامة

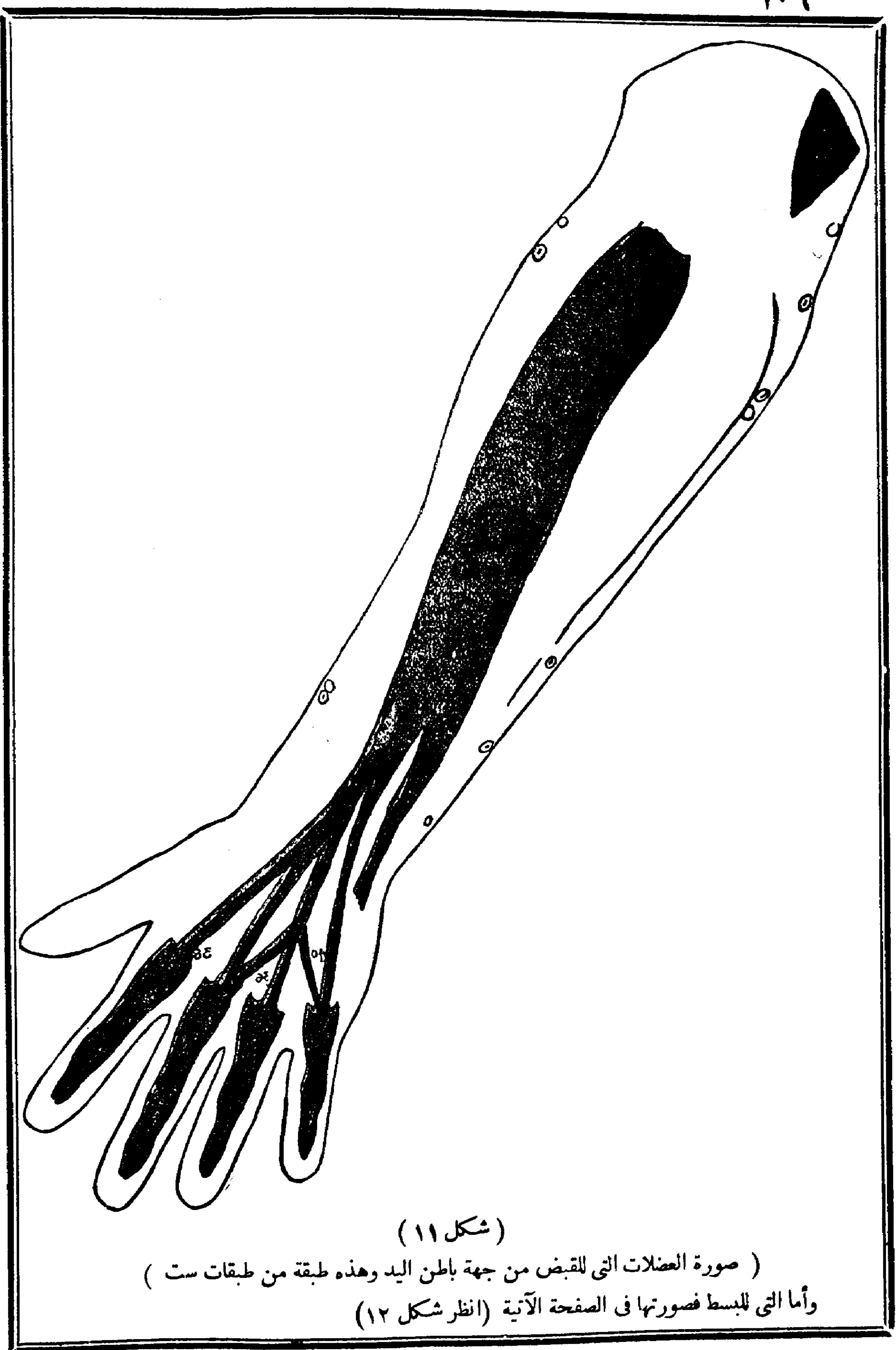
في

فى اليد وفيها أعصاب تصـل الى مافوقها والى ماتحتها والخامسة تحت الرابعة وفيها الأعصاب الواصلة لعضلات اخرى غـير المتقدّمة وهى العضلات العميقة الغائرة وهى تساعد على القبض بأنواعه المتقدّمة كلها والسادسة الهيكل العظمى المتقدّم ذكره . ثم ننقل الـكلام الى الناحية الثانية وهى جلد ظهر اليد وأظافره وشعره وهى الطبقة الثانية عشرة ثم الطبقة الحادية عشرة فيها أعصاب الحسّ والعروق الوريدية كالمتقدّم وفائدتها مساعدة الجلد على الحس كما تقـدّم فى الناحية الأخرى والطبقة العاشرة العضلات التى فيها هـذه لحركة البسط كما أن الثالثـة فيما تقدّم لحركة القبض وتنوّع الحركات هنا كتنوّعها هناك ولـكن تلك للقبض وهـذه للبسط وتحتها الطبقة التاسعة وفيها الشرايين المغذية والرابعة كالتاسعة والخامسة كالثامنة . وأما السابعة فهى نفس الهيكل العظمى المتقدم من ناحية ظهر اليد

فلما سمع صاحبى ذلك قال لاتزال طبقات اليد غامضة غير واضحة . فقلت إن جميع العقلاء من المسلمين وغير المسلمين يعيشون ويموتون وهم يجهلون خواص جسم الانسان كله إلا قليلا وهذه اليد مثـل من أمثاله والمسلم لايعرف من أمر اليد إلا انها تقطع فى السرقة وانه يأكل بها ويدافع العدوّ ولـكن التفكر فى عجائبها قليل والله يقول ــ وفى أنفسكم أفلاتبصرون ــ ويقول ــ فـكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ــ . فاذا نظرنا الى اليد نظرا علميا كالذى نظرته الآن فى هـذه الصور التى رأيتها أمامى وهى ١٢ صورة رأيناهاست طبقات من جهة باطن اليد وستا من جهة ظاهرها وطبقتان من هذه الست فى الوسط وهى عظم الساعد . فالعظم له (وجهان) وجه يلى باطن اليد ووجه يلى ظاهرها . فهذان وجهان من الأوجه الاثنى عشر . وهناك جلد على باطن اليد وجلد على ظاهرها وهذه يسمونها فى الطب (بالناحية الانسية) و(الناحية الوحشية) فهاتان طبقتان أيضا . فبقى أربع طبقات من جهة الباطن وأربع طبقات من جهة ظاهر اليد . فنها طبقتان كل واحدة منهما فى جهـة من الجهتين هما تحت الجلدين المذكورين . وهاتان الطبقتان فيهما قوّة الحسّ ولولاهمـا لم نحس بمـا يمس جلودنا من نفع أوضرّ . وهناك طبقتان أخريان فى كل ناحية طبقة تحت السابقتين بهما جهاز الحركة كما تقدم فى أمر التفاحة فالحس أوّلا والحركة ثانيا . فهكذا هنا حس لحركة والحس أوّلا والحركة ثانيا وتحتهما طبقتان فى الناحيتين أيضا للتغذية بواسطة الجهاز الدموى ثم طبقتان فى الناحيتين فيهما عضلات أخرى غير العليا للحركة أيضا

هذا ملخص مارأيته فى الصور الاثنى عشر المذكورة . ولقد اصطفيت من هذه الصور (صورتين اثنتين) وهمـا الصورتان اللتان فيهما عضـلات الحركات التى للقبض والحركات التى للبسط . فالاولى موضعها من جهة باطن اليد والثانية موضعها من جهة ظاهرها . فأما التى للقبض فانظر صورتها فى الصفحة التالية (شكل ١١)

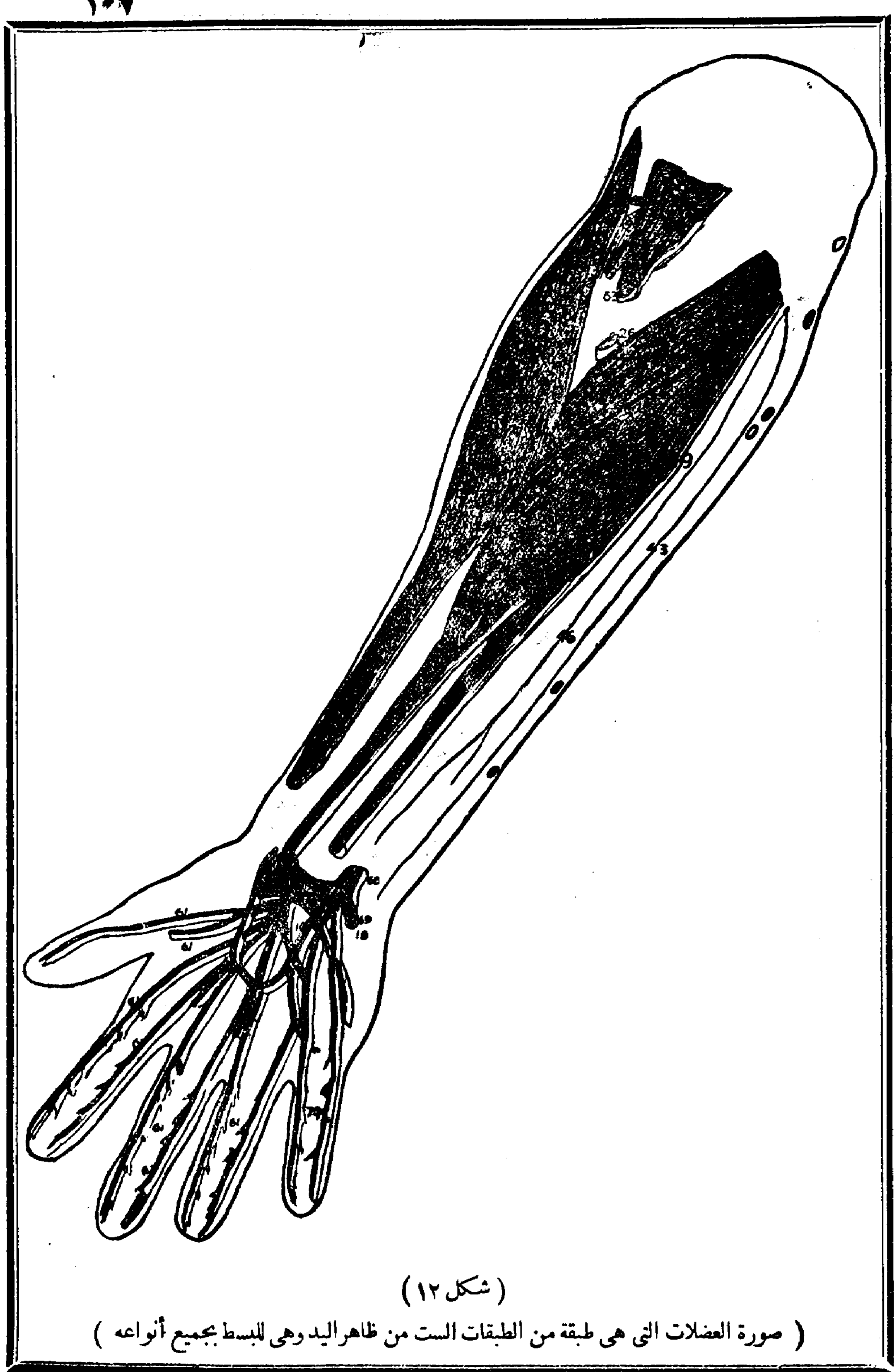
ولقد تقدّم قريبا فى (سورة الحج) عنـد قوله تعالى ــ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ــ الخ ايضاح أجل لهذا المقام فاقرأه هناك إن شئت



(شكل ١١)

(صورة العضلات التى للقبض من جهة باطن اليد وهذه طبقة من طبقات ست)

وأما التى للبسط فصورتها فى الصفحة الآتية (انظر شكل ١٢)



(شكل ١٢)

(صورة العضلات التى هى طبقة من الطبقات الست من ظاهر اليد وهى للبسط بجميع أنواعه)

فقال صاحبي الآن فهمت الفصل الثاني وعجبت من الصنع كما عجبت أنت ولكني أريد كلاما عاما على ماتقدم ليستبين جمال الله عزّوجل وبدائع حكمته . فقلت إن الأجهزة الثمانية فى الجسم الانسانى السابقة قد اتحدت على العمل فجهاز الحس وجهاز الحركة وجهاز الهضم وجهاز التنفس وجهاز البول وغيرها مما تقدم كلها متعاونات متحدات متحابات . فاعجب لدورة دموية متحدة مع دورة تنفسية . فاحداهما تنظف الأخرى مما علق بها من المضار وثانيتهما تعين الأخرى وتغذى أعضاءها . فهذه تغذى وهذه تنظف وهما متجاورتان متحابتان وقد ظهر أثر تلك الأجهزة فى كل عضو ومنها اليد فاننا نرى جهاز الحس وصل الى ماتحت الجلد فى الناحيتين وجهاز الحركة وصل أثره الى ماتحت جهاز الحسّ فى طبقات اليد . إن دوائر هذا الجسم الانسانى متحدات متعاونات عاملات كلها تحت اشراف مسيطر واحد هو المدبر العام للجسم الذى نسميه روحا . هذا النظام العجيب المدهش قد وضح فى جسم هذا الانسان . يظنّ الانسان من أى طبقة كان أن عضلات القبض عين عضلات البسط فوجدنا فى الصورتين المتقدّمتين أن عضلات القبض من جهة الباطن وعضلات البسط من جهة الخارج ومعنى هذا أن لكل حركة عضلات خاصة وقس على ذلك جميع الحركات فى اليد صغيرة وكبيرة . ومامثل اليد إلا كمثل الفسطاط المثبت بالأوتاد قد ربطت فيها الاطناب المشدودة المثبتة ولكن لكل ناحية أوتاد وأطناب غير الناحية الأخرى فهكذا اليد لها أوتار وعضلات فى كل من الناحيتين هذه للقبض وهذه للبسط . ثم إن هذا الانسان الذى أنعم الله عليه بهذا الجسم المنظم المحكم هو الذى سكن هذه الأرض ولم نر من أعماله مايدل على كماله الخلقى المشابه لكماله الجسمى . فياليت شعرى أين المناسبة بين نظام هذا الجسم والنظام المحكم فى طبقاته وبين نظام كثير من نوع هذا الانسان . انظر ماتقدم فى أوّل سورة (طه) من ذكر الأمّة التى تعيش بالقرب من ساحل الذهب التى ذكرناها عند قوله تعالى ــ الذى خلق الأرض والسموات العلى ــ فانظر لنظام تلك الأمم الذى كله قلق واضطراب واهلاك وتدمير وعيوب نظامية اجتماعية . فياليت شعرى أين نظام العمران ونظام جسم الانسان . يظهر لى أن هذا العالم الذى نسميه انسانا لاينال الدرجة الرفيعة والسعادة الحقة إلا اذا تعاونوا جميعا بحيث تكون هيئة نفوسهم فى تعاونها كهيئة انتظام جهاز الحس وجهاز الحركة وجهاز الهضم وجهاز التنفس وهكذا فهى تعمل منتظمة متبادلة المنافع . يعجبنى ما قاله بعض الأرواح التى أحضروها فى أوروبا وهذا نصه ﴿ إن الأرواح العالية تكون آراؤها كلها واحدة فلايخطر لأحدهم الامايخطر للجميع فالرأى واحد ويجب عليكم فى الأرض أن تعرفوا هذا من الآن ﴾ وهذا القول عجيب فهو المطابق لنظام جسم الانسان وهو المطابق لقول الله تعالى ــ ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا ــ فهم إذن أشبه بالأجهزة المتعاونة فى الجسم الانسانى . ألست بهذا تعرف معنى قوله تعالى ــ لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ــ وأىّ تقويم أحسن مما رأينا فى هذا المقام ثم أعقبه بقوله ــ ثم رددناه أسفل سافلين ــ وهذا حق لأنه اذا كان جسمه على أحسن نظام فان نظامه المدنى على أسوإ نظام

ويظهر لى حقا أن النوع الانسانى فى مدنيته كلما كان أقرب فى التعاون الى تعاون الأجهزة الجسمية كان أقرب الى السعادة وكلما كان مفككا العرى غير منتظم فى هيئة حكومته كان أبعد من السعادة التى توجب على هذا الانسان أن يكون جميع طوائفه فى الشرق والغرب أشبه بنظام جسم الانسان بحيث لا يكون فى صدورهم حرج من النظام العام الذى يعيشون فيه والله هو العليم الحكيم

فعلى أمم الاسلام بعدنا وعلى قراء هذا التفسير خصوصا أن يجدوا فى رقى أممهم وأن يقتبسوا كل علم وكل فن بحيث تتشعب الأسلاك البرقية والبريدية والطرق الحديدية فى جميع أنحاء المملكة كما رأينا أعصاب الحس والحركة متشعبة فى جميع أعضاء الجسم . وعليهم أن يربوا الشعب كله تربية اجبارية بحيث يعرفون المنافع والمضار كلها ويكون منهم نواب للأمم يتعاونون تعاون الأجهزة المنتشرة فى أقطار الجسم . هذا أمر واجب على المسلمين

فعليهم قراءة علوم الأمم ثم الازدياد فيها . فبهذا يفهمون قوله تعالى ـ فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ـ . اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم وعلى انك لم تجعل العوائق المادّية مانعة من ازدياد العلم بل أنعمت علىّ بالعلم والفهم أثناء هموم الحياة وأوصابها والحمد لله رب العالمين

﴿ نور على نور فى قوله تعالى ـ ثم أنشأناه خلقا آخر ـ الى قوله ـ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون * ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ـ ﴾

اعلم أن هذا الانسان علم أشياء كثيرة ونسى نفسه . يفرح الناس بكشف الكهرباء والمغناطيس والجاذبية وقوّة البخار وأشعة الراديوم والطيارات الطائرات فى الجوّ . يفرحون بذلك وفاتهم جميعا أن ذلك أشبه بفرح الفارس بقوّة فرسه وكره وفرّه وحسن طاعته وهو خلو فى نفسه من الكمال . وأى فرق بين الفرس الفاره و بين هذه القوى التى كشفت حديثا لراحة الانسان . كل هذه القوى والعوالم خارجة عن نفس الانسان . يفرح الناس بذلك وهم غافلون عن أنفسهم إلا قليلا . يجلس الانسان فى خلوته ساعة و يتفكر فى نفسه و يحصر فكره فى وجهة خاصة أوناحية من الأرض فيجد الفكر بأسرع من لمح البصر انتقل من الغرب الى الشمال ثم الى الجنوب ثم الى الشرق ثم الى أعلى الأفلاك ثم مدابّ السمك ثم الى داخل الأرض وماتحت البحار ثم يطير فى الجوّ ثانية . يعرف الانسان ذلك من نفسه فلايحرّك له ساكنا ولايلقى له بالا . ينظر المرء فى نفسه فيجدها أسرع من جرى القطار بل من الكهرباء فى الأسلاك ولمع البرق الخاطف فلايهيجه ولايحركه و يظنّ أن ذلك كله أمور لاقيمة لها وانما كانت لاقيمة لها لأنها حاضرة عنده لم يتجشم المشاق فى تحصيلها كأن مالاسعى له منبوذ ومالاتعب فيه مطروح فهذه القوّة لما لازمت الانسان من صغره عدّها من سقط المتاع ولم يعرها التفاتا مع انها قبس من الأنوار ونور من عوالم الجمال وشهاب ثاقب . النفس بسرعة حركة خواطرها تجرى حثيثا الى عوالم الكواكب وتسرع فى خطاها الى الملأ الأعلى وتودّ لوتعرف كل كوكب دخل فى حسبان علماء الفلك وتطلع (بتشديد اللام) الى أن ترى سكانها وتفرح بالعروج اليهم والاطلاع عليهم . النفس تجرى لامستقرّ لها إلا اذا استوعبت العوالم عالما عالما وعرفت عجائبها . هنالك يقول شاعرها

فالقت عصاها واستقرّ بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

الانسان خلق من الأرض وربى بالنور الواصل من الكواكب والهواء المحيط بالأرض فهو إذن ربيب العوالم العلوية والسفلية وهو مركب من جسم وروح فجسمه أشبه الأجرام الفلكية والكواكب الدائرة ومنها الأرض . تلك الكواكب تتحرك فى دورانها جميع الحركات الممكنة فى الدوران . هكذا الانسان يحرّك الى أعلى والى أسفل والى الجهات الأربع وذلك فى صناعاته المختلفة فيحرك الانسان يده الى أعلى وأسفل والى الجهات الأربع مشاكلة للكواكب وللأرض فى اتمام سائر الحركات الممكنة . هكذا نجد نفوسنا لها حركات فكرية الى هذه الجهات عينها وتزيد على ذلك بأنها تودّ استيعاب جميع العلوم ومعرفة العوالم كلها . إذن النفس من عالم له هذا السلطان وهو المسمى (النفس الكلية) التى استمدت منها نفوسنا

إن شوق نفوسنا الى معرفة كل شئ دليل على أن النفس التى استمدت منها نفوسنا تعلم كل شئ ولها الاحاطة والتصرف . ولولا مافيها من هذه القوّة العلمية والعملية مااشتاقت نفوسنا الى حوز جميع العلوم وجميع النعم . فاذا قال قائل . من هذا الانسان . وماهى الأرض التى يسكنها . لقد ثبت أن هذه الأرض بالنسبة للعوالم التى نعيش فيها أشبه بجوهر فرد بالنسبة لألف مليون أرض فلوصغر العالم كله بحيث صار ألف مليون أرض كأرضنا كانت أرضنا جوهرا فردا ومعلوم أن هذا لاتمكن رؤيته فكيف يكون سكانها أمثالنا لهم قدرة على الاطلاع على العوالم كلها وهم والعدم سواء وكيف يشتاقون لما لايصلون اليه . فاذا قال قائل هذا قلنا حقا اننا من عوالم ضعيفة ونحن بهذا المقدار بالنسبة للعوالم ولكن هذا العالم الذى نعيش فيه مملوء رحمة مشمول بالحكمة

فانك ترى الجوهر المادّى اذا أطلق مافيه من القوى والكهرباء الى الخارج اشتعلت الأرض كلها نارا . وأيضا أن الجواهر الصغيرة مركبات من ذرات كهربائية يدور بعضها على بعض كدوران السيارات حول الشمس إذن عالمنا الذى نعيش فيه جعلت صغائره فيها مافى عظائمه من القوى كل بقدره . فالجوهر الفرد فيه نور وحركات سريعة كنور الكواكب وحركاتها

فاذا كان هذا فى العوالم المادية فليس بعجيب أن تكون أرواحنا مستمدّة من عوالم نسبة أرواحنا الى تلك العوالم كنسبة الجواهر الفردة للكواكب . فاذا كانت النفوس العالية مطلعة على عوالم عظيمة واقفة على أسرارها فهل كان بدعا أن تحذو أرواحنا حذو تلك الأرواح العالية فتشتاق الى ماملكت تلك وتقلدها

هذا هو السرّ فى ولوع نفوسنا بالعوالم والاطلاع عليها فهى أبدا لاتهدأ ولاتسكن مشرقة مغربة متجهة شمالا وجنوبا باحثة بالفكر عن العوالم علويها وسفليها . اتجهت الذّرات الجسمية فى العوالم الى ما اتجهت اليه كواكبها من الحركات واتصفت بما اتصفت به من الأنوار . هكذا اتجهت أرواحنا الى ما اتجهت اليه النفوس العالية المحيطة بعالمنا فقلدتها بالفطرة فى اشراقها والولوع بمعرفة العوالم كلها . هذه هى فطرة الانسان المستقرة فيه . وليس ماأقوله لك الآن مجرد رأى رأيته أوخاطر خطرلى . كلا . فما من أمّة من الأمم أوجيل من الأجيال إلا سمع بحوادث تدل على ما أقوله لك بحيث تكون حركات النفس الفكرية التى يحسّ بها كل امرئ (وانه بينما يفكر فى بقعة فى الشرق اذا فكره قد انتقل أسرع من البرق الى بقعة بينها و بين الأخرى ألف ميل غرب الأولى) تصبح حركات فعلية لامجرد خاطر خطر أوفكر عرض وذلك فى علم الأرواح وان فيما نقلته فى هذا الكتاب من علم الأرواح لدليلا ساطعا و برهانا قاطعا ولكن أذكر حادثة تلك الفتاة التى نوّمها العلامة شاردل فقالت له (إنك نائم وأنا يقظانه) فانك ترى الأشياء خشنة غليظة وأنا أرى باطنها وأسمع مالاتسمع وأبصر مالاتبصر وأدرك مالاتدرك وأسمع من يتكلم من بلدة أخرى . وقال المعلم ذاته « ان ابنة كان يحصل لها فى السبات الطبيعى نوع من الانخطاف فقالت انها كانت تحس بأن جسمها يمتد شيأ فشيأ الى أن تفارقه وتراه بعيدا باردا كأنه ميت ثم قالت وأرى نفسى كبخار نورانى أرى وأدرك مالا أقوى على ادراكه فى أية حالة كنت عليها ولاتبقى هذه الحال إلا بضع دقائق وقد تصل الى ربع ساعة ثم يجىء الجسم البخارى الى الجسم الغليظ فأفقد الشعور و يزول عنى الانخطاف » وهناك أناس انتقلوا الى محال بعيدة بفعل أرواحهم وهذا ليس مطلب النفوس الانسانية . إن مطلب النفوس الانسانية ادراك كل شئ والاحاطة بالعوالم كلها وهؤلاء الذين انتقلوا فى لمح البصر الى أماكن بعيدة انما انتقلت أرواحهم بأجسامهم الروحية الأثيرية وفى قدرة كل امرئ هذا الانتقال متى وجه نفسه وجهة خاصة ولكن ليس هذا دالا على سموّ هذه النفوس فسموّ النفوس شئ وطبعها العام شئ آخر وهذا المذكور من طبعها العام لامن سموّها . وأنا أذكر حادثة أيام تعلمى بالجامع الأزهر وهاهى ذه

كنا منصرفين من الجامع الأزهر الى قِرانا لنرجع الى أهلنا وركبنا سفنا شراعية فقمت ليلا من المركب لأطلع الى البرّ وقت الفجر فوقعت فى البحر بين السفينة والشاطئ وكان البرد شديدا فلما وصلت الى قريتنا فاجأتنى والدتى قائلة يابنىّ رأيتك وقت الفجر فى لجة البحر مرتعدا فقمت من فورى فزعة فأخبرتها الخبر فتعجب الناس من ذلك . وهذه حاصلة فى كل زمان ومكان ولكن الناس لايعبؤن بما تكنه نفوسهم احتقارا لشأنها وجهلا بعلمها . وقصارى القول وحاداه أن النفوس الانسانية مقبلة على مستقبل علمى عظيم فى العوالم الروحية وهذا المستقبل يدل عليه أحوالها الحاضرة من حب استطلاعها وكشفها ومن سرعة خاطرها وجولانها الفكرى فى كل زمان ومكان وفيما لايتناهى من العوالم - والله من ورائهم محيط - والحمد لله رب العالمين

﴿ بهجة العلم فى قوله تعالى – وما كنا عن الخلق غافلين – ﴾

اعلم أيها الذكى أن هذه السورة مبتدأة بفلاح المؤمنين المتصفين بما يأتى

(١) يصلون (٢) يخشعون فى الصلاة

(٣) يعرضون عن اللغو فى الأقوال والأفعال

(٤) يعرضون عن اللغو فى المال باخراج مافضل عن الحاجة الى المستحقين وعلى الأقل الزكاة

(٥) وعن الشهوة الأخرى فى النوع الانسانى

(٦) يعيشون بأمان مع الناس بايفاء العهد الخ

(٧) يحافظون على صلاتهم

(٨) و نتيجة ذلك انهم يرثون الجنة

(٩) وعقب ذلك بذكر العلوم التى هى مفتاح الجنة فذكر خلق الانسان وتطوره ثم خلق السموات

(١٠) ثم ذكر عدم الغفلة عن هذه المخلوقات

ههنا يتبدّى للعقل . ما المناسبة بين تلك الفضائل وهذه العلوم . ولماذا كررت الصلاة مرتين مرة مع الخشوع وأخرى مع المحافظة عليها . اعلم أن الانسان لايستقيم له علم إلا بصرف الشواغل والذى يشغل الانسان بطنه ولسانه وفرجه وأمور عامّة . فالزكاة للأوّل وترك اللغو للثانى وحفظ الفرج للثالث وإيفاء العهد ونحوه للرابع . فاذا كمل الانسان فى هذه فعليه إذن أن يتعلم ضبط النفس وضبط النفس لتوجيهها الى المطلوب فان المطالب العلمية ان لم يتوجه لها الانسان توجها تاما لم يدركها وهذا الضبط جعلت له الصلاة . إن المسلم حين يخشع فى الصلاة ويوجه همته كلها للمعبود ينال ﴿ أمرين * الأوّل ﴾ الاعتياد على حفظ الخواطر فيوجهها لأمر واحد ﴿ الثانى ﴾ توارد العلوم على قلبه . فها أناذا أذكر ماورد على قلبى فى صلاة فى يوم من الأيام . ذلك أن المصلى يقول ﴿ الله أكبر ﴾ فى أول الصلاة وهذا التكبير مع التسليم قد شرحت الكلام عليهما فى (سورة الاسراء) عند ذكر المعراج . وههنا أقول ما انشرح له الصدر فى مقام هذه الآية وهى – وما كنا عن الخلق غافلين – فأقول

الله أكبر . جل العلم وجلّ الله الذى علم وألهم ووفق وأحسن . يكبر المسلم فى أول الصلاة فلا يقول الله كبير . كلا . بل يقول إنه أكبر . فاذن كل ماعلمناه من علم وحكمة فان الله أكبر مما علمنا وعليه نزيد فى الرقىّ والتعلم وكلما ازددنا علما قلنا الله أكبر . فاذن العلم لانهاية له لأن الله بعد ماعلمناه أكبر من هذا كله . الخلاء لايتناهى والمخلوقات جهل الناس نهايتها . أفليس الله إذن يكون لانهاية له فهما ارتقينا فالله لانهاية له بعد مانعلمه

(١) يوجه المسلم وجهه للذى فطر السموات والأرض فيقال هناك ماهو أعظم لأن الله أكبر

(٢) يحمد الله لأنه ربّ العوالم العروفة فيقال له الله أكبر من هذا كله فهناك عوالم ستكشف

(٣) يقول المسلم نحن نعبدك فيقال له وهناك عبادة أعظم لأن الله أكبر

(٤) يستعين المسلم بربه فى أموره فيقال له وهناك مواهب أعظم فيعينك فيما تطلب فوق هذا لأن الله أكبر

(٥) يهدى الله المسلم الصراط المستقيم فيقال له وهناك هداية أعظم لأن درجات الرقى لاحصر لها فان الله أكبر

اذا علمت هذا فانظر فى قوله تعالى – وما كنا عن الخلق غافلين – . هذه الآية تتدخل فى العلوم كلها وكلما ازددنا علما ازددنا طلبا . فهل نفكر فى نبات أم فى حيوان أم فى معدن أم فى كوكب . حفظ الله لهذه العوالم ليس يعرف البتة إلا بالعلوم ودراستها

إن عدم غفلة الله عن خلقه لن تدرك حق ادراكها إلا بالنظر فى كل علم وهذا أمر لا آخر له وكلما ازددنا علما يقال لنا الله أكبر . إن هذا التفسير قد مزجت فيه العلوم المعروفة وفصلت تفصيلا . إن فيه من كل علم زهراته ومن كل فن ثمراته فاقتطف تلك الثمرات فيما تقدم ولكن يقول المسلم الله أكبر ويقول الله لنبينا ﷺ — وقل رب زدنى علما — فهاك ما رأيته وأشرت اليه فى (سورة هود) انى اطلعت على عجائب لا تخطر بالبال فى كتاب يسمى ﴿ علوم للجميع ﴾ باللغة الانجليزية لمؤلفه الاستاذ (روبرت براون) فقد جاء فى صفحة (١٢٨) ومابعدها من المجلد الثانى ماملخصه تحت عنوان ﴿ الألوان الحافظة للحيوان ﴾

(١) إن المفكر العادى يرى أن ألوان الحيوانات وزعت عليها بلامنفعة ولاعلم وانما هى مصادفات عمياء إن كل شئ فى المناطق الحارة بهيج لونه حسن شكله حيوانا كان أم نباتا

(٢) إن أكثر الناس لايدرون لماذا كان هذا الحيوان أبيض وهذا أسود ولماذا تكون دودة الفراشة خضراء تارة وسمراء أخرى وآونة ذات خطوط و بقع من ألوان مختلفة موضوعة بلا نظام . إن أكثر الناس لايرون أن هذه المباحث عقيمة النتائج قليلة الثمرات بل هى عندهم وهم باطل

(٣) وسنذكر هنا أن حيوانات كثيرة ألوانها نافعة لها بل كثير منها لاتعيش إلا بحماية ألوانها الخفيفة

﴿ الحيوان قسمان ﴾

قسم يعيش على غيره وقسم يأكله غيره ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ آكل ومأكول . والقسم الثانى لابد له من الهرب من عدوه وإلا لمات وهذا الهرب (ا) إما بسرعة الطيران (ب) واما بقوة الملاحظة (ج) واما بأن يخفى نفسه عن الناظرين (د) واما بأن لايظهر ليلا (ه) واما أن يختفى تحت الأرض (و) أو تحت الأوراق (ز) أو قشور الأشجار (ح) أو الأحجار .

فبهذا كله يفر من الموت . أما القسم الأول وهو الحيوانات المفترسة فانها أيضا إن لم تكن مختفية عن أعين فرائسها حل بها البلاء . فاذا كانت الأولى يعتريها العطب اذا لم تكن مختفية فهذه أيضا يقتلها الجوع اذا رأتها فرائسها ففرت منها . إذن الألوان التى تتصف بها الفريسة يجب أن تكون غير واضحة حتى تربى أولادها وتحصل قوتها باختفائها عن الحيوان المفترس . وهكذا الحيوان المفترس يجب أن لا يكون له لون ظاهر والا هلك وتكون النتيجة هكذا « كل لون ظاهر فى الحيوان مهلك له آكلا كان أومأكولا » فاللون إذن يجب أن لا يكون واضحا بل يجب أن لا يكون له وجود ألبتة مع أن اللون شائع وجوده فى الحيوان فضلا عن مجرد وجوده حتى يصح القول أن الزائد والناقص يتماحيان فى علم الحساب . إذن لامعنى للون يحمى الحيوان

﴿ الجواب عن ذلك ﴾

هنالك أجاب المؤلف قائلا إن امتحانات عظيمة جليلة أظهرت أن الألوان حتى ما كان منها أظهر وأبهج وأنضر حامية للحيوان حافظة لحياته

(١) ان الأرض والسماء والأوراق والأزهار كلها براقة مؤثرات فى حياة الحيوان حامية له

(٢) ان جمال الحيوان و بريقه قد يكونان انذارا للحيوانات الأخرى بما يحمله الحيوان من سلاح أو مافى طعمه من كراهة . وفى أحوال أخرى توجد حيوانات كثيرة تحمى أنفسها بدون الاختفاء وهذه تصحبها الألوان وتلازمها . فلنلاحظ هذا الموضوع ولنفكر فيه فههنا مزرعة واسعة فيها ظهور الألوان وجمالها وبهجتها من وجه ﴿ ومن وجه آخر ﴾ هناك ألوان خفيفة وجدت كلها لتحمى الحيوان على حسب بيئة الحيوان وعادته وغرائزه

﴿ أمثلة الألوان التى تحمى الحيوان * المثال الأول ﴾

حديقتى التى اعتراها نوع من الحشرات المسمى (سلاق) بسبب رقة الشتاء سنة ١٨٧٧ ورطوبة الربيع بعده . ففى مساء ليلة أخذت أنحى تلك الحشرات عن أحسن النبات بالمبراة لأسقطه فى جرة فيها ماء ملح شديد الملوحة وحين أفعل ذلك كثير منها تتقلص وتقع على الأرض وهى (مع انها تقع على الأرض أمامى) أراها تصير شبيهة بالحصباء التى تكثر فى تلك الأرض وهى مختلفة الألوان أبيض تقريبا وأسمر وأصفر وأسود تقريبا وهى حينما تنقبض وتتقلص بشكل بيضاوى تكون أشبه بالحصوات المبتلة المختلفة الألوان ثم ان حشرة من هذه سوداء كانت صفراء زيتية تحت ظاهرها فلما تقلصت كان من العجب أنها أصبحت كحصاة سوداء من الصوان منشقة شقتين صفراء من الداخل وهذه حال الحصا الصوانى هناك تماما وهذه ربما يقال انها حال خاصة إذ لا برهان على دوامها ولكن مر زمان تبعه زمان وأنا لم أعد أرى هذه الحشرات ألبتة بنظرى ولا واسطة لذلك عندى إلا أنى ألمس الحصوات المنثورة على الأرض بطبعها بالمبراة ولازلت ألمس حصاة بعد أخرى حتى عثرت بما لان منها . هنالك أتانى اليقين أن هناك غاية مقصودة حقا والذى يغشنى بأنه أحد الحصوات قادر أن يغش الطيور وغيرها التى تعيش على هذه الحشرة . أقول حقا ان هذا قوله تعالى ـ وما كنا عن الخلق غافلين ـ

﴿ المثال الثانى ﴾

فى المناطق الاستوائية الحارة كنت أضيف حاسة اللمس الى حاسة النظر أيضا لأميز بين حشرة تسمى (حشرة العصا) و بين نفس العصا فنتج من هذا أنه من المسلم به أن المماثلة تكون فى بعض الحشرات لوقايتها لأنها تحميها من المهاجمة التى تنتابها من الطيور الآكلة للحشرات . وعليه تكون هذه الحشرة وهى (سلاق) قد حميت من الطيور الآكلة الحشرات بهذه المماثلة وكذلك (حشرة العصا)

﴿ المثال الثالث ﴾

الذى يحمى بعض (السوس) فى بلاد الانجليز انه أعطى قوة الانكماش عند مسه وهو إما أسمر واما منقط وهذه لها عادة أن تسقط على الأرض عند مسها أوازعاجها بحال خاصة وحينئذ لا يعرف الفرق بينها و بين كتل الطين والحجارة

﴿ المثال الرابع ﴾

وهناك نوع آخر يوجد دائما أخضر جميل ويجرى و يطير حينما يمس

﴿ المثال الخامس ﴾

هناك نوع غريب صغير من الخنافس أسمر يحفر فى الأرض يصير أشبه بحبوب بعض النبات المسمى (بالنبات الصيوانى)

﴿ المثال السادس ﴾

الخنافس الجميلة الشكل المسماة (مسك بيتل) التى تقع دائما على أوراق الصفصاف تكون خضراء

﴿ المثال السابع ﴾

الحشرات المسميات (سبردس) والتى تسمى (رقيمس) التى تلازم الخشب أو الأعمدة تكون سمراء أو تميل الى الصفرة

﴿ المثال الثامن ﴾

إن أحسن مثل يضرب للحيوان الذى برز وظهر بلونه هو الفراش الذى لا وقاية له تقيه فى بلادنا الانجليزية

﴿ المثال التاسع ﴾

الفراش المسمى (اقريوبس) الأخضر اللون والآخر المسمى (أكرونيكتابسى) الرمادى اللون يقعان على جذوع الأشجار نهارا و يختفيان اختفاء تاما بمشابهتهما للنبات المسمى (ليتشب) الذى يحيط بهما

﴿ المثال العاشر ﴾

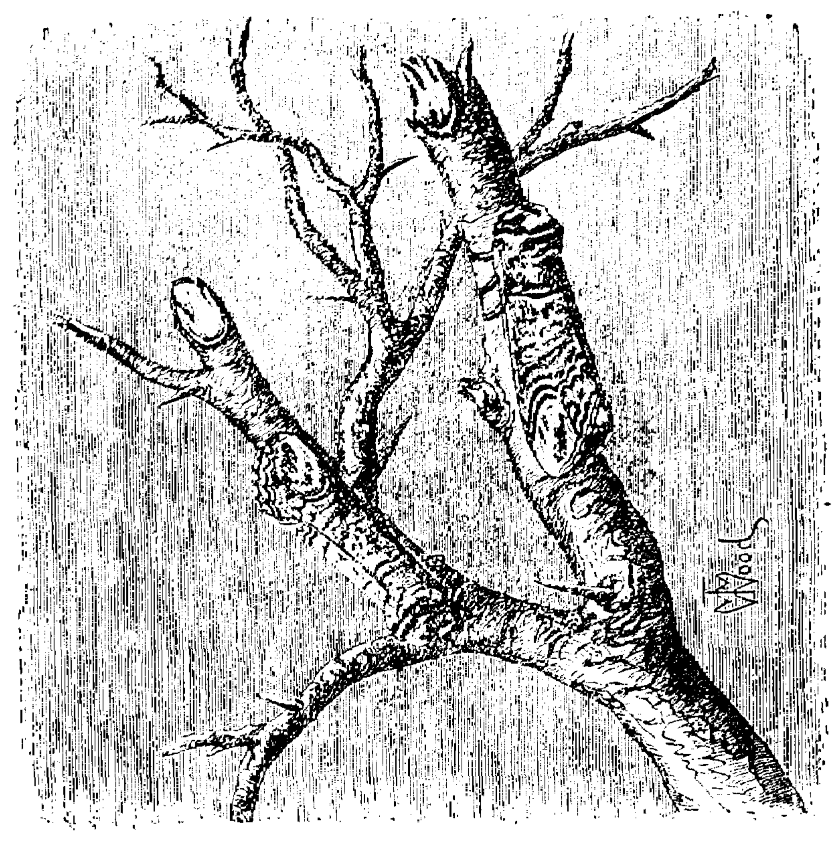
الفراش المسمى (ليتموث) حينما يقع مظهرا جناحيه الأسمر بن الكبيرين يشابه الورق الجاف فى شكله ولونه (انظر شكل ١٣)



(شكل ١٣ – صورة حشرة ليتموث)

﴿ المثال الحادى عشر ﴾

بينما (بف تب موث) أى فراشة (بف تب) تقبض أجنحتها حتى تصير تماما مثل قطعة من عصا مكسورة وفى نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثا (انظر شكل ١٤)



(شكل ١٤ ـ صورة حشرة بف تب)

ولاجرم أن هذه الحال تبين لنا اذا نظرناهذه الحشرة فى خزانة كيف يستحيل علينا أن نتبين أهذا لون فراشة جاء لحمايتها أم لا . فليت شعرى من ذا الذى يجول بخاطره أن هـذا الجمال ولون الفراشة الواضح قد جىء بهما مشابهين لقطعة من عصا مقطوعة ليغشى على أبصارنا فلانعرف أن ذلك سبب فى حفظ الفراشة من أعدائها . هذا قول المؤلف . وأنا أقول ياليت شعرى هـل يعلم المسلمون بعدنا أن هذا هومعنى قوله تعالى ـ وماكنا عن الخلق غافلين ـ وانهم بعد مابينا فى هذا التفسير يجب عليهم التبحر فى هذه العلوم فهم أولى بها من الفرنجة

﴿ المثال الثانى عشر ﴾

انه من الامور التى يكثر وقوعها فى الأقطار الحارة أن نجد خنافس وفراشا تشبه زرق الطيور وهذا أيضا يحصل فى البلاد الانجليزية كما قاله الاستاذ (سيد قويك) « لقد وقعت فى الخطأ أكثر من مرة إذ كنت أرى فراشـة ذات لون مختلط السواد بالبياض قد أشبهت زرق الطير واقعا على الورق ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ رأيت الفراشة تشبه زرق الطير

﴿ المثال الثالث عشر ﴾

وهناك نوعان من الفراش يشبهان الحيطان المصنوعة من الطين التى يقعان عليها

﴿ المثال الرابع عشر ﴾

وفى بلاد (السويزرلند) كنت أسلى النفس فى بعض الأزمان بملاحظة فراش يقع قريبا منى إذ يقع على حائط من الحجارة فى ذلك الاقليم موافقا لها وهولايتميز عندى على بعد بضعة (ياردات) منى

﴿ المثال الخامس عشر ﴾

لقد لاحظ الناس أن اللون العام الخفيف الذى للفراش على أجنحته فى الخريف وفى الشتاء يوافق لون

الطبيعة العام فى ذينك الفصلين . قال العلامة (بوسف جرين) ان أكثر الفراش الحريفى يختلف لونه ما بين الصفرة والسمرة وذلك يشبه الأوراق الخريفيــة بينما نجد الفراش الشتوى فى نحو (هيبرنيا) و (كيمانو بيا) ذا لون لطيف أشيب فضى .

﴿ المثال السادس عشر ﴾

إن دود الفراش لونه الواضح قد أعدلحمايته على وجه العموم . ألاترى رعاك الله أن الجم الغفيرمن هذه المخلوقات أعطى لون الخضرة مشاكلة للون الورق الذى هو يعيش عليه و يتغذى منه و يعطى لون السمرة حينما يكون وقوعه على قشرجذوع الأشجار أوالأغصان وكثيرمن هذه المخلوقات من أنواع أخرى مثل (جيومتريدا) أو (لوبرز) قد أعطى عادة انه يغرس نفسه غرسا تاما مثل ماتغرس العصا التى هو يشبهها فى الشكل واللون

﴿ المثال السابع عشر ﴾

كل امرئ يعلم أن هناك جما غفيرا من دود الفراش ولكنه يسأل قائلا . لماذا رأينا بعض تلك الأنواع قد حميت من الهلاك . ولماذا نرى أنواعا أخرى تحتاج الى حماية ، ذلك لأنهاقدفقدت مايحفظها . والجواب على ذلك سيكون بالاستدلال والاستنتاج البرهانى . ذلك أنه ثبت بالملاحظة والامتحان أن كل دود الفراش الأخضر والأسمر يكون طعاما هنيئا لذيذا بلا استثناء للطير وللضفدع والضب وللعنكبوت . فهذه تسعى لتختفى من جوع هذه الأعداء بأنها تاكل فى الليل وحــده أما فى النهار فانها لاتتحرك وتبقى على الأوراق والأغصان وقشورالجذوع التى شابهتها فى الألوان . ومن جهة أخرى هناك نوع آخرمنه لامع اللون يأنف من أكله الطير اذا عرض له وكذلك الضب والضفدع والعنكبوت فليس أحد هذه المخلوقات بقادر أن يلمس دود الفراش المذكور (انظرشكل١٥)



(شكل ١٥ — صورة دود الفراش المحفوظ بكراهة طعمه)

وقد يقتنص الطائر ونحوه ذلك الدود بفمه ولكنه حالا يلقيه من فمه لما أحس منه بالطعم الكريه . وهذا

القانون يسرى على دود الفراش الذى له شعر يغطى جلده والذى نسج غزلا يحيط به . والذى يزيد فى العجب أن هـذه المذكورات لهـا طبائع تخالف ما تقدمها من تلك الفرائش الخضر والسمر وهو أن هذه تأكل نهارا ولا يخفين أنفسهن كالسابقات وتأكل علنا كأنها حفظتها حكومة نظامية وكأنها أعطيت علما بنجاتها من سائر أعدائها هذه الرابطة التى بين اللون المبهج السار وعادة الاقدام والشجاعة . الفرائس تنزلنا نورا وتضىء لنا كثيرا من أحوال الضوء اللامع الذى ان لم يكن كذلك فان وجوده يكون معارضا لفكرة الحماية والحفظ وعلى ذلك نقول إن بين خنافسنا طائفة ساطعة اللون كالمسماة (الطيور السيدات) والجنود والسائحين بين الطائفة منها المسماة (ملكودرمس) وهذه الأنواع المذكورات حشرات مكشوفة ظاهرة ولا وقاية تقيها وهى لم تخف أنفسها يوما ما ولم تبحث عن ملجأ تلجأ اليه ولم تتظاهر بالموت كما تفعل الخنافس الأخرى . إن السبب فى ذلك قد وجد الآن . ذلك أنها أشبه بدودة الفراش التى لوّنت تلوينا بغير اتقان وهى لاتصلح طعاما لآكلات الحشرات

﴿ المثال الثامن عشر ﴾

وهذا الايضاح يصح أن يعطى للبياض الذى يظهر فى فراش مخصوص . إن أحد ذلك الفراش المخصوص هو المسمى (سيلسمامنشرستى) وهو فراش عادى جدّا ولما وضعه فى طعام الفراخ الرومية الاستاذ (استانتون) فى جملة مئات من الحشرات الأخرى التى لاقيمة لها رفضه ولم يأكله وهكذا كل الطيور بالتعاقب التقطته ثم رمته لما رأته كريه الطعم . وهـذا نفسه قد حصـل مع حشرة أبى دقيق الزاهية اللون المزخرفة التى تكوّن الطائفة المسماة (دنسدا) وقد لاحظ الاستاذ (بات) الطيور الآكلات الحشرات فى جنوب أمريكا إذ رآها قبضت حشرة (أبى دقيق) وأحضرتها الى أعشاشها لتطعم بها أفراخها الصغار و بعد نصف ساعة لم تحضر تلك الطيور أحد هذه الطائفة التى تطير فى كسل بلا وجل مرات كثيرة

﴿ المثال التاسع عشر ﴾

وهناك طرق أخرى للحماية غير كراهة الطعم و بها يكون الاختفاء غير ضرورى . إن أسلحة الطير تقوم لهـا بحق الدفاع عنها متى كانت تامّة فى نوعها لتجعل هذا النوع غير نافع لعدوه أو خطرا عليه اذا هو هجم عليه وأحسن مثال لأسلحة الحشرات (النحل والزنابير) فان بين هذه ألوانا زاهية عامّة بينما هى تطير هنا وهناك لتبحث عن غذائها من غير أن تحاول الاختفاء وهناك حشرات أخرى لهـا غطاء قوى أو غزل متشابك بلا نظام وذلك وضع عليها لأجل أن لاتؤكل . إن من بين الحشرات التى فى الأقطار الحارة كثيرا من هذه الحشرات الظاهرات اللون المزوّقات تزويقا غير منظم . خذ مثـلا من أمثلة هذه الطائفة وهو الزنبور الياقوتى الذيل الذى ليس له حمة تكون سلاحا له وانما أعطى قوّة بها يدحرج نفسه فيصير كرة صعبة قوية وهو ملون بلون زاه بهيج بهىّ حسن حتى يظهر انه جوهرة غريبـة نادرة الوجود . وهناك نوع آخر نال الحماية بالطيران السريع بأقصى شدّة ممكنة ثم يخفى نفسه فى ثقب أو بين أزهار حينما يسكن . وهـذه دائما تظهر بلون لامع فتشبه (روزشعر) المعتاد . هذه الأمثلة القليلة تفيد أنه لاحجة تقاوم استعمال اللون للحماية فى بعض الحيوان مثل أن يقال ان هناك حيوانات لهـا ألوان مضيئة وليست للحماية . هذه أحوال أفادت أن الحيوان أعطى عوضا يجعله يعيش و يبقى نوعه . هذا العوض نقدر على فهمه فى بعض الحيوان وفى بعض آخر نحن جهلاء بالعادة و بما يحيط بالنوع لنحقق هـل اللون يحمى أم هناك أمر آخر للحماية واذا لم يحم اللون فما هى الحال الخاصة التى تقوم بالحماية بدل اللون

﴿ المثال العشرون ﴾

دود الفراش لأمبراطور الفراش (أى تبع الفراش) جسمه محلى بالخضرة مع نقط وردية اللون فى جمال فائق منظم و يأكل فى مرعى ولونه متـلائم تلاؤما موسيقيا مع براعيمه الخضراء وأزهاره الوردية حـتى انه يصعب كشفه بين تلك المراعى

﴿ المثال الحادى والعشرون ﴾

لننتقل للصحراء . هناك لا أشجار ولامراعى تحمى الحيوان بمشاكلته لها . إذن نجد تغيرا فى اللون ليشاكل الحيوان ماحوله . فترى القبر (بتشديد الباء) وأنواعا أخرى من الطير وكل ماله فروة من الحيوانات الصغيرة ذوات الأربع وجلد الحيات والضب . كل ذلك بلون الرمال . وليس هذا خاصا بصحراء بل هكذا كل الصحارى والجل والأسد لهما لون لطيف رملى أوصخرى رملى

﴿ المثال الثانى والعشرون ﴾

لنبحث فى الجهات التى فى القطب الشمالى فهناك اللون الأحمر المصفر اللطيف هو المطلوب ولكن اللون الأبيض الصافى وفى بعض الأحيان الأسود الأسمر أوالأسود (حيثما يكون اللون الواضح اللامع يكون أكثر فائدة من لون الاختفاء) . كل دب فى الأرض أسمر أوأسود إلا دب القطب فهوأبيض وكذلك أرنب القطب والصائد الثلجى والبومة الثلجية كل هذه بيضاء أوقريبة من البياض . والثعلب القطبى والأرنب الذى يسكن (جبال الالب) فهذان يتغيران الى البياض زمن الشتاء . وهناك طائر يسمى (بسترميجان) فى الأراضى المرتفعة وهذا خير مثال للحماية بالألوان فريشه فى زمن الصيف موافق لألوان الأحجار التى يجب أن يقع عليها ولا يقدر الانسان أن يميز سربا منها بدون أن يرى واحدا منه وهو يلون بالبياض زمن الشتاء لأجل حمايته بمشاكلة الثلوج هناك التى تغطى الجبال . يستثنى من البياض الشامل الحيوانات فى المنطقة القطبية (غنم مسك) أو (ثيران مسك) وهذه تسمية معتادة هناك خطأ لونها أسمر مسود ويرى فى أثناء الثلج والجليد وليس سبب هذا صعبا انه يعيش أسرابا لحمايته باتكاله على الجماعة والحيوان المنفرد هوالفريسة للدب القطبى أوالثعلب القطبى ويمكنها أن ترى جماعاتها فيلتحق الواحد منها بها على أى مسافة فهو خير من اختفائه من العدوّ. انظر الى (السمور) فهو يحفظ فروته السمراء الثمينة فى أثناء شتاء سيبريا القاسى وفى أثناء ذلك الفصل يلازم الأشجار ويأكل من ثمارها وهو نشط فيقتنص الطيور من وسط الأشجار . والغراب يكون فى أقصى الأقطار القطبية الشمالية لكنه دائما أسود لأنه لاعدوّ له وهو يأكل من الجيف وهى لاتحتاج الى الاختفاء من فرائسها . هذه أسباب ثلاثة (غنم خاصة تكون سمراء لأنها تكون سربا والسمور لأنه يعيش وسط الأشجار والغراب لأنه لاعدوّ له) ذات قيمة من أجل وجهة نظرية . لقد برهنت هذه الثلاثة على عدم صحة الفكرة العادية التى يقال فيها أن الحيوان يتغير للبياض فى الأقطار الشمالية إما من تأثير البرد المباشر أومن تأثير انعكاس البياض من الثلج . فهذه الثلاثة علمتنا أن البياض انما اختص بهذه الحيوانات البيضاء لأنه حافظ لها بينما تلك التى إما لاتحتاج الى الحماية واما أن لون السواد نافع لحفظها لم تلون بالبياض . إذن سبب التغير لايرجع عقلا الى الامور الخارجية بل هو راجع الى قوانين مختلفة مختارة بحيث تغير صفات الحيوان فى طريق نافع لها

﴿ المثال الثالث والعشرون ﴾

الحيوانات الليلية تبرهن على فكرة الحماية اللونية . خذ مثلا لذلك الفيران الصغيرة والكبيرة والوطاويط والخلد كلها رمادية اللون أوسوداء اللون . إذن لايمكن رؤيتها ليلا إذ هى إذ ذاك تسعى لجلب الرزق وفى النهار تخفى أنفسها فى منافذ أوتحت الأرض . واذا كان لون الاختفاء لابد منه مثل ماهو حاصل فى (البوم) فاننا نجد لونه ترابيا ذا بقع ملونة كثيرة لونا خفيفا ليحصل التشابه بينه وبين قشر الشجر أوالأرض أثناء النهار ولا يكون كثير الوضوح أثناء الليل

﴿ المثال الرابع والعشرون ﴾

بعض الحيوانات الليلية لها لون زاه وهو (سكانك) الذى هو فى أمريكا الشمالية وهوأبيض اللون وذيله طويل أبيض غاية البياض ولكن هذا له رائحة مهولة كريهة تنتشر فتجعله مخوفا مزعجا وذيله الزاهى انما هو علم مفرد لكل حيوان أكل اللحوم منذر له أن لا يفتك به كما يحصل فى (الفراش) الذى تتحاماه الطيور لطعمه الكريه

كما تقدم وهى تأكل غيره لاهو

{ المثال الخامس والعشرون }

(ا) ومثل ماتقدم فى التأثير البرهانى أن اللون يحمى ماذكرهنا وكذلك فى وسط الغابات التى عمتها الخضرة بكثرة فى المناطق الحارة ومايقرب منها فانا نرى هناك طيورا لون ريشها بلون تلك الجهات فصار أخضر مثل (الببغاء) الذى يسكن تلك الأقطار فهو أخضر على وجه العموم مع بعض رقع ذات لون برّاق بهيج

(ب) وفى الجزائر الاستوائية الشرقيــة أنواع كثيرة من الحمام خضراء كالببغاء وكثير أيضا من أصناف غيرها بنفس هذا اللون

(ج) ومثل هذه فصيلة الطيور الآكلة الفاكهة وهى تكثر فى الأغاب فى الأقطار الاستوائية الأسيوية . وهناك طير (١) أخضر يسمى (بلبل) (٢) وآخر يسمى (آكل النحل) (٣) والذى فى افريقيا لاستوائية (٤) وذو العين البيضاء الصغيرة الذى فى الأقطار الشرقية الاستوائية وانواع أخرى كثيرة . كل هذه الأنواع تلازم الأفنان المورقة المشتبكة الأوراق المشاكلة للونها مشاكلة موسيــقية منتظمة بحيث لا يقدر الانسان أن يميز بين المساكن وساكنيها

{ المثال السادس والعشرون }

والنوازن بين هــذا و بين الألوان العادية فى الطيور بالأقطار التى هى مثل بلادنا . ليس هناك لون يقرب من الأخضر فذلك ليس بموجود بينما الزيتى والأسمر هما العامان فى ريش الطيور . هذا لون خفيف وهو أقل مظاهر اللون بين الأشجار التى لا أوراق لها والادغال أو الشجيرات التى هى كثيرة فى جزء كبير من السنة وعند الاحتياج الى الوقاية تكون الألوان أشدّ خضرة

{ المثال السابع والعشرون }

إن للزواحف ألوانا خفيفة واقيــة لها . فانظر الى الضب والحية فانهما يكونان أسمرين قليلا أو كثيرا أو زيتيين خفيفى اللون بينما هما فى الأقطار الاستوائية وحدها يكونان شديدى الخضرة البراقة لامعين ليشاكلا النباتات فى تلك الأقطار . وهناك نوع من الضباب مسطح مشاكل لجذوع الأشجار أو الأحجار التى يعيش عليها ولونه أخضر أو أشيب مشاكلة للسطح الذى يعيش منه

{ المثال الثامن والعشرون }

بعض الحيات الليلية هى وكل ما كان ليليا من الحيوانات التى تحتاج الى الاختفاء تكون ألوانها ذات سواد أوسمرة أوزينية

{ المثال التاسع والعشرون }

كثير من السمك قد اتضح فيه الحفظ بواسطة اللون فنرى الذى يسكن فى قاع البحر له لون نفس القاع فهو منقوش نقشا كثيرا ليوافق الرمال والحصى . فأما الذى يعيش قريبا من سطح الماء فانه يكون من فوق أزرق مائلا للخضرة وهو من أسفل أبيض لأجل الفرار من العدوّ الذى فى الهواء فوقه ومن العدوّ الذى فى الماء تحته . والسمك اللامع فى البحار الدافئة كثير منها تختفى حينما تكون محوطة بالأعشاب البحرية اللامعــة . والمرجان والشقائق وأنواع من الحيوانات البحرية التى تجعل قاع البحر فى بعض الأوقات يشبه حديقة مزهرة خيالية والسمك الذى كالانابيب وخيل البحر هى أحسن أمثلة لأساليب اللون والاحتماء به فبعضها مخضر مشبها للحشائش البحرية العائمة . ولكن فى استراليا هناك نوع عظيم مغطى بطبقة ورقيــة وكلها ذات لون أحمر وهذه تعيش وسط الأعشاب الحمراء البحرية وبهذا تختفى عن أعين الناظرين

{ المثال الثلاثون }

فى الأقطار الاستوائية حشرات قد حفظت بصفات عجيبة غاية العجب من حيث ألوانها وخطوطها العجيبات وأحسن ماعلم منها (حشرات الورق) التى هى حشرات كبيرة عجيبة أجنحتها وأغطية أجنحتها عريضة مسطحة مشكلات بأوردة وعروق مثل ما للأوراق وأرجلها ورؤسها وصندوقها لها اتساع مسطح على هيئة ماحولها

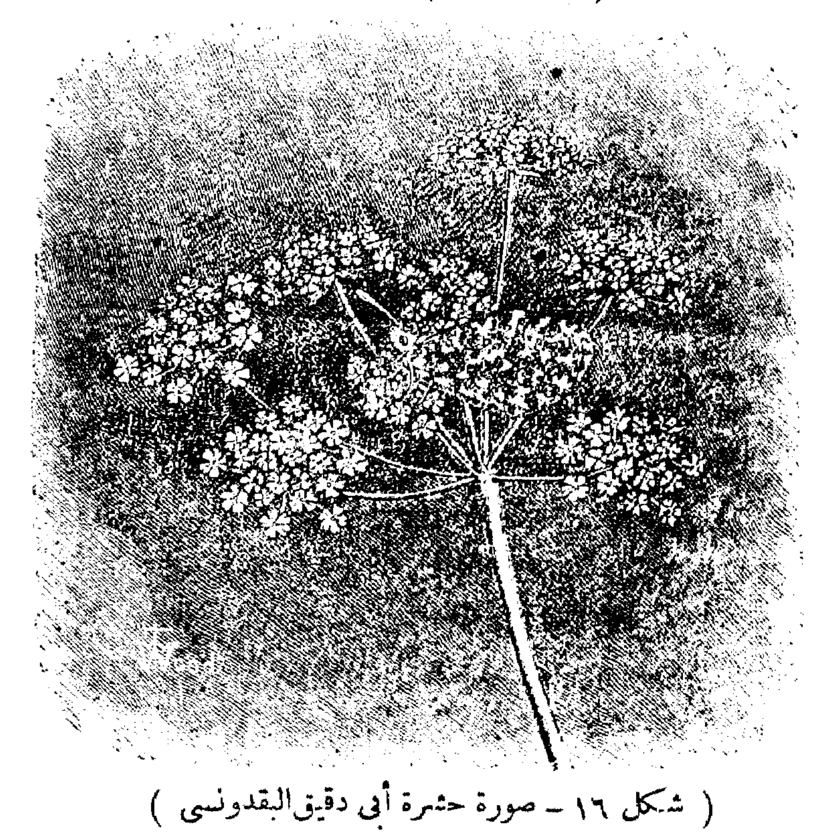
من النبات وعلى هيئة كل موجود من النباتات ذات الأوراق الخضر خضرة لطيفة وهي التي تعيش عليها تلك الحشرة . انه لا يمكن كشف تلك الحشرات وتمييزها عما حولها اذا لم تتحرك

﴿ المثال الحادي والثلاثون ﴾

الحشرات (العصوية) فيها غرابة وهي انها أشبه باسطوانة طويلة والمخالب طويلة وهي تماما كقطعة من عصا سمراء أومخضرة فاذا كان لها جناحان فانها تضمهما معا وتختفي تحت غطاء أجنحتها كأنها عصا ممدودة بينما الرأس والرجلان مصوّران إما مثل هيئة العصا أوكهيئة فرع غصن يتعلق على الشجيرات . وهذا المخلوق في الغابات لايتميز من الفروع والاغصان التي تتدلى من الأشجار فوق رؤسنا . وهذه لاتزال ساكنة لاحراك لها أثناء النهار فاذا جاء الليل أخذت تأكل وهي تعلق أنفسها بأطراف أرجلها بغصنين أو بثلاث وبقية الشجرة ملائمة لأبدانها وعلى ذلك تظهر بمظهرغيرمتناسب كأنها أغصان مكسرة اتفاقا . و بعض هذهالحشرات تحميها مادّة خضراء عجيبة منتشرة على جميع جسمها واذن تظهر كأنما هي قطعة من غصن مغطاة بطحلب بهي لطيفأخضر قدعممهمن جميع جوانبه . وهذا المنظرقدظهرلكاتبهذه المقالة في الكتاب الانجليزي في بلاد (بورنيو) فأيقن لما رآه أن الطحلب قدنما وترعرع على الحشرة وهي حية ولكنه لماامتحن ذلكتبين لهأن الذي ظنه طحلبا انما هومن مظاهرنفس الحشرة

﴿ المثال الثاني والثلاثون ﴾

ومن عجب حشرة (أبي دقيق) ذات المنظرالجميل الساحرالذي يجعل تلك الحشرة ظاهرة جلية . فانظر كيف كان نفسمابه ظهورها يكون به اختفاؤها وأول من كشف ذلك الاستاذ (وود) فانه قال « ان حشرة أبي دقيق الجميلة برتقالية الرأس فان هذه الحشرة وان كانت ظاهرة وهي على الأغصان تختفي اختفاء تاما وقت المساء اذاجثمت في مكانها الملائم لها وهوأطراف الأزهارفي (شجرالبقدونس) . ألاترى أن ماتحت ظاهرهذه الحشرة في غاية الجمال منقوش بخضرة مصحوبة ببياض لتماثل البياض والخضرة في أطراف زهرذلك النبات انتهى ماقصدته من ذلك الكتاب (انظرشكل ١٦)



(شكل ١٦ – صورة حشرة أبي دقيق البقدونسي)

وههنا

وههنا يتجلى ﴿ أمران * الأوّل ﴾ ان ما انتشر بين المتعلمين فى مصر وسوريا والعراق وجميع بلاد الشرق وكثير من بلاد الغرب أن العلوم الطبيعية ومذهب (داروين) و (لامارك) تنافى وجود منظم الكون انما هومن العلوم التى أذاعها القوم فى القرن الثامن عشر ومعظم القرن التاسع عشر . أما علماء أواخر القرن التاسع عشر وعلماء القرن العشرين فى أوروبا فانهم بما حققوه لم يصبحوا مؤمنين فحسب بل هم موقنون فانظر الى ما تقدّم فى (المثال الأوّل) كيف يقول المؤلف « هنالك أتانى اليقين أن هناك غاية مقصودة حقا » وأن الحشرة قد أدخلت الغفلة على هذا الكاتب فيميزها من الحصوات حولها فهى على غش الطيور الآكلات لها أقدر . وهذه مسألة واحدة من الأمثلة الاثنتين والثلاثين المتقدّمة المملوءة من الحكمة والايمان والعلم وانظر ثم انظر فى (المثال الثانى والعشرين) . انظر الى الثعلب القطبى كيف يتغير الى البياض زمن الشتاء والى الطائر الذى يكون ريشه فى الصيف موافقا لألوان الأحجار التى يقع عليها ولألوان الثلوج زمن الشتاء ثم تأمّل كيف اهتدى العلماء فى أوروبا للحقيقة إذ كذبت تلك النظرية العتيقة التى علقت بأذهان الطلاب فى جميع مدارس العالم قاطبة وهى أن الألوان انما جاءت بتأثير البيئة والوسط . فاعجب كيف يقول فى نفس هذا المثال ان (السمور) و (الغراب) و (غنم مسك) هذه الثلاثة قد كذبت النظرية المعتادة القائلة ان الحيوان يتغير للبياض فى الأقطار الشمالية إما من تأثير البرد واما من انعكاس البياض من الثلج وأثبت أن البياض يوجد اذا كان نافعا للحيوان وغيره يكون عند الحاجة أيضا ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان متأخرى الفرنجة اليوم برهنوا على هذه الآية ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ وأىّ برهان أعظم من هذا . اللهم إنك قد أريتنا وعلمتنا الحكمة وأريتنا من أبدع العلوم والحكم . هذه هى العلوم والحقائق التى هى بعض ملكوت السموات والأرض التى أراها الله لابراهيم الخليل عليه السلام وبها أيقن بربه . وهاهى ذه أمامك فى هذا المقام وهذا التفسير طافح بها وقد حجبت هذه العلوم عن كثير من المتعلمين فى بلادنا . يقرؤن العلوم واللغات ولكنهم لم يوفقوا للاطلاع على ما علمته أوروبا فى هذا القرن وأواخر القرن الذى قبله . فهم يقرؤن صدى صوت علماء القرن الثامن عشر تقريبا ولم يصلوا لنهاية العلم فى هذا القرن . فهاأناذا أريتك نهاية علم القوم حتى تعلم علما ليس بالظن أن أولئك الذين يلحدون ويكفرون متظاهرين بأنهم تابعون لعلماء أوروبا قد غرّهم فى عقلهم ما كانوا يكذبون . فهؤلاء جهلهم جهل مركب ولله فى خلقه شؤن . هذا هو الأمر الأوّل

﴿ الأمر الثانى فى هذا المقام جمال العلم ومحاسن الطبيعة وموسيقاها ﴾

اعلم أن التوغل فى معرفة هذه العوالم كأنها ــ جنة عالية * قطوفها دانية * لاتسمع فيها لاغية ــ انظر الى ماسمعته الآن . انظر الى هذا الجمال وأىّ جمال أبدع وأى حسن أبهج من هذا . يعيش الناس و يموتون وهم مغمورون فى الجمال والموسيقى ولكنهم لايعلمون انهم فى جمال وموسيقى . ومامثل الناس فى هذه الحياة وقد غفلوا عن الجمال الذى رأيته الآن إلا كمثل العمى أمام الغانيات الفاتنات أوكمثل الصم أمام المغنين والمغنيات جلت هذه الدنيا وكملت وتعالى الله فطمس الحقائق وأبعدها عمن لايستحقون وأبرزها لمن يفقهون

﴿ حكاية من رسالة القشيرى المؤلفة فى القرن الرابع الهجرى ﴾

حكى أن الجنيد رحمه الله جاءت له امرأة تشكو زوجها فقالت ياسيدى لماذا يتزوج زوجى علىّ والله لولا أن كشف الوجه حرام على الأجانب لأريتك وجهى حتى تعلم انى جميلة . فلما سمع ذلك الشيخ أغشى عليه فقيل له لماذا . فقال لأن الله يخاطبنى على لسان هذه المرأة انه لايرى وجهى إلا المستحقون وهم المطيعون وسواهم محرومون . فهكذا هنا نقول ان وجه هذه الدنيا كله جمال ولايحظى به إلا المفكرون وسواهم غافلون انظر كيف رأيت أكثر المتعلمين فى الشرق والغرب جهلوا هذا الجمال لأنهم لم يصلوا لغاية علم القوم الذين

ادّعوا أنهم قلدوهم . ويجمع هذا المقام كله قوله تعالى - وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون -

ولعلك تقول أين الموسيقى فى هـذا العالم ونحن لانعرف الموسيقى إلا المسموعات من الأوتار والمغنيين . أقول إن الموسيقى على ﴿ قسمين ﴾ قسم خاص وقسم عام . أماالقسم العام فهومايعلمه الجهلاء والعلماء على حدّ سواء من الحركات والسكنات التى تؤثر فى الهواء فتصل للآذان وهذه انما تسر القلوب لأنها على نسب هندسية كما تقدّم فى (سورة يوسف) عندالكلام على جماله وكما ذكرته فى كتابى ﴿ الموسيقى ﴾ وملخص ذلك أن الموسيقى ترجع الى النظام والنسب الهندسية والحسابية ﴿ يحكى ﴾ أن الفيلسوف (فيثاغورس) مرّ بدكان حدّاد فسمع وقع أربع مطارق فأطربته لأنها موزونة فوزنها اذا هى على نسبة ٦ الى ٨ الى ٩ الى ١٢ فأتى بأوتار أربعة متساوية فى الطول والثخن وربط بها أثقالا على النسبة المتقدّمة فنقرها فكانت كتوقيع المطارق الأربع . واعلم أن جميع علم الموسيقى يرجع الى سبب ووتد وفاصلة وهكذا علم الشعر . والسبب مثل (من) والوتد مثل (على) ومثل (بعد) والفاصلة مثل (فعلت) ومن هذه الثلاث تتركب جميع الألحان وتلك الألحان يحملها الهواء فتدخل الآذان فيفرح الانسان بها . ذلك لأنها على نسب هندسية مثل خفيف الثقيل الأوّل الذى على هذا النمط فعولن مفاعيلن . فهذا فى الموسيقى أشبه ببحرالطويل فى علم الشعروهذا الوزن نفسه هوالذى تصيح به الفاختة وهـذا صورته (ككوه كوه ككوكوكو) فهذا الوزن نفسه هو فى بحر الطويل اذا كررناه أربع مرات وهو نفسه موسيقى وهو نفسه صياح الفاختة وانما استلذها السمع لأن نسبتها مكررة هكذا (٧) متحركات الى (٥) سواكن كنسبة (١٤) متحركا الى (١٠) سواكن كنسبة (٢١) متحركا الى (١٥) ساكن كنسبة (٢٨) متحركا الى (٢٠) ساكنا وهذا هونفس بحرالطويل . ومعلوم أن هذه النسبة حاصل ضرب الطرفين فيها يساوى حاصـل ضرب الوسطين أى ان (٥) اذا ضربت فى (١٤) فانها تساوى (٧) مضروبةفى (١٠) وعلى هـذا أبدا فقس فيما لايتناهى مهما تكررتهذه النسبة المتكررة المنتظمة وهىالتى عرفتها آذاننا وآذان الطير وآذانالجهال منا والعلماء . عرفت آذاننا هذه النسبة ففرحت بهذا الجمال ولـكن بعد هذا كله نقول ان هذه الموسيقى عرفها الطير وكثير من الحيوان وجميع نوعالانسان ولـكن هناك موسيقى أرفع مقاما هى الموسيقى العلميـة أى النظام والابداع فى هذه الدنيا فهذه الموسيقى هى التى حجبها الله عن أكثر هذا النوع الانسانى بل أكثرالمتعلمين فى الأمم محرومون منها وهى الموسيقىالتى تظهرفى علم الفلك وعلم الطبيعة . انظر وتعجب الى نظام الأفلاك وحسابه كما تقدّم فى هذا التفسير وتقدّم بعضه فى (سورة يوسف) عند ذكر الجمال وأن هذه النسبة التى قرأتها فى الشعر والموسيقى تقرؤها فى حساب سير الشمس والقمر والكواكب وتعرفها فى نظام العناصرعند تركيبها وأبدع من ذلك مارأيته الآن فى هـذا المقام الذىنحن بصدده . انظرثم انظرالى الغراب كيف خالف لونه لونالثلج فىالأقطارالقطبية . لماذا . لأنفريسته جيفة لاتفرمنه . وانظركيف ترى الله عزّوجل جعل حماية الحيوان متنوّعة الأشكال بهجة المناظر . فتارة يحميه بقذارة شكله ومشاكلته لزرق الطير الذى يأكله . وتارة يحميه بمشاكلة لونه لما حوله . وتارة يحميه بالريح الكريهة التى يؤذى بها من يقصـده . وتارة يحميه بشدّة العدو . وتارة باختفائه ليلا . وتارة بسلاحه وهكذا من ضروب الابداع والاتقان . قل لى رعاك الله . ألم تـكن هـذه الأجسام كلها من عناصرمعلومة والعناصركلها هى المواد الجامدة والغازية والسائلة ثم بعـد ذلك يكون الضوء والحرارة . فماذا جرى . جرى أن هذه المواد الثلاثة تنوّعت أشكالها فكان منها صورحيوانية وأخرى نباتية والحيوانيـة تنوّعتالحماية فيها الى صور بديعة مختلفة . فانظر . أليست الموسيقى ترجع الى ماذكرت لك من السبب والوتد والفاصلة . فهذه الثلاث كان منها جميع الشعر وجميع الموسيقى فى العالم . وماالشعر والموسيقى إلا حركات وسكنات هـذه أصولها إذن لافرق بين الموسيقى العامّة فى أن لها أصولا ثلاثة والموسيقى الخاصة فىالطبيعة فان أصولهاأقسام الأجسام

المتقدمة فكما تنوّع الشعروالموسيقى الى مالايتناهى من الصورالمفرحة للعلماء فى الهواء وللجهال على حد سواء هكذا تنوّعت أقسام الأجسام الثلاثة الى مالايتناهى من الجمال فى هذا العالم كما رأيت فى أنواع حماية الحيوان وهذا لا يكون فى الهواء بل فى العوالم الطبيعية كلها . يظهر أن هذا العالم مبنى على أمرين حركة مستمرة ونظام جميل . فالحركة فى الموسيقى والشعر معروفة والحركة فى الطبيعة لايعقلها إلا المفكرون فيها

ففز بعلم تعش حيا به أبدا * الناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ ايضاح ما تقدّم . بعض أسرار القرآن تظهر فى هذا الزمان ﴾

هذه الأسرار هنا ترجع الى نظام الحيوان ونظام الحساب العام . أما نظام الحيوان الذى رأيته فهو السرّ المصون والجوهر المكنون والعرفان والنور . نعم هو المذكور فى قوله تعالى ــ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدّواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ــ فهاهوذا ذكر سبحانه اختلاف ألوان الثمرات وألوان أجزاء الجبال والدّواب والأنعام ثم ختم ذلك بأنه لايخشى الله إلا العلماء . الله أكبر . ياليت شعرى أى علماء هؤلاء . نعم هم علماء النبات والحيوان والجماد الذين يعقلون سرّ الألوان وهل سرّ الألوان غير ماجاء فى هذه المقالة ونحوها . أيها المسلمون . أليس هذا هو الذى جاء لأجله القرآن . جاء القرآن لهذا . القرآن نزل وانتشر قرونا ثم خلف بعد ذلك خلف ورثوا الكتاب وحفظوه عن ظهر قلب ثم ناموا فخلقنا الله اليوم فرأينا انه وان أنام المسلمين فى القرون المتأخرة قد أيقظ أمما أخرى فأظهرت ما أكنّ القرآن من أن لكل حيوان لونا يخصه لنفعه أولبقائه إذن عرفنا الآن أن الألوان المذكورة فى الآية ليست مظاهر جمالها بل منافعها الحقيقية المتقدّمة إذن هى تفسير للقرآن إذ أن الله الذى أنزل القرآن وقال ــ ثم إن علينا بيانه ــ وقال ــ سيريكم آياته فتعرفونها ــ هو نفسه الذى أمر علماء أوروبا فاستخرجوا منافع الألوان وهو الذى ألهم مؤلف هذا التفسير وأمثاله أن يصيحوا فى المسلمين قائلين لهم تعلموا هذه العلوم فان ألوان الحيوان مثلا النافعة له هى المقصودة فى الآية والعلماء بها هم الذين يخشون الله وهم الذين قال الله لأمثالهم ــ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ فى ذلك لآيات للعالمين ــ جمع عالم . الآيتان على نظام واحد . ذكر الله فيهما أن هذه الألوان لايعقلها إلا العلماء أى العلماء بها و بنظام هذه المخلوقات . إن هذا التفسير قد جاء قبيل ظهور حكماء فى أمم الاسلام لم يحلم بهم الدهر . انظر الى الآيتين السابقتين هل يعقل أن أحدا يقال له (عالم بنظام و بألوان المخلوقات) إلامن يبرعون فى هذه العلوم ومتى برعوا يعقلون بعض جمال ربهم ويكون العالم أمامهم جنة عرضها السموات والأرض أوموسيقى تصدح لأولئك العلماء العاملين . انتهى الكلام على نظام الحيوان

أما نظام الحساب العام فان الله لم يقف نظامه عند حدّ الحيوان نفسه ومراعاة حياته وحفظه بل تعدّى ذلك الى أصواته فحسبها ونظمها ولم يذر طيرا على شجر ولا انسانا فى بدو أوحضر إلا نظم أغانيه وموسيقاه . وهذا كله تفسير لقوله تعالى هنا ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ وعدم الغفلة يلزمها أن لايضع سبحانه لونا إلا لفائدة والا لكان ذلك اللون عبثا ــ ولكنّ أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ــ الى قوله ــ أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق ــ ومن الحق المذكور أن يكون لكل عرض ولون فائدة والا فكيف يسبح الناس ربهم ويقولون ﴿ سبحان الله ﴾ والتسبيح تنزيه عن كل مالافائدة فيه . إن الناس لايصلون الى المقام الأعلى إلا بعد فهم هذا الوجود حتى يعقلوا عمل ربهم . وكما أن عدم الغفلة عن الخلق يلزمه أن لا يكون لون بلا فائدة هكذا يلزمه أن تكون الاصوات أيضا منظمة كما قال تعالى ــ وكل شئ عنده بمقدار ــ وقال ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزّله إلا بقدر معلوم ــ فخذ إيضاحا لما تقدّم تقول الفاتحة

كـكوه كوه كـكوكوكو كـكوه كوه كـكوكوكو كـكوه كوه كـكوكوكو كـكوه كوه كـكوكوكو

والشاعر العربى يقول من بحر الطويل

عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

والموسيقى خفيف الثقيل الأوّل

تنن تن تنن تن تن تنن تن تنن تن تن تنن تن تنن تن تن الخ

وزن الشعر

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

الحساب ٧ : ٥ : : ١٤ : ١٠ : : ٢١ : ١٥ : ٢٨ : ٢٠

ومثل بحر الطويل فى هذا الحساب بحر البسيط و بحر المديد اذا لم يدخلها علل أوزحافات كما هومبين فى محله هـذا معنى قوله تعالى ـ إن الله سريع الحساب ـ وقوله ـ وهو أسرع الحاسبين ـ لأنه أسرع فى حساب نغمات الموسيقار وأصوات الفاختة والشاعر العربى وجعلها كلها بحساب واحد بحيث يكون حاصل ضرب الطرفين فى كل واحد يساوى حاصل ضرب الوسطين . هذا هوأعظم سرّ من أسرار الاسلام ظهر الآن وسيظهر أسرار وأسرار بعد انتشار هذا التفسير انتهى

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى ـ سبع طرائق ـ ﴾

لقد تقدّم الـكلام عليها فى (سورة البقرة) فليرجع اليه من أراد

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى ـ وإنّ لـكم فى الأنعام لعبرة ـ ﴾

لقد علمت أيها الذكى أن (المواليـد الثلاثة) وهى النبات والحيوان والانسان وكـذا المعدن قد جاءت فى القرآن مرارا وماذكرت مرة إلا تامّة وفى هذه السورة تامّة أيضا فانه ذكر الانسان الذى هو آخر السلسلة ثم ابتدأ بالعلويات فالعناصر كالماء وذكر الأرض وفيها المعادن ثم النبات ثم الحيوان . وهذه السلسلة منتظمة كما ذكرته سابقا فى هذا التفسير . وأذكرلك الآن أن هذه السلسلة نقلها الفرنجة عن آبائنا . أما قدماؤنا فـكانوا يقولون هكذا « ان المعادن تليها النباتات فالحيوانات وأعلاها ماهو كالقردة وكالفيل ونحوه من كل ماله صفة تشبه صفة الانسان وأعلى من هؤلاء الانسان الذى فى أطراف المسكونة » فلما نقل المذهب الى أوروبا وشرحه (داروين) قال بما قاله آباؤنا تماما ولـكنه قال ﴿ يحتمل أن يكون الأعلى مشتقا من الأدنى ﴾ أى متولدا منـه ففتح بابا للقوم بأن الانسان كان قردا فترقى فتعصب للمذهب من بعـده العالم (برن) وأمثاله وهناك عشرات بل مئات يقولون « إن هذه العوالم ليس لها موجد وانما وجدت بالمصادفة و بسبب أر بعة أمور كما سيأتى وهى تطوّر الحياة والوراثة وتنازع البقاء وكون الأقوى يميت الأضعف » فجاء علماء العصر الحاضر فى القرن العشرين وقاموا قومة واحدة على هـذا المذهب فنقضوه . ويجدر بى ان أنقل لك كلامهم حتى تعرف أن قوله تعالى ـ فأسكناه فى الأرض وانا على ذهاب به لقادرون ـ وقوله ـ ثم جعلناه ـ الخ وهكذا أصبح مبرهنا عليه فى العلم الحديث . وانى أعلم أن هذه الآراء لن تنتشر سريعا فى المدارس والـكتب ولـكن المذهب الدروينى قبل تعديله سيبقى على حاله يدرس لصغار التلاميذ أمدا طويلا . فهاأناذا أسمعك العلم الحديث الذى قلبه وما قلبه وأبطله إلا علماء الألمان والنمسا والانجليز فلأسمعك كلامهم لتـكون على علم حتى اذا قيـل لك (مذهب داروين) كان عندك منه خبر وأسمعتهم نقضه من فطاحل خلقهم الله بعده فى أوروبا فرجع الأمر للقرآن وثبت بالبرهان العقلى الحديث قوله تعالى ـ ولقد خلقنا ـ الخ

(فصل

﴿ فصل فى أصول مذهب داروين و بيان أقوال العلماء فى نقضه من أهل أوروبا وأن أصوله أربعة ﴾

اعلم أن هـذا المذهب لما انتشر فى بلادنا المصرية فشا الالحاد وعمت الرشوى وذاع الزيغ وتفاخر كثير من العظماء وأرباب السطوة والنفوذ بخلع العـذار وانتهاك الحرمات وتبارى كثيرمنهم فى شرب الخمر والقمار ونبذوا الدين ظهريا وذلك عقب ظهور مؤلف الدكتور (شبل شميل) الذى هوترجمة كتاب بخنر الألمانى وكان المترجم والمترجم عنـه يميلان الى الالحاد وانـكار الخالق فـكان ذلك داعيا لفشو ذلك وتقليدهما تقليدا بلاجدال . كل ذلك فى أوائل هـذا القرن العشرين . و بينما نحن كـذلك فى مصر وفى بعض بلاد الشرق كان علماء أوروبا قد نقضوا هذا المذهب فخر على المؤمنين به السقف من فوقهم وانهارت دعائمه وأصبح هشيما تذروه الرياح كأن لم يغن بالأمس . ولأذكر لك أصوله ثم بيان أقوال العلماء فى نقضه

﴿ فصل فى أصول هذا المذهب ﴾

بنى (داروين) هذا المذهب على ﴿ أربعة أصول * الأصل الأوّل ﴾ ان الحياة ذات أطوار وتغـيرات بها ترتقى من حال الى حال ﴿ الثانى ﴾ ان هذه التطوّرات تنتقل بالوراثة الى النسل ﴿ الثالث ﴾ ان الأحياء جميعها بينها تنازع فى البقاء ﴿ الرابع ﴾ إن ما كان أتمّ وجودا وأقوى وأكمل فهوالأصلح للبقاء وأما الأضعف فانه محكوم عليه بالفناء . فالحيوانات والنباتات كلها سلسلة واحدة أعلاها مشتق من أدناها بالارتقاء . ومن ذلك أن الانسان مشتق من القرد وهوأعلى الحيوانات بمقتضى هـذه القواعد . ولما كان الأكمل هو الباقى ظهر الشره والطمع فى عالم السياسـة وأنشئت فى أوروبا المهلـكات الحربية بناء على هـذه النظرية وسيادة القوّة الأسـدية ونقضت العهود وخربت الذمم بين الأفراد فى بلادنا . وماعجبت لشئ عجبى منا معاشر الشرقيين كيف نقدّس مذهبا نقضـه أهل أوروبا . وسيعتريك العجب حين أتلوعليك من آراء حكمائهـم وبراهين علمائهم مايذيب هـذا المذهب و يجعله هباء منثورا . إنى آسف أشدّ الأسف . إن الغفلة مستحكمة فى أنحاء الشرق عند المتعلمين منهم . آمنوا بالمذهب الدروينى كما شربوا الخمر اتباعا لأهل أوروبا ولم يعلموا بأنباء العلماء هناك إذ أبطلوا ذلك المذهب بطلانا تاما كما بينوا أن الخمرسم ناقع حتى حرّمتـه دولة أمريكا وأنـكرته بلاد السويد والنرويج . فالخمرلايزالون يشربونه والالحاد فى الدين باق كأن المذهب لم ينقضه أولوالألباب

﴿ فصل فى نبذ مما قاله العلماء فى نقض هذا المذهب ﴾

(١) قال (جوستاف لوبون) « إنّ المادّة ليست أبدية بل هى خاضعة للناموس الحتم الذى يقضى على جميع الـكائنات بالفناء وهى مركبة من مجموعات شمسية مؤلفة من عناصر يدور بعضـها حول بعض بسرعة عظيمة جدا وهى لاترى ثابتة فى حسنا إلا بسبب تلك السرعة المفرطة » انتهى

وأنت تعلم أن مذهب (داروين) مبنى على المادّة وهى أسه

(٢) قال الاستاذ (هنرى بوانـكاريه) العضو بالمجمع العلمى الفرنسى ﴿ اذا نظرنا فى ناموس خاص أيا كان فانا نستطيع أن نؤكد أنه لا يمكن أن يكون إلا تقريبيا لأنه مستنتج من تحقيقات تقريبية . وهـذه التحقيقات لم تـكن ولا يمكن أن تـكون إلا تقريبية ﴾ . وقال الدكتور (ج . جيليه) ﴿ إن النواميس يمكن أن تتغـير بعارض من العوارض وأن يبطل عملها أيضا ﴾ . أقول ولاجرم أن هـذا من أكبر أساس مذهب (داروين) المبنى على النواميس الطبيعية

(٣) قال الاستاذ (جوستاف جوليـه) ﴿ إن العوامل التى ذكرها (داروين) تعجز عن تعليل ذلك الثبات التام للصفات الأصلية للأنواع التى تتـكوّن حديثا وتعجز أيضا عن تعليل نشوء الإلهامات الجديدة فيها ﴾ وقد أثبت أن أنواعا جديدة لاتزال تخلق جديدا كما ستراه

ثم قال الاستاذ (جوليه) ﴿ إنّ مذهب لامارك ومذهب (داروين) يستويان فى القصورفانهما لايفسران

التحوّل عن الحياة المائية الى الحياة الأرضية ولا التحوّل عن الحياة الارضية الى الحياة الهوائية فكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور أن يناسب البيئة التى ليست له ولا يمكن أن تكون له إلا بعد أن يتحوّل من صورة حيوان زاحف الى عصفور وكيف يستطيع أن تكون له حياة هوائية قبل أن تكون له أجنحة نافعة وأن مسألة الحشرة أشدّ استحالة . وهل هناك أىّ علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة و بين الحشرة الكاملة التى تنقلب اليها . إنها حشرة تعوّدت الحياة الدودية تحت الأرض أوفى المياه فكيف تصل شيأ فشيأ الى إيجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة لها ﴾ انتهى باختصار

(٤) قال العلامة (دوفرى) ﴿ إن التحوّلات الفجائية هى القاعدة فى عالمى الحيوان والنبات وقد أعلن هذه الحقيقة (جوفر) و (اسان هيلير) و (كوب) وثبت أن الظهور الفجائى للأنواع الكبيرة الرئيسية كالزواحف والطيور وذوات الثدى كان فى الأراضى الجيولوجية ومتى ظهرت حصلت على صفاتها كاملة

(٥) قال الدكتور (جوستاف چوليـه) ﴿ إنّ الحشرة ظهرت من أقدم عهود الحياة الأرضية وثبتت أنواعها فى جيع الأحوال فهى تناقض ماذهبوا اليه من التحوّلات المستمرة البطيئة وتناقض التطوّر بفعل الفواعل الخارجية فانها تنقلب داخل الشرنقة من حال الدودية الى حشرة طائرة ولا تأثير لشئ عليها من الخارج كما ان الهوة عميقة بين الحال الأولى وهى الدودية والحال الثانية وهى حال الحشرة وهى هوة تضيع فيها كرامة جيع النظريات الدروينية واللاماركية فالحشرة أدّت شهادة حسية ببطلان مذهب (داروين) كما أثبت عجزه عن تفسير غرائزها الأولية العجيبة المحيرة للعقل ﴾

(٦) رأى (فون باير) فى مذهب (داروين) وهو العلامة الألمانى الكبير مؤسس علم الامبر يولوجيا (علم الأجنـة) ومن أقطاب الفزيولوجيين والحفريين قال ﴿ إن للرأى القائل بأن النوع الانسانى متولد من القردة السنيانية هو بلاشك أدخل رأى فى الجنون قاله رجل على تاريخ الانسان ﴾

(٧) قال العلامة (فيركو) الالمانى من علماء (الانترو بولوجيا) أى (التاريخ الطبيعى للانسان) وكذلك العلامة (الانتر پولوجى) الفرنسى (دوكاترفرفاج) يقولان ان القرابة فى التاريخ الطبيعى للانسان من القرد منعدمة . ان الانسان فى العهد الحفرى الرابع وجد مشابها لنا كل المشابهة مع انه كان يجب أن يكون أقرب الى أسلافه القردة بل ان نقص الخلقة فى رجال العصر الحاضر أوفر منها فى تلك العصور . ثم قالا إننا لانستطيع أن نعتبر ولادة الانسان من القرد أومن حيوان آخر من الامور العلمية

(٨) رأى العـلامة (ايلى دوسيون) ذكر فى كتابه ﴿ الله والعلم ﴾ فى الطبعة الصادرة سـنة ١٩١٢ م مايأتى ﴿ ان الغرضين اللذين يقوم عليهما مذهب (داروين) هما الانتخاب الطبيعى وانتقال الصفات المكتسبة وقد أثبت (هربرت سبنسر) هدم الغرض الأوّل من أساسه . ونقض (ويسمان) امكان انتقال الصفات بطريق الوراثة . وبرهن على أن هـذه المشاهدات المزعومة لاتقوم إلا على حكايات مخترعة ولا تعلو قيمتها العلمية عن قيمة حكايات المرضعات ﴾

(٩) قال الاستاذ (جورج بوهن) مدير معمل (البيولوجيا) و (البسيكولوجيا) مايأتى ﴿ إن نتائج كثير من المباحث البيولوجية والبسيكولوجية الحيوانية قد ظهر بطلانها بسبب القيمة العظيمة التى كان أصحاب هذه المباحث يعطونها لنظرية الانتخاب الطبيعى ﴾

(١٠) كتب العـلامة (ادمون بريبه) فى مجلة ﴿ العالم الحى ﴾ سنة ١٩١٢ م قال ﴿ إن ثقة الاستاذ (جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضـعيفة جدا فان هذه البيئات على مايقول لاتصلح لايجاد أى تغيير وراثى ثابت فالبط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظن أن هذه الأغشية قد أوجـدها نوع معيشتها ولكن الأمر على العكس من ذلك فى مذهب المسيو (جينو) فانه يقول بأنها

وجدت

وجدت لها مقدما بدون تأثيرمن الخارج وأخذ (البط) يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم. فهذه الحيوانات قد أعدّت من قبل للعوم أى انها خلقت لتعوم قبل أن تستفيد تركيب أرجلها فى العوم

(١١) قال العلامة (بلوجر) الألمانى ﴿ لم أجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال الصفات بالوراثة ﴾

(١٢) قال الفزيولوجى الكبير (دو بوار يمند) ﴿ اذا أردنا أن نكون مخلصين وجب علينا أن نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها وأنها هى نفسها من المفترضات الغامضة ﴾

(١٣) رأى (دائرة المعارف الكبرى الفرنسية) فى مذهب (داروين) ﴿ إن النظرية الدروينية لسوء الحظ مختلة من أساسها لأنها تفرض أن جميع الصفات النافعة حدثت بالمصادفة و بالتالى جميع الحيوانات حدثت على ماهى عليه اتفاقا (مصادفة) وهوفرض يلاشى المسألة نفسها ﴾

(١٤) قال الدكتور (ادورد هارتمان) ﴿ إن وجود هـذا الرأى عند الدرو ينيين (رأى عدم وجود القصد) هو من المسلمات التى لايقوم عليها دليل ومن الأوهام التى لا أساس لها . وعلل ذلك بأن الطبيعة ذات نظام ميكانيكى ولا يمكن النظام بلاقصد كما لا يمكن القصد بلانظام . وكل مالانظام له فهومهمل فى فوضى كالثيران الهائمة والطبيعة التى يعللون بها ليست كذلك ﴾

(١٥) قال العلامة (لويز بوردو) مانصه ﴿ يجب أن يعترف بأن هنالك قصدا مقصودا وروحا مدبرة لأنه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها فالقصد يظهر فى تلازم الحوادث و يثبت به ﴾

(١٦) رأى الاستاذ (فون باير) الألمانى فى القصد قال ﴿ اذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهورى بأنه لاقصد فى الطبيعة وأن الكون لايعوزه إلا ضرورات عمياء فأنا أعتقد أن من واجباتى أن أعلن عقيدتى فى ذلك وهى انى على العكس أرى جميع هذه الضرورات تؤدّى الى أغراض سامية ﴾

(١٧) قال (كاميل فلامريون) ﴿ إن درس الوجود يجعلنا ندرك أن له نظاما مقررا وغاية دفع بها اليها وأن المقصود بهما ساكن هذا الكوكب وحده وانهما يتعاليان عن أن نلم بهما فى حقارتنا . إن التبصر الذى يظهر فى النباتات والحشرات والطيور الخ وهى غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذرّياتها وامتحان المشاهدات فى التاريخ الطبيعى يستنتج منها أن فى الطبيعة عقلا مدبرا ﴾

(١٨) قال العلامة (لوجيل الفرنسى) مانصه ﴿ انه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى صادرة من قوّة أوّلية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل ﴾

(١٩) فى دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية ما نصه ﴿ أن لكل من الكائنات المتنوّعة للطبيعة الحية غاية وضع لأجلها ومركزا يدور عليها ﴾

(٢٠) قال الاستاذ (ميلن ادوارد) فى جامعة السربون بفرنسا ﴿ إن الحيوان المسمى (اكسيلوكوب) من المحيرات للفكر . ان هذا الحيوان يرى طائرا فى الربيع منفردا و يعيش و يموت بعد أن يبيض مباشرة فلم ير صغارها أمّهاتها ولاتعيش حتى ترى أولادها اللاتى يخرجن دودا يعيش سنة فى مسكن مقفل وهدوء تام فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طو يلا فاذا أتمته على ماينبغى أخذت فى جلب ذخيرة تكفى صغارها سنة وهى طلع الأزهار و بعض الأوراق السكرية فتحشوها فى قاع السرداب ثم تضع بيضة وتأتى بنشارة الخشب تكوّن منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ثم تأتى بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ثم تضع بيضة أخرى وهكذا فتبنى بيتها مكوّنا من جملة طبقات ثم تترك الجميع وتموت ثم قال يدهش الانسان حين يرى جمال هذه المشاهدات المتكررة رجال يدعون لك أن هذه العجائب نتائج للمصادفة وأن إلهامات النحل مثل أسمى مدركات الانسان نتيجة عمل الطبيعة من تجمد الماء واحتراق الفحم

وسقوط الأجسام . إن هذه الفروض الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية التي يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضا تاما فان الطبيعي لا يستطيع أن يعتقدها أبدا . واذا أطلّ الانسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها الى أصول أعمالها اليومية ﴾ انتهى كلام العلامة (ادوارد) ملخصا

وهذا عجب عجاب . كيف كان مذهب (داروين) في الغرب قد أصبح كثيبا مهيلا وهباء منثورا وقولا هراء ولغوالحديث وكلام المرضعات وخرافات العجائز وأساطيرالأوّلين كما عبر عنه علماؤهم بذلك وهو في بلادنا المصرية وفي البلاد الشرقية معتمد عليه موثوق به فهوالحجة القائمة عندهم على دحض جميع الالهيات والنبوّات . ترى الرجل يتيه عجبا انه أعلم العلماء وأعظم المفكرين فاذا تحققته علمت انه يدعي العلم بمذهب (داروين) على أن أكثر هؤلاء لا يعلمونه مع بطلانه . إن العلم الناقص ضلال مبين فإما علم تام والا فلا ـ وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظنّ وان هم إلا يخرصون ـ

فلما سمع ذلك صاحبي . قال لقد كثرت الدعاوى في المجالس فلا أسمع إلا انهم يقولون (فلان فيلسوف يتعالى عن الديانات و يتعاظم على أداء الصلوات اكتفاء بما علم من الطبيعيات ومادرس من الرياضيات) أما الآن فاني اذا قابلت أحدهم أقول له * أطرق كرا إن النعام في القرى * ثم أقول

فغضّ الطرف إنك من نمير * فلا كعبا بلغت ولا كلابا

ولقد تمادى الناس في تسمية كل متنطع في كلامه متفيهق في حديثه انه فيلسوف فعرفت الآن أن هذا كله حديث خرافة ولقد تمادوا في طغيانهم يعمهون حتى سموا ضلالة وجهالة كل مكذّب للديانات مكذّب بالوحي فيلسوفا حتى إن أحدهم سأل في ﴿ مجلة المقتطف ﴾ هذا السؤال (هل المعطل يسمى عبقريا) فأجابه . كلا بل المدار على النبوغ العلمي فكأن هذا الجاهل ظنّ أن انكار الأنبياء كاف في النبوغ أو الفلسفة وهذا غاية الحق والجهالة وما أسهل الكفر و بالتالي ما أسهل الفلسفة فليجلس المرء على كرسيه وليقذف كلمات الاستهزاء والازدراء من لسانه وليصبّ جام غضبه على علماء الدين والأنبياء والمرسلين وليكررها صباحا ومساء ثم ليبشر بأن اسمه يكتب في ديوان الحكماء المفكرين والأساتذة المحنكين والعقلاء المجرّبين والنظار العبقريين ولا مدرسة ولا تعلم بل يأتيه العلم هنيئا مريئا فيكون بطلا و بالسماجة شجاعا و بالغباوة نابغة فأف وتف لقوم لا يفقهون صمٌّ بكمٌ عمي فهم لا يرجعون

﴿ فصل في ذم المتفلسفين والمتبذلين والمغفلين ﴾

ولما جاء صاحبي في اليوم التالي قال هل كان المتقدمون في الأعصر الغابرة مبتلين بأمثال هؤلاء المتفلسفة فقلت نعم قال العلامة محمد بن عمر الرازي في شرحه على الاشارات للرئيس ابن سينا صفحة (٤٧٣) مانصه

﴿ العوام حمقى لجزمهم بالثبوت لا لدلالة وهؤلاء المتفلسفة حمقى أيضا لجزمهم بالشئ لا لدلالة بل الحمق الأوّل أقرب الى السلامة من الحمق الثاني لأن الأوّل يوجب الانقياد للأنبياء والشرائع وذلك سبب للنظام في الدنيا والسعادة بوجه مّا في الآخرة ﴾ الى أن قال ﴿ وأما الحمق الثاني فهو سبب الفساد والخلاعة والشرّ في الدنيا والشقاوة في الآخرة . فالأحمق الأوّل جاهل سليم والأحمق الثاني شيطان رجيم . ثم قال والغرض من هذا الفصل منع إلقاء هذا الكتاب ومايجرى مجراه من العلوم النفيسة في أيدى أقوام مخصوصين . فالأول الجاهل المتبذل المستخف بالعلم كما قيل * ومن منح الجهال علما أضاعه * والثاني البليد الذي لا يفهم فانه لا يقف على الحقيقة فربما صارسببا لخروجه عن رتبة الشرائع وصارأشقى الأشقياء والثالث المقلدة فانهم لا ينتفعون بشئ من العلوم وان كانوا في غاية الذكاء لأن حبهم المفرط لما عليهم من المذاهب يعميهم و يصمهم عن الوقوف على الحق وأخسّ الناس وأردؤهم هؤلاء المتفلسفة فانهم ينظرون الى أصحاب الشرائع والأديان

بعين

بعين الاستخفاف مع كونهم أخس الناس درجة وأرذلهم مرتبة واستحقاقهم اللعن فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ﴾ انتهى

هذا شرح الامام الرازى لفقرتين من كلام الامام الرئيس (ابن سينا) وهما آخر الكتاب موصيا قارئ كتابه أن يصون العلم عن هؤلاء وهذا تفصيل ما أجمله الرئيس وهو منطبق على متفلسفة هذا الزمان انتهى تفسير المقصد الأوّل من (سورة المؤمنون)

(المَقْصِدُ الثَّانِي)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَاهٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ لَأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ * ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مَاهٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللّٰهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ * ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى

وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال) لهم (ياقوم اعبدوا الله) وحدوا الله (مالكم من إله غيره) مالكم معبود سواه (أفلاتتقون) أى أفلاتخافون عقابه اذا عبدتم غيره (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) يطلب الفضل عليكم ويسودكم (ولوشاء الله) أن يرسل رسولا (لأنزل ملائكة) بابلاغ الوحى (ماسمعنا بهذا) الذى يدعونا اليه نوح (فى آبائنا الأوّلين * إن هو) ماهو يعنون نوحا (إلا رجل به جنة) جنون (فتربصوا به) انتظروا (حتى حين) الى حين يموت (قال) نوح (ربّ انصرنى) أعنى بالعذاب واهلاكهم (بما كذبون) بالرسالة (فأوحينا اليه) أرسلنا اليه جبريل (أن اصنع الفلك) أى أن خذ فى صنع السفينة (بأعيننا) بمنظرمنا (ووحينا) أمرنا وتعليمنا إياك صنعتها (فاذا جاء أمرنا) بالركوب أونزول العذاب (وفارالتنور) أى طلع الفجر أونبع الماء من التنور وهو وجه الأرض أوأشرف موضع فيها (فاسلك فيها) فأدخل فيها من كل أمتى الذكر والأنثى واحدين مزدوجين أومن كل بالتنوين أى من كل نوع زوجين واثنين للتأكيد لأن زوجين مفرده زوج والزوج هوالفرد الذى له مقابل مقارن له . ويقال للزوج الذى هوذكر فرد وللزوج الذى هوأنثى فرده وهذا قوله (من كل زوجين اثنين) وقوله (وأهلك) أى وأهل بيتك أو ومن آمن معك (إلامن سبق عليه القول منهم) أى القول من الله باهلاكه للكفرة . ويقال سبق عليه فى الشر وسبق له فى الخير (ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لهم بالانجاء (إنهم مغرقون) لامحالة لظلمهم بالاشراك والمعاصى (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين * وقل ربّ أنزلنى) فى السفينة أوفى الأرض (منزلا مباركا) بالنجاة من الغرق وكثرة النسل (وأنت خير المنزلين) فان الله يحفظ ويكلأ من ينزل عليه النعم ولكن غيره ينزل النعم وليس قديرا على حفظ من أنزلها عليه (إن فى ذلك) الذى ذكر من أمر نوح والسفينة واهلاك أعداء الله ونجاة أوليائه (لآيات) دلالات على قدرتنا (وان كنا لمبتلين) أى وانه أى الحال والشان كنا الخ واللام هى الفارقة أى واننا كنا ممتحنين عبادنا بهذه الآيات (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) هم عاد وثمود (فأرسلنا فيهم رسولا منهم) يعنى هودا وصالحا (أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره) أى قلنا لهم على لسان الرسول ـ اعبدوا الله ـ الخ (أفلاتتقون) عذاب الله (وقال الملأ) الاشراف (من قومه الذين كفروا وكذّبوا بلقاء الآخرة) بلقاء ما فيها من الثواب والعقاب (وأترفناهم) نعمناهم (فى الحياة الدنيا) بكثرة الأموال والأولاد (ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) أى من مشربكم (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) فيما يأمركم به (إنكم إذن لخاسرون) حيث أذللتم أنفسكم وجواب القسم هو المذكور دل على جواب الشرط المحذوف (أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما) مجرّدة من اللحم والأعصاب (أنكم مخرجون) من الأجداث أومن العدم الى الوجود وأنكم تكرير للأول تأكيدا (هيهات هيهات) بعد التصديق وقوله (لما توعدون) اللام للبيان كما تقول هيت لك فهيت أى تهيأت فيقال لماذا فيجاب

لك

لك وهنا يقال بعد بعد فيقال لماذا هـذا فيقال لما توعدون و يقال هيهات أى بعد وهومبتدأ خبره ـ لما توعدون ـ (إن هى إلا حياتنا الدنيا) أى ما الحياة إلا حياتنا الدنيا فان بمعنى ما (نموت ونحيا) يموت بعضنا ويولد بعضنا (ومانحن بمبعوثين) بعد الموت (إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا) فيما يدعيه من ارساله وفيما يعدنا (ومانحن له بمؤمنين) بمصدّقين (قال رب انصرنى) عليهم وانتقم لى منهم (بما كذبون) بسبب تكذيبهم إياى (قال عما قليل) عن زمان قليل وماصلة لتأكيد معنى القلة (ليصبحنّ نادمين) على التكذيب اذا عاينوا العذاب (فأخذتهم الصيحة بالحق) صيحة جبريل صاح عليهم صيحة هائلة تصدعت منها قلوبهم فيكون القوم قوم صالح . ويقال المراد بالصيحة الهلاك فيكون ماقلناه هو مايشمل قوم هود وقوم صالح (فجعلناهم غثاء) هومايحمله السيل من حشيش وعيدان وشجر والمعنى صيرناهم هلكى (فبعدا) مصدر بعد أى هلك منصوب بفعل محذوف واللام لبيان من دعى عليه (للقوم الظالمين * ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين) قوم لوط وشعيب وغيرهم (ماتسبق من أمة أجلها ومايستأخرون) الأجل (ثم أرسلنا رسلنا تترى) متواترين واحدا بعد آخرمن الوتر وهوالفرد والتاء بدل من الواو وهو إما مصدر وقع حالا أى متواترين أوالألف للتأنيث لأن الرسل جماعة (كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا) فى الاهلاك (وجعلناهم أحاديث) لم يبق منهم إلا حكايات يسمر بها وهم اسم جمع للحديث أوجمع لأحدوثة (فبعدا لقوم لايؤمنون * ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين) وحجة واضحة ملزمة للخصم والآيات هى الحجج العقلية والسلطان المبين هى العصا واليد ونحوها والعصا انقلبت حية وبها انفلق البحر وتفجرت العيون وابتلعت سحر الساحرين حين صارت حيـة وصارت أيضا شمعة وشجرة مثمرة ورشاء ودلوا وقد تقدّم سرّ ذلك فلاتكن واقفا عندهذا الحدّ (الى فرعون وملائه فاستكبروا) عن الايمان والمتابعة (وكانوا قوما عالين) متكبرين (فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا) ثنى البشر لأنه يكون واحدا وجمعا (وقومهما) أى بنواسرائيل (لنا عابدون) خاضعون مطيعون وكل من دان لملك فهوعابد له (فكذبوهما فكانوا من المهلكين) بالغرق (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (لعلهم) لعل بنى اسرائيل (يهتدون) الى المعارف والأحكام (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) أى دلالة على قدرتنا لأنها ولدته من غير مسيس فالآية جاءت بهما معا (وآويناهما الى ربوة) الربوة المكان المرتفع ولايعلم أى هوأفلسطين أم مصرأم أرض بيت المقدس (ذات قرار) مستقر من أرض منبسطة أوذات ثمار وزروع لأن أهلها يستقرون فيها (ومعين) ماء معين ظاهرجار . يقال معن الماء اذا جرى فماؤهما جامع لأسباب التنزّه والنعيم و يقال معين أى معيون اسم مفعول من عانه اذا أدركه بعينه لأنه لما ظهرعلى وجه الأرض أدركته العيون فهو إماصفة مشبهة على الأوّل واما اسم مفعول على الثانى هذا هوآخر المقصد الثانى . ولنلحق به من المقصد الثالث بعض آيات لاظهار نتيجة ماتقدّم قال تعالى (ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم) هذا خطاب عام لجميع الرسل ومنهم سيدنا محمد ﷺ خاطب كل نبى وحده بهذا الخطاب وجاء لخاتمهم الذى أرسل لجميع أهل الأرض وقد دخل فى دينه فعلا من جميع الأديان من البوذيين والمسيحيين واليهود والمجوس . فاذن هو يخاطب سيدنا محمدا ﷺ ونحن معه والخطاب الآن لنا نحن أى أهل مصروسوريا وبلاد الفرس والترك ومسلمى الصين والهند وجزائرالهندالشرقية بل أقول أيها المسلمون اسمعوا قد خاطبكم الله بماخاطب به الأنبياء يقول لكم أيها المسلمون فى جميع الأقطار ـ كلوا من الطيبات ـ أى الحلال الصافى القوام . فالحلال مالايعصى الله فيه والصافى مالاينسى الله فيه والقوام مايمسك النفس ويحفظ العقل ـ واعملوا صالحا ـ فانه النافع عند ربكم ـ إنى بما تعملون عليم ـ فأجازيكم (وإن هذه أمتكم أمة واحـدة) ملتكم ملة واحدة أى متحدة فى العقائد وأصول الشرائع وأمة منصوب على الحال (وأنا ربكم فاتقون) فى شق العصا ومخالفة الكلمة (فتقطعوا أمرهم بينهم) أى قطعوا أمردينهم (زبرا)

قطعا جمع زبور أى تفرقوا وتحزبوا فرقا فالزبور بمعنى الفرقة * وقرئ – زبرا – بضم ففتح جمع زبرة أى قطعوا أمرهم بينهم حال كونه قطعا (كل حزب بما لديهم فرحون) معجبون معتقدون انهم على الحق (فذرهم فى غمرتهم) فى جهالتهم شبهها بالماء الذى يغمر القامة لأنهم مغمورون فيها (حتى حين) أى الى أن يموتوا ولنقف هنا

ولعلك تقول كيف نقول ان الله خاطبنا نحن الآن مع انه خاطب الأنبياء . أقول لك الأنبياء الآن عند ربهم بل سيدنا محمد ﷺ بل أصحابه وتابعوه والقرآن يقرأ لنا ومادام المسلم يقرأ قولا ولايجد انه موجه له لاينفعه وان أردت إلا نص النبوّة فهاك الحديث * روى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال ﴿ إن الله تعالى طيب لايقبل إلا طيبا وان الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال – ياأيها الرسل كلوا من الطيبات – وقال – يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم – ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمدّ يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ﴾ أخرجه مسلم . ولقد تقدّم الكلام على هذه الآية قريبا فى (سورة الأنبياء) وأن الله أعرض عنهم كانه يخاطب غيرهم لما تفرّقوا . خاطب الله أمّتنا بنص الحديث أن تأكل حلالا وخاطبها فوق ذلك أن تتحد وجهتها وأعرض عنها قائلا – فتقطعوا أمرهم بينهم – قطعا وتفرّقوا جماعات وأصبح كل فريق معجبا بنفسه فرحا بما عنده من المال والرجال . خوطب الأنبياء بذلك وأخبرنا الحديث بأننا خوطبنا بما خوطب به الأنبياء فأتباع الأنبياء تفرّقوا مع ان الدين واحد والله تعالى أرسل محمدا فى آخر الزمان ينعى على القوم يقول يا أتباع الأنبياء أين عقولكم أين أخلاقكم ياأيها الجهال الغافلون أنا أرسلت رسلى اليكم فمالكم لاتعقلون . أرسلت عيسى . أرسلت موسى . أرسلت فلانا . أرسلت فلانا وقصدت بذلك هدايتكم فرأيتكم جعلتم أنبياءكم محل الشقاق ومحل الخلاف ومثار النزاع . ولم هذا . وهل اختلاف الشرائع مع اتحاد الاصول ينافى المودّة والمحبة . ما أشأمكم يابنى آدم . ندع هذا وننظر فأنتم يا أتباع محمد مالكم أيضا كيف تفرّقتم أحزابا . وهل مذهب الشافعى ومالك وابن حنبل ومذهب الزيدية والشيعة والسنوسية وغيرهم وتفرق الطرق الصوفية واتباع زيد وعمرو من هؤلاء الشيوخ أواتباع بعض آل البيت من الرؤساء فى الممالك المختلفة . هل شئ من هذا يفرّق العقيدة فياللجهالة العمياء وكيف يكون هذا سبب التفرقة وهل تغير الدين وهل تغير القرآن وهل تغيرت القبلة وهل تغير الرّب وهل حصل اشراك . كلا . ثم كلا . واذا كنت أعيب على الأمم المختلفة الأديان أن تتنابذ فهاأناذا أعيب عليكم أيها المسلمون تنابذكم وأنتم أهل دين واحد . نعم أيها المسلمون قلّ المصلحون بينكم وكثير من الرؤساء لايريدون منكم إلا خبزكم وأكل أموالكم بلامقابل . ليقم فى الاسلام مرشدون . ليقم فى الاسلام علماء مصلحون . ليقم فيكم مجدّدون يقولون لكم . لماذا التخاذل . الدين واحد . هلاقرأتم أوّل هذه السورة . ألم تنظروا كيف ذكرنا فيها أوّلا علم الأخلاق وعلم العبادات ثم ثنينا بعلم التشريح وعلم النفس وعلوم الطبيعة . كل هذه تذكرة بأعمالى وجمالى وحكمتى فى خليقتى . كل هذه تذكرة لكم أيها المسلمون انظروا فى هذه العوالم . انظروا فى جمالها . انظروا فى الشموس المشرقات والكواكب الساطعات والنجوم البازغات والطرائق المدورات والأقمار الباهرات وتأملوا فى الثوابت البديعة وكيف كانت المجرّة والمجرات وراءها قد تجلت فيها آلاف الآلاف ممالاتحصونه عدا . كل هذا وضعته وزينت به سماءكم . وهلانظرتم ذلك السحاب العجيب والهواء اللطيف وضوء الشمس الجميل ووجه الأرض المطبع الذى كسوته الجلابيب السندسية والأشجار العطرية والأزهار البهية والأثمار الجنية وجعلت من ذلك الغذاء وخلقت منها الدواء وكتبت فى بعضه الفناء وفى بعضه الداء ولونته ألوانا وجعلته أفنانا وهكذا الحيوان اختلف صغرا وكبرا ولونا وقدرا وشكلا وبرا وبحرا وهواء

هذا

هذا هو الذى أنزله عليكم فى هذه السورة وكررته لكم فى أكثر من سورة . هذا هو النظر العقلى والعلم الاسلامى والعالم العقلى والحكمة الاشراقية والآيات الربانية والعبر الصمدانية والبدائع الاسلامية فهل أنتم ناظرون وهل أنتم تعقلون

أيها المسلمون . أتدرون لم تخاذلتم ولم تقاتلتم ولم اجتمع الناس وافترقتم لأنكم جهلاء جهلاء . حقا جهلاء جهلاء جهلا لا يطاق . أيها المسلمون . الجهل قد خيم فوق ربوعكم وضرب أطنابه بين ظهرانيكم وعشش فى مصر والشام والحجاز والعراق واليمن والهند والصين وشمال افريقيا . لماذا . لأنكم فرطتم فى كتاب ربكم فرطتم فى دينكم . ظننتم أن الدين ليس فيه شئ سوى مسائل القضاء والعبادات فتركتم الأخلاق ظهريا وعلوم هذه العوالم . فالأخلاق جعلتها فى أكثر من (٧٥٠) آية وهكذا علم التوحيد وعلم جلالى وجمالى جعلته فى نحو (٧٥٠) آية وبقية الكتاب وهو ستة آلاف آية ينحو منحى هذين القسمين وأنتم ما فكرتم إلا فى مائة وخمسين آية وهى آيات الأحكام فنمتم نوم الجاهلية وظن كل فريق أن الهبة اختصت به . أنتم حصرتم عقولكم فى قليل من الدين ولو أنكم قرأتم هذه العلوم العصرية والآيات الربانية لرأيتم انكم على شريعة واحدة وآية قيمة فقراءة السموات من دينكم وقراءة الأرض من دينكم وقراءة النبات والحيوان والتشريح من دينكم وقراءة علوم النفس من دينكم وقراءة سير الأمم وأخلاقها قديما وحديثا من دينكم . هذا هو دين الاسلام فلم ينزل الله هذه السورة بلا فائدة وهى المسماة ﴿ سورة المؤمنون ﴾ فلذلك جعل الايمان فيها كاملا

فتى عرفتم هذه العلوم تفتحت بصائركم فأيقنتم انه دين واحد فتصالحتم . عجبا لكم يا أمة الاسلام بل ألف عجب لكم . كيف ترون الأمم المسيحية قد اتحدت عليكم والخلاف فى دينهم ودنياهم شديد ثم أنتم مع اقتراب دياركم واتحاد دينكم تتنابذون وتختصمون . أف لكم أفلا تعقلون . أف لعالم لا ينصح وجاهل لا يتعلم . حرام على علماء الاسلام أن يتركوا العلوم الكونية . حرام عليهم أن يحرموا الأمة من جمال دينها وأصول شرعها وعجائب ربها . حرام على أمة الاسلام أن تبقى متأخرة عن الأمم وهى التى جعلت رحمة للعالمين وكيف تكون رحمة لهم وهم أعلم منها وهى الآن أجهل الأمم . إن العذاب واقع على كل عالم وعلى كل أمير وعلى كل ذى جاه وعلى كل ذى قدرة اذا هم لم يذيعوا ما نقوله ويقوله أمثالنا فى أمة الاسلام . فلينشروا هذه المبادئ والا فان أوروبا لهم بالمرصاد وعين الله لا تنام وسينتقم الله من المقصرين والغافلين وما الله بغافل عما تعملون وهو الغفور الرحيم وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وهنا ﴿ ثلاث جمل ﴾

(١) فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

(٢) وفى ايضاح الطرق التعليمية للأمم الاسلامية

(٣) وفى تبيان قوله تعالى ــ وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ــ

(١) ﴿ مناسبة هذه السورة لما قبلها ﴾

إن هذه السورة جاءت عقب سورة الحج لأن (سورة الحج) جاء فيها البعث والجهاد فجيء بهذه لتتميم القول أى لذكر الخصال التى بها يكون الانسان كاملا منعوتا بلفظ المؤمنين وال للكمال وسميت السورة بالمؤمنون ثم وصفهم بصفات العبادة والأخلاق ودرس العلم والحكمة . وأيضا ابتدأ (سورة الحج) بذكر علم التشريح استدلالا على البعث وذكره هنا لترقية العقول البشرية مع البعث فهناك استدلال وهنا تكميل

ذكر الله فى أول السورة فلاح المؤمنين وأتبعه بذكر الصلاة والخشوع فيها ونرى الحديث يحثنا على أن لا نرفع أبصارنا فى الصلاة وأن نعبد الله كأننا نراه وأن نفكر فى القراءة . ويقول العلماء ينبغى أن لا نفكر فى شئ وقت الصلاة إلا فى هذا ثم نفكر فى هذه الصلاة فنجد ماذا نجد انها أى الصلاة تفسير لسورة المؤمنون نعم تفسير لها . ألم تر أولا الى قول القارئ ــ الحمد لله رب العالمين ــ فانه ذكر العالم مجملا كله وانه وسعه كله

بالرحمة والى قوله ــ إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط ـ الخ فاننا نستعين بالله أن يهدينا الصراط الذى لاعوج فيه وهو صراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم . ولما كان قوله ــ العالمين ــ مجملا غير مفصل شرع يفصله بعض التفصيل فى الركوع فيقول المصلى ﴿ خشع لك سمعى و بصرى ومخى وعظمى وعصبى ﴾ أليس هذا التفصيل هو المذكور فى هذه السورة أى أليس هذا هو علم التشريح الذى جاء فيها إذ قال ــ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ــ الخ يقول الله فى هذه السورة ــ قد أفلح المؤمنون ــ وذكر خشوعهم فى الصلاة وأتبعها بصفات ثم ختم الصفات بنفس الصلاة بعد أن وصفهم بأنهم حافظون للفروج لبقاء النسل وكثرته وحفظ الأمانة ليعيشوا عيشة هنيئة ويحبوا بعضهم و بأنهم ينفقون المال الفاضل عن حاجتهم كما يذيعون العلوم لجعل الصلاة فى أوّل الصفات وفى الآخر اشارة الى أن فى الصلاة مابه يكون المؤمن كاملا . وأعقب ذلك بعلم التشريح الذى يخاطب به المسلم ربه فى ركوعه . وذكر بعد التشريح فى هذه السورة علم الفلك كطرائق النجوم التى يعرفها علماء العصر الحاضر القائلون ﴿ إن العالم الذى نعيش فيه هو الأثير المالئ للفضاء وفيه طرائق للنجوم وهى المدارات ﴾ وهو تصريح بعلم كان مجهولا عند الأمم قديما فظهر فى هذه السورة كما ظهر فى العالم الانسانى أن النجوم لها طرائق فى بحر الأثير . وأبان سبحانه انه غير غافل عن خلقه وأتبعه بعلوم النبات والحيوان وهذا بعينه هو مايقوله المسلم بعد الركوع فهو فى الركوع يدرس علم نفسه لأنه مطأطئ رأسه فاذا رفعها الى أعلى قال ﴿ ربنا لك الحمد ﴾ فهو كما يقول ــ الحمد لله رب العالمين ــ فى قراءة الفاتحة يقول هنا مفسرا لذلك ﴿ ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد ﴾ هذا هو الذى يقوله المسلم بعد الرفع من الركوع أى يرفع رأسه فيخاطب ربه بأن حمدى لك على قدر علمى بالسموات والأرض ومابينهما وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة بعد علم التشريح الذى يتبعه علم النفس فالفلك والنبات والحيوان والأرض هى العلوم التى يخاطب المسلم بها ربه . فأما الاكتفاء بالسموات و بالأرض و بما بينهما بدون علم بها فهو كما يكتفى الحمار بنظره البصرى وكما يقرأ العامة هذه الطبيعة بعيونهم . واذا أتبع الله ذلك كله بذكر قصص الأنبياء إجمالا وذكر بعضهم تفصيلا فذلك تفسير لقوله ــ اهدنا الصراط المستقيم ــ ولا صراط مستقيما إلا ما كان عليه نبينا والنبيون وهم المنعم عليهم . فياعجبا . هل المنعم عليهم نعما دنيوية وأخروية يكونون مجهولين عندنا ونحن نهتدى اليهم والله لاهداية لطرقهم إلا بمعرفتها فلم يقل المسلمون ــ صراط الذين أنعمت عليهم ــ لمجرد اللفظ . والنعم ﴿ قسمان ﴾ دنيوية وأخروية ولا أخروية إلا بعد الدنيوية . ومستحيل أن تكون آخرة إلا بعد الدنيا . وان شئت برهانا فلأسمعك ماجاء فى تفسير (سورة البقرة) عند قوله تعالى ــ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ــ إذ ورد أن هذا كان دعاء نبينا ﷺ وانه ﷺ لما رأى رجلا قد ضعف من المرض سأله قائلا هل كنت تدعو الله قال نعم كنت أقول اللهم إن كنت تريد معاقبتى فى الآخرة فعاقبنى فى الدنيا فأمره أن يدعو بهذا الدعاء ــ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ــ الخ فدعا الله فشفى من المرض . وقد فسر العلماء الحسنة فى الدنيا بجميع النعم من صحة ومال وراحة قلب وولد وهكذا حتى قالوا « إن الانسان بلا طمأنينة فى الدنيا لاعبادة له »

فمن هنا عرفنا النعم وانها دنيوية وأخروية ولا أخروية إلا بعد الدنيوية . فاذا قال الله ــ الذين أنعمت عليهم ــ فلندرس كل علم يوصل الى دنيا وكل علم يوصل الى الآخرة لذلك ذكر الله هنا الأنبياء . وقد تقدم تفصيل الأنبياء فى (سورة الأنبياء) وقد عرفت هناك العلوم الدنيوية التى أنعم الله عليهم بها . ولعمرك ما هذا إلا فتح باب لذكر النابغين والنابهين والكاشفين وعلماء الأمم أجمعين بحيث ندرسهم أى اننا ندرس كل نعمة دنيوية وكل نعمة أخروية . ندرسها لنتناول نفس النعمة الدنيوية والأخروية . فاذا قرأنا ــ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ــ فمعناه اننا ندرس علم التشريح كما ندرس علم النفس واذن نكون فهمنا ﴿ خشع

لك

لك سمعى و بصرى ﴾ فى ركوعنا . واذا قرأنا ـ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ـ فمعنى هذا دراسة العلوم المذكورة واذن نكون درسنا قول المصلى ﴿ ربنا لك الحمد الخ ﴾ وكان ذلك تفصيلا لقولنا فى الصلاة ـ الحمد لله رب العالمين ـ واذا قرأنا ـ اهدنا الصراط المستقيم ـ وذكرنا المنعم عليهم والمغضوب عليهم فمعناه دراسة الأنبياء الذين شرحنا علومهم فى سورتهم ودراسة كل نعمة فى الدنيا ونعمة علمية للعقول وارتقائها أى علوم الآخرة هذا هو المقصود من ذلك واذن نكون درسنا بقية ﴿ سورة المؤمنون ﴾ التى ذكرت هؤلاء الأنبياء وشرحت المنعم عليهم والمغضوب عليهم المذكورين فى الفاتحة هذا هو معنى المؤمنون ومعنى خشوعهم فى الصلاة فخشوعهم فى الصلاة ليتفكروا ومتى تفكروا عقلوا مافى الصلاة ومافى الصلاة هو نفس مافى هذه السورة علوم تشريحية وعلوم نفسية وعلوم فلكية وعلوم نباتية وعلوم حيوانية وعلوم طبيعية وعلوم كيمائية وعلوم رياضية لأنه لا يمكن دراسة ماذكر من هذه العلوم الطبيعية ولا الفلكية ولا علم التشريح الذى هو منها إلا بعد التضلع من العلوم الرياضية . هذا هو دين الاسلام وماعداه فجهل وغرور وندامة

هاأناذا قد بينت ماوجب علىّ وأنت أيها الذكى مسؤل عن نفسك وعن أمّتك . أنت مسؤل بين يدى الله تعالى . بين لأمّتك ماسمعت وتصرف بعقلك وفكر فى أمرهم فلاسعادة لك فى دنياك ولافى آخرتك إلا بسعادتهم ولذلك أسمعك تقول ـ إياك نعبد ـ فالعبادة مشتركة ونحن كلنا لابد أن نعبد معا وهكذا أسمعك تقول ﴿ السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴾ وأسمعك تقول ﴿ اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد الخ ﴾ فأنت فى صلاتك تدعو لنبينا ﷺ ولأمّته وتسلم عليه وعلى أمته وتضم الأمم التى تبعت ابراهيم . فأنت فى صلاتك مع هؤلاء جميعا بل أنت فى صلاتك مع أعظم من ذلك فانك تقول ﴿ وعلى عباد الله الصالحين ﴾ والصالحون أعم من المسلمين ومن أمّة ابراهيم بل هم كل صالح من كل أمة بل كل الملائكة بل وكل ملك فى كل سماء أو أرض . هذا هو الذى تدعو به فى صلاتك فأنت لست وحدك لافى الدنيا ولافى الآخرة فاسع لارتقاء أمّة الاسلام على الأقل و بلغهم ماسمعت الآن واسلك طريقا تراه لهم نافعا والله هو الهادى الى سواء الصراط

﴿ طرق علم التوحيد ﴾

هاأنت ذا قرأت علوم الاسلام فى سورة المؤمنون وفى الصلاة وعرفت أن (سورة المؤمنون) قد فسرتها الصلاة وأدعيتها وأن الفاتحة المجملة قد فصلت فى الأدعية وفسر الجميع بهذه السورة وهذه السورة تكملها سورة الأنبياء وقلت لك ان المنعم عليهم فى الدنيا كثيرون فليدرس المسلمون علوم جميع الأمم ليعرفوا كيف حلّ غضب الله على الجاهلين وكيف أنعم على المتعلمين . كل هذا عرفته ولكن انظر أيها الذكى . انظر وتعجب معى . انظر لأسلافنا الكرام . انظر كيف كانوا رحمهم الله نبراس الأمم . ماذا فعلوا . رأوا قوما درسوا شيأ من علم الطبيعة شيأ يسيرا حقيرا فافتخروا بأنهم قرؤا الفلسفة وماهم بفلاسفة بل هم جهلاء فشككوا الناس فى الدين . فماذا جرى . قام هؤلاء الأكابر فألفوا علما سموه ﴿ علم الكلام ﴾ لأن مسألة كلام الله اللفظى والنفسى كان أثارها المأمون ومن معه وتمادى القوم فأتموا تأليف هذا العلم وتكوينه فجمعوا العقائد فى خمسين مسألة كصفات الله النفسية وصفات المعانى والصفات المعنوية وصفات التنزيه والتقديس وصفات الرسل ومايجب لهم من الأمانة والفطانة الخ واليوم الآخر وما أشبه ذلك وأمروا الناس أن يدرسوها . ولما شاع ذلك قام العلماء آباؤنا فحرّم هذا العلم قوم لأنه يهوش على أذهان الطلبة وقال قوم منهم . كلا بل نخصص به طائفة لافحام الخصوم و بقية الأمّة لاتدرسه و يشترط فى الدارسين له أن يكونوا ذوى صفات جيدة قالوا لأنه ربما ضلوا السبيل بسبب الشكوك التى ترد فى أثناء قراءة هذا العلم وانتهى أمر الأمة بأن جعلته علما عاما يقرؤه كل طالب و يحفظ العقائد عن ظهر قلب أو بفهم و يقول الله قادر عالم حى الخ والأنبياء كذا وكذا . هذا كل ما حصل فى الاسلام و بهذا انصرف المسلمون عن فهم أركان الصلاة وأدعيتها وانصرفوا عن دراسة جمال الله

وعن تشريح أنفسهم وعن معرفة ماحولهم وذلك لأنهم اكتفوا بتلك القشور وظنوا أن هذا كاف الى يوم النشور وأن هذا هوالنور والكتاب المسطور فى الرّق المنشور

أليس هذا أشبه بما قصه الله إذ قال ـ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ـ . أليس كل حزب من المسلمين أصبح فرحا بما عنده من العلم ونسى الناس علوم القرآن . أوليس هذا هوالتقطيع . ياويحنا اذا فرطنا فى تعاليم ديننا وآبائنا . ألم يبين ذلك رسول الله ﷺ فأخبرنا بأننا سنتقطع هذا التقطع ونتمزّق هذا التمزّق النبى ﷺ نفسه هوالذى قال ذلك فتمزّقنا علما وتمزّقنا أمما فلنجتمع كما تفرّقنا ولنتعلم كل العلوم كما مزّقناها

فانظر كيف انصرف الناس عن القرآن ، انظر كيف كان أول هذا العلم لرد الشبه ثم اختصر وجعل كلمات يتلقفها التلاميذ ثم نام الناس عليها وعكفوا . انظر وابك على أمّة الاسلام . ابك على أمة الاسلام . يكرّر المسلم صفات الله فيقول « قادرمريد وعالم وحى » ويقول بعد تمام صفاته « ان كماله لايتناهى »

ياعجبا . ومافائدة القدرة لنا بدون أن نقرأ آثارها الظاهرة . انظر كيف كان هذا العلم قد حجب الناس عن نفس القرآن مع ان القرآن ينظر فى نفس العلوم التى هى آثار صفات الله . فانظر الى أمّة تحفظ الصفات ولاتقرأ آثارها . انظر الى الكتب المصنفة كيف منعت الناس عن القرآن . هاأناذا أبنت لك كيف كان آباؤنا يدفعون عن الدين بهذا العلم وحسنا فعلوا . ثم انظر كيف جاء الخلف فظنوا أنه هوالمقصود وتركوا القرآن ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ تركوا عجائب الله فى الأرض وفى السماء ﴿ و بعبارة أصح ﴾ نسوا الله فأنساهم أنفسهم فأذلهم الفرنجة وهم نائمون أوهائمون فى أودية الجهالة . وسيؤيد الله هذه الأمة ويخرج فيها رجالا يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ـ

﴿ بالجهل تفرّق المسلمون و بالعلم اجتمعت الأمم ﴾

(تبيان قوله تعالى ـ وانّ هذه أمّتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ـ)

لقد تقدّم تفسير هذه الآية وعرفت من نفس الحديث الشريف . ومن كلام المفسرين إن هذا القول يقصد به أمة الاسلام وأقول الآن إن هذا معجزة . فاذا أورد بعض العلماء حديث افتراق الأمة نيفا وسبعين فرقة وردّ الحديث بعضهم لعدم ثبوته فنقول ولكن هذه الآية لاراد لها فقد أخبرالله بتفرّق أمة الاسلام وقد حصل هذا فعلا ولم يكن المقصود مجرّد الاخبارانما المقصد أن يكون هذا القول موجها للاحتراس من التفرّق فقد أخبر بذلك وأراد أن نحترس من ذلك

﴿ التفرّق فى العصرالأول وكيف تلافاه الخلفاء الراشدون ﴾

لقد كانت الأمة العربية قبل مبعث الرسول صلوات الله عليه لاتعنى كثيرا بالقراءة والكتابة وكان جل اعتمادهم فى قيد أشعارهم وخطبهم ونحوها على حفظها فى أوعية صدورهم وكان الورق الذى بين أيدينا اليوم لم يشتهر بينهم وصحائفهم إذ ذاك جلد أوحجارة رقيقة بيضاء وكلمة (كتاب) تطلق على كل صحيفة مكتوبة من هذه الأنواع والكاتبون فيهم قليلون . فلما كان القرآن ينزل نجوما وأقساما كان النبى صلوات الله عليه يملى عليهم ماينزل وقته فيكتبونه على ماتيسر من جلد ونحوه وخصص لذلك العمل من كان يحسن القراءة والكتابة وأطلق عليهم (كتاب الوحى) . أراد رسول الله ﷺ أن ينشر فى الأمة فكرة حفظ القرآن واستظهاره فحضهم على تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ورغبهم فى حفظه ولم يترك وسيلة للوصول الى ذلك إلا استعملها فكانت عشرات الآيات والسورالطويلة بل والقرآن كله يحفظه كثير منهم . وأعانهم على حفظه سريعا قوّة حافظتهم وسرعة خاطرهم وصفاء ذاكرتهم . فالمعروف عنهم استظهارمايطرق سمعهم بسرعة عجيبة مع الضبط بل فيهم من اذا قرئت عليه القصيدة الطويلة حفظها من أول مرة . وفى أخبارهم شواهد على ذلك كثيرة .

لم يقف صلوات الله عليه عند هذا الحد فى حفظه بل أمرهم بكتابته وتدوينه . ولذا رغبهم فى تعلم القراءة والكتابة ومدحه و بالغ فيه حتى ان الأسير الذى يأسرونه فى حروبهم اذا عجز عن الافتداء بالمال وهو متعلم جعل فداءه تعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فتلاشت بينهم الأمية وتسارعوا الى تسطير القرآن على ماتيسر مع ضبطه إذ كانوا يكتبونه عند سماع قراءة الرسول وهو يسمع منهم ما يكتبون . وممن اشتهر من كتاب الوحى (زيد بن ثابت) فقد شهد عرض القرآن فى المرة الأخيرة على رسول الله ﷺ وكتبه له وقرأه عليه وأقرأ الناس به . وذلك أن جبريل عليه السلام كان يلقى الرسول ﷺ فى كل سنة فى ليالى رمضان يعرض عليه القرآن كله مرة وفى العام الذى قبض فيه الرسول ﷺ عرضه عليه مرتين وماذلك إلا ليعرضه كذلك على قومه حتى يحفظ مضبوطا . ومن كتاب وحيه أيضا (أبىّ بن كعب) و (الزبير بن العوام) و (خالد وابان ابنا سعيد بن العاصى بن أمية) و (حنظلة بن الربيع الاسيدى) و (معيقب بن أبى فاطمة) و (معاوية بن أبى سفيان) و (علىّ بن أبى طالب) وغيرهم وأشهرهم (زيد بن ثابت) فلم ينتقل الرسول ﷺ من هذه الحياة إلا والقرآن كله محفوظ فى الصدور مكتوب على رقاع متنوعة من جلد وحجارة مع الضبط والتدقيق واقرار الرسول ﷺ على ما كتب بعد تلاوته عليه

ولما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخلافة أصيب الاسلام بارتداد بعض القبائل وادعاء بضعة كذابين ودجالين كالأسود العنسى ومسيلمة وسجاح للنبوة . ولكن تداركت تلك الحوادث حكمة أبى بكر الصديق وتلاشت بسياسته وحزمه فبعث بالجيوش الى المرتدين والمتنبئين وأرسل اليهم كتبا يدعوهم الى الهدى والرشاد وان أبوا فالقتال فما كان إلا القتال فظفرت جيوش المسلمين وثاب الناس الى رشدهم وعاد المرتد واندحر المتنبئ إلا أنه قتل جمع كبير من قراء القرآن وحفاظه فى واقعة (اليمامة) إحدى هذه المعارك فاستفزهم هذا الفزع الى المبادرة والاسراع الى جمع القرآن على الطريقة التى وجدوا عليها غيرهم من الأمم فى تدوين معلوماتهم فى صحف من نوع واحد خشية أن يضيع القرآن ويندرس بقتل كثير من حفاظه ووجوده فى رقاع منوعة سرعان ماتمتد اليها يد التبديد فأرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت فقال له ان عمر بن الخطاب قد أشار علىّ بأن آمر بجمع القرآن لأن القتل قد استحر (يوم اليمامة) بالقراء ويخشى أن يستحر القتل بهم فى مواطن أخرى فيذهب كثير من القرآن فقال زيد لأبى بكر وعمر كيف نفعل شيأ لم يفعله الرسول فقالا هذا والله خير وما زالا يراجعانه حتى قر رأيهم على جمعه فقال أبو بكر لزيد إنك رجل شاب عاقل لانتهمك وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله فتتبع القرآن فاجمعه فتألفت لجنة من الحفاظ والقراء والكتاب يرأسها زيد بن ثابت فأخذ يتتبع القرآن بجمعه من الجلد والحجارة التى كانت تكتب فى عهد الرسول ومن صدور الرجال الذين تلقوه عن الرسول وكانت اللجنة لاتكتفى بحفظها ولابما وجدته مكتوبا عندها إلا اذا راجعوا ماعند الغير مما كتب بين يدى الرسول وباملائه وان وجد عند أكثر من واحد أو يشهد عليه شاهدان عدلان منهم . وهكذا استمرت اللجنة تعمل وجميع أعضائها من أكبر الحفاظ وأدق القراء وفيهم أشهر كتاب الوحى فسطروا القرآن جميعه فى صحف من نوع واحد وقد أقرها وأجمع عليها جميع الصحابة لم يخالف واحد ثم أودعت هذه الصحف عند أبى بكر حتى توفى ثم عند عمر فى حياته ثم عند حفصة بنت عمر بعد ذلك

وفى خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه قدم عليه حذيفة بن اليمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح (أرمينية) و (أذر بيجان) مع أهل العراق فقال يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب اختلاف اليهود والنصارى . وسبب ذلك أن هذه الجيوش كانت من قبائل متعددة من أصقاع مختلفة فسمع حذيفة كل قبيلة تقرأ على وجه لم يسمعه هو من الرسول ﷺ وظن أن القراءة التى سمعها وقرأ بها هى الوحيدة وأن الرسول لم يقرئ جميع الوفود والقبائل بها مع ان الرسول صلوات الله عليه كان يقرئ المسلمين

على أحرف مختلفة حسب لهجة كل قبيلة من العرب وكلها لاتخرج عن المقصود والاعجاز ولم يفعل ذلك إلا بايحاء من الله تعالى * ففى صحيح البخارى انه ﷺ قال ﴿ أقرأنى جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى الى سبعة أحرف ﴾ وكان الكثير منهم لايعرف إلا وجها واحدا من القراءة وهو الذى سمعه من الرسول حسب لغة السامع ولهجته ويدل لذلك مارواه البخارى فى صحيحه من أن عمر بن الخطاب يقول ﴿ سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله فاستمعت لقراءته فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله فكدت أساوره فى الصلاة فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ قال أقرأنيها رسول الله فقلت كذبت فان رسول الله قد أقرأنيها على غير ماقرأت فانطلقت به أقوده الى رسول الله فقلت انى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال رسول الله أرسله فلما جاء قال اقرأ ياهشام فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ فقال رسول الله كذلك أنزلت ثم قال اقرأ ياعمر فقرأت القراءة التى أقرأنى فقال كذلك أنزلت إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤا ماتيسر منه ﴾ وهذا بعينه الذى حمل حذيفة وغيره على اتهام القراآت المتعددة من القبائل المختلفة فى هذه الفتوحات والحروب فلما أفضى الى عثمان بمقالته خشى من اشتداد النزاع بين القبائل لهذا الخلاف اللغوى فتشب بينهم نار الحرب والمخاصمة فتذهب ريحهم وتضعف شوكتهم وتتفرق كلمتهم فرأى رضى الله عنه بعد مشورة من كان فى عهده من الصحابة أن يجمع المسلمين على مصحف واحد مكتوب بقراءة قريش ورسمها الكتابى فبعث الى حفصة بنت عمر أن ترسل بالصحف التى كتبت فى عهد أبى بكر فأرسلت بها وجمع الحفاظ والقراء وكتاب الوحى الذين فى خلافته من بينهم سعيد بن العاصى وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فتألفت لجنة رئيسها زيد بن ثابت وقال لهم عثمان اذا اختلفتم فى عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قريش فان القرآن نزل بلسانهم . أراد بذلك أن يجمعهم على وجه واحد فلايجد الخلاف اليهم سبيلا فسارت اللجنة فى عملها بالتحرى والتدقيق كما فى خلافة أبى بكر سيما وأن رئيس اللجنتين فى العهدين واحد فنسخوا منه عدة مصاحف أرسلت الى الأمصار ورد مصحف حفصة اليها وأمر باحراق ماعدا ذلك وأجمع جميع المسلمين من قراء وكتاب وحفاظ على اعتماد هذا المصحف وانه كما تلقوه عن الصادق الأمين فصار هو المعول عليه والمعمول به فى جميع الأقطار ولم يطل بهم العهد فى ذلك الحين على انتقال الرسول ﷺ

وبهذا العمل الجليل قد انحسم ما كان متوقعا من النزاع . وبهذا حفظ الله كتابه من الضياع والتحريف والتبديل وتحقق قوله تعالى ــ إنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ــ . هذا والواقف على أطباع العرب من شدة تمسكهم بدينهم وحرصهم على ضبط ماينقلونه عن الرسول وغضبهم وسخطهم لأقل شئ يخالف ما كان عليه الرسول ولو أمر به أعظم عظيم . والعارف بما جبل عليه الخلفاء الراشدون من الخلق الكريم وعدم الاستبداد بالرأى وسرعة نزلهم على ماتجمع عليه الأمة . إن العالم بذلك كله يجزم بأنه لو اختلف حرف واحد من القرآن عما تلقوه من رسول الله لاشتعلت بينهم نار الحروب وثاروا على الخليفتين بل لارتدت شعوب بعملهما ولطعن عليهم أعداؤهم وعابوا كتابهم وهم مخالطون لهم يرقبون أى عيب يشنون به الغارة عليهم ولاختلفوا هم أيضا فى قبول هذه المصاحف ولظهرت عدة مصاحف متغايرة متناقضة ولكن شيأ من ذلك لم يكن وأن ذلك ليدل دلالة واضحة ويقطع قطعا يقينيا أن هذه المصاحف هى عين ماتلقوه عن رسول الله والذى نطق به ــ وماينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ــ

لبث القرآن عهدا كبيرا تتناقله الأمم والأجيال بالكتابة اليدوية من هذه المصاحف العثمانية المجمع عليها فى خلافة سيدنا عثمان وكانت الكتابة تزداد تحسينا شيأ فشيأ على مقتضى تطورات العصور الى عصر اختراع آلات الطباعة فكانت عاملا قويا فى نشر المعلومات وبث المؤلفات وأول مصحف طبع سنة (١٦٩٤) ميلادية بمدينة

(همبورغ)

(همبورغ) بألمانيا ثم انتشرت بعد ذلك انتشارها المشهود . هذا مافعله الخلفاء رضى الله عنهم فتلافوا الأمر ولم يفرطوا فبقى القرآن محفوظا الى الآن

﴿ كيف يتحد المسلمون الآن ﴾

لقد عرفت أيها الذكى أن انحصار العقول الاسلامية فى ألفاظ علم التوحيد وفى العلوم الفقهية هو الذى أدّى بهم الى التخاذل . إن انطلاق العقول الى علم مافى السموات والأرض يفتح لهم ﴿ بابين * الباب الأوّل ﴾ باب نظام هذا العالم ومنه يعرفون جمال الله وحكمته ﴿ الباب الثانى ﴾ أنهم يرون أن علم الفقه وعلم التوحيد المصطلح عليه ليسا إلا شيأ يسيرا جدا من دين الاسلام ويرون أن الاسلام هو كل هـذه العلوم . فيرى المسلم الشيعى والسنى أن الخلاف بينهما شئ يسير جدا لأنهما لايختلفان فى علم التشريح ولاعلم النفس ولاعلم النبات ولاعلم الحيوان ولاعلم الكيمياء ولاعلم المعادن ولاعلم طبقات الأرض ولكن الخلاف جزئى يسير واذن يتعارفون ويتقابلون ويرون انهم اخوان على سرر متقابلين وأن انحصار الأفكار هو الذى منعهم وأضلّ الأمم الاسلامية . وان شئت بيانا أكثر فقل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . لماذا نرى ألمانيا أمما كثيرة وممالك تعدّ بالعشرات ومع ذلك تكوّنت منها أمّة واحدة . ونرى الولايات المتحدة تكوّنت منها أمم تبلغ فوق مائة مليون ومع ذلك هم من أمم مختلفة وعقائد متباينة حتى انهم فيهم اليهودى والمسلم والنصرانى والدرزى وكلهم يعيشون عيشا هنيئا . وكيف كان الانجليز أمما مختلفة وقد اتحدوا وهاهم أولاء يضربوننا فى الشرق

أيها الذكى . إن المسلمين مافرّقهم إلا الجهل . إن هذه الأمم لما قرأت العلوم وعلمت كل واحد من أبناء البلاد مبادئ العلوم وارتقى أغنياؤها فى العلم عرفوا أن الفارق بينهم فى الديانات قليل بالنسبة لما اتحدوا فيه من العلوم والحياة . اذا كان ذلك فى أمم مختلفة فكيف يكون أمر أمة الاسلام . هـذه الأمّة المتحدة التى ما فرّقها إلا الجهل وسوء سلوك الرؤساء والأمراء . أفلاترى أن قراءة العلوم بين الأمم الاسلامية تجمعهم كما جمعت الأمم المختلفة . ولعمرى إن أهل دين واحد أقرب الى الاتحاد من الأمم المختلفة . فكيف إذن بدين الاسلام الذى هو دين علم وحكمة . ياحسرتا على مافرّط المسلمون . إنى ليحزننى وأيم الله أن أقول انظروا الى أوروبا ولكن ما العمل وهم سبقونا . هلاقام قائم بين المسلمين وجدّد عهد عثمان وأبى بكر رضى الله عنهما وقال أيها المسلمون ادرسوا العلوم كما درسها الغربيون لتعرفوا دينكم وربكم وسرّ صلاتكم وتكونوا مؤمنين حقيقيين . ياليت شعرى متى يقوم فيكم ذلك القائم . متى يقوم فيكم من يقول لكم كفى كفى لقد شبعنا جهالة فأين العلم أين العلم . أيها المسلمون انظروا كيف ترون التفرّق والتخاذل . لاتفرّق ولاتخاذل إلا بالجهالة فبلاد العرب على قلة عددها فيها ممالك متفرّقة تتقاتل وتتحارب وليس يدير أمرها إلا الفرنجة . لماذا . لأنهم جهلاء لايعرفون أمور الدنيا فيصلحونها ولاالمودّة بينهم التى لاتكون إلا بالعلم ولاعلم اليوم . فالعلم فى أوروبا وحدها . وأما أمّة الاسلام فانها أصبحت فى براثن أوروبا . فبالعلم ملكونا وبجهلنا بديننا تفرّقنا أى بعلوم ديننا أى بجمال الله وآياته وحكمه ونظامه . نسينا الله فنسينا . أفليس هـذا هو الفسق . أفليس الفسق أن تكون مصر وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وسوريا والعراق كل هؤلاء أمة عربية لغتها واحدة ودينها واحد وأصلها واحد ومع ذلك لايعرف بعضهم بعضا . أليس ذلك إلا لأنهم جهلاء جهلاء جدا لايعرفون ماذا يصنعون . أليس ذلك حاصلا فى الاسلام لأننا جعلنا كتابنا بيننا — زبرا كل حزب بما لديهم فرحون —

﴿ حكاية ﴾

قال لى يوما الاستاذ المستشرق الانجليزى (ادوارد براون) انى قابلت تلميذا من تلاميذ الفرس وقد كنت موفدا من قبل أمّتنا الانجليزية لأعرف طبائع هذه الأمم . أيتحد المسلمون أم هم فى المستقبل لايتحدون

قال فدرست الأمم التركية والفارسية والعربية وعلمت من أمة الفرس انهم يستحيل أن يتحدوا مع أهل السنة فقد قال لى ذلك التلميذ الذى قابلته انى حاربت الترك مع الروس لما كانوا يحاربونهم لأنى اعتقد أن الكلب أفضل من المسلم السنى فلذلك فضلت أن أحارب الترك مع الروس . قال الاستاذ (براون) وأنا عالم علم اليقين أن هذا التلميذ لم يذبح دجاجة مدة حياته لجبنه ولكن عرفت أن تعاليم هذه الأمم قد قضت عليهم ـ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ـ . انتهت الحكاية

أقول وكان ذلك منذ نحو (٢٠) سنة . أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فان الفرس والترك اقتربوا وتحابوا وظهر خطأ نظرية الاستاذ (براون) وأن الامور قد تغيرت وأقول الآن كل هذا كان للجهالة العمياء العامّة فى الاسلام

﴿ سورة المؤمنون وعلوم الحكمة ونشرها فى الاسلام ﴾

هل أحدثك عن تقسيم الحكمة عند أسلافنا . وهل تحب أن أقول لك ان الحكمة كلها قد نقلت الى أوروبا وجاء (بيكون) الانجليزى ورتبها ترتيبا آخر ونشرها فى أوروبا وكل ذلك ملخص هذه السورة

فانظر الآن لما قاله (بيكون) المذكور الذى كان فى حدود المسألة السادسة عشرة من التاريخ المسيحى فانه عمد الى ما رأيت من العلوم المذكورة فى هذه السورة التى سطرها آباؤنا باسم الفلسفة وقسمها على أهم القوى التى فى الدماغ وهى ثلاثة (القوّة المتخيلة . والقوّة المفكرة . والقوّة الذاكرة) فالقوّة المتخيلة التى مقرّها فى مقدم الدماغ عند القدماء علم الشعر ويقسمه الى ثلاثة أقسام (الشعر الوصفى . والشعر الذى تذكر فيه الروايات والشعر للأمثال) . وللقوّة الذاكرة علم التاريخ والتاريخ قسمان طبيعى و بشرى والطبيعى يشمل علوم الطبيعة كلها من العلويات والسفليات كالجيالوجيا والجغرافيا والسماء والعالم والكون والفساد الى آخر ما تقدّم

والتاريخ البشرى يشمل التاريخ الدينى والتاريخ الاجتماعى وتاريخ الأدب والفنون . وللقوّة المفكرة علوم الفلسفة وهى (ثلاثة أقسام * فنّ معرفة الله . وفنّ معرفة نظام الطبيعة . وفنّ معرفة نظام الانسان) كعلم النفس وعلم المنطق وعلم الأخلاق وعلم النظام الاجتماعى وعلم الجمال . وقد اعتادوا أن يقرؤا مع ذلك المذاهب الفلسفية . فهذا هو تقسيم المحدثين

فانظر الآن . أليس معرفة الله هى المذكورة فى أوّل سورة المؤمنون . أليس علم النفس هو الملازم لعلم التشريح المذكور فى أول هذه السورة . أليس علم نظام الطبيعة هو مجموع تلك العلوم التشريحية والفلكية والحيوانية والنباتية فى أول السورة . أليس علم النفس يتفرّع عنه علم المنطق وعلم الأخلاق وعلم الجمال وعلم النظام الاجتماعى فهذه فروع له . فأما المنطق فما هو إلا ميزان والميزان لا يصح شئ بدونه . وأما علم الأخلاق فهو مفهوم من أول السورة فى الوفاء بالعهود والزكاة ونحوهما . وأما علم الجمال فهو ملخص نظام الطبيعة وحسنها وجمالها و بهاؤها . وأما علم الاجتماع فيشار اليه بقصص الأنبياء فى هذه السورة وأمثالها وأن ندرس نظم الأمم ونحللها ونأخذ بأحسنها

﴿ الدروس التى تلقى الى المسلمين ﴾

(١) دروس العبادة والأخلاق للأطفال عملا لا مجرد علم كما فى أول سورة المؤمنون

(٢) دروس علم الأشياء بحيث يذكر فيه أحاسن الجمال فى الطبيعة والبدائع والنظم المتقنة فى هذا الوجود وغرائبه ليعشق التلميذ درسه وربه . كل هذا فى التعليم الأوّلى مع ذكر الله وصفاته

(٣) درس العلوم الطبيعية فى التجهيزى درسا منظما فيقرأ الحيوان والنبات والتشريح وطبقات الأرض والفلك وتلك القراءة المقصد منها الالمام بهذه العلوم بهيئة منظمة كما فى هذه السورة

(٤) ذكر سير الملوك والأمراء والعلماء وأخلاقهم وأعمالهم وما يتبع ذلك ليكون فى الأمّة مصلحون كما

جاء

جاء فى هذه السورة من ذكر المنعم عليهم من الأنبياء ويكون ذلك نبذا صالحة جيلة فى كتب متقنة جيلة شارحة للصدور مهيئة الطفل لدراسة العلوم بانشراح صدره لدينه ولأمة الاسلام

ليقم فى الاسلام مجددون فلينشروا هذا فى مختلف الأصقاع فاذا درسوا ذلك فليدرسوا معه مايلزم من علوم الدين ثم ليخصصوا فى القسم العالى كلا فيما هو أهل له . فهذا للعلوم العربية وهذا للحديث والتفسير وهذا للكيمياء والطبيعة وهذا للهندسة وهذا للطب الخ

هذا هو الذى يجب أن يكون عليه المسلمون فى مستقبل الزمان وأن الله سبحانه هو الذى ألهم بكتابة هذا فى التفسير وسيلهم كثيرا من المسلمين بنشر هذه الآراء وهو الذى سيهدى المسلمين فيسيرون على صراط مستقيم والحمد لله رب العالمين

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين ـ ﴾

لقد تقدم فى هذا التفسير فى موضع غير هذا أن التثليث عند الأمم السابقة قبل المسيح لم يكن بالمعنى الذى يتعارفه المسيحيون إذ نقلت عنهم انه كان هكذا الله والمادة والعقل المدبر لها باذن الله والمادة والعقل يدلان على الله . ومعنى هذا أن الانسان اذا نظر فى هذه الدنيا لايرى إلا مادة وهذه المادة يراها فى غاية الانتظام وهذا الانتظام يدل على عقل نظمه وهو المعبر عنه عندنا بالملائكة الذين يدبرون العوالم وهؤلاء الملائكة الذين عرفناهم بآثارهم فى السموات والأرض يدلون على أن لهم إلها خلقهم . إذن المادة والقوة المدبرة يدلان على الله . إذن الموجود إما مادة محسوسة واما عقول مرتبطة بها واما موجود مجرد من المادة مدبر للقسمين أى الموجود إما مادة واما مختلط بها واما مجرد عنها مدبر للقسمين . هذا ما كان يقوله فلاسفة الأمم لهم ثم تمادى الزمان فصار الثلاثة آلهة وقد جعلت لهم أصنام فى الهند وعند البابليين والآشوريين وقدماء المصريين

ولما نقل النصارى هذا التثليث عن الأمم لم يحسنوا النقل فبدل أن يقولوا (الله والمادة والعقل) المعبر عنها بالأب والأم والابن قالوا (الأب والابن والروح القدس) وجعلوهم جميعا آلهة وكلهم إله واحد

أفلا تعجب لما أسمعك الآن وكيف يظهر الله عز وجل الأسرار فى كلام المسيحيين أنفسهم . فانظر لما جاء فى ﴿ مجلة البريد المصرى ﴾ فى اكتوبر سنة ١٩٢٨ وهى المجلة الشهرية الدينية الأدبية فى سنتها الخامسة عشرة عدد (٩) صفحة (١٣٩) وهى التى يديرها المسيحيون بمصر فقد جاء فيها ما نصه ﴿ ولولا تجسده ماعرفنا الأب بالابن كما فى متى ١١ : ٢٧ ويوحنا ١ : ١٨ (٢٥) انتهى ﴾

أفلا تعجب معى . جل الله . أليس هذا هو عين ما أسلفته نقلا عن أصول ديانات القدماء وهو عين هذه الآية التى نحن بصدد الكلام عليها إذ يقولون ﴿ لولا تجسد المسيح ماعرفنا الأب ﴾ إذن الأمر ظهر وهو انه لولا العالم ماعرفنا الله والعالم هو المادة والقوة العاقلة المنظمة لها . فهذه لولاها لم يعرف الناس ربهم فجاء المسيحيون وحصروا معرفة الله فى ظهور جسم المسيح ونور عقله ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان الرجل العالم يدرك جمال الله من كل حشرة وكل كوكب وكل نبات وهكذا ولكن طائفة من الناس اكتفوا برجل صالح ذى نور من الله فدلهم على الله تعالى . فجسم المسيح بعض جسم الأرض وعقله بعض العقل العام الذى خلقه الله فى العوالم كلها . ففى هذا اكتفاء بالبعض عن الجميع . وما المسيح إلا آية واحدة من آيات الله التى منها الشمس والقمر وحيوان الأرض وغيرها . أفلا تعجب أن ترى المسيحيين ينطقون بالسر وان كان أكثرهم لايعترفون به إذ يقول انجيل متى وانجيل يوحنا المتقدمين ﴿ ان تجسد المسيح يدل على الله ﴾ أليس هذا هو عين التوحيد وعين قوله تعالى ـ وجعلنا ابن مريم وأمه آية ـ فعيسى آية لاغير فى القرآن وعيسى يدل على الله فى انجيل متى وانجيل يوحنا والمادة والعقل والعالم يدلان على الله فى أديان القدماء . إذن اتفق القرآن وانجيل متى وأصول الأديان القديمة على شئ واحد وهو أنه لاتثليث بل هو توحيد حتى دين المسيح عند (متى)

و (يوحنا) الذين جعلا وجود المسيح يدل على الله وإذن أصل التثليث استدلال بمقدمتين على نتيجة المقدمتان (الجسد والروح) والنتيجة انه لابد من موجود أوجد الروح وأوجد الجسم وضمهما الى بعضهما ونظمهما هذا هو معنى قوله تعالى — وجعلنا ابن مريم وأمه آية — وذلك كما تقول إن البرهان يحتاج الى مقدمتين وتكون لهما نتيجة . فكما تقول العالم حادث وكل حادث لابد له من محدث تقول هنا العالم مادة وهى مدبرة بعقل منظم وهذان لابد لهما من موجد منزه عن المادة منظم لهما معا لأن الموجود إما مادة وإما منزه عنها وإما ملتبس بها لاغير والحمد لله على نعمة العلم والحكمة

﴿ تذكرة فى أن ألوهية المسيح منقولة عن الأمم السابقة التى خلت ﴾

جاء فى كتاب ﴿ المذهب الروحانى ﴾ صفحة (٤٢٢) مانصه

﴿ ولاتتوهمن أن النصرانية وحدها اخترعت أن الإله صار بشرا فان الهنود نسبوا الى (فشنو) وهو الاقنوم الثانى من ثالوثهم تسعة تجسدات وفى ثامنها ظهر باسم (خريستا) وكذلك (ابولونيوس) التيانى ظنه معاصروه إلها لأنه علم ماعلمه (يسوع) وعمل أعمالا عظيمة وروى عن أمه انها لما كانت حاملا به ظهر لها فى الرؤيا (بروتيو) أحد آلهة المصريين وقال لها انه حل فى أحشائها . ومثله (ليوتسو) الصينى ظنوه إلها صار انسانا وقد حملت به أمه بنظرها الى رجوم ساقطة من السماء . وأما ألوهية المسيح فلم تنشأ إلا بعد خراب (أورشليم) وتشتت اليهود فى مصر والفرس والهند و بعد أن استتب الامن عاد هؤلاء الى وطنهم وهم متشربون مبادئ أديان الشعوب الذين عاشوا بينهم بضع سنين فقامت عندها بين عامة النصارى المجادلات والمنازعات الى أن قرر (المجمع النيقاوى) هذه العقيدة بحكم سلطان أجنبى هو الملك (قسطنطين) الذى عضد المجمع المذكور لأغراض سياسية . ثم قال ومن العجب أن أرباب النصرانية تنازعوا حتى سفكوا الدماء فى مسائل وهمية لاطائل تحتها وقد تناسوا الشئ الجوهرى الوحيد الذى جاء المسيح لأجله وهو محبة الله والقريب هذه هى المحبة التى قال عنها عليه السلام انها الناموس كله وجاء من بعده فاستبدلوها باللعنات والحرمان واحراق بعضهم حتى أصبحت النصرانية بعد عشرين جيلا فى حالها الحاضرة مشتملة على عقائد تافهة ينكرها العقل ويأباها العلم ﴾

وجاء فى صفحة (٤٢٠) من هذا الكتاب أيضا مانصه

﴿ جاء فى انجيل مرقس انه لما أتى يسوع الى مدينته احتقره آله فقال « لا يكون نبى بلا كرامة إلا فى وطنه و بين أقاربه وفى بيته » ولم يستطع أن يصنع هناك شيأ من القوات ﴾ (مرقس ٦)

فيسوع يقر ههنا عن نفسه بأنه نبى بسيط وانه عجز عن صنع آية فكيف يتأتى منه العجز وهو (الله رب العالمين) وسأل يوما تلاميذه قائلا وأنتم من تقولون أنى هو فأجاب بطرس أنت المسيح (مرقس ٨)

ومعنى المسيح رسول ممسوح بالدهن كما كان اللاويون وملوك اسرائيل فلم يقل له ههنا بطرس أنت هو الله ولا نبه يسوع على غلطه بقوله له (أنا الله بالذات انحدرت من السماء) متجسدا بينكم لأنقذكم من خطيئة آدم وأعوض عن الاهانة العظيمة التى لاتتناهى التى لحقت بعزتى الإلهية بل قال فقط عن نفسه « إنى رسول يعمل بارادة مرسله » انتهى المقصود منه

وقال فى صفحة (٣٥٥) وماقبلها مايأتى ﴿ لقد تفرغ علماء أجلاء من أوروبا للبحث عن أصل الأناجيل وأدوار تقلباتها فقالوا إن المسيح اختار رسله من الشعب البسيط وكانوا صيادى سمك من بحيرة طبريا وأراد بذلك أن تعاليمه لاتحتاج الى ذكاء خارق للعادة . قال و بعد رفعه الى السماء أخذ الرسل يبشرون بما رأوا يقولون بوحدة الله ومحبته لعباده ووجوب ارتباط الناس بالمحبة لأنهم إخوة وربهم واحد وقالوا بالتوبة والتكفير عن ذنب الانسان نفسه لاذنب أبيه آدم ورمزوا للتوبة بماء المعمودية الذى أخذوه عن (الأسونيين) بواسطة

(يوحنا

(يوحنا المعمدان) الذى كان من مصافهم . والقصد منه التنبيه به على التوبة من الذنوب . ويقولون بخلود النفس والقيامة فدخل الناس فى الدين أفواجا . ولكن بعد ذلك جاء رجل يسمى (بولص) وهوفرنسى ومعلم بالناموس و باللغة اليونانية فاحتقر الرسل أوّلا وهو مع انه ماعرف المسيح ولارآه قط ولاسمع كلامه ادّعى بأنه رسول و به وحده خصت معرفة الحقائق واعلانها (غلاطيه ١) وأخذ يخاصم بطرس و يو بخه (غلاطيه٢) فتألف عندها أى بعد رفع المسيح (١) بعشرسنين ﴿صنفان﴾ من النصارى ﴿الأول﴾ تابع لمن بقى من الرسل فى أورشليم ﴿والثانى﴾ تابع لبشارة (بولص) الذى ادّعى بأنه أخذها عن إيحاء المسيح نفسه و بعد حين تمرّد اليهود على (نيرون) فانتشب الحرب فى اليهودية بقيادة (فسباسيانوس) الرومانى ثم ابنه (طيطس) وانتهت بافتتاح أورشليم عام (٧٠) وخرب الهيكل وتفرّق اليهود أشتاتا ﴾ انتهى الكلام على (المقصد الثانى) من سورة (المؤمنون)

(المَقْصِدُ الثَّالِثُ)

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ * لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ * قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ * أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ * وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ

(١) المذكور فى الكتاب المنقول عنه بعد موت المسيح لأن هذا اعتقاد الافرنج . واقد مرّ بعض هذه العبارة فى سورة ﴿آل عمران﴾ وقد سهونا أن نبدل الرفع بالموت وستصحح فى الطبعة الثانية فليتنبه

مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ * حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ * قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات - الى قوله - فذرهم فى غمرتهم حتى حين - تقدّم تفسير هذه الآيات فى آخر المقصد الثانى وقوله (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) أى نعطيهم ونجعله مددا لهم وقوله - من مال وبنين - بيان لما أى أيحسبون أن الذى نمدهم به (نسارع) به (لهم فى الخيرات) فيما فيه خيرهم واكرامهم (بل لايشعرون) بل هم كالبهائم لافطنة لهم ولاشعور ليتأملوا فيه فيعلموا أن ذلك الامداد استدراج لامسارعة فى الخير والمسارعة التعجيل (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون) خائفون (والذين هم بآيات ربهم يؤمنون) يصدّقون (والذين هم بربهم لايشركون) شركا جليا ولاخفيا (والذين يؤتون ما آتوا) يعطون ما أعطوا من الزكاة والصدقات (وقلوبهم وجلة) خائفة (أنهم الى ربهم راجعون) فى الآخرة فلايقبل منهم (أولئك) أهل هذه الصفة (يسارعون فى الخيرات) يبادرون فى الأعمال الصالحة (وهم لها سابقون) وهم سابقون بالخيرات لا أولئك الذين أمددناهم بالمال والبنين فظنوا أن ذلك اكرام ظنا غير حق فالمال والبنون ليس اعطاؤهما والامداد بهما مما يؤهل للمسارعة بالخيرات . فأما خشية الله والايمان بالله وعدم الاشراك به والتصدّق مع الخوف من الله فان ذلك هو السبق للخيرات . وملخص ذلك أن النعم ليست هى السعادة وانما النعم راجعة الى العلم والعمل فالعلم رمز اليه بالايمان بالله والعمل رمز له بالصدقة وأحاطهما معا بالخشية والخوف . وهل لك أن أسمعك ما أرسله أرسطاطاليس الى الاسكندر فى رسالته السياسية لترى كيف نطق بهذه الآية قبل القرآن بنحو تسعة قرون . أذكر لك جملا تناسب المقام فأقول

﴿ أرسطاطاليس والاسكندر والسياسة ﴾

قال « يظن الناس أن الاستمتاع بالخيرات منهل عذب سهل سائغ شرابه وأن مقاساة الشدائد لايقوى عليها أحد . ولست أرى هذا صوابا بل الصواب عندى خلافه وذلك أن الناس اذا جرّبتهم الشدائد تحنكوا لما فيه مصلحتهم فاذا أظلتهم الأحوال تحركوا فيما يدفع ذلك عنهم واذا صاروا الى الامن والدعة مالوا الى الشره والفساد وخلعوا عذار التحفظ . وما أعسر أن تكون مع رخاء البال صيانة العقول بل قد يذهب ذلك بالعقل كثيرا ويذهله . فأحوج ما يكون الناس الى التأديب اذا صاروا الى الخفض والدعة فانه ان كانت الحروب قد تحدث فيها الأحداث فان ذلك يحدث والناس متحفظون حذرون . فأما فى حال الخفض فتحدث أحداث كثيرة والناس قارون مهملون لأمرهم وعند ذلك يحتاج العامة الى الأدب والسنة »

ثم قال « وليس الاستمتاع بالهدوء والخفض مما يحتمله كل أحد كما ظن هؤلاء ولوانه كان ذلك كذلك لوجب على الآباء أن يملكوا أبناءهم أموالهم من أوّل نشئهم . فكما انه لاينبغى أن تفوّض الأموال الى

الصبيان كذلك لاينبغي أن تفوّض الامورالى العامّة فان أخلاق العوام أشبه بأخلاق الصبيان وكلا الصنفين يحتاج الى الرقباء والمدبرين والعبرة فى ذلك أيضا قد ترى من تصرّف الأحوال وتنقل الدول فما بال الرياسات لاتثبت ولاتدوم على حال لصنف واحد وفى مدينة واحدة كالذى رأينا من نقلها فى بلاد آسيا وفى بلاد أوروبا وفى غيرها من المدن فقد ملك (أشور) حينا لأهل الشام وسوريا ثم خلف بعدهم أهل (ماه) ثم خلف بعد هؤلاء أهل فارس وكذلك نجده فى سائرالأمم فالقلعة فى هذا كله واحدة هى التى ذكرنا من أن التقلب فى الخيرات أصعب من مقاسات الشرور وكذلك نجد الذين نالوا الرآسة بنصب ومشقة ثم زيدوا فيها شيأ بعد شئ قد حنكتهم وثقفتهم التجارب أكثر ذلك ماتطول مدّتهم و يؤول الى السعادة وحسن العاقبة أمرهم . وتجد الذين نشأوا فى الخفض ووافتهم الامورعفوا فلم تصبهم شدّة ولم يمسهم خوف يصيرون الى ضد ذلك . وكذلك ترى المدائن تعمر وتعظم بالمشقة والنصب وتصيرالى الخراب بالرفاهية والخفض داعية الى البطالة والناس فى أكثر ذلك مائلون الى البطالة مستلذون بها وذلك أنهم يكرهون الأدب والسيرة الحسنة هربا من المشقة و يؤثرون الفراغ والبطالة طلبا للتودع و يفنون أعمارهم فى طلب اللعب واللهوصائرون الى الشقوة . وليس يكون مع البطالة وتعطيل الأدب بقاء ملك ولاذب عن حريم ولاصلاح عامّة »

ومما قاله أيضا « وكذلك المدائن التى دخلها الخلل والفساد انما أتيت من سوء أثر الرؤساء والمدبرين فصرفوا همتهم الى اللذات الزمنية فأهملوا التدبيرالباقى أثره وذكره على وجه الأرض أبد الدهرفقد ينبغى للمدبر أن لايتخذ الرعية مالا ولاماً كلا ولاقنية ولكن يتخذهم أهلا واخوانا وألايرغب فى الكرامة التى من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الأدب وصواب التدبير »

ثم قال بعد كلام « واعلم أن الأيام تأتى على كل شئ فتخلق الأفعال وتمحو الآثار وتميت الذكر إلا مارسخ فى قلوب الناس محبة تتوارثها الأعقاب فاجتهد بالظفر بالذكر الجليل الذى لايموت . واعلم أن المدائن التى دخلها الخلل والانتشار أتى ذلك اليها من سوء رسوم الرؤساء والمدبرين وذلك انهم آثروا جرّ المنافع الى أنفسهم على تفقد أمورالعامة وتقويم سنن المدن وصرفوا هممهم فى تعجيل اللذات الزمنية وأهملوا التدبيرالباقى أثره وذكره على وجه الأرض والدهر، وقد رجوت أن تكون عواقب أمورك الى سعادة وأن تجتمع لك الخصال المحمودة عند اليونانيين لأنك حقيق بها . واجتهد أن تظفر بالذكر الذى لايموت بأن تودع قلوب الناس محبة تبقى بها ذكرمناقبك وتشرف بها مساعيك على الأبد والسجود لذكرك والنجوع لفضلك والسلام اليك وعليك » اهـ

أيها الذكى انظر فى كلام (ارسطاطاليس) وانظرالى (الاسكندر) كيف سارعلى هذه الطريقة وانظر فيما هوأهمّ من ذلك كيف جاء هذا كله مختصرا فى الآية . يقول الله إن إمدادكم بالمال والولد ليس مسارعة بالخيرات بل أنتم لاتشعرون . والتعبير بعدم الشعورقد أطال فى وصفه (أرسطاطاليس) فقد جعل النعمة والمال والولد والخفض والدعة وما أشبه ذلك من أبواب الشقاء . جعلها مدعاة للبطالة . مدعاة لخراب البلاد مدعاة للذم . مدعاة لتنقل الدول . مدعاة لتنقل الرئاسة . مدعاة للذل الأبدى . فواها للعلم وواها للحكمة انظرأيها الذكى وتعجب . يقول الله هنا المال والولد ليسا خيرا و يقول انما الخيرأن تعطوا المال لمستحقيه هكذا يقول الله فى هذه الآية ثم نرى أن هذا القول قد شرح قبل القرآن بنحو (٩٠٠) سنة . وأين شرح . شرح فى ﴿رسالة السياسة﴾ من أكبرفيلسوف الى أكبرملك فأصبحنا ونحن نفسر فى القرآن لاندرى أنحن فى دين يقرؤه العامة والجهلاء كما هوشأن سائرالديانات أم فى حكمة وفلسفة وسياسة وعمارة مدن . اللهم إن هذه المعانى تتعالى عن أنظار العامة ولايتطاول اليها إلا المتعلمون . اللهم إن العامة يسمعون مثل هذا الكلام فيقولون ان القرآن يصبونا و ينكرون ذلك فى قلوبهم وعلى ألسنتهم و يقولون كل ذلك لبسلونا نحن الجهلاء والحقيقة غير ذلك . وأرى الطبقة المتعلمة بعضهم ينفرمن مثل هذا و يعدّه كما يعدّه العامة . فمن لى بأن يعرف

الناس مرامى دينهم و يفقهوه و يرقوا شعبهم و يفهموا قوله تعالى أيضا ـ كلا إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى ـ وقوله ـ فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن * وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ـ ثم بعد ذلك أخذ يذم الانسان بأنه اذا أخذ فى النزع اعتراه الذم بأنه لاتصدق ولاصلى كأنه ظن أنه خلق ليهمل فى الوجود وهو جاهل نشأنه فعاش مهملا الأخلاق والعلوم لحبس المال وجهل تركيب جسمه و يفهموا أيضا قوله تعالى ـ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ـ الخ وقوله ـ فلاتعجبك أموالهم ولاأولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ـ وهكذا من الآيات التى شرح معناها أرسطاطاليس . فانظر كيف جعل الله المال والولد عذابا وجعله أرسطاطاليس لايحتمل أى ان الناس يتحملون النقم ولايتحملون النعم فكأن النعم ترديهم الى مهاوى الخسران والحروب ترفعهم الى العلا . ومقالة أرسطاطاليس قد ذكرت فى غير هذا المكان وأعدناها هنا لمناسبة الآية وللشرح الذى رأيته . وبهذا نفهم هذه الآيات ونعرف أن المسلمين لم يفطنوا لهذا الكتاب ولم يذيعوا معانيه حتى تفهمه الأمة وحتى يتأدب الخاصة به ولم يرد الله أن يكلفنا مالانطيق بهذه العلوم . كلا . فقد قال (ولانكلف نفسا إلا وسعها) فاذا حرض على انفاق المال فلم يرد أننا نعيش فقراء . كلا . بل الله يعلم مافى كل نفس من نية الخير والاصلاح وغير ذلك (ولدينا كتاب) وهو اللوح المحفوظ (ينطق بالحق) بالصدق (وهم لايظلمون) فلازيادة فى عقاب ولانقص فى ثواب (بل قلوبهم) قلوب الكفرة (فى غمرة من هذا) فى غفلة مما وصف به هؤلاء المؤمنون وهكذا كثير من المؤمنين غافلون مثلهم لايعرفون ولايعقلون . إن المتصدق الذى أبقى له ذكرا فى الدنيا وثوابا فى الآخرة سعيد وأن الغنى المترف المنعم بالمال والولد وهو غافل شقى فى هذه الدنيا معرض لزوال النعمة كما شرحه أرسطاطاليس (ولهم أعمال) خبيثة (من دون ذلك) متخطية متجاوزة ماوصف به هؤلاء المؤمنون (هم لها عاملون) معتادون فعلها فيجعلون المال للهو واللعب والتعاظم على الأقران فتشب ذريتهم على لعب القمار والجهالة والبطالة فتخرب الديار وتزول الممالك (حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) عذاب الأنفس وعذاب المدن وخراب القرى ويحتل البلاد غير أهلها كما حصل فى مصر لما اسرف القوم وعاشوا عيشة البذخ فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى ودخل الفرنجة البلاد وكما كان عليه ملوك الاسلام كخلفاء الترك الذين أوردوا الأمم الاسلامية موارد التهلكة . وكما كان عليه كثير من شيوخ الطرق الصوفية من جمع المال وكنزه وادخاره وهم قد احتالوا بأخذه من الأمة جهارا نهارا وقد ظهروا لهم بمظهر الصلاح فانقلب ذلك فى أعقابهم الى الاثرة بالأمر وهم أذلاء للفرنجة ـ والله لايهدى القوم الفاسقين ـ

فهاأنت ذا ترى كثيرا من الممالك الاسلامية طعمة للفرنجة كما حصل لأهل مكة إذ شدد الله عليهم لما دعا النبى ﷺ وقال ﴿ اللهم شدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ﴾ فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة . وهاأنت ذا ترى الأمم الاسلامية التى دخلها الفرنجة لايعيشون إلاعيشة البهائم فالفرنجة يسومونهم سوء العذاب و يأخذون أموالهم و يذلونهم و يمنعون العلم عنهم . كل ذلك لضلال الأمراء الذين كانوا يدبرون شؤنهم وأول مصيبة تنزل من الفرنجة تنصب على أولئك الرؤساء فيقيدون أعمالهم فى الأمة و يذلونهم فى قصورهم و يدسون لهم الدسائس ومن لم يوافقهم فى أعمالهم ورغباتهم طردوه . فمن هؤلاء المترفين من يصرخ بالاستغاثة ولامغيث بل يقال له بلسان الحال أو بلسان المقال قد فرطت والعبرة تتلو العبرة والآية تتلو الآية فكنت تعرض مدبرا . فلم لم تتدبر القرآن . ثم قال تعالى (اذا هم يجأرون) يصيحون مستغيثين قيل لهم (لاتجأروا اليوم) فانه لاينفعكم (إنكم منا لاتنصرون) أى لاتمنعون منا أو لايلحقكم نصر من جهتنا لأننا جعلنا التنعم والبطالة حاطا بالانسانية ومرجعها الى الحيوانية وهذا تعليل لما قبله لقد علمنا كم فلم تسمعوا (قد كانت آياتى تتلى عليكم) أى القرآن (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى ترجعون القهقرى وتعرضون عن الايمان (مستكبرين به) أى بالبيت الحرام أى مستعظمين بالبيت الحرام إذ كانوا

يقولون نحن أهل حرم الله وجيران بيته فلايظهر علينا أحد ولانخاف أحدا فيأمنون فيه وسائر الناس فى الخوف يقول الله تعالى مستكبرين بالبيت الحرام مستعظمين حال كونكم تسمرون (سامرا) هو مصدر جاء على لفظ الفاعل كالعاقبة أى حال كونكم سامرين متحدثين حول البيت مجتمعين وكان عامة سمركم فى القرآن فتقولون هو سحر أو شعر (تهجرون) بذلك السمر أى حديث الليل من الهجر بضم الهاء وهو الهذيان أو من الهجر بفتحها أى القطيعة • يقول الله كنتم حين سماع الآيات تعرضون عنها مستعظمين بأن البيت الحرام لكم وأنتم جيرانه فلاتضامون وأنتم تتحدثون ليلا فى أمر القرآن وذمه قاطعين الرحم (أفلم يدبروا القول) أى القرآن ليعلموا أنه الحق من ربهم وقد أتى لهم بحكمة عالية وسياسة منظمة (أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين) من الامن من العذاب فلم يخافوا كما خاف آباؤهم الأقدمون كاسماعيل وأعقابه فقد خافوا الله وآمنوا بكتبه ورسله ولم تبطرهم النعم كما أبطرت هؤلاء فالقانون المسنون واحد • ان ترادف النعم والناس آمنون العواقب يعقبها الخطر والهلاك فهؤلاء قد جهلوا (أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) أى أليس عرفوا محمدا ﷺ صغيرا وكبيرا وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود وهذا توبيخ لهم على الاعراض عنه بعد ماعرفوا من صدقه (أم يقولون به جنة) أى بل أيقولون وهكذا ماقبله وجنة أى جنون وليس كذلك (بل جاءهم بالحق) بالصدق (وأكثرهم للحق كارهون) لأنه يخالف شهواتهم وأهواءهم (ولواتبع الحق أهواءهم) بأن كان هناك آلهة شتى (لفسدت السموات والأرض ومن فيهن) فالعالم قائم بالحق وهم يكرهونه والحق يكون من جهة الالوهية فاذن يكون الإله واحدا ومن جهة النظام وحسن النسق فهو إذن منتظم فلوكان الاله متعددا لم يكمل النظام وتشتت • ولوكان العالم على غير نظام لم يثبت ولم تقم له قائمة (بل أتيناهم بذكرهم) صيتهم وهو القرآن كما قال تعالى — وانه لذكر لك ولقومك — أو وعظهم (فهم عن ذكرهم معرضون) لايلتفتون اليه (أم تسألهم خرجا) أى بل أتسألهم أجرا على أداء الرسالة (فخراج ربك) رزقه فى الدنيا وثوابه فى الآخرة (خير) لسعته ودوامه • والخراج يغلب فى الضرائب على الأرض وهو عادة يكون كثيرا ولازما • أما الخرج فهو مقابل الدخل وهو كل ماتخرجه لغيرك وليس ماتخرجه لغيرك فى اللزوم والدوام كالخراج ولذلك عبر به وقواه بقوله (وهو خير الرازقين) فهذا تقوية لكون خراج الله خيرا • وانما كان الله خير الرازقين لما نراه فى عمله فى هذه الأرض • ولقد تقدم فى سورة ﴿آل عمران﴾ عند قوله تعالى — وترزق من تشاء بغير حساب — ولقد مر فى هذا التفسير من حسن التلطف فى تربية الطير والوحش والحشرات والأنعام وماأفادها من غرائز وعواطف وحسن سعى فى سبل المعاش ولوأنك قرأت كل مامضى فى هذا التفسير مما أشبعنا به العقول فيه لفهمت قوله تعالى — ولوأن مافى الأرض من شجرة أقلام — الى قوله — مانفدت كلمة الله — وكيف تنفد وأنت لودرست حشرة واحدة لاستنفدت الحياة فضلا عن آلاف بل مئات الآلاف • ولقد يدهشك عين أصغر حشرة إذ تجد لها أى للعين الواحدة جملة عيون كل عين مستقلة ترى وحدها مستقلة عن العيون التى حولها أى أن عين النملة أو النحلة ليست كأعيننا فعين أحدنا واحدة ولكن عين النملة مثلا مركبة من عيون كعيون الغربال كل عين لها أعضاء خاصة بحيث تستقل بالمنظر عن جاراتها ولوفقئت واحدة لبقيت اللاتى حولها ينظرن وهن كثيرات نحو مائتين • ومنها ماتحتوى على أكثر وذلك سيتضح لك فى ﴿سورة النمل﴾ فاذا كانت العين الواحدة لحشرة صغيرة على هذا النمط والعين لم تخلق إلا لهدايتها لطعامها وشرابها فما بالك ببقية مايلزم لحياتها من أعضاء داخلة وخارجة وما أعد لها من رزق تحصله فى هذه الأرض — وما كنا عن الخلق غافلين — فهذه نبذة صغيرة من كونه تعالى خير الرازقين

لعمرى انما المجد والحكمة هذه الحكمة • انه لاحكيم إلا الله — إنه هو الحكيم العليم — ثم قال تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) ولما نفى تدبرهم القول ومنافاة القول لما جاء به الأولون وأن رسولهم

غير معروف لهم وجنون رسولهم وسؤالهم الأجر . لما نفى هذا كله لم يبق إلا انهم هم غير فطنين وقد دعاهم الى صراط مستقيم (وإنّ الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط) السوىّ (لناكبون) لعادلون عنه . ومعلوم أن خوف الآخرة أدعى الى عدم العدول عنه (ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضرّ للجوا) لثبتوا واللجاج التمادى (فى طغيانهم) افراطهم فى الكفر والاستكبار عن الحق وعداوة الرسول (يعمهون) عن الهدى * ولقد جرت عادة المفسرين فى مثل هذه الآية أن يذكروا أن أهل مكة قحطوا حتى أكلوا العلهز فجاء أبو سفيان الى رسول الله ﷺ فقال أنشدك الله والرحم . ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين . قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع فنزلت (ولقد أخذناهم بالعذاب) أى القتل يوم بدر (فما استكانوا لربهم ومايتضرّعون) بل أقاموا على العتوّ وتمادوا على الباطل (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) يعنى الجوع فانه أشدّ من القتل والأسر أو القتل والأسر يوم بدر أو الموت أو قيام الساعة (اذا هم فيه مبلسون) آيسون من كل خير واعلم أنى لم أجد لذلك أثرا فى كتب الصحاح الستة عند تفسيرهم هذه الآية فهاهوذا أمامى كتاب ﴿ تيسير الوصول لجامع الاصول ﴾ فلم أجده ذكر شيأ من ذلك فى تفسير هذه السورة وأيضا هذه السورة مكية والنبى ﷺ فى مكة كان بين ظهرانيهم ـ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ـ فاذن كان العذاب بعد خروجه من مكة و بعد الخروج من مكة كيف تكون السورة مكية . وأيضا كيف يؤمن أبو سفيان أن محمدا ﷺ مقبول عند الله فيستجاب دعاؤه فيأتى اليه فيستغيث به . كل ذلك فى حاجة الى تمحيص . ولما فرغ من الآيات التى تخيف العباد شرع فيما هو أهم وهو مايقنعهم من طريق العقل فقال (وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والافئدة) لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا (قليلا ماتشكرون) أى لم تشكروا هذه النعم (وهو الذى ذرأكم فى الأرض) خلقكم (واليه تحشرون) تبعثون (وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار) تدبير اختلافهما فيزيد فى أحدهما ماتنقصه من الآخر بنظام كما تقدم فى سورة الحج والبقرة وهو فيها أظهر وكذا فى غيرهما من السور (أفلاتعقلون) بالنظر والتأمل ولكم أفئدة وأسماع وأبصار وماخلقناها لكم إلا لتستبصروا وتتفكروا فى خلقكم وتصويركم ورزقكم واحيائكم واماتتكم (بل قالوا مثل ما قال الأوّلون) أى قال كفار مكة كما قال آباؤهم الأوّلون (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) محشورون . قالوا ذلك على وجه الاستبعاد (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هـذا من قبل) أى وعد قوم آباءنا هـذا وذكروا انهم رسل الله فلم نر له حقيقة (إن هـذا إلا أساطير الأوّلين) أكاذيب الأوّلين (قل) يامحمد لأهل مكة (لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون) ان كنتم من أهل العلم (سيقولون لله) لأن العقل يأبى غير ذلك (قل) يامحمد لهم (أفلاتذكرون) فتعلموا أن من خلق هـذه العوالم العجيبة لايخلقها سدى بل انما يخلقها لغاية ولاغاية إلا بقاؤها بعد هذه الحياة والا كان عمله بلافائدة (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلاتتقون) عقابه وكيف تشركون به شيأ وهو باعترافكم خالق تلك العوالم العظيمة أم كيف تنكرون بعثه للمخلوقين وذلك يستوجب أن يكون عمله عبثا فهل صاحب هـذه العوالم العجيبة العظيمة يفعل العبث (قل من بيده ملكوت كل شئ) أى خزائنه وملكه غاية ما يمكن . وهذه ﴿ درجات ثلاث ﴾ للملك (١) الأرض ومن فيها (٢) والسموات السبع والأرض الخ (٣) وملكوت كل شئ أى ماهو أعم من السموات والأرض فلذلك ناسب أن يقول (وهو يجير ولايجار عليه) أى يغيث من يشاء ويحرسه ولايغاث أحد ولايمنع منه وذلك لأنه ليس فى العوالم كلها ماهو خارج عن قبضته فهو يغيث وليس أحد فى ذلك كله بقادر أن يمنع منه (إن كنتم تعلمون) فأجيبوا (سيقولون لله قل فأنى تسحرون) تخدعون وتصرفون عن توحيده وطاعته فاذا كان هـذا معتقدكم ورأيكم فلماذا تشركون به بعض الأوثان أم كيف تقفون عقولكم على مخلوق عاقل أو غير عاقل وهو قد دبر الجميع فاذن يكون المعرضون عنه المغرمون ببعض البشر أو بعض الأصنام قد سحرت عقولهم كأنها قد نوّمت ذلك التنويم المغناطيسى فغاب عنها عقلها وتصوّرت الشئ على خلاف ماهو عليه كما

يعطى المنوّم (بفتح الواو) السكر و يقال له هذا حنظل فيلفظه حالا . فهاهوذا قد سحر وأخذ عقله ولوى عن مراده وضلّ وهذا شئ أصبح مشاهدا كما ذكرته فى سورة البقرة فان التنويم المغناطيسى المذكور سار فى جميع الأمم . ومعنى هذا أن القول وتكراره على الأفئدة يخدع العقل والحواس حتى تنصرف النفوس عما تعرفه وتتوهم صدق مايقال لها ولذلك كثرت الفرق فى الأمم الاسلامية وابتدع الرؤساء الدينيون والسياسيون من الأساليب ماخدعوا به عقول الشعوب ومن الخدع كثرة التكرار على العقول والحث والحض فان ذلك يخدع الناس و يصرفهم عن الحقائق وأوروبا قد استعملت ذلك فتخدع أبناء العرب الذين فتحوا العالم قديما وتوهمهم انها تفعل لخيرهم وهى تقتلهم وتغيب عنهم شمس العلوم وتقول لهم أنتم لاتصلحون للحياة الحرّة ودينكم لم يكن دين مدنية ولغتكم لاتصلح للعلوم وجنسكم لايصلح للرقى وهكذا ونحن آباؤكم الرحماء وما أشبه ذلك . فهذا وتكراره على الأذهان سنة فسنة وجيلا فجيلا يصرف الناس عن عقولهم وعن مجدهم و يسحرهم . هذا سرّ من أسرار القرآن إذ عبر بالسحر فى مقام الانصراف عن الحقائق الملموسة فان قوما يعترفون بالله خالق العالم كله و بعد الاعتراف يقولون إن له شريكا فلامعنى لهذا إلا أن العقول مسحورة والعالم كله اليوم قد قام بنظرية السحر . فأمم أوروبا ساحرة وأمم الشرق مسحورة إلا من فطنوا وقام فيهم مجدّدون فانهم نهضوا بقومهم . ولفظ السحر هنا قد جمع علوم السياسة الاوروبية الاستعمارية وأنزلها فى القرآن ليتدبرها المسلمون وليعلموا أن الناس قد تكون لهم أسماع وأبصار وأفئدة ولكنهم يتركونها مكتفين بما سمعوا والمسلمون اليوم مسحورون إلا من رحم ربك . مسحورون عن علوم الدنيا . لماذا . لأن الاستاذ قال فى الدرس لايجب عليك إلا علم الفقه وعلم التوحيد . فاذا نظر التلميذ المسكين العوالم المحيطة بنا من شمس وقمر وكواكب ومعادن ونبات وحيوان وقال أى أستاذ هذه مخلوقات ربى أفلا أدرسها يجيبه هل تعرف صفات الله وصفات الأنبياء فيقول نعم فيقول له كفى لايجب عليك شئ فيقول يا أستاذى إن الله ذكر هذه العلوم كثيرا فى القرآن فيجيبه نعم ولكن المدار على انك تعرف الله بالأدلة التى فى كتب التوحيد فيكرر هذا القول على مسامع التلاميذ فيسحرون و يذهب الدين والمواهب التى وهبها الله لهم هكذا الاوروبيون يأتون بلاد الشرق فيسحرون أعين الناس و يسترهبونهم و يجيؤن بسحر عظيم وذلك بالمدافع والرشاشات فيدهشون الشرقيين و يقولون لهم نعطيكم الشهادة الثانوية فى علوم ليس فيها شئ من العلوم التى حولنا فلا نبات ولاحيوان ولاتشريح ولافلك و يوهمونهم انهم علماء فيصبحون مسحورين وهذا هو السحر الحقيقى الدائم الذى يصرف العقول عن المواهب والأبصار والاسماع . والله لقد تعاون بعض رجال الدين قديما وأهل أوروبا حديثا على سحر الأعين فسحروها . فمن للمسلمين اليوم إلا نصر الله ــ ألا إن نصر الله قريب ــ

هذا هو السحر الذى سحر به المسلمون . فلئن سحر الكفار بعبادة الأصنام فقد سحرت أبصارنا نحن المسلمين عما أبدعه الله وزين لنا الجهل فى صورة العلم والخيبة فى صورة النجاح . هذا هو الذى فهمته فى قوله تعالى ــ فأنى تسحرون ــ فلم ينزل الله مثل هذا القول لنسمعه فنقول هذا أمر مضى وانقضى وأنا الآن لست أعبد الأصنام وأنا خير من أبى جهل وأمثاله فقد عرفت وهم جهلوا . نعم نحن خير لأنا آمنا ولكن المؤمن الجاهل معذّب فى الدنيا والآخرة ، وعبر الله بالسحر ليفتح لنا باب التفكر فى ضحك الغرب على الشرق سياسة . وضحك رؤساء الطرق على تابعيهم نذالة وجبنا وضحك العلماء الرسميين فى كل أمة على تلاميذهم ليصرفوهم عن عجائب الله تعالى وجماله و بهائه و بهجة صنعه واتقانه وحكمته فيقولون لهم كفاكم الايمان أو الكتب التى وضعها فلان وفلان أو التسابيح والذكر والتلاوة البليدة الغافلة ونحو ذلك فكل هذا من السحر وكل هذا من مقصود قوله ــ فأنى تسحرون ــ ثم قال تعالى (بل أتيناهم بالحقّ) من التوحيد والوعد بالنشور (وانهم لكاذبون) لانكارهم ذلك لأنهم سحرت عقولهم بخدع الآباء وتكرار القول والعادة التى

هى طبيعة خاصة (ما اتخذ الله من ولد) وكيف ذلك وهولامثل له (وما كان معه من إله) يشاركه فى ألوهيته (إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) أى لوكان معه آلهة كما يقولون لذهب كل إله بما خلقه وحارب الإله الآخر وتغالبوا كما نرى فى ملوك الدنيا فلم يكن إذن بيده ملكوت كل شئ وقد أقررتم بذلك (سبحان الله عما يصفون) من الولد والشريك ثم وصف نفسه تعالى بصفة العلم بعد القدرة العامة فيما تقدم للاستدلال على الوحدة فقال (عالم الغيب والشهادة) وهم موافقون على ذلك لأنهم أقروا بأنه له ملكوت كل شئ إذن فهو عالم بما غاب وماشوهد (فتعالى عما يشركون) ولما كان ذلك يوجب وقوع العذاب فى الدنيا والآخرة قال تعالى (قل رب إما ترينى مايوعدون) ماوعدتهم به من العذاب فى الدارين (رب فلاتجعلنى فى القوم الظالمين) قرينا لهم فى العذاب فان شؤم العذاب قد يعم كما نرى النار قد تحرق ثوب الناسك الذى لاذنب له * قال الحسن « أخبر نبيه ﷺ أن له فى أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فأمره بهذا الدعاء » ثم قال تعالى (وانا على أن نريك مانعدهم لقادرون) وانما نؤخره عنهم لأنا نعلم أن بعض أعقابهم و بعضهم سيؤمن (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) أى ادفع السيئة بالاحسان فى مقابلتها واصفح عنها وانما يكون ذلك اذا لم يظن ذلك وهنا فى الدين نحن أعلم بما يصفونك به فنجازيهم عليه فكل أمرهم الينا (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) وساوسهم ونزغاتهم ونفخهم ونفثهم ودفعهم بالاغواء الى المعاصى والهمز النخس ومنه مهماز الرائض فرسه . شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الراضة الدواب على المشى والجمع للمرات (وأعوذ بك رب أن يحضرون) ويحوموا حولى فى شئ من أمورى لأن الشيطان اذا حضره يوسوس له وأهم مايطلب ذلك فى حال الصلاة وقراءة القرآن وحضور الأجل فان الشياطين تلهى القارئ عن المعانى وتلهى المحتضر عن تذكر ربه وتلهى المصلى عن التفرغ لتذكر ربه . يقول الله — نحن أعلم بما يصفون — أى فهم لايزالون يشركون (حتى اذا جاء أحدهم الموت قال) تحسرا (رب ارجعون) ردونى الى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وجملة قوله — وقل رب أعوذ بك — الى قوله — يحضرون — اعتراض لتأكيد الاغضاء بالاستعاذة بالله (لعلى أعمل صالحا فيما تركت) أى فى الايمان الذى تركت وفى المال وفى جميع أحوال الدنيا (كلا) ردع (إنها كلمة) أى قوله — رب ارجعون — الخ والكلمة الطائفة من القول المنتظم بعضها مع بعض (هو قائلها ومن ورائهم برزخ) أى ومن أمامهم ومن بين أيديهم حاجز عن الرجعة وهو القبر (الى يوم يبعثون) منه وهو اقناط لهم عن الرجوع الى الدنيا وانما يرجعون الى حياة أخرى غير حياة الدنيا . ثم أخذ يشرح تلك الحياة الجديدة وأحوالها فقال (فاذا نفخ فى الصور) جمع صورة * وقرئ — الصور — بضم ففتح وهو ظاهر فى هذا المعنى (فلا أنساب بينهم يومئذ) تنفعهم فان التعاطف زال للدهشة والحيرة (ولا يتساءلون) ولايسأل بعضهم بعضا كما يكون ذلك فى الدنيا إذ ينفع الأرحام بعضهم بعضا و يسأل بعضهم بعضا فأما كون بعضهم يقبل على الآخر فيسأله فذلك بعد الاستقرار فى الجنة واستقرار أهل النار فى النار و يكون ذلك بعد النفخة الأولى و بعد النفخة الثانية أيضا إذ يؤخذ بيد العبد و يقال من كان له حق فليأت الى حقه فيفرح المؤمن أن يكون له الحق على أقرب الناس اليه فيأخذه منه فأصبح النسب غير مانع من ذلك وأيضا لايتفاخرون ولايتساءلون سؤال تواصل لأن الأنساب إذن لاتفيد وانما تفيد الأعمال (فمن ثقلت موازينه) موزونات عقائده وأعماله وأخلاقه (فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالنجاة (ومن خفت موازينه) أى ومن لم يكن له أعمال وآراء تستحق الاعتبار فتوزن (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) غبنوها فأضاعوا كمالها الذى كانت مستعدة له (فى جهنم خالدون * تلفح) تحرق (وجوههم النار وهم فيها كالحون) عابسون أو متقلصو الشفتين عن الأسنان من شدة الاحتراق و يقال لهم (ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا) أوشقاوتنا على وزن سعادة ووزن كتابة أى ملكتنا الأخلاق والعادات فحبستنا فى سجنها

المظلم فلم تر النور ولم نعرف الحقائق (وكنا قوما ضالين) عن الحق ذلك لأن الخلق متى ثبت فى الانسان وأحاط به منعه التجاوز عنه كما يرى فى شاربى التبغ والخمر والمواد المخدرة والمولعين بالعظمة والكبرياء والمغرمين بالاسراف فهؤلاء قد يعرفون الحقائق ولكن الاعتياد والريا وخشية الناس ملكتهم فلايقدرون على التخلص من ذلك (ربنا أخرجنا منها) من النار (فان عدنا) الى التكذيب (فانا ظالمون) لأنفسنا (قال اخسؤا فيها) اسكتوا سكوت ذلة وهوان أوابعدوا كما يقال للكلب اذا طرد اخسأ (ولاتكلمون) أى فى رفع العذاب أولاتكلمون أصلا وذلك لأنه لامناسبة بينى و بينكم لأنكم ماديون وأنا فوق المادة وانما يكلمنى من صفى نفسه من المادة وتقرب منى باحتقارها و بالتبحر فى العلم والحكمة . ويقال إن هذا آخر كلام يتكلمه أهل النار ثم لا يكون منهم بعدها إلا الزفير والشهيق وعواء كعواء الكلاب لايفهمون ولايفهمون فانهم أولا يدعون مالكا خازن النار - يا مالك ليقض علينا ربك - فلايجيبهم ثم يقول - انكم ماكثون - ثم ينادون ربهم - ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون - فيدعهم مثل عمر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم - اخسؤا فيها ولاتكلمون - الى آخر ماتقدم وهذه ليست فى الصحاح ثم قال تعالى (إنه كان فريق من عبادى) أى المؤمنين كأهل الصفة (يقولون ربنا آمنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا) تسخرون منهم وتستهزؤن (حتى أنسوكم ذكرى) من فرط اشتغالكم بالاستهزاء بهم (وكنتم منهم تضحكون) قد كان كفار قريش يستهزئون بالفقراء من أصحاب رسول الله ﷺ كبلال وعمار وصهيب وخباب (إنى جزيتهم اليوم بما صبروا) على أذاكم واستهزائكم (أنهم هم الفائزون) أى فوزهم بمجامع مايطلبون (قال) الملك المأمور بسؤال الكفار لهم يوم البعث (كم لبثتم فى الأرض) فى الدنيا وفى القبور (عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) لأنهم نسوا مدة لبثهم فى الدنيا من الهول والشدائد (فاسأل العادين) أى الملائكة الذين يحفظون أعمال بنى آدم وهم خالصون أصالة من المادة فلاعذاب عليهم ينسيهم الحساب (قال إن لبثتم إلا قليلا لوأنكم كنتم تعلمون) أى مالبثتم إلا قليلا لوأنكم كنتم تعلمون قدر لبثكم فى الدنيا فهذا تصديق لهم (أفحسبتم) أيها الناس (أنما خلقناكم عبثا) أى عابثين فنحن لم نخلقكم تلهيا بكم وانما خلقناكم لنهذبكم ونعلمكم فترتقوا بأنفسكم و بمجرد اختياركم مع سابق علمنا و بتربيتنا الى عالم أرقى مما أنتم فيه فلم نخلقكم عابثين وقوله (وأنكم الينا لاترجعون) معطوف على - أنما خلقناكم - (فتعالى الله الملك الحق) أى التام الملك لاملوك الأرض الذين ملكهم معرض للزوال (لاإله إلاهو رب العرش الكريم) الحسن وتقدم معنى العرش فى ﴿ هود و يونس ﴾ (ومن يدع مع الله إلها آخر) يعبده (لابرهان له به) أى لاحجة ولابينة له به لأن ذلك مستحيل (فانما حسابه عند ربه) فهو يجازيه وهذا جواب الشرط (إنه لايفلح الكافرون) انه أى الشأن . ابتدأ الله السورة بفلاح المؤمنين وختمها بعدم فلاح الكافرين ثم علمنا كيف نسأل المغفرة والرحمة فقال تعالى (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) فرحمة الله تغنى عن رحمة غيره * روى انه عليه الصلاة والسلام قال ﴿ لقد أنزلت على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ - قد أفلح المؤمنون - حتى ختم العشر ﴾ انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثالث من السورة . وهنا ﴿ أربع جواهر ﴾

(الأولى) فى قوله تعالى - يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون -

(الثانية) و (الثالثة) فى قوله تعالى - كل حزب بما لديهم فرحون - وفى قوله تعالى - وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة -

(الرابعة) وهى جوهرة فى نور الأنوار وسر الأسرار فى قوله تعالى - فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون -

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى ـ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم * وان هذه أمتكم أمة واحدة ـ الخ ﴾

قد تقدم الكلام على اتحاد الأمم المنتظرة فى أوّل (سورة الحج) وتقدم أيضا فى (سورة الكهف) كلام عام فى الذى حلّ بالمسلمين من الخلاف فى الخلافة وكيف تقطعوا فرقا وذاق بعضهم بأس بعض وهاأناذا الآن أشرح هذا المقام بشرح أوسع وأبهج وأجل

فاعلم ياصاح أن هذا التفسير جاء فى زمان ظهور الحقائق وانتشار الروح السعيدة فى هذا النوع الانسانى . ولقد كنت ألفت كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ قبل الحرب العظمى بأربع سنين ونشر إذ ذاك وما كنت أعلم أن ما أكتبه إذ ذاك أى منذ ثمانى عشرة سنة وذلك سنة ١٩١٠ م سيصبح فكرة عامة عند الأمم الشرقية والغربية إذن أنا أحمد الله عز وجل حمدا كثيرا على ما ألهم وعلم وزرع فى الأفئدة الشرقية والغربية الآن فكرة كانت ضئيلة قبل الحرب العظمى فسأذكر لك الآن ملخصا من كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ثم أتممه بما ألقاه محافظ (كابول) ببلاد أفغانستان فى شهر يونيه سنة ١٩٢٨ ثم ماتلاه بعد ذلك فى شهر أغسطس من هذه السنة أيضا بعنوان « ميثاق السلم ونبذ الحرب بين الأمم » ثم أتبعه بفكرة عامّة فى الموضوع . فهنا ﴿ أربعة فصول ﴾

﴿ الفصل الأوّل ﴾ فيما جاء فى كتابى ﴿ أين الانسان ﴾

﴿ الفصل الثانى ﴾ فى خطاب محافظ كابول بمصر

﴿ الفصل الثالث ﴾ ميثاق السلم ونبذ الحرب

﴿ الفصل الرابع ﴾ فكرة عامّة فى هذا الموضوع

﴿ الفصل الأوّل فى ملخص مما جاء فى كتاب أين الانسان ﴾

ألخص لك أيها الذكى هنا (الفصل العشرين) من كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ ففيه استخراج السلام العام فى الأمم من النواميس الطبيعية والنظم الفلكية والفطر الانسانية وبيان السياسة على أساس الطبيعة وأن مدنية اليوم حيوانية ودعوة الناس للانسانية الحقيقية . وبيان أن الانسان لم يفهم انسانيته وخطاب موجه لفلاسفة الأمم ثم نوّابها وملوكها يدعو الأوّلين لبحث هذا الموضوع والآخرين للتعاون على العمل . وهناك جاء ما ملخصه

(١) إن عدد الذكران والنساء فى المواليد على سطح الكرة الأرضية يكادون يتساوون وهذه قاعدة لم تخطئ إلا نادرا لعارض

(٢) وكما حصل ذلك فى الذكورة والانوثة حصل فى القوى والملكات فلا يكون الجمال المفرط ولا الذكاء المفرط ولا القوّة المدهشة إلا نادرا على مقدار الحاجة لذلك

(٣) الأمم الوحشية لم تفقد الذكران أو الاناث حتى تقترضهم من أمم أخرى فهكذا هى لا تفقد العقول الكبيرة المستعدّة لادارة شؤنها وارتقائها علما وعملا

(٤) اذا تركت تلك العقول فى الأمم الضعيفة خسر الانسان العام خيرات من الأرض ومن الهواء والماء على مقدار تلك العقول المتروكة

(٥) الأمم القوية خسرت من ربح الأرض على مقدار ما خسرت من عقول الأمم الضعيفة

وفى صفحة (٢٣٢) و (٢٣٣) من الكتاب فى الفصل العشرين المذكور ما نصه . هذه أهمّ مباحث هذا المقام

(١) هل قوى نوع الانسان موزعة عليه توزيعا حسب الحاجة كما فى الذكورة والانوثة

(٢) هل المنافع موزعة على سطح الكرة الأرضية توزيعها على العقول

(٣) أيهما أنفع للأمم الرشيدة أتسير على منوالها المرسوم ولا تتجاوز فى سياستها أصغر الحيوانات كالنمل أم تعدل عنها الى شرفها وإسعادها وصداقتها

(٤) اذا كثر تعداد أمة أفلا تعطى أرضا من بلاد أخرى بمقدار نموها

(٥) أيحسن أن تحمى أراضى الأمم العامرة والغامرة

(٦) أوليس من الجهل الفاضح أن تصرف قوى الأمم الى قتال أنفسهم و يذرون محاربة الطبيعة لاخضاعها أوليس من الواجب أن يوضع ناموس عام لاصلاح الأرض فى كل أمة وتمدين الشعوب التى هى نصف رشيدة والتضافر بعد ذلك على اصلاح الباقى من الأمم طوعا أوكرها ثم يبين مقادير ثمرات العقول الخامدة ان أوقظت من غفلتها وما فوائد النحل الأمم الرشيدة منها

(٧) أليس سعادة الانسان فى أن يكون ذا ملكة فى فن خاص تضارع غرائز الحيوان كنسج العنكبوت وهندسة النحل. فاذا وصل النوع الانسانى الى هذه الملكات فما مقدار الفوائد إذ ذاك

(٨) الدول اللاتى تربح من أضعاف غيرها وجهله فما الذى يجب أن يستعيضوا به عن الربح بدل ما فقدوه . هذا هو الذى أردت تلخيصه من هذا الفصل فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ الذى نشر قبل الحرب العظمى و به انتهى (الفصل الأول)

﴿ الفصل الثانى فى خطاب محافظ كابول فى فندق الكنتننتال بمصر فى شهر يونيه سنة ١٩٢٨ ﴾

ألست تعجب أيها الذكى أن ما كنت أكتبه منذ ثمانى عشرة سنة بصفة رأى خاص لى أصبح الآن يخطب به على المنابر فى بلاد الغرب وفى بلاد الشرق على رؤس الأشهاد . اللهم إنى أحمدك على نعمة التوفيق وعلى نعمة العلم وعلى انك أنت أبقيت حياتى حتى رأيت أهل الشرق عامة والمسلمين خاصة يجهرون بمثل ما كنت استنبطه استنباطا عقليا . فانظر الى انتشار هذه الآراء بين الأمم بعد الحرب العظمى وانتقالها من أمة الى أمة فهاك صورة الخطبة التى ألقاها على أحمد خان محافظ كابول بذلك الفندق بمناسبة ابرام معاهدة الصداقة بين مصر وأفغانستان . فمنها قوله ﴿ إن يقظة الشرق ووحدة مشاعره ليست وليدة المصادفة بل انها ثمرة الصبر الطويل والتفكير وقد شملت الشرق جميعه من جبال طوروس الى أرز لبنان لجبال البامير بالهند الى سهول أفغانستان فالبوادى العربية فالعراق ففارس فالهند فالصين فسيبريا فاليابان . إن ممالك الشرق القديم قد استفاقت اليوم من رقادها الطويل فنهضت وتقدمت طالبة اللحاق بمن تقدمها يقودها زعماؤها الذين بثوا فى سواد شعوبها مشاعر الاخاء والائتلاف والتعاون على الاتحاد ولا مطمح لهذه الشعوب غير عقد روابط الصداقة والولاء ونشر السلام العام وشعارها (الناس اخوة) . إن الأمم كالأفراد يسودها الشعور بحاجتها أينما حلت وكيف وجدت تحدوها الى نشدان الاتحاد والائتلاف بقطع النظر عن الجنس والمذهب ومتى توفرت لها البواعث للروابط والانضمام أمكنها إذ ذاك بلوغ مقاصد النجاح والهناء فتصل الى درجة من التمدن الصحيح الذى يبعثها على الوحدة التى تدرك بها القوة ومتى أدركتها تسنى لها أن تحمل راية السلام التى ينطوى فيها الهناء ونعومة البال و بها تتمكن من ادراك وحدة التصورات والأفكار و بلوغ المطالب الرفيعة وتلك هى غرض شعوب الشرق كيفما تنوعت المقاصد . فلولا تلك الحية المضرمة فى صدور تلكم الشعوب المتباينة أجناسا المقيمة فى متعدد البلدان والأوطان لم تكن لتوجد تلك المشابهة التامة والعلاقة فى ميولها ومشاعرها باجتذابها الأمم المتباعدة والأقوام المتنائية وتقريب مجموعها بعضها الى بعض بعاطفة القربى والاخاء . وليكن معلوما أنه ليس لممالك الشرق فى تحالفها واتحادها وجهادها فى سبيل السلم ونشدان الحرية من غرض وقصد سوى الاتصال والتقرب الى أمم الغرب كى يتمكن الطرفان المتباعدان من الاشتغال و بذل الجهود فى توفير الخير والهناء والسلام لبنى الانسان . وأقوى برهان نقيمه على ماقدمناه من الكلام فى هذا الصدد شعورنا بالمسرة والارتياح وهما دليلا التضامن والاخاء اللذين جمعا شعب هذه البلاد فى دائرة واحدة بفضل زعمائها القديرين وهى لا ترجو من وراء ذلك التضامن والاخاء سوى الاستمتاع بثمرات السلم ونعومة البال ومتى أدركتها بلغت

الى

الى اتمام التفاهم مع الأمم التى تتواصل واياها فى المعاملات ومبادلات الأفكار . ومما يؤسفنى أن أجد رجال جمعية الأمم على خلاف ماينبغى أن يكونوا عليه لأننى رأيتهم مختلفين فيما يجب اتخاذه من خيرالوسائل والطرق لتوطيد السلام العام بين الأمم وأراهم الى الساعة لم ينجزوا شطرا واحدا من مهمته العظمى لخيرالبشرية . وأحب أن أكون متفائلا لوقلت ان جمعية الأمم الشرقية المنتظرة تكون يوما خير معوان لجمعية الأمم الاوروبية لأنها تشدّ ازرها فى اكمال تلك المهمة الكبرى وانى قوىُّ الرجاء فى أنه لايمضى زمن طويل حتى أسمع صوتا من جمعية الأمم الشرقية مناديا بلزوم إكمال تلك المهمة الانسانية العظمى الساعية لاتمامها جمعية الأمم الاوروبية ويطربنى أن أقول انه كان من أثر زيارة جلالة الملك أمان الله خان لهذه الديار انعقاد روابط الودّ والتعارف مع حكومات بلجيكا وبولندا وجمهورية سويسرا وعقدنا معاهدات صداقة ووداد مع حكومة بريطانيا العظمى وجمهورية السوفيت وحكومة ايطاليا وجمهوريات فرنسا وألمانيا وتركيا وحكومة ايران . نعم ليس لنا فى القارّة الافريقية أصدقاء وليست لنا فيها علاقات . وان كان من حسن حظى اننى ندبت الى مهمة عقد معاهدة ودّ وولاء مع حكومة مصر . ويسرنى انها عقدت وأمضيت على أحسن ما يكون ﴾

ثم قال ﴿ وانى لأرجو أن تعقد معاهدة صداقة بيننا وبين جمهورية الولايات المتحدة وأودّ أن لايفوتنى مطلب جدير بالنظر ألا وهو ان قصد عقدنا تلك المعاهدات مع الحكومة المصرية هو ضرورة توثيق صلات الودّ والتعاون بين شعوب قارّتى افريقية وآسيا ﴾

ياحضرات الأصدقاء ﴿ تعرفون أنه ليس فى وسع شرقى يحترم ذاته أو يكرم وطنه أن يكتم سروره أو يضمر شعوره حتى يذكر له تقدم اليابان ووثبة الترك ونهضة أفغانستان ويقظة ايران وتقدم مصر وما أصابته من العزّة والنجاح أولايذكر ثورة سورية أولاتمرّ بمخيلته نهضة الشرقيين بالاجماع . كيف لايفرح الشرقى ويهتز طربا حين يتلى على سمعه ماتقدم من البيانات . الباعث الذى يحسه ويتأكده من أن الشرق أصبح قويا لأنه عرف بأن جاءت الساعة التى أمكنت شعوب الشرق أن تقف وجها لوجه أمام أمم الغرب فتطارحها القول مخاطبة إياها قائلة (أن ليس من همى وقصدى التنافس والسباق ولكن مقصدى أن أنقل عنك كل مايحسن اقتباسه من مدنيتك ولا أترك شيأ مفيدا) وهذا مايجب أن يكون صالحا لكلتا القارّتين العظيمتين . ليس ماشمل الأمم الشرقية من عوامل الجذل والسرور إلا لكونها مزّقت غواشى الجهالة والتعصب وانقبضت أيدى أهلها عن التذابح والتقتيل وأدركوا الواجبات المفروضة نحو أوطانهم واخوانهم فى الانسانية ذلك لأن مشاعر التعاطف والاخاء قد أوجبت عليهم هذه الفريضة نحو شركائهم فى البشرية . هلا كان ذلك لداعى انهم نبذوا الخلاف والشقاق واطرحوا النزاع أولأن كل أمة منهم كفت عن محاربة جارتها . كلا . ولكن لأنهم اتحدوا واجتمعوا أمّة واحدة وبهذا الاتحاد أمكنهم أن يقوموا بنصيبهم من العمل ويستعدّوا لخيرالانسانية جمعاء ناظرين الى جميع الأمم بأوطانها قاصيها ودانيها كأحلاف واخوان صدق بقطع النظر عن اختلاف اللسان وتباين العقيدة . ولا أكون مبالغا اذا قلت ان مصر جادة فى هذا السبيل فاننا نراها باذلة منتهى الجهد فى توثيق عرى الصداقة والسعى الى محالفة أكبر الدول وهو مأخذ لاينشده إلا أعاظم الرجال والأمم وهو الغرض الأسمى الذى تسعى اليه بلادى المحبوبة وهى بلاريب ستدرك ضالتها المنشودة . إن بلاد أفغانستان تبذل أقصى جهدها لتحقق روابط الصداقة مع شعوب العالم أجمع وتفرغ مجهودها لتوطيد قواعد السلام العام والاتحاد بين أبناء البشرية . اننى فى هذه اللحظة أطير فى سماء الخيال وأرى بعين البصيرة كما لو أن أجدادنا الذين رحلوا عن هذا العالم منذ مئات وآلاف السنين يخاطبوننا فتصل الينا أصواتهم عن طريق (اللاسلكى) منادية إيانا قائلة (إن أرواحنا تخاطبكم بلهجة الصدق والاخلاص وانها لتهزأ بكم وتسخر من مدنيتكم الكاذبة المصطنعة فانكم وسمتمونا بالخشونة والبربرية ولكن واحرقلو بنا منكم فانها لتهمة كاذبة

وهي مردودة عليكم ولا يلحقنا شي من عارها) . هـم يقولون لنا (إننا كنا محدّدين لذة العـلوم الحديثة والمخترعات الجديدة والعلماء المتبحرين ولم يكن لدينا شئ من جمال وكمال الأشياء والمواد التي هي اليوم بين أيديكم ولم يكن عندنا تليفون ولا تلغراف ولا (لاسلكي) ومع ذلك تعوّدنا على أن يقتل الواحد منا الآخر. انما كان يحدث ذلك نادرا عند ثورات الطبع وفي أحوال الجوع أو الغضب أو في أحوال كان الانسان لا يملك شعوره . وجهد ما كنا نعرفه من أساليب القتل هو استعمال أداة من شجر أو خنجر من حجر ولكنكم أنتم قد لطختم جمال مدنيتكم وعدلتم كمال مخترعاتكم . فبدلا من أن تكون هذه المخترعات وسائل خير وفضل صارت سبة وعارا على العصر الذي وجدتم فيه . لقد تعمدتم القتل على أهون سبيل بلا اكتراث ولا اهتمام واخترتم الغازات السامة للهلاك واستئصال بني الانسان واستخدمتم الكهربائية وطرق الاختراعات لتقصير الابعاد وتقريب المواصلات لا حبا بنفع بني النوع الانساني بل لفنائهم وقطع دابرهم من على وجه البسيطة . أما نحن فلم يكن في وسعنا القتل فوق الأرض وتحت سطحها وفوق صفحة البحر وفي أعماقه وفوق صفحة السحب وفي جلد السماء . وقد يأخذنا الاشفاق عليكم لأنكم أجهدتم أدمغتكم وقواكم العقلية وتفكيراتكم وبذلتم المال والملايين من الأصفر الرنان لاستزادة مخترعات الهلاك واستئصال النفوس البشرية التي حرم الله قتلها (إلا بالحق) ولم يخلقها إلا لاستمتاع الحياة وخدمة الآخرين . نعم انكم لا تقتلون أفرادا ولكنكم تفرغون جهودكم في استئصال بني نوعكم واخوانكم في البشرية . إننا وغرة جبين الحق نهزأ بمخترعاتكم ونسخر بأفعالكم ويحزننا أن نقول لكم ابقوا على حياة اخوانكم . لا تثيروا النزاع ولا تقوّوا أسباب الخصام والصراع . دعوا اخوانكم في البشرية يعيشون في سلام ويهنؤن بدعة الحياة . دعوهم يشتغلون لخير أنفسهم ولخير البشرية ولنفع أوطانهم . نعم إننا ارتكبنا ذنوبا ولكننا تبنا الى الله عنها وسألناه رحمة ومغفرة . أما أنتم فتصوّروا كيف تكون حالكم وبأيّ شئ تمثل مشاعركم عواطفكم حينما تسألون لتعطوا جوابا عن كبائركم وشروركم التي استفحل أمرها واستطار ضررها . فكيف إذن يقارن موقفكم بموقفنا والفرق بيننا وبينكم عظيم . إن جمعية الأمم التي نظمتموها لم تجز شيأ كما كان يجب أن تفعله على الحقيقة . ومن الواجب أن ترتبط بجمعية الأمم الشرقية وكلتا الجمعيتين تعملان يدا واحدة لخير وتقدم بني النوع الانساني وكان حقا لزاما على جمعية الأمم أن تصدر الأوامر التي كان يجب على دول الأرض المتعددة أن تمتثل أوامرها وتقوم بإتمامها . ما فائدة مصافحة اخوانكم في الانسانية بينما قلوبكم بعيدة عن استشعار أضعف العواطف اعتدادا بأن السياسة تقضي بذلك . ألا تعلمون أنه يجب علينا أن نكون مخلصين وصادقين في جميع مشاعرنا وعواطفنا حتى في السياسة فلا نستخدمها بطرق عوجاء لتكون سياسة المداهنة والتدليس . إن بعضا منكم يوافقني والبعض الآخر يخالفني ولكني أرجو أن يحمل نفر منكم أقوالي وأفكاري على محمل العطف بحسن النية والقصد . ويقيني انكم توافقون على مبادئ وتعاليم السلم والاخاء البشري فتمثلوا مقالي هـذا بقصيدة من الشعر أو مقال من النثر يبدو فيه جمال المطلع ولطف الأسلوب والقصد من سلامة الذوق . واني لأناشدكم السعي الى وجدان الوسائل لبث الدّعاية لذلك الغرض الأسمى الذي أعتقد انكم توافقون على الغاية المنشودة من ورائه بروح الاخاء العام . وانه ليسرّني ويطربني أن أقول ان مليكنا المحبوب جلالة (أمان الله خان) وجميع مواطني وشخصي الضعيف لا شأن لهم ولا غاية في مشايعة أو مناصرة دين على دين أو طائفة على أخرى بل اننا وبين الحق نرعى ذمة كل فرد من الناس ويسرنا أن نكون أصدقاء واخوان جميع الأمم والأشخاص ونعد أنفسنا إخوانا لكل دولة وأمة تحت أديم السماء مصافحين أولئك الاخوان بيد الصداقة الخالصة وشعارنا يفصح عن قصدنا بهذا القول «كونوا خلصاء وأمناء لجميع اخوانكم» انتهى

(الفصل)

﴿ الفصل الثالث في ميثاق السلم ونبذ الحروب الذي أرسلته الحكومة الأمريكية الى الأمم كلها ونشر في مصر يوم الخميس ٣٠ أغسطس سنة ١٩٢٨ ﴾

فما جاء فيه ما نصه ﴿إن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ورئيس الجمهورية الفرنسية وجلالة ملك بلجيكا ورئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا وجلالة ملك بريطانيا العظمى وارلندا والأملاك البريطانية فيما يلي البحار وأمبراطور الهند ورئيس جمهورية الريخ الألماني وجلالة ملك ايطاليا وجلالة أمبراطور اليابان ورئيس جمهورية بولونيا نظرا لما يشعرون به من الواجب الملقى على عاتقهم لزيادة خير الانسانية . ونظرا الى ايقانهم بأن الوقت قد آن للعمل على نبذ الحرب نبذا صريحا باعتبارها أداة لسياسة قومية توسلا لدوام بقاء العلاقات السلمية القائمة الآن بين شعوبهم . ونظرا الى اقتناعهم بأن كل تغيير في علاقاتهم بعضهم ببعض يجب أن لا يعمل له إلا بالطرق السلمية ولا يتحقق إلا بوسائل السلم والنظام و بأن كل دولة من الدول الموقعة تسعى من الآن فصاعدا لتنمية مصالحها القومية يجب حرمانها الانتفاع بمزايا هذه المعاهدة (كذا) . ونظرا الى أنهم يرجون أن جميع الدول الأخرى محتذية مثالهم لا تلبث أن تشترك في هذه الجهود الانسانية وأن تلك الدول بانضمامها الى هذه المعاهدة بمجرّد العمل بها تمهد لشعوبها سبيل الاستفادة بما احتوته نصوصها من المزايا فتجتمع بذلك كلمة شعوب العالم المتمدين على نبذ الحرب باعتبارها أداة لسياستها القومية نبذا عاما قد قرروا فيما بينهم ابرام معاهدة وعينوا لهذا الغرض المفوّضين اللازمين . و بعد أن تبادل هؤلاء المفوّضون وثائق تفويضهم التام و بعد أن تبينوا صحتها اتفقوا فيما بينهم على المواد الآتية

(المادة الأولى) تعلن الدول المتعاقدة في صراحة وتأكيد باسم شعوبها المختلفة أشد استنكارها للالتجاء الى الحرب لتسوية الخلافات الدولية كما تعلن نبذها إياها في علاقاتها المتبادلة باعتبارها أداة سياسية قومية

(المادة الثانية) تقرر الدول المتعاقدة بأن تسوية أوحل المشاكل والمنازعات أيا كان نوعها أوسببها يجب أن لا يعالج أبدا إلا بالوسائل السلمية

(المادة الثالثة) تصدق الدول المتعاقده المبينة أسماؤها في الديباجة على هذه المعاهدة وفقا لمقتضيات دساتيرها وتصبح المعاهدة نافذة بينها متى أودعت جميع وثائق التصديق في (وشنجطون)

وعند ما تصبح هذه المعاهدة معمولا بها على الوجه المشار اليه في الفقرة السابقة يباح لسائر دول العالم الانضمام اليها طوال الزمن اللازم لذلك وتودع الوثيقة الدالة على انضمام كل دولة في (وشنجطون) و بمجرّد هذا الايداع تصبح المعاهدة نافذة بين هذه الدولة و بين الدول الأخرى المتعاقدة . وعلى حكومة الولايات المتحدة أن تقدم الى كل من الحكومات المبينة في الديباجة ولكل حكومة تنضم الى هذه المعاهدة فيما بعد صورة طبق الأصل من المعاهدة المشار اليها ومن كل وثيقة من وثائق التصديق أوالانضمام . وعلى حكومة الولايات المتحدة أيضا أن تخطر تلغرافيا تلك الحكومات بكل وثيقة من وثائق التصديق أوالانضمام بمجرّد ايداعها . واشهادا بما تقدّم وقع المفوّضون ووضعوا أختامهم على هذه المعاهدة باللغتين الفرنسية والانجليزية على أن يعتبر كلا النصين مرجعا يعتمد عليه . وقد صدر بباريس في اليوم السابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ألف وتسعمائة وثمانية وعشرين

كل ما يتعلق بالتصديق على هذه المعاهدة والانضمام اليها من الأحكام مبين (كما تلاحظون معاليكم) في (المادة الثالثة) الأخيرة . فهذه المادة تنص على أن المعاهدة تصبح نافذة بمجرد ايداع تصديق جميع الدول المبينة أسماؤها في الديباجة في وشنجطون وعلى أن باب الانضمام اليها سيظل مفتوحا لجميع دول العالم كما ان وثائق الانضمام تودع أيضا في وشنجطون . وكل دولة ترغب في الاشتراك في هذه المعاهدة لها حق الانضمام اليها . وعلى ذلك فان حكومتي تكون سعيدة بأن تتلقى في أي وقت مناسب اعلان الانضمام من الحكومات

التى ترغب فى الاشتراك فى نجاح هذه الحركة الجديدة لسلم العالم بادخال شعوبها فى دائرتها المباركة . ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد أن هذه المعاهدة تنص بكل وضوح على أنها عند مايعمل بها تصبح نافذة بين الدولة المنضمة و بين باقى الدول المتعاقدة على وجه السواء وعلى ذلك فن الواضح أن كل حكومة منضمة ستشترك اشترا كاكاملا فى المزايا منذ الوقت الذى تصبح المعاهدة فيه نافذة . انتهى الفصل الثالث

﴿ الفصل الرابع فكرة عامة فى هذا الموضوع ﴾

سبحانك اللهم تبارك اسمك وتعالى جدك ولاإله غيرك أنت الذى خلقت هذا الانسان وقلت له بعد أن قطع آجالا طويلة تبلغ آلافا مؤلفة ــ وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ــ ثم ذكرت انهم أعرضوا فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ــ . اللهم إنك عاملت هذا الانسان معاملة الرفق والتربية الحسنة . فأوّلا قلت له إنى ربيتك والتربية تشمل جميع العلوم المجملة فى الفاتحة فى قوله تعالى ــ الحمد لله رب العالمين ــ وهى تشمل العوالم كلها ثم أمرته بالعبادة والعبادة ترجع الى ﴿ أمرين ﴾ العلاقة بين العبد وربه . و بينه و بين نفسه و بنى الانسان . فالأولى يرمز لها بنحو الصلاة لأنها صلة بين العبد وربه والثانية يرمز لها بنحو علم الأخلاق و بنحو الزكاة. فعلم الأخلاق يطهر النفس والزكاة وأمثالها لتحاب نوع الانسان والمودّة معهم . أما هذا الانسان فانه قد سها كثير من نوعه عن العلوم التى أمر بها فى قوله تعالى ــ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ــ مثلا وكثير منهم أيضا ضلوا السبيل فى معاملة بعضهم بعضا فهم فى حرب وضرب أمد الحياة . أمركم (كونفوشيوس) فى الشرق الأقصى قديما بالمحبة العامّة والمودّة وكذلك المصلحون من الهند مثل (خريستا) ومثل (بوذا) ثم جاء المسيح ابن مريم وأمر بالحب العام . كل ذلك جاء لنصح الناس أن يكونوا أمة واحدة . وجاء القرآن الشريف بالسلم وأن يكون الناس أمّة واحدة بالدخول فى الاسلام وهناك لا يكون حرب فلم يمكن ذلك

ألا تتعجبوا أن القرآن الذى جاء فيه محاربة الكافرين هو الذى جاء فيه آية تفيد أن الحرب ستنتهى يوما ما إذ قال تعالى ــ حتى تضع الحرب أوزارها ــ وقال علماؤنا ﴿ ذلك يوم لايبقى فى الأرض إلا مسلم أو مسالم ﴾ فانظر ماذا فعل الله لذلك اليوم أى يوم السلام العام . ألهم علماء الكيمياء والهندسة ذوى العقول العبقرية فاخترعوا آلات الحرب والدمار وكثر الاستعداد للحرب وآلات الهدم والتخريب . سبحانك اللهم أنت الذى سلطت على قطن الولايات المتحدة (كما تقدم فى سورة الأنبياء عند قوله تعالى ــ ونبلوكم بالشرّ والخير فتنة ــ) دودة اللوز ففتكت بنفس القطن داخل غلافه الذى يسمى باللوز . فهذه الدودة التى أرسلتها اليهم ففتكت بقطنهم هى التى علمتهم كيف يقتصدون فى زراعته وكيف ينتفعون بأرضهم فى زروع أخرى وكان ذلك الشرّ الناجم من الدود هو عين الخير الذى نصحت به الحكومة هناك والعلماء والخطباء فلم يفد يا الله نصح الناصحين هناك ولا خطب الخطباء ولكن الذى أفادهم انما هى دودتك التى وعظتهم بالعمل لا بالقول فنعم الخطيب خطيبك ونعم المعلم معلمك . فهكذا يارب عاملت الأمم كلها معاملتك لأهل أمريكا فى قطنها . أرسلت الأنبياء وألهمت الحكماء فقالوا للناس عيشوا بسلام فأبوا وتحاربوا وتقاتلوا ولم نجد فى التاريخ الحديث ولا القديم أمّة من امم الأرض إلا وقد افتخرت بالحرب والفتك وجعلته أهم فضائلها ومناقبها . هنالك أرسلت لهم خطباء غير الخطباء السابقين وماهم إلا تلك المدمرات . وهاك أيها الذكى ماقالته جريدة (منشستر جارديان) تحت عنوان ﴿ الحرب المقبلة ﴾

تبين من التمرّنات الحربية الجوّية الأخيرة أن الدفاع عن لندن غير مستطاع حتى فى رابعة النهار من هجمات الطيارات الحربية . فما نقول عن سائر المدن الانكليزية الأخرى . ماذا نقول عن (برمنجهام) و (منشستر) و (ليدس) و (لفربول) والجهات الشمالية (واسكوتلنده) . ولربّ معترض يقول ان (لندن) يمكن اخلاؤها ولكن أين تذهب ملايين السكان والى أين يلجؤن . أ الى المعسكرات والمضارب حيث يكونون

أكثر استهدافا للمخاطر مما لو كانوا فى مدينة ذات مبان عالية تقيهم شرّ الغازات السامّة وأقبية أرضية تخفف عنهم فتك القنابل الهائلة الانفجار . ربما كان هناك بعض الانصاف فى ما طرأ على حالة الحروب الحديثة من التغيير والتبديل فالملكيون لا الجنود هم الذين يصنعون الحرب فمسؤلية الحروب ليست على الجيش بل على الحكومات والبرلمانات والناخبين وكان الجنود فيما مضى هم الذين يقاسون ويلات الحرب . نعم ان الملكيين قد قاسوا وبال الحرب العالمية الأخيرة أيضا ولكن ذلك كان فى انكلترا أقلّ منه فى فرنسا وفى فرنسا أقل منه فى ألمانيا وفى ألمانيا أقل منه فى روسيا . ففى روسيا عانى الجميع أهوال الحرب سواسية فقد سقطت قنابل من الجوّ على لندن وباريس ومدن ألمانيا الغربية وفتكت بالرجال والنساء والأولاد . وقد شعر جميع السكان بهول الهجمات الجوّية وتولاهم الرعب ولكن سرعان ما نسى الناس المخاوف . وقد كان عدد الذين قتلوا وأصيبوا فى الحرب العالمية كبيرا جدا ومع هذا كان باعتبار البشر من الامور الطفيفة وكاد يصبح نسيا منسيا ولكن كل أوروبا الوسطى حوصرت وكاد الناس فى ألمانيا والنمسا يموتون جوعا ولم تكن حالة الملكيين غير المحاربين أفضل كثيرا من حالة الجنود المحاربين فى الصفوف الأمامية . ولهذا السبب بات الألمان والنمساويون يكرهون الحرب أكثر مما نكرهها نحن فى انكلترا . ولكن فى الحرب المقبلة سينال الملكيون فى انكلترا نصيبهم من الأهوال إذ من المؤكد أن الجنود فى الصفوف الأمامية (ان كان هناك صفوف أمامية) والبحارة فى السفن الحربية والطيارين فى الجوّ سيكونون أكثر طمأنينة من أهالى لندن أو منشستر أو غيرهما من المدن عند ما تكون طيارات العدوّ فى جوّها . وقد بدأ الانكليز يدركون الآن أهوال الحرب الجوّية ويعلمون أن مخاطرها فوق ما يتسنى للعقل البشرى تصوّره والفضل فى معرفة ذلك للتمرّنات الحربية الجوّية . فهل تفهم الحكومات هذا الفهم . ففى اليوم العشرين من شهر يونيو عام سنة ١٩١٨ وقف المستر (بلفور) وقال فى مجلس العموم البريطانى ما يلى

﴿ من يشعر بأهوال الحرب أكثر من الذين كانوا السبب فى اضرام نارها وعلى من تقع تبعة الدماء المسفوكة والأموال الضائعة ومن الذى يرزح تحت عبئها . وكيف يمكن أن يشعر رجل أو طائفة من الرجال أكثر مما يشعر بها الجالسون على هذه المقاعد ﴾

إن أقوالا كهذه جعلت الجنود فى الخنادق يدركون بعد الشقة السحيقة بينهم وبين الحكومات التى فى أيديها مصيرهم ولكن فى الحرب المقبلة سيكون الأهالى فى مدنهم وولاة الامور فى دواوينهم والجنود فى خنادقهم رفاق حرب سواسية أكثر مما كانوا فى الحرب الأخيرة . ولكن هل يزيد التقارب بينهم الى حدّ التفاهم المتبادل . لاريب أن الأهالى الملكيين والجنود سيتفاهمون ولكن أعضاء الحكومة يتسنى لهم أن يلتجؤا الى أماكن بعيدة ويتحصنوا فى معاقل مأمونة . ولكن فى الحرب المقبلة سوف لا تكون هناك أماكن بعيدة أو ملاجئ منيعة . وربّ معترض يقول انه مع هذا تكون الحكومات أقلّ استهدافا للمخاطر من الأهالى والجنود . فهل هذه الفكرة أو الافتقار الى سعة التصوّر ماحدا بالحكومات ولاسيما حكومتى انكلترا وفرنسا الى التلكؤ فى الموافقة على تحريم الحرب والتخوّف منه . إن ميثاق تحريم الحرب الذى هو أفضل مشروع قام به البشر حتى الآن قد أضعف وحطّ من شأنه بالتحفظات والتعابير حتى بات شبحا مما كان يقصد منه . ان الدوائر المتعقلة ذات الروية والتفكير العميق فى انكلترا غير مرتاحة الى ماحلّ بميثاق تحريم الحرب من البتر والانتهاك ولا يتسنى لأية حكومة أن تزدرى آراء هذه الطبقة ولاسيما عند ما نرى مساعى أمريكا السلمية ونشاهد ألمانيا تقبل الميثاق بلاقيد ولاشرط . أليس فى ذلك ما يخجل حكومتنا وحكومة فرنسا حليفتنا السابقة . كان من الواجب على انكلترا أن تكون هى الساعية الى تحريم الحرب ليس لما لها من النفوذ العظيم والمكانة العالية فى المدنية فحسب بل لأن عليها أن تهتم براحة رعاياها ومستقبلهم . لقد كان أهالى انكلترا فى القرون

القاهرة مطمئنين الى سكنى هـذه الجزيرة آمنين هجمات الأعداء بفضـل أساطيل دولتهم الضخمة وحصونها المنيعة . أما الآن فانهم معرضون للمخاطر كغيرهم بل أكثر من غـيرهم . نعم إن طيارات انكلترا يتسنى لها مهاجمة (باريس) و (كولون) ولكن الدفاع الجوّى عن لندن غير مستطاع إلا بطريقة واحدة وهى صد الطيارات قبل وصولها الى جوّ (لندن) ولكن لندن أكبر المدن وأقربها الى معظم قواعد الطيران الأجنبية فهى والحالة هـذه أسهل تدميرا من سواها وباريس وكولون معرّضتان لهجوم الطيارات مثل (منشستر) وليتصوّر القارئ كيف يكون منظر (ميدان البرت) لوألقيت فيه قنبلة واحدة من القنابل الضخمة (وهى تعدّ جسيمة جدا اذا قورنت بالقنابل التى استعملت فى الحرب العظمى) التى ستستعمل فى الحرب المقبـلة . إن (ميدان البرت) يصبح إذ ذاك حفرة هائلة محوطة بأطلال المنازل المدمرة تغطيها أشلاء الناس الممزّقة ثم تصوّر أيها القارئ ماذا تكون حالة (لندن) اذا ألقيت عليها مئة قنبلة من هذا النوع (وليس ذلك بالعدد المستحيل) وانظر الى ذلك الدمار الهائل وانصت الى صياح المصابين من الآدميين الذى لايعرفه إلا من خاض غمار الحرب . إنه أفظع صوت يصـدر من أى حيوان . اذا كابرت إحدى الحكومات ولم تشأ أن تفهم ماذا يفكر الناس وماذا يخافون فيجدر بها أن ترجع بذاكرتها الى الحوادث التى نجمت عن الحرب العالميـة منذ عشر سنوات . ولتعتبر بما أصاب حكومات (روسـيا) و (ألمانيا) و (النمسا) و (بلغاريا) وكيف قلبت واستهدفت لمخاطر الثورات والفتن حتى ان روح الثورة لم يقصر على الدول المقهورة بل تعداها الى غيرها . فهل غاب عنا أن فرقة فرنسوية ولت ظهورها للميدان وشرعت فى الزحف على باريس عام ١٩١٧ م وهى تهتف بسقوط الحكومة واقامة حكومة جديدة ذات نظام جديد . ففى الحرب المقبلة سيقاسى الغالب أكثر مما قاسى المغلوب فى الحرب الماضية . وقد لايتسنى للحكومات المنتصرة التخلص من انتقام رعاياها . نعم يجب على حكومات هذا العصر أن لايعزب عن بالها ماحدث فى الحرب الأخيرة فان ماحدث فى روسيا لايبعد أن يحدث فى كل مكان . فتحريم الحرب والحالة هـذه هوأوّل واجبات الحكومات . ويجب أن يكون محكا لتأييدها أواسقاطها وأن يكون أساس جميع أعمـال وزارات الخارجية وأهم برامج مرشحى الانتخابات اهـ

﴿ حكمة إلهية ونور على نور وتبصرة وذكرى وشكر لله تعالى ﴾

هاهوذا خطاب محافظ كابول . فهو يقول ان أوروبا لم تقم بالأمر حق القيام و يقول إن الشرق سيقوم بأمر السلام العام . وأنا أقول . أليس هذا من العجب . لقد كتبت فى سورة (الأنفال) حين طبعها منذ سنتين فى صفحة (١٣) فى تفسير قوله تعالى ـ وأصلحوا ذات بينكم ـ مانصه

﴿ الأمم الاسلامية وجمعية الأمم . انظر رعاك الله نحن أولاء فى عصرنا الحاضر كيف نسمع أن أوروبا لها جمعية أمم وان لم تقم بواجبها بل ظهر انها تريد ابتلاع الشرق وهضمه وأهم بلاد الشرق بلاد الاسلام ، فلماذا لانرى أمم الاسلام لارابطة بينها ولاقوّة تحفظ توازنها ولوصورية كجمعية الأمم الصورية فان هذه الجمعية وكذلك محكمة لاهاى ربما تأتيان بالغرض على طول الزمان وهم الآن يلجؤن اليها عند الخصام . فلماذا نرى المسلمين ليس بين دولهم مثل هذه الجماعات ﴾ ثم قلت فى صفحة (٢٠) ماملخصه ﴿ ان قوله تعالى فى سورة الحجرات ـ انما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ـ الخ وقوله فيها أيضا ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ ويضم لهاتين الآيتين آية ـ وأصلحوا ذات بينكم فى (الأنفال) فينتج من ذلك صلح بين المسلمين وتعارف بينهم و بين غـيرهم . وقد قدّم الله الصلح بينهم فى الذكر على التعارف مع الأمم كترتيب العمل إذ لايتعارفون مع الأمم إلا اذا اصطلحوا فيما بينهم ﴾

هـذا ملخص ماذكرته هناك . انه لم يمض على كتابة هذا وطبعه سنتان اثنتان . أفلانعجب اننا الآن نسمع محافظ كابول جاء من أقصى البلاد فى الشرق الى مصر وهو يخطب قائلا نحن الذين نقوم بالسلام العام

وأظهر تباطؤ أوروبا . اللهم إنك أنت المعلم الملهم الحكيم العليم . لقد وضح واستبان السبيل وظهر لى أن هذا زمان الاصلاح والا فما هذا الاسراع فى ظهور الحقائق . أتلهف على « جمعية أمم شرقية » فلا يمضى زمن حتى أسمعه من أفواه رجال السياسة فى الشرق الذين كانوا عند ما كتبت الموضوع السابق لا يسمع لهم صوت . صدق الله إذ قال ـ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ـ . إن نهضة الشرق اليوم مجدّة فى الاسراع حثيثا والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ اه

هذا الذى ذكر قبل الحكمة الالهية المذكورة هنا هو ماجاء فى تلك الجريدة الافرنجية وهو يبين صفحة من أحوال الأمم التى نعيش معها اليوم وأن الله فعل معهم مايفعله الأب الشفيق بأولاده والاستاذ الصالح بتلاميذه فأولا يأمرهم وينهاهم ثم بعد ذلك يعاقبهم لا انتقاما بل تعليما فهنا علم الله الأمم السلام العام الذى أشار له بقوله ـ حتى تضع الحرب أوزارها ـ بالهام المفكرين اختراع آلات جهنمية فأجفلت الأمم من الحرب وقالوا كلا . كلا . نصطلح يا الله . نصطلح ونسمع قولك ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ـ فهانحن يارب جئنا لنتعارف بصوت الرهبة لا الرغبة لأننا بالرغبة ما أطعناك ولكننا بالرهبة اتبعناك . هذا هو الذى ظهر فى الأمم الآن من الآية التى نحن بصددها وهى قوله تعالى ـ وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ـ وقد قلنا إن السلام العام من أحد شقى العبادة وكما فعل الله عزّوجل مع الأمم فى أمر السلام العام هكذا فعل معهم فى أمر العلم الذى تضمنه قوله ـ وأنا ربكم ـ فان الناس لما قصروا فيه لاسيما المسلمون منهم سلط عليهم أنواع المؤذيات ومنها الحشرات لتسوقهم الى العلم لأنهم اذا رأوا أنهم تنتابهم الحمى بلا سبب يعرفونه إلا حشرة صغيرة تسمى (الكولاكس) فهذه هى التى تضع فى أجسامهم الحمى فانهم لامحالة يجدّون فى علم الطب وعلم الطب يحتاج الى أكثر علوم الحيوان والنبات والمعادن والهواء والماء وأضواء الكواكب والحرارة والبرودة وماأشبه ذلك . إذن هذه الحشرة وأمثالها أرسلها الله ﴿لأمرين﴾ تعليم الناس جميع العلوم واتحاد الأمم فى مطاردتها . إذن المدمرات على ﴿ قسمين ﴾ مدمرات طبيعية تحرّض على معرفة العلوم وعلى الاتحاد العام فى مطاردتها . فلما لم يفهم النوع الانسانى ذلك سلط عليه المدمرات الصناعية المتقدّم ذكرها . ولعلك تقول فى أى وقت جاءت هذه الحشرة . أقول قد جاء ذكرها فى آخر شهر أغسطس سنة ١٩٢٨ فان المرض تفشى فى اليونان فمات كثير من الأطفال والشيوخ وأصيب به مائتا ألف وقال الأطباء إن هذه الناموسة هى التى تنقل هذا المرض وليس ينتقل بالملامسة . إن الله لم يرسل لنا ذلك إلا للحض على علم الطب كما قدّمنا والطب لا تقوم به إلا طائفة فى الأمة وبقيتها لهم أعمال أخرى والأمم متجاورة وكلهم يجب أن يتعاونوا على درء هذا الخطر وكل وباء عام . إذن هى تعليم من الله لاغير وهذا كله داخل فى قوله تعالى ـ وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ـ ثم قال تعالى ـ فذرهم فى غمرتهم حتى حين ـ ثم أشار سبحانه الى أن مايمدّهم به من المال والبنين ليس مسارعة لهم فى الخيرات بل هم ممتحنون . هذا مافتح الله به فى تفسير هذه الآية ومصداقها فى زماننا ولست أقول ان ماذكرته الآن سيمنع الحرب حتما ولكنى أقول ان العجب أن يكون ماذكرته قبل الحرب فكرا أصبح اليوم منتشرا بين أمم الأرض والمستقبل لله وحده هو علام الغيوب والحمد لله رب العالمين

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ـ كل حزب بما لديهم فرحون ـ ﴾

(الفيل والعميان الست)

اعلم أن هذا النوع الانسانى مجبول على الخلاف . مقصور على الشقاق . تنوّعت البصائر فاختلفت الآراء . الحقيقة واحدة والآراء شتى ولا محيص عنها ولا فرار منها . وهل أتاك نبأ العميان الست فى كتب الانجليز الذين يقال انهم كانوا فى بلاد الهند وقد أغرموا بالعلم والبحث غراما وأولعوا به هياما فأجمعوا أمرهم بينهم أن يدرسوا

(الفيل) دراسة تامة فقام ﴿ أولهم ﴾ وتقدم الى الفيل فاصطدم به حتى كاد يسقط على الأرض لأنه قابله من جانبه فصاح قائلا ﴿ أيها الاخوان إن الفيل أشبه بالحائط ﴾

﴿ الأعمى الثانى ﴾

فاقترب الثانى منه وقد عثر بنابه اذا هو مدور وناعم وحاد فصاح قائلا ﴿ إن الفيل أشبه بالحربة ﴾

﴿ الأعمى الثالث ﴾

فاقترب الثالث منه وقد عثر على خرطومه فصاح قائلا ﴿ إن الفيل أشبه بحية تسعى ﴾

﴿ الأعمى الرابع ﴾

فاقترب الرابع منه وقد عثر بركبته فصاح قائلا ﴿ ما أقوى هذا الحيوان إنه كالشجرة ﴾

﴿ الأعمى الخامس ﴾.

فاقترب الخامس منه وقد عثر بأذنه فصاح قائلا ﴿ ما أشد عماكم أيها القائلون . وكيف تقولون ما لاتعقلون . انما الفيل أشبه بالمروحة ﴾

﴿ الأعمى السادس ﴾

فاقترب الأعمى السادس منه وقد أمسك بذنبه فقال ﴿ إنما الفيل كالحبل . وهذا قول الحق الذى فيه تختلفون ﴾ . إن هؤلاء العميان الست الهنديين قد تناقشوا وكل أدلى برأيه وكل منهم مصيب فى رأيه من وجه ومخطئ من وجه آخر . هذا تمام الحكاية الانجليزية . ولقد رأيت نفس هذا المثال فى كتاب ﴿ إحياء علوم الدين ﴾ للغزالى . وليس المقام مقام البحث عن أصل هذا المثل من الذى قاله ولكن اذا كان الانجليز قد كتبوه فى كتبهم ونقلتها الآن عنهم وقبلهم الغزالى فى الاحياء دلنا ذلك على أن هذا المثل من وضع الهند لأن الكتاب الانجليزى يقول انهم من الهند واتفق الغزالى وعلماء الانجليز على أن موضوع المثل هو (الفيل) والفيل يعظمه الهنود . إذن فلنشرح فوائد هذا المثل . إن هذا المثل ينطبق على أحوال هذه الدنيا فالناس فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ولذاتهم ودياناتهم وعلومهم يختلفون ويجمع هذا كله من أول هذا المثال الى الآن ــ كل حزب بما لديهم فرحون ــ فالذى ربى فى قرية لايحب أكثر منها وعالم الرياضة يألفها وعالم النبات مغرم به وهكذا الحيوان والسياسة وعالم اللغة وهكذا نجد الذى قرأ اللغة الانجليزية من المسلمين أو الفرنسية أو الألمانية وقد درس تاريخ القوم فانه لامحالة يحبهم وهكذا الشافعية والحنفية والمالكية والشيعة وهكذا الزراع والصناع والتجار كل له غرض يهواه بحسب مانشأ عليه وما اعتاده فقوله تعالى ــ كل حزب بما لديهم فرحون ــ قد فسره المثل المضروب بالفيل فى الشرق والغرب معا . الله أكبر . القرآن كتاب عام والمثل المذكور عام ولكن الحكمة القرآنية أبهى وأجل وأبهر وبهذا تظهر البلاغة والحمد لله رب العالمين

هذه مسألة (الفيل والعميان) تمثل لنا اختلاف العقول وأحوال الأمم والحكماء . وأذكرلك نبأهم فى هذا المقام مجملا فأقول

اعلم أن كل حكيم من حكماء الأرض وعالم يلقى للناس من العلم مايراه سعادة لهم فى أمورهم المادية والمعنوية وجميعهم كهؤلاء العميان يدورون حول الحقائق وكل يقول مايفهمه والله يقول لهم جميعا ــ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ــ . فانظر الى

﴿ (١) سقراط ﴾

كيف استخلص الباحثون من آرائه القواعد الآتى بيانها

(أولا) ان الانسان فى ميوله وأحواله يقصد السعادة

(ثانيا) ان الخير والمنفعة مترادفان

(ثالثا) ان العلم هو أس الفضيلة

(رابعا) ان الخير العام مقدّم على الخير الخاص

(خامسا) ان الجمال شطر من الأخلاق

(سادسا) إن الشرائع الوضعية مستمدّة من الشرائع السماوية

ويقولون بأنه يرى أن حياة الفيلسوف هي أسمى ضروب الحياة لأنها مؤسسة على الحكمة والتمييز ولأنها تجلب لصاحبها أكثر مايتيسر نيله من السعادة والمسرة الخاليتين من شوائب الأكدار وأن حياته هي الحياة المثلى لأن رائده فيها البصيرة ورعاية المصلحة . ومما يستخلص من آراء (أفلاطون) أن الناس ليسوا سواسية في المدارك والأخلاق وانه من الخرق أن الجاهل يحكم العاقل والسفلة تحكم العلية لأن العامّة في رأيه ليس عندهم من البصيرة مابه يدركون الخير لهم فهم يعجزون لذلك عن ادراك ماهو خير لغيرهم وكذلك لامناص لهم من أن يجتنبوا التعرّض لشؤن الأمّة بل أن يلقوا مقاليدهم لمن أوتوا الفطنة والبصيرة وحسن الادارة وهم الفلاسفة فاذا أصبح الفلاسفة حكاما سلكوا بالناس سبيل السداد ورفعوا عنهم أذى الفوضى والاستبداد ويوجب (أفلاطون) أن يجعل وصف العقلاء مقتصرا على الفضيلة كالشجاعة والعفة وينفر من الرذيلة كالخيانة والفجور وأن تحظر الأشياء الغرامية التي تحدث خورا في العزائم ووهنا في القلوب . وكذلك يجب على الحكومة أن تحمل الناس على دينها فلاتدعهم يعبثون بالعقائد ويدينون بما يشاؤن اهـ

(٢) ﴿ آراء الفارابي ﴾

ويقول الفارابي من علماء الاسلام في كتابه ﴿آراء أهل المدينة الفاضلة﴾ ماملخصه

« إن الأمم تجتمع إما باللغة واما بالدين واما بالقرابة والنسب واما بالمصاهرة واما بالوطن واما بالمعاهدات واما بالملك الذي يجمع الجميع واما بأن تستعبد الأمة جماعة وهؤلاء وعبيدهم يستعبدون غيرهم وهكذا . ويقول إن هذه كلها مدن فاسقة وليس عنده مدينة فاضلة إلا في أن تكون الأمّة كلها هيئة مركبة من جماعات كل منهم يعمل فيما يناسبه بحيث يكون فيهم من هم كالقلب ومن هم كالرأس ومنهم من هم كالمعدة ومن هم كالعظام ففيهم الخادم والمخدوم ولكل منهم حظ مما يناسبه من العمل ورئيس المدينة إما واحد إن اجتمعت فيه صفات الكمال واما جماعة بحيث يكون لكل واحد صفات تغاير غيره وصفات الجماعة كلها تكون قائمة مقام صفات رئيس المدينة الفاضلة وتكون الممالك كالمملكة الواحدة فتكون الأرض كلها كرة فاضلة » هذا ملخص ماقاله الفارابي

(٣) ﴿ آراء أرسطو ﴾

ويقول (أرسطو) من حكماء اليونان مانصه ﴿إن الفضائل وسط بين طرفين فالحكمة وسط بين السفه والبله والشجاعة وسط بين الجبن والجور وهكذا والفضائل العقلية تكتسب بطرق تهذيب النفوس . وأوجب أن تعتني الحكومة بالطفل قبل خلقه بأن تسنّ للزواج قوانين خاصة لرعاية صحة الأجنة والأطفال . وأوجب الاعتناء بتغذية الطفل وملبسه وتمرينه كتمرين تلاميذ المدارس الآن واذا كبر تهيمن الحكومة على تربيته وعنده أن الموالي والصناع لاحاجة الى العناية بهم وهكذا النساء فخالف بذلك (سقراط) القائل بأنهن يربين كما يربى الرجال وأوجب الموسيقى . وقال ان الأعمال البدنية يجب أن تكون غايتها ضبط النفس وكبح جماح الشهوات وتجميل صورة الجسم وتكوين العادات الفاضلة لامجرّد القوّة الجثمانية التي بها يتباهى المغرمون بالألعاب البدنية ولا الضراوة والقساوة اللتين يتنخر بهما الجنود في الحروب فانها إن قصد منها القوّة الجثمانية فحسب كانت متعبة للأجسام شاقة على النفس وان قصد منها الضراوة وتقسية القلوب كانت مظهرا من مظاهر الوحشية القاسية . ويجب أن تتدرّج هذه الألعاب في صعوبتها وأن لاتبتدئ التمرينات العنيفة أو الخشنة

إلا بعد هـذه السن . وأوجب الموضوعات الأدبية وهي تشمل القراءة والكتابة والرسم . وأوجب أن لاتعلم من أجل منافعها المادية فحسب وانما تعلم لأسباب نفسية أسمى وأعلى . فالقراءة والكتابة وسيلتان لتزويد الفكر بأنواع المعارف والرسم يربي قوة الذوق و يساعد على تعرف الجمال والموسيقى عنده العدة في تثقيف العقول وتعليل النفوس المكدودة واثارة العواطف الكامنة وشغل أوقات الفراغ بأفضل أنواع المسرات . و بعد أن أفاض (أرسطو) في فوائد الموسيقى شرح أنواعها ومايسوغ منها تعلمه والأناشيد التي يحسن انشادها وفضل أن يتعلم الأطفال الايقاع على المزاهر حتى تتكون لهم ملكة الذوق والنقد ولكن يجب أن لايغالى في ذلك حتى يصلوا الى المهارة الفنية لأن ذلك لايليق بالرجل المهذب وأوجب أيضا التربية الفكرية ويوافق (أرسطو) أفلاطون في دراسة العلوم الرياضية في هذه المرحلة دراسة عالية ولاسيما العلوم الهندسية والطبيعية والفلكية وينصح بدراسة المنطق وعلوم الحياة . ويرى مع هذه التربية النظرية العالية ان تسير الى جانبها التربية العملية فيأخذ الشبان بتمرينات في الأعمال والواجبات الوطنية كالأعمال الادارية والتشريعية والقضائية ﴾ اه

(٤) ﴿ آراء ابن سينا ﴾

ذكر في ﴿ كتاب القانون ﴾ في علم الطب بأنه تجب العناية بتدبير الحوامل واللاتي قارين الولادة بان يتناولن الغذاء الجيد و يأخذن نصيبهن من الرياضة البدنية ويجتنبن الاجهاد في العمل و يتحرين جودة الغذاء ونظافته الخ . ثم ذكر في هذا الفصل واجب المولدة والأم لينشأ طفلا يقاوم الأمراض موفور الصحة حسن الأعضاء والشكل . وذكر أن يرضع ما أمكن بلبن أمه فان منع مانع من ارضاعه لبن أمه من ضعف أوفساد لبن أوميل الى الرفه فينبغي أن تختار له مرضع على الشرائط التي نصفها بأن تكون سنها بين ٢٥ الى ٣٠ لأن هذه سن الصحة والكمال وأن تكون حسنة اللون قوية العنق والصدر واسعة اللحم حسنة الأخلاق بعيدة عن الانفعالات النفسية لأن سوء الخلق يؤثر في تربية الطفل وأن يكون لبنها معتدل القوام والمقدار ولونه الى البياض ورائحته طيبة وطعمه الى الحلاوة وأجزاؤه متشابهة . فاذا توافرت هـذه الشروط في المرضع قبلت وتجب العناية بغذائها طول المدة أيضا حتى يكون اللبن الذي تنتجه جيدا فاذا طرأ عليها مرض منع من ارضاعها . ثم ذكر كيفية التحريك العلمي الذي يهيئ الأعضاء ولايضرها وضرورة الموسيقى والتلحين الذي جرت به العادة لتنويم الأطفال . وأوجب أن يكون أوكد العناية مصروفا الى مراعاة أخلاق الصبي فيعدل وذلك بأن يحفظ كيلا يعرض له غضب شديد أوغم أوسهر وذلك بأن يتأمل كل وقت ما الذي يشتهيه ويحن اليه فيقرب اليه وما الذي يكرهه فينحى عن وجهه (ويشبه مذهبه هذا مذهب روسو) وفي ذلك منفعتان (إحداهما) في نفسه بأن ينشأ من الطفولة حسن الأخلاق و يصير ذلك له ملكة لازمة (والثانية) لبدنه لأن الأخلاق الرديئة تؤثر في مزاج الجسم فان غضب يسخن جدا والغم يجفف جدا . ففي تعديل الأخلاق حفظ الصحة للنفس والبدن جميعا . ثم ذكر نظاما يتبع في حياة الطفل فقال ﴿ واذا تنبه الصبي من نومه فالأحرى أن يستحم ثم يخلى بينه و بين اللعب ساعة ثم يطعم شيأ يسيرا ثم يترك الى اللعب الأطول ثم يستحم ثم يغذى واذا أتى عليه من عمره ست سنين فيجب أن يقدم الى المؤدب والمعلم ويتدرج في ذلك أيضا ولايحكم عليه بملازمة الكتاب كرة واحدة ﴾

وذكر فصلا في التدبير المشترك للبالغين وهو (١٧) فصلا قال في الفصل الأول ﴿ إن قوام الصحة على (ثلاثة أشياء) الرياضة والغذاء والنوم . ثم بسط الكلام على الرياضة بسطا لانهاية بعده وذكر من أنواعها المنازعة والملاكمة وسرعة المشي والرمي عن القوس والقفز والحجل وركوب الخيل وشد الحبل الخ . ثم ذكر رياضة كل عضو وزمن الرياضة . وتناول في الفصول الأخرى الاستحمام وأنواعه وفوائدها للجسم وتقوية الأعضاء الضعيفة وتسمينها وتعظيم حجمها والاعياء الذي يتبع الرياضات وعلاج الاعياء الرياضي وتدبير الشيوخ اه

(٥) ﴿ آراء العالم الهندى السر (جاجاديس بوز) النابغة فى علم حياة النبات الذى تقدّم ذكره وآراء غاندى الزعيم الهندى ﴾

أما آراء (غاندى) فقد تقدّمت فى آخر سورة (آل عمران) وذلك انه يحرّض الناس على الصناعة ويمنع الاتكال على صناعات الفرنجة . وأما آراء (السرجاجاديس) فانه أوصى التلاميذ الهنود بهذه الوصايا فى زماننا وهى خمسة وقد خاطبهم بها قائلا فى هذه السنة (١٩٢٨) مايلى

(١) الثقة بالنفس وهى التى يعبرعنها الانسان بقوله (أنا أريد) فهذه الكلمة يجب أن تفهموها جيدا كثيرا ما أسمع الناس يقولون اذا طلب منهم عمل ما (سنجتهد فى عمله) وانى لأشتم شيأ من رائحة التواضع فى هذه العبارة بل أراها عنوان الجبن . هل تحت السماء أمر لاتستطيعون أن تجعلوه طوع ارادتكم إن أردتم ذلك بكل قوّتكم العقلية والروحية . أنا أقول لكم إن الذين لايقفون أمام الصعوبات والمشكلات خوفا منها ليسوا إلا جبناء ضعفاء بل هم عار على الانسانية التى يتصفون بها وينتمون اليها . ليس للانسان أن يتجنب الصعوبات أو يفرّ منها أو يشكو أمرها بل عليه أن يذللها مادام فيه رمق من الحياة . اعلموا أنه ليس على وجه الأرض قوّة تستطيع الوقوف فى سبيلكم إن أردتم المضى فيه وجميع العقبات تتنحى بنفسها عن طريقكم وما يظلّ معترضا لكم منها تدوسونه وتطحنونه بأقدامكم القوية . وهكذا يصبح كل عسير أمامكم يسيرا وكل صعب سهلا

(٢) اختيار طريق الحق والصدق والمضى فيها بأقدام ثابتة فلا تضيعوا أوقاتكم فى بيان الفضائل ومحاسن الخير بل انهجوها وسيروا عليها . هذا هو الأساس المقدّس الذى قامت عليه الانسانية الطاهرة

(٣) الاتحاد الوطنى . اتركوا التعصب للولايات وللأديان والمذاهب والطوائف وكونوا جميعا أبناء الهند الحنونة البارّة . كونوا هنودا أوّلا وآخرا

(٤) اعتقدوا أن أساس الدين هو التسامح فلا يحملنكم اختلاف عقائدكم الدينية على الاعتداء بل ليكن الدين بينكم عنوان المحبة والوداد والوئام

(٥) لاتتركوا مدنيتكم القديمة تموت بغفلتكم وضعفكم بل كونوا رجالا ونساء أقوياء مخلصين غيورين لتتمكنوا من انشاء مجد جديد لوطنكم ووطنى العظيم

(٦) وههنا جاء دورى أنا فأقول (سادس) الجماعة أدلى دلوى فى الدلاء

فهاهوذا (سقراط) وهاهوذا (أرسطاطاليس) و (الفارابى) و (ابن سينا) وعالمان هنديان يطلبان الصناعة والاقدام والأخلاق والاتحاد . فأما أنا فقد ألفت كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ وقد لخصت بعضه فى هذا التفسير وذكرته فى مواضع كثيرة فيه وملخصه أن جميع هذه المجالس النيابية فى العالم الانسانى تخدم شهوات المنتخبين (أولئك النوّاب) وهذه الانسانية يجب أن تكون كل أمة منها قائمة بتعليم جميع الذكور والاناث وأن تستخرج مواهب أرضها وعقولها وكل شئ فيها وكل الأمم يجب أن يكونوا متضامنين فى الشرق والغرب وعلى مقدار نقص أمة يكون فقد ثمرات لأمم أخرى ولكن الله يقول ـ كل حزب بما لديهم فرحون ـ ويقول ـ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ـ . إذن كل هؤلاء المفكرين يبحثون عن سعادة الانسان كما بحث العميان عن (الفيل) فأمسك كل بطرف وعرفه والفيل أوسع من علمهم هكذا هنا الانسانية وسعادتها أوسع من علم العلماء وحكمة الحكماء . فلا سعادة للناس إلا اذا جدّت الأمم كلها فى التفكير لسعادة المجموع باخلاص والاخلاص يكون من قوم اختصوا بمواهب عالية ومدارك عظيمة وهؤلاء قليل ولكنهم مفرّقون فى الأمم كلها . فتى عمّ التعليم الأمم فهناك يظهر أرباب المواهب من كل أمة ويسعدون نوع الانسان

ولقد رأيت فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ أن موافقة تعداد الذكور للاناث غالبا فى هذا العالم دليل على

أن فيه نظاما ثابتا يشمل كل شئ . فأهل الحكمة أو الصناعة أو السياسة لكل طائفة قوم خلقوا فى الأرض هكذا خلق فى هذه الأرض عقول خاصة لارشادهم فيجب البحث عنهم فى جميع الأمم وهم الذين يديرون دفة العالم كله وغير هذا عندى باطل . ولقد اطلعت على مقال للعلامة (هولدين) من أشهر كتاب الانجليز وكبار مفكريهم ومن أشهر علماء (البيولوجيا) فى عصرنا قال فيه مانصه

﴿ ان نظرنا الى صحة الأجسام بقطع النظر عن سواها يوجب بلامراء أن يعنى الناس جميعا بعضهم ببعض لأن مرض فرد يعدى الآخر وينتقل الى أمة أخرى ﴾ ويقول ﴿ اذا نظرنا الى علم الاقتصاد والسياسة فاننا نجد سوء طالع زيد يكون حسن طالع لعمرو وخراب أمة ربما كان نعمة على أخرى ولكن فى علم الصحة تنعكس الحال فان الدساكر فى وسط المدن والمحافر التى ينتشر فيها الغبار فى الجو أوساط حسنة يربى فيها مكروب السل الذى يصيب الفقير والغنى على حد سواء . وهذه مسألة لاتقتصر على شعب واحد بل ان الطفل الرومانى المصاب بالفالج والهندى المصاب بالجدرى والجرذ الذى يحمل الطاعون كل هؤلاء يؤثرون فى الأعمار وينقصونها إذن تجب العناية بكل فرد وبكل أمة لاسيما أن طرق النقل الآن صارت أسرع منها قبل الآن ﴾

ومن قوله أيضا ﴿ إن خطا اذا كان قد وقع فى بلاد الصين منذ قرنين مضيا لم يكن ليضع الرجل الانجليزى أو الأمريكى ازاء أية مسؤلية لأنه ليس لديه وسائط النقل أما اليوم فان استخدام البخار فى السفن والكهربائية فى نقل الأخبار كلاهما جعل القيام بمثل هذا الواجب مستطاعا ﴾

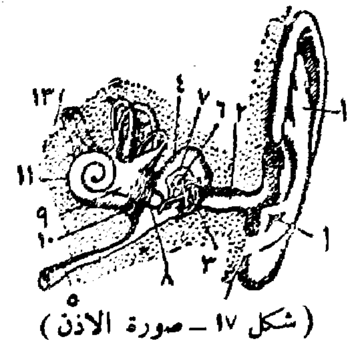
فهذا العالم ينحو نحو كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ والحمد لله رب العالمين

﴿ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى — وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون — ﴾

لقد تقدم الكلام على السمع والبصر فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ وهناك صورتاهما مرسومتان وموضحتان ايضاحا تاما ومشروحتان شرحا كافيا . ولكن هنا وجدت صورتين أخريين مرسومتين فى كتاب ﴿ قانون الصحة ﴾ وهما واضحتان ظاهرتان يراهما الانسان أمامه كأنهما آلتان من الآلات المشاهدات فى عصرنا وفيهما من دقة الصنع واتقان القطع المختلفة الاحجام والأقدار والصور مايبهر العقلاء إذ يرون عناية صانع هذا العالم بمخلوقاته فهما أوضح من تينك الصورتين وأقرب الى الفهم والايضاح التام . ولاجرم أن السمع والبصر والفؤاد عادة لايفكر فيها الناس ولافى حسن اتقانها لأنها مبذولات لكل حى فغفل الناس عنها لذلك كررها الله فى القرآن وحث على النظر والتفكر فيها حتى تخرج هذه النفوس البشرية من عالم الحيوانية الى عالم الحكمة والعقل والرقى العلمى . أما الفؤاد فارجع الى ماتقدم فى (سورة الاسراء) عند الكلام على قوله تعالى — قل الروح من أمر ربى — وأما السمع والبصر فهاك ماجاء فى ذلك الكتاب صفحة ٢٣ و ٢٤ وهذا نصه

﴿ حاسة السمع ﴾

عضو السمع هو الأذن وينقسم الى أذن ظاهرة وأذن متوسطة وأذن باطنة (الأذن الباطنة هى التى تحتوى على أعضاء أى أعصاب السمع) فالأذن الظاهرة تتركب من الصيوان والقناة السمعية الظاهرة ويوجد بها شعر وغدد تفرز مادة شمعية تسمى (بالصملاخ) وهى تتراكم اذا لم تنظف وتضعف السمع . والأذن المتوسطة تتكون من الطبلة وغشائها وثلاث عظام صغيرة . والأذن الباطنة مكونة من تجويف فى عظم الصدغ مبطن بغشاء ينتهى فيه أطراف العصب السمعى . واذا حدث صوت بجوار الأذن يخترق الأذن الظاهرة ثم الأذن المتوسطة ثم الباطنة فيتنبه العصب السمعى فينقل الصوت الى مركزه فى المخ فيوجه المخ الاحساس الى الأذن فيجعلنا نشعر كأن الأذن هى التى أحست بالسمع (انظر شكل ١٧ فى الصفحة التالية)



(شكل ١٧ ــ صورة الاذن)

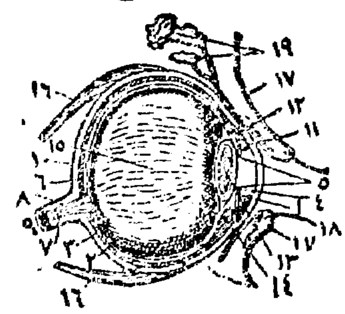
﴿ الصوت والكلام ﴾

تحدث نغمات الصوت الأساسية باهتزاز الحبال الصوتية للحنجرة بواسطة هواء الزفير ويتنوّع الصوت باللسان والأسنان والشفتين والكلام يحصل بتغيير نغمات الصوت فى التجاويف التى فوق الحبال الصوتية فمثلا تغيير حجم وشكل البلعوم والفم والأنف يحدث نغمات مختلفة تكوّن حروف النطق

﴿ حاسة الابصار ﴾

مركزها العين وتوجد هذه فى تجويف الحجاج ومعها الأوعية والأعصاب التى تغذيها وفى مقدّمتها الجفون والجهاز الدمعى . والجفون فى حافتها الأهداب وهى تقى العين ليلا ونهارا من الاجسام الغريبة التى تصادفها (انظر شكل ١٨)

والجهاز الدمعى فى الجهة الوحشية للحجاج ويفرز الدمع منعا لجفاف الملتحمة (انظر شكل ١٨)



(شكل ١٨ ــ رسم قطاع من مقلة العين)

والعين مكوّنة على التوالى من الطبقات الآتية وهى (الصلبة والقرنية والمشيمية والشبكية) والعين مملوءة بالرطوبة المائية والجسم الزجاجى والبلورية وتجويفها تنقسم بالقزحية الى قسمين وهى ستار قابل للانقباض والانبساط ومثقوبة فى وسطها بالحدقة التى وظيفتها تنظيم كمية الضوء الداخل فى العين . وتوجد القزحية عند ملتقى الصلبة بالقرنية ووظيفتها إعداد العين للرؤية وهى تؤثر فى تحديب البلورية بانقباضها وانبساطها فترى الاشياء على أبعاد مختلفة وفى الشبكية ينتهى العصب البصرى (انظر شكل ١٨) . إن شرح العين والأذن فى ﴿ آل عمران ﴾ أوسع جدا

والعين تماثل صندوق التصوير الشمسى فأشعة الشئ المرئى تمرّ بالقرنية والبلورية والرطوبة المائية والجسم الزجاجى فتنطبع صورته معكوسة على الشبكية التى تشبه زجاجة التصوير فينقل العصب البصرى هذه الصورة المعكوسة الشكل الى المخ فيردّها هذا الى العين غير معكوسة فنشعر برؤية الشئ ونحكم على شكله ولونه وحجمه

أرقام شكل ١٧ ــ (١) الأذن الظاهرة (صيوان الأذن) (٢) قناة السمع الظاهرة (٣) طبلة الأذن (٤) صندوق الطبلة (٥) قناة استاك يوس (٦) المطرقة (٧) السندان (٨) الركاب (٩) التيه (١٠) مدخل القوقعة (١١) القوقعة (١٢) القنوات النصف الهلالية (١٣) العصب السمعى

أرقام شكل ١٨ ــ (١) القرنية (٢) الصلبة (٣) المشيمة (٤) القزحية (٥) الحدقة (٦) الشبكية (٧) العصب البصرى (٨) الشريان المركزى للشبكية (٩) قطاع العصب البصرى (١٠) البقعة الصفراء (١١) الخزانة المقدمة (١٢) الخزانة الخلفية (١٣) البلورية (١٤) العضلة الهدبية (١٥) الجسم الزجاجى (١٦) العضلات المحركة للعين (١٧) الجفنان (١٨) الأهداب (١٩) الغدد الدمعية

﴿ القلب والأوعية الدموية وسير الدورة فيها ﴾



القلب هو عضو عضلى لاحكم للارادة عليه فينقبض وينبسط بنظام خاص وله أوعية خاصة وهو مخروطى الشكل ومغلف بغشاء وينقسم الى ﴿ أربعة تجاويف ﴾ العلويان منها يسميان بالأذينين والسفليان يسميان بالبطينين . ففى الجهة اليمنى أذين و بطين وفى اليسرى مثلهما ولاتتصل تجاويف جهة بالجهة الأخرى بل يفصل الجهة اليمنى عن اليسرى حاجز عضلى . ولكل بطين فتحة لها صمام يسمح بمرور الدم من الأذين للبطين لا العكس ويذهب الدم الى أجزاء الجسم من البطين بواسطة عروق تسمى بالشرايين

﴿ الدورة الدموية ﴾

يمرّ الدم مرّتين فى القلب ليتم دورته . ففى المرة الأولى يذهب من البطين الأيسر الى جميع أجزاء الجسم ثم يعود الى البطين الأيمن وهذه تسمى بالدورة الكبرى . وفى الثانية يذهب من هذا البطين الى الرئتين ثم يعود الى البطين الأيسر وهذه تسمى بالدورة الصغرى (انظر شكل ١٩)

(شكل ١٩)

فتبتدئ الدورة بمرور الدم من البطين الأيسر الى أكبر شريان (الأورطى) ثم الى فروعه الكبيرة فالصغيرة فالشعرية التى هى أدق أوعية الجسم ووظيفتها تغذية خلايا الجسم وأنسجته ثم يرجع الدم بعد تغذيتها الى القلب بواسطة الأوردة الصغيرة التى تصب فى وريدين كبيرين يسميان بالوريدين الاجوفين (السفلى والعلوى) وهذان يصبان فى الأذين الأيمن حيث يمرّ الدم منه الى البطين الأيمن ثم منه الى الرئة وذلك بمروره فى الشريان الرئوى وفروعه ثم يصل بعد اصلاحه بواسطة الهواء الى الوريد الرئوى ومنه الى الأذين الأيسر أعنى حيث تبتدئ الدورة . وهناك فرع آخر للدورة يسمى بالدورة الكبدية وهى أن الدم بعد مروره بفروع الأورطى البطنى لتغذية الأعضاء يجتمع فى أوعية وريدية تصبّ فى وريد أغلظ ولكن بعض الأوردة الآتية من المعدة والأمعاء والطحال والبنكرياس تجتمع وتصب فى وريد واحد يسمى بالوريد الباب الذى يذهب الى الكبد ويتفرّع فيها الى أوعية شعرية وهى التى يتكوّن من اتحادها بأوعية الكبد الاصلية الوريد الكبدى الذى يصب فى الوريد الأجوف السفلى

﴿ كرات الدم فى الأوعية أى العروق ﴾

الدم مكوّن من سائل شفاف مصلىّ يسمى (بالبلاسما) سابح فيه كرات صغيرة تسمى بالكرات الدموية وهى (نوعان) حمراء وبيضاء . وعدد الحمراء خمسة ملايين عادة فى المليمتر المكعب من الدم والبيضاء من خمسة الى ثمانية آلاف والحمراء تحتوى على الأكسى هيموجلوبين الذى يحتوى على الاوكسيجين . والبيضاء أكبر بكثير من الحمراء ولها أشكال مختلفة (انظر شكل ٢٠)

(شكل ٢٠)

والدم اذا سال خارج الجسم يتجمد ويكوّن جلطا دموية مركبة من الكرات الحمراء والبيضاء فى شبكة من ليفية الدم وهذه الجلط مغمورة فى سائل شفاف يسمى بمصل الدم

أرقام شكل ١٩ - (١) الأذين الأيسر (٢) البطين الأيسر (٣) الأذين الأيمن (٤) البطين الأيمن (٥) الابهر أو الأورطى (٦) فروع من الأورطى (٧) الأوعية الشعرية (٨) أوعية شعرية موصلة للأوردة (٩) وريد (١٠) الرئتين (١١) الأوعية الشعرية الرئوية (١٢) الوريد الرئوى (١٣) الشريان الرئوى (١٤) الشريان الكبدى (١٥) الكبد (١٦) الوريد الكبدى (١٧) القناة الهضمية (١٨) و (١٩) القناة الصدرية (٢٠) الأوعية اللنفاوية

أرقام شكل ٢٠ - (١) جدر الشريان (٢) الكرات الدموية الحمراء (٣) الكرات الدموية البيضاء

(الشرايين

﴿ الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية ﴾

الأوعية هى التى تحمل الدم وهى على (ثلاثة أنواع) الشرايين والأوعية الشعرية والأوردة فالشرايين أنابيب مرنة تنقبض وتنبسط بمرور الدم فيها و بذلك يحدث النبض وتنقسم الشرايين الى شرايين شعرية دقيقة تغذى الجسم بما احتوته من الدم الأحمر وهذا الدم يتحوّل بعد الغذاء الى دم أسود اللون يتجمع فيما يسمى (بالأوردة الشعرية) و يمرّ منها الى أوردة كبيرة . ولهذه الأوردة الأخيرة صمامات تمنع رجوع الدم الى الوراء (انظر شكل ٢١)

شكل ٢١

﴿ بيان السمع والبصر والفؤاد بالقول بعد ظهور رسمها بالمصوّر الشمسى الذى ظهر فى قوله تعالى ـ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ـ وقوله ـ ثم إنّ علينا بيانه ـ وقوله ـ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ـ وأن هذه الصور المرسومة هى مصداق هذه الآيات ﴾

اعلم أن الفؤاد هو القلب والقلب يطلق على اللحم الصنوبرى المرسوم هنا الموضحة أجزاؤه المنظم . وفى الانسان قوّة عظيمة فمن حيث تصريفها للبـدن تسمى روحا . ومن حيث انها تشتهى تسمى نفسا . ومن حيث انها تدرك المعانى يقال لها عقل . ومن حيث انها تسرى فى بخار الدم السارى فى الجسم الذى ينظمه ذلك اللحم الصنوبرى الشكل يقال له قلب . والفؤاد هنا يراد به العقل . ولما كانت هـذه المعانى لها به ارتباط وجب أن أوضح هذا القلب المرسوم أمامك لتعجب من الحكمة والعلم وتدرك من البهجة والبهاء والحسن والاشراق والجمال مايبهر العقول و يسر أولى الألباب . حدّثنى الحارث بن همام قال أخذتنى سنة من النوم أوكأنى بين اليقظة والمنام اذا أمامى أرض قفراء واسعة الأطراف مترامية الأكناف لا أنيس بها ولاجليس حتى اليعافير وحتى العيس . فأخذت أتأمّل أكنافها وأسرح طرفى فى أرجائها وأقول ما الحكمة فى هذا الخلاء وما المقصد من هذه الأرض القفراء فلاجمال ولا كمال ولاحسن ولابهاء ولاشجرة خضراء ولامعالم بها يهتدى السائرون ولامظال يستظل بها الغادون والرائحون . و بينما أنا على هذه الحال إذ رأيت شبحا ظهر كأنه بخار ثم أخـذ يلتئم شيأ فشيأ حتى استقام بشرا سويا ورأيت معـه بذورا عجيبة مختلفة الألوان والأقدار والصفات قد مزجها بماء وهواء وأنواع من الأرض وسحقها كلها سحقا تاما ثم صارت كهيئة اللبن ثم أخذ ينثر هـذه القطرات فى تلك الأرض القفراء . فأوّلا نثر قطرة ثم اثنتين ثم أربعا ثم ثمانيا ثم ١٦ ثم ٣٢ وهكذا الى أن وصـل عشرات الالوف ومئات الالوف وآلاف الالوف . فما كان إلا كلمح البصر أوهوأقرب حتى رأيت الأرض القفراء مجللة بتلك القطرات ولكن وجدتها أخـذت تتكاتف بهيئات مختلفة . وعجبت كل العجب إذ رأيت ما لايصفه الواصفون ولايدركه العاقلون . ذلك أنى رأيت هذه الارض صارت حقولا وحدائق وجنات ورياضا وهـذه الحقول قسمت أصنافا وأنواعا . فنها حقول القمح وحقول الفول والبرسيم وأنواع الخضر . ومنها مارأيته حدائق غناء ثم الحدائق الغناء رأيتها أسرع من لمح البصر قد قسمت أصنافا وأنواعا . فنها ماصفت فيها أشجار الفاكهـة الزيتية والفاكهة السكرية والفاكهة العطرية والفاكهة الحمضـية والفاكهة النشوية والفاكهة المائية كالزيتون والتمر والتفاح والليمون والبرتقال والكمثرى والبطيخ والشمام

ومن عجب أنها صفوف وصفوف منتظمات لاخطأ فيها ولاخطل . ووجـدت الحديقة قد صفت بالنخل الباسقات المصفوفات حولها وقد هبت النسمات وفاءت الأفياء . فصرت أعجب وأقول هـذه أرض قفراء وهذا الرجل كان معه حبوب وموادّ مائية وأرضية وهوائية فمزجها وأخذ يرميها على قاعدة الحساب (المتوالية

(١) أوعية شعرية شريانية (٢) شريان متفرّع الى أوعية شعرية شريانية
(٣) أوعية شعرية وريدية متصلة لتكوين وريد (٤) وريد صغير

الهندسية) فما للحساب وما لهذا النظام وما الذى جعل كل طائفة فى موضعها . ثم نظرت فوجدت أنواع الرياحين قد صفت لها دوائر (اهليلجية) كدوائر الكواكب الجاريات حول الشمس فعجبت إذ أرى الدائرة ترسم أمامى شيأ فشيأ ولا راسم لها . فأنا أرى الرسم ولا أرى راسمه . فياليت أرضنا على هذا المنوال تنظم وتزرع بساتينها وتنظم حقولها وحدائقها ونحن نجنيها بلا تعب ولا نصب . ثم نظرت فوجدت هذه الرياض نبتت فيها الرياحين مختلفة الألوان (أحمر وأصفر وأزرق وياقوتيا وألماسيا) وأنا فى غاية العجب من أن كل روضة من الرياض مختصة بنوع لا يختلط بسواه . ثم قلت فى نفسى من أين تسقى هذه الحقول وهذه الحدائق الغناء فنظرت اذا آلة بخارية كبيرة منظمة امتدت أنابيبها فى كل حقل وفى كل حديقة وفى كل روضة وتلك الأنابيب كلها ترجع الى أنبوبتين عظيمتين ممتدتين من تلك الآلة البخارية وجهازها العظيم المنظم البديع وهذه الأنابيب كلما طال امتدادها دقت ورقت حتى صارت كالشعرات عند أطراف الحدائق والبساتين والروضات ثم نظرت اذا قصور شاهقات بديعات مزينات بأجمل الصور وفيها المناظير المعظمات وأدوات السمع وهى المسرات المسميات (التلفون) فأخذ منى العجب كل مأخذ وقلت أأنا فى يقظة أم فى منام لعلى نائم ولعل هذه أضغاث أحلام . فبينما أنا على هذه الحال إذ تبدّى أمامى ذلك الذى كان أوّلا قد بذر تلك القطرات فى الأرض القفراء وهو جميل المحيا بهج الطلعة حسن الشكل معتدل القوام باسم الثغر ظريف الشمائل حكيم عليم فسلم علىّ وحيانى وأخذ يجاذبنى أطراف الحديث من قديم وحديث . ولما أيقن انى استأنست بمرآه أخذ يسألنى عما يدور بخلدى وماحار فيه لبى فقلت له هذه حدائق وهذه بساتين لا زارع لها ولا منظم فكيف رأيت فيها مالا تراه العيون ولا تتخيله الظنون . فقال اسمع ياصاح و بلغ الناس عنى . اعلم أن هذه حال تمثل خلق جسم الانسان . فالقطرات التى رميت بها فى الأرض القفراء منظمة العدد على مقتضى (المتوالية الهندسية ٢ و ٤ و ٨ و ١٦ و ٣٢) وهكذا فهى بيضة الجنين فى الرحم تنقسم على هذا المنوال وفى أثناء ذلك يمدّها الدم الجارى الى الرحم من جسم الأم . فالدم يمدّ البيضات والبيضات تنقسم على هذا المنوال ثم هذه الخلايا المتكاثرة تنضم كل جماعة منها من طبع واحد وتتحد بنظام غائب عنكم لا تعرفونه . فمنها مايصير عظاما . ومنها ما يصير عضلات . ومنها مايصير عروقا . ومنها مايصير عصلا وهكذا . ثم اعلم أن الأجسام على ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ مضيئة كالشمس والكواكب والنار والكهرباء فى حال خاصة . ومعتمة كالأجسام الحجرية والطينية . ومنها شفافة كالهواء وكالماء وكالزجاج . وهذه الأجزاء كلها داخلة فى الغذاء مع الدم السارى فى جسم الانسان وأيضا المادّة إما غازية كالهواء واما صلبة كالحجر واما سائلة كالماء وهذه الأنواع كلها يحتوى عليها الدم . وانما اشتمل الدم على هذا كله لتستمد منه الأعضاء المختلفة ما يصلح لها . إنك لما نظرت البساتين والحقول والرياض تنظم بلا عمل تمنيت أن لو كانت هذه حالكم على وجه الأرض فاعلم أن هذا الإحكام وهذا النظام الجميل الذى رأيته يعقل به ﴿ أمران * الأوّل ﴾ تمثيل لما يقع عندكم فى كل حين . فما من نبات أوحيوان أوانسان إلا وهذه حاله من نظام سريع وشكل بديع منظم ولا عمل لكم فيه ﴿ الأمر الثانى ﴾ ان الله لوجعل هذه حال مزارعكم أنتم وصناعاتكم لأورث خللا فى نظامكم ولأصبحتم دودا أوحشرات لانكم لا عمل لكم ولا عقول . وهل تخلق العقول إلا للفكر أوالأيدى إلا للعمل أوالأعين إلا للبصر . فاذا كان كل شئ حاضرا عندكم فما الداعى إذن لأسماعكم وأبصاركم . الأسماع والأبصار والعقول إنما خلقت لكم لتشكروا الله بها ولا معنى للشكر إلا صرف هذه الأعضاء والجوارح فيما خلقت له . فاذا زرع الله لكم نخيلكم و بساتينكم وقطنكم وقمحكم وشعيركم وفعل فى حقولكم وجناتكم مافعله فى داخل أجسامكم من خلق الأعضاء وترتيبها ونظامها بلا عمل منكم ولا علم فمعناه انه أهملكم اهمالا كليا وقطع عنكم مدده . قال الحرث بن همام . هل لهذا مايستأنس به من القرآن . قال نعم . انظر الى أهل مكة طلبوا من النبى ﷺ أن يفجرلهم من الأرض

ينبوعا

ينبوعا أوتكون له جنة من نخيل وعنب فيفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو يكون له - بيت من زخرف - أو يرقى فى السماء وهكذا فقال لهم هل كنت أنا - إلا بشرا رسولا - فما هو إلا رسول لأمم تتعلم وتعمل لا انها يؤتى لها بالثمرات بلاعمل . قال الحرث بن همام . فلما سمعت ذلك منه . قلت له فماذا تقصد من هذه الروضات والحدائق المختلفات . فقال الأعضاء المختلفات فى الجسم . فقلت له وماذا تقصد (بالمسرة) التلفون أى آلة السمع وماذا تقصد بالمناظير المعظمة وماذا تقصد بهذه الأنابيب الممتدة . فقال هذا هو تفسير آية - وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون - . ألا ترى أن الأذن فى الرسم الذى أمامك عبارة عن عظمات صلبة متينة قوية وضعت وراء طبلة والطبلة أمامها فتحة والفتحة انتهت بالأذن البارزة خارجا . وهذه العظمات المسميات بالمطرقة والسندان والركاب لها رنين خفى وهذا الرنين ينتقل الى ماوراءها ويصل الى الدماغ فيعلم مايقال له . فلماذا وضعت هذه العظمات فى هذا المكان . ولماذا اتجهت الى جهتى الرأس . ولماذا جعلت بنظام وحساب بحيث لوصغرت أوكبرت أولم تكن فى موضعها أوزحزحت قيد شعرة واحدة لم يمكن السمع . فهذا هو معنى المثل الذى مثل به آلة السمع . وأما المناظير المعظمة فى القصر فلم أرد بها إلا أن أمثل لك البصر . ذكرت لك أن المواد منها الجامدة ومنها السائلة الخ ومنها الشفافة وهكذا

أليس من العجب انا رأينا البيضة فى رحم المرأة أخذت تنقسم على طريق المتوالية الهندسية وفى الوقت نفسه حصل حساب ونظام فى الوضع . الشمس والقمر مضيئات أشرق منها النور على الجو ووصل الى الانسان فكانت طبقات العين المنظمات البديعات الجيلات شفافات كما ان الهواء شفاف . فما هذا الحساب الذى خص حجاج العين بتلك المواد الشفافة . ولم جعل الشفاف فى موضع العين وجعل الصلب فى موضع الأذن . هذا يوجب الشكر ولن يكون الشكر إلا بالمعرفة لأن من لايعرف حق النعمة لايشكرها ولايحب المحسن لأن المحسن لايشكر إلا اذا عرف قدر احسانه وهل يعرف إحسانه إلا بالدراسة . هذا هو السبب فى قوله تعالى - قليلا ماتشكرون -

ثم قال الطيف للحرث بن همام وأما الذى أقصده بالأنابيب الممتدة فى الحديقة فهو القلب الذى رسم أمامك فانك تراه مقسما أربع أقسام فالبطين الأيسر الذى أمامك فى الرسم قد خرج منه (الأورطى) وقد تفرع فرعين والفرعان تفرعا فروعا كثيرة ولما تغذى الجسم بالدم رجع ثانيا بواسطة الأوردة الى القلب الى آخر ماهو مشروح فاقرأه . ثم قال هذا الطيف للحرث بن همام . انظر هذه الاعضاء الثلاثة (السمع والبصر والقلب) واعجب من تركيبها المنظم وعملها المتقن . فالقلب جعلت بنيته بأجهزة تقبل التمدد قوية متينة لمناسبة عملها والأذن جعلت أجهزتها تناسب الصوت والعين أجهزتها تناسب الهواء الشفاف . فهل يعرف ذلك من الناس إلا قليل . هذا معنى - قليلا ماتشكرون -

قال فقلت للطيف . هل الجهل بهذا يضر المسلمين فى حياتهم الدنيا أم الضرر اللاحق بهم يرجع الى جهلهم بنعم ربهم . قال الضرر اللاحق بالمسلمين يرجع لهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى معا . فأما الضرر الأخروى فان الرجل القادر على فهم علم التشريح مثلا وقد غفل عنه وتركه هو وأمثاله من عجائب صنع الله فهذا قد أعرض عن آيات الله والمعرض عن آيات الله مقصر فكان خيرا له أن يملأ قلبه حكمة وعلما وأيضا هذه علوم من فروض الكفايات والأمة كلها تعذب بترك فروض الكفايات . فقلت للطيف فاذكر لى مثلا مما أضر المسلمين بسبب جهل هذه العلوم حتى يظهر معنى - قليلا ماتشكرون - واذن تكون قلة الشكر صارت سببا فى العذاب فى الدنيا . قال ان الدنيا كلها اليوم قد عمها العلم والمسلمون نائمون وأضرب لك مثلا فأقول إن الناس قد أظهروا علوم جسم الانسان بطريق الصور المتحركة (السينما) فالسينما الآن قد أظهرت أحشاء الانسان وأعضاءه الظاهرة والباطنة . ولقد ظهر للعيان الآن فى الشرق والغرب كيف يربى

الجنين فى بطن أمه . أنا مثلت لك ذلك مثالا بالحدائق والجنات ولكن الناس الآن أصبحوا يرون نمو الطفل فى بطن أمّه وتدرجه وكيف تكون البيضة فى الرحم واحدة فتنقسم اثنتين وتتضاعف ولايزال يمو حتى تتم أعضاؤه . كل ذلك يرونه بالصور المتحركة فى بضع دقائق ويكمل الجنين . وفوق ذلك يرون بتلك الصور نموّ الأمراض كالزهرى . ألم ترانك أنت فى ليلة الجمعة ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٨ قد شاهدت بنفسك تكوين الجنين وكيف تمو حيوانات المرض المسمى بالزهرى وكيف يلتهب الجسم مرضا ويمتلئ حبوبا وقروحا ويسودّ الجلد وتتناثر الأعضاء . وهذه الحشرات المتكاثرات تمو كما يمو الجنين ويظهر فى الرجل وفى المرأة وفى طفلهما الذى تربى فى رحم المرأة المريضة بهذا الداء . وقد يولد الطفل أعمى مقرح الوجه والجسم . كل ذلك أنت شاهدته وهذه المشاهدة أبلغ من المثل الذى ضربته لك وانما أبنت لك هذا لتعلم أن الله عزّ وجل لم يكن غافلا عن الخلق لأنه خلق الأعضاء والسمع والبصر والجسم للمنافع . فاذا صرف الانسان قواه للشهوات التى جعلت مقدمة للمنافع وغفل عن المقاصد شوّه الله هذه الأعضاء وجعل الذنب على قدر المرض — جزاء وفاقا — فقلت للطيف مامعنى هذا . فقال معنى هذا أن الشهوة البهيمية فى الانسان تأخذ بمجامع قلبه وهى ألذ شئ عنده وهى لم تجعل فيه إلا لأجل الذرّية . فاذا جعلها مقصودة لذاتها سلط عليه أمراض الزهرى وغيرها فشوّهت نفس الأعضاء وجعلته منبوذا محقورا فهو قصد أن يكون دائما فاسقا معتزا بصولة قوّته وجماله فقال له . كلا . أعضاؤك أشوّهها وجمالك أذهبه وأجعلك بهيئة منفرة بحيث اذا قرب منك أحد يقول له الناس (لامساس) لأنهم اذا مسوك أصيبوا بمرضك كالسامرى الذى عبد العجل . فهذا الذى عبد شهوته أصيب بالحقارة فهو يريد الشهوة والتمتع لذاتهما والشهوة البهيمية مع النساء فقيل له كل من قرب منك يصاب بمرضك فاعتزل فأنت محقور منبوذ . هذا فى عذاب الفرد من نوع الانسان على ترك الشكر وقلته فى قوله تعالى هنا — قليلا ماتشكرون — . أما عذاب الأمة فهاك مثلا لذلك . أما قرأت ماجاء فى خطبة (السر صموئيل هور) فى الجمعية الجغرافية الملكية المذكور فى التلغرافات العامة الواردة الى مصر بتاريخ (٢٦) اكتوبر سنة ١٩٢٨ إذ قال ما يأتى

« إن اختراع الطيران أوجد مشكلة خطيرة فى الامبراطورية البريطانية فقد دخلنا الحرب العظمى كدولة تقطن فى جزيرة آمنة من المهاجمة وخرجنا من تلك الحرب ظافرين ولكن باتت عاصمتنا بسبب اختراع الطيران مستهدفة للهاجمة من الخارج أكثر من أية عاصمة أخرى من عواصم غربى أوروبا وقد اضطررنا وسنظل مضطرين سنة فسنة الى بذل مجهوداتنا العقلية وأموالنا لانشاء قوّات جوّية كافية لصد هجمات أى عدوّ يخطر له أن يغير على بلادنا . ويسرنى بأن أقول اننا قبل خمس سنوات لم يكن لدينا من قوّات الطيران للدفاع عن البلاد مايستحق الذكر . أما الآن فلدينا ثلاثون سربا من طيارات الدفاع وهى التى أنجزت حتى الآن من الاثنين والخمسين سربا التى تقرر انشاؤها . نعم إن الطيران قد أضاف عبئا جديدا على عاتق دافعى الضرائب البريطانيين وبابا للنفقة على التسلح فى العصر الذى كنا نودّ فيه تخفيف أعباء التسلح فى جميع العالم فكيف يتسنى لنا أن ننال فائدة من الطيران لقاء هذه النفقات الجديدة . وقد دلنى اختبار خمس سنين قضيتها فى هذه الوزارة على أن الطريقة الوحيدة التى يتسنى بها تعويض هذه النفقات هى استخدام قوّات الطيران استخداما يؤدّى الى الاقتصاد فى نفقات الدفاع عن الامبراطورية وتحسين المواصلات والموارد فى أجزائها المتفرّقة . وقد تبين لنا أن هناك مناطق معلومة للدفاع الامبراطورى يتسنى للطيارات أن تقوم فيها مقام القوّات الحربية القديمة لا أن تكون اضافية اليها . وأهمّ شاهد على صحة هذه السياسة هو (العراق) حيث استطعنا أن نخفض قوّات الحامية التى كانت فى سنة ١٩٢١ ثلاثة وثلاثين أورطة من جنود الامبراطورية تكلفنا أكثر من عشرين مليونا من الجنيهات سنويا الى خمسة أسراب من سلاح الطيران الملكى ولم يبق ولا

أورطة واحدة من الجيش الامبراطورى لمساعدة قوات الطيران وكل ماينفق الآن على هذه الاسراب هودون مليونى جنيه فى العام . وسرب واحد من الطيارات كان كافيا لارغام إمام اليمن الذى ظلّ عدّة سنين يهاجم (عدن) على الاقلاع عنها واطلق سراح بعض مشايخ مصادقين لبريطانيا كان قد اختطفهم . وكذلك كان للطيران فضل عظيم فى تهدئة رجالا لدين فى بلاد (الصومال) وعلى حدود الهند الغربية وكانت أعمالها خالية من القتل وسفك الدماء تقريبا فى كلا الجانبين . وقد أخضعت الطيارات عدّة قبائل كان اخضاعها قبل اختراع الطيران مستحيلا » اه

هذه هى خطبة (السرصموئيل هور) . أفلست ترى أن المسلمين الآن فى (العراق) و (اليمن) هم محل التجربة والقتل . أليس هذا الذّل الذى حلّ بالمسلمين لجهلهم نعم هذه الدنيا وعلومها والأمم كلها اغترفت من نعم الله وهم لم يغترفوا . أليس هذا تفسيرا لقوله تعالى – قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون * إنما يتذكر أولو الألباب – فهل يسوّى الله بين من علموا علم الطيران فى الجوّ ومن جهلوه . ألم يكن هذا العذاب الذى حلّ بالمسلمين الذين ضرب بهم المثل (السرصموئيل) كالعذاب الذى حلّ بالرجل والمرأة اللذين أصابهما داء الزهرى فشوّه جسميهما وأعمى أولادهما . ألست ترى أن هذا الجيل من أمّة الاسلام اذا لم يتعلم فترك ذرّيته جهلاء فأصابتهم نار الطيارات كما أصابت اليمن يكون هذا الجيل أشبه بالرجل المشوّه الجسم بالزهرى الذى خلف ذرّية أصيبت مثله بالزهرى لأن الأب والأم لما جهلا نعمة الصحة والحياة وصرفاهما فى لذاتهما وفسوقهما عاقبهما الله ونقل المرض الى نسلهما كما قال تعالى فى قوم نوح – ولايلدوا إلا فاجرا كفارا – فهكذا هذا الجيل من الأمم الاسلامية اذا فرط فى معرفة العلوم فلم يدرس جمال الله وحكمته فان عدوى الجهالة تنتقل الى ذرّيته حالا ويكون الأبناء كالآباء جهالة . إذن لافرق بين الرجل المصاب بالزهرى مع ذرّيته الذين يصابون بمرضه و بين الجيل الجاهل الذى يجهل نعمة الله ولايدركها ولاينتفع بها فيورث الاجيال الآتية جهالته ويكون مثلا للشر وسوء الملكة والجهل العظيم . قال الحارث بن همام فقلت للطيف إن هذا التشبيه قاس شديد الوقع . فقال هذا حق والحق أحق أن يتبع . إن العرب القدماء هم الذين عمموا العلم فى العالم وهم آباء أهل اليمن والحجاز والعراق ومصر وسكان شمال أفريقيا والسودان والصحراء الكبرى . فآباء هؤلاء هم الذين نقل عنهم العلم أهل أوروبا فقد استفاد اللاتينيون المعلومات من العرب أى آباء هؤلاء الذين يضربون بالطيارات

(١) فان (جوبرت) الذى كان بابا رومة الملقب (بسلوستر الثانى) أدخل من سنة ٩٧٠ الى سنة ٩٨٠ ميلادية عند الفرنج العلوم الرياضية التى كسبها من عرب اسبانيا

(٢) واهيلارد الانكليزى ساح من سنة ١١٠٠ الى سنة ١١٢٠ ميلادية فى كل من اسبانيا ووادى مصر وترجم مبادئ اقليدس من العربية بعد أن ترجمها العرب من اليونانية

(٣) وترجم أفلاطون المنسوب (لطيفوليا) وهى مدينة قرب (روسيا) من العربية الرياضيات الكروية المنسوبة الى (تيودوز) كما ان الاستاذ (رودلف) أحد أهالى (بروجس البلجيقية) ترجم مسائل بطليموس المتعلقة بالكرة الأرضية والسماوية مبسوطة على خريطة وهكذا الخ (انظر ما تقدّم فى سورة ابراهيم فهذا المقام هناك واضح)

ثم قال الطيف . فهؤلاء الانجليز لم يتعلموا الهندسة إلا فى القرن الثانى عشر من أهل مصر والأندلس فليس بدعا اذا جاؤا فى القرن العشرين أى بعد تعلمهم بنحو تسع قرون وضربوا أبناء أساتذتهم فى العراق واليمن وغيرهما بالطيارات فان الله خلق الناس كلهم جسما واحدا كجسم الانسان . والانسان رأيناه اذا أهمل أعضاءه وفرط فيها وشغلها باللذات عاقبه بادخال حيوانات تشوّه خلقته وتجعله ذليلا محقورا . فهل يكون بدعا

اذا سلط هؤلاء الفرنجة على المسلمين لما أصبحوا جاهلين بنعم الله و بالعلوم . ويكون مثل القنابل الملقاة من الطيارات على أولئك العرب الآمنين أشبه بحيوانات المرض الزهرى التى تنتشر فى الجسم عد انهما كه فى الشهوات . فهناترك العرب وأبناء الاسلام العلوم النافعة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ تركوا مواهب العقول ومواهب النعم فى هذا العالم فسلطت عليهم الطيارات . ولاجرم أن العقل أرقى من عضو التناسل . فعضو التناسل لما فسق أصيب نفس العضو بمرض الزهرى فابتعد الناس عنه ولكن العقل الذى هو أرقى وأعظم لما عطله المسلم فلم يشغله بالعلوم كان العقاب أشد فدل أن يكون المرض بثورا وقروحا أصبح المرض نارا تنزل من الطيارات تهلك الحرث والنسل ــ جزاء وفاقا ــ لما كانوا يجهلون . فعقاب الله الناس على ترك عقولهم بالمهلكات لمدنهم وأجسامهم أشد من عقابه لهم بالزهرى على استعمال أعضاء تناسلهم فى غير ماوضعت له . ولما كان العقل يعم أثره البلاد والعباد كان العقاب المرتب على اغفاله يعم البلاد والعباد . ولما كانت أعضاء التناسل جعلت للذرية وقد استعملت فى اللذات لذاتها شوهت أجسام الآباء وأجسام الأبناء ــ جزاء وفاقا ــ إنا كل شئ خلقناه بقدر ــ هذا بعض سر قوله تعالى ــ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ــ

﴿ تذكرتان * التذكرة الأولى ﴾

اعلم أنه لافرق بين تلك النيران المقذوفة من طيارات الانجليز على اليمن والعراق وغيرهما و بين تلك الحيوانات الذرية (المكروبات) فى داء الزهرى الذى يعيش فى أجسام أرباب الشهوات المقبح لأجسامهم ولكل من يصاحبهم و يلامسهم . فأهل أوروبا الذين تعلموا من آبائنا العرب كما قدمناه هنا هم هم أنفسهم يقذفون النار على اخواننا وعلينا من طياراتهم . فكما حذقوا بعلم العرب القدماء تغذت الحيوانات الذرية من دم الفساق فى الداء الزهرى . وكما ان هؤلاء الاوروبيين المتعلمين عن آبائنا قذفونا بالنار احتقارا لشأننا فشوهوا الأجسام وأهلكوا الحرث والنسل وهدموا الدور والقصور . هكذا نرى تلك الحيوانات الذرية فى داء الزهرى شوهت محاسن أولئك الفساق . فحيوانات الزهرى من أجسامهم تغذت ولجمالهم قبحت ولأعضاء تناسلهم مزقت ولمحاسن وجوههم شوهت كذلك هؤلاء الاوروبيون لعلوم آبائنا نقلوا ولأجسام أبنائهم شوهوا ولدورهم خربوا . وكما أن الفساق لما عطلوا مواهبهم وأناموا قواهم وعكفوا على عبادة شهواتهم وتركوا نعم الله فى سمائه وأرضه أصابهم بحيوان يخلقه فى أجسامهم ويغذيه من لحومهم ويسقيه من دمائهم ويقول لهم أيها الناس خير لكم أن تكونوا مرعى لأسفل الحيوان ومأكلا لأدنى المخلوقات . كنت اصطفيتكم لعبادتى وخلقتكم وأعددتكم لادراك نظامى فقعدتم عن المعالى فأنزلتكم الى أسفل سافلين ــ جزاء وفاقا ــ فالغنم بالغرم والجزاء على مقدار الذنب . هكذا أنتم أيها المسلمون قلت لكم ــ كنتم خير أمة أخرجت للناس ــ وأرسلت لكم خير الأنبياء وهو آخرهم وفتحت لكم البلاد فغفلتم عن العلوم وجهلتم المنطوق والمفهوم ولم تعقلوا ما بأرضكم من كنوز ولا بما فى سمائكم من جمال ولا بما لديكم من نبات وجماد وحيوان فغضبت عليكم غضبة لن أرجع عنها إلا بايقاظكم فأرسلت لكم أمما تعلمت علوم آبائكم وقلت لها خربى دورهم وهدمى مساكنهم وشوهى محاسنهم حتى يستيقظوا ويدرسوا . فوعزتى وجلالى لايسكن أرضى بعد اليوم بعزة إلا المفكرون ولايعيش فيها بهناء إلا العاقلون ــ ولتعلمن نبأه بعد حين ــ

﴿ فصل ﴾

ألم يعلم أبناء العرب خصوصا والمسلمون عموما أن بلاد العراق و بلاد اليمن كانت لهما مدنية عظيمة وكان فى الأولى مدنية الآشوريين والبابليين ذوى العلم والحكمة والملك العظيم أيام الجاهلية . وكان فى أيام الاسلام لهم ملك دولة العباسيين تلك الدولة التى ملكت أعظم الممالك فكان له ملك فى آسيا وأفريقيا وأوروبا وهى التى دوخت أمما وأزالت عروشا . وكان للثانية وهى اليمن فى الجاهلية عرش عظيم وذكرت لها سورة فى

القرآن

القرآن سميت باسم (سبأ) فيها سدالعرم وفيها بلدة طيبة ولها رب غفور . فهاتان الأمتان العراقية واليمنية هذه سيرتهما وممالكهما فهل يفعل الله بهما ذلك فى الاسلام ويقلب لهما ظهر المجن إلا لما اتصف به رجال الأمتين هم وأكثر المسلمين من الجهل والاعراض عن آيات الله وشوّهت محاسن دورهم وقصورهم وقتلت رجالهم بالطيارات كما شوّهت أجسام الفساق بمرض الزهرى . اللهم إنك أنت المعلم والملهم الحكيم العليم . لك الحمد على نعمة العلم . شوّهت محاسن الفساق بمرض الزهرى ومحاسن هذه الأمم الاسلامية بالمقذوفات من الطيارات لأن القبيلين غفلا عن نعم الله فى أنفسهما فعوقبا ولكن لله رحمة عامة على الأمم وعلى الأفراد . اللهم إنك رحيم وانك حكيم . أنت القائل فى كتابك ــ ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ــ . إن فسوق الأفراد بالشهوات البهيمية عقابه الزهرى وفسوق الأمم بالغباوة عقابه المدافع والطيارات . وأنت قلت فى الكتاب بعد تلك الآيات ــ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ــ مريدا بذلك فتح الباب للمغفرة والرحمة الشاملة للأمم وللأفراد . أما رحمتك يا الله للفساق من الأفراد فهى ظاهرة واضحة اليوم فان طبيبا أوروبيا كان له تلميذ يابانى فى زماننا قد عملا تجارب بلغت (٦٠٦) وهذه التجارب جعلوها العقاقير وأدوية ركبوها وأخذوا يجربونها واحدا بعد الآخر اشفاء مرض الزهرى فلم يتهيأ لهما ذلك إلا بعد (٦٠٦) تجربة . فأطلقوا على الدواء ذلك الاسم وشفى به قوم ولم يشف آخرون . فهل هناك دواء للأمم الاسلامية التى حادت عن جادّة الصراط المستقيم كدواء (٦٠٦) الحمد لله نعم ولعل هذا التفسير وأمثاله الذى هو مزيج مركب من علوم قديمة شرقية ومن علوم أوروبية عصرية مع الآيات القرآنية هو وأمثاله دواء الأمم الاسلامية فى هذه الأيام . فكما ركب دواء (٦٠٦) للزهرى بمعرفة طبيب شرقى وطبيب غربى هكذا هنا صار الدواء مركبا من علوم شرقية وعلوم غربية وزاد دواؤنا الآيات القرآنية والله يقول ــ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ــ ويقول ــ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ــ

﴿ التذكرة الثانية ﴾

لما اطلع على هذا بعض الأصدقاء من العلماء . قال ألا جل قوله تعالى ــ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ــ . تكون هذه الانذارات للمسلمين بالزهرى والطيارات . قلت نعم ألم يقل الله تعالى ــ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فقال وهل المسلمون جحدوا بآيات الله . قلت الاعراض عن النعم فيه معنى الجحود ومعنى الاستهزاء عملا . نعم لا مسلم فى الأرض يجحد هذه النعم ولكنه من جهة أخرى أشبه بمن كفر النعمة ومن كفر النعمة لم يقبلها ومن لم يقبل النعمة لا يعقلها ومن لا يعقلها لا يشكرها وما الشكر إلا صرفها فيما خلقت له فاذا لم تصرف فيما خلقت له من العلوم والصناعات أذلها الله وذلك قوله تعالى ــ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ــ واست أقصد أن هذا هو معنى الآية نصا بل أقصد أنه يراد به الاعتبار وكأنه كناية والكناية لفظ لا يمنع المعنى الأصلى ويقصد منه المعنى العارض . فقال هذا حسن

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى ــ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ــ مع قوله تعالى فى سورة الأنبياء ــ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ــ ﴾

لما كتبت هذا العنوان حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال ماذا تريد أن تكتب هنا بعد ما كتبت فى سور كثيرة عجائب العدد والوزن والنظام الخ وهل هذا إلا تكرار . فقلت له

لاتعجل ولاتحملنى أن أقول لك ـ إنك لن تستطيع معى صبرا * وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ـ . قال ياعجبا . أنا لم أسمع منك هذا الاقتباس إلا الآن فعسى أن يكون هنا كنزعثرت عليه حتى اقتبست الآية من قصة موسى والخضر عليهما السلام . قلت نعم هنا كنزالكنوز وسرّ الأسرار وعلم الحكماء قد خبأه الله فى هذا الزمان ليبرزه للأجيال المقبلة فى هذه الآيات . علم نفيس شريف لم يظهره الله إلا للأمم الحالية تشريفا للأمم الاسلامية . ومتى اطلع عليه أبناؤنا طاروا فرحا وشوقا الى العلوم واستيقظوا من رقدتهم وقاموا من نومتهم وسيكون لقراء هذا التفسير نهضة لم ينلها قبلهم أحد من العالمين . فقال

أسرع بردّ جواب ماأنا باحث * عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت ألم تسمع قوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ فلم ذكر الله لفظ الحق هنا . قال هذه عادة القرآن والله يسمى الحق وأعماله كلها حق . فهذه ليست تحتاج الى علم ولا حكمة . فقلت هذه الاجابة منك تدلنى انك تنظر لهذا القرآن ولهذه الدنيا نظرة بغير عناية . إن لفظ الحق هنا لها معنى لايتم إلا بعلوم كثيرة سأظهرها لك الآن . علم الله قبل أن ينزل القرآن أن بعض الناس لايهتم فلفظة مثل هذه يجعلها أمرا عاديا فأشار الى دفع هذا بقوله بعد آيات ـ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ـ فعادة الناس أن يظنوا أن مثل هذه الكلمة جاءت عفوا لامعنى يخصها وهذا لعدم التدبر والفطنة كما لايتدبر أكثرالناس فى أعضائهم وحواسهم وتركيبها العجيب . فقال انها لفظة مفهومة بذاتها لاتحتاج الى شرح . قلت لا وأزيدك على ذلك أن قوله تعالى بعد آيات ـ فتعالى الله الملك الحق ـ تعطى هذه الكلمة صبغة خاصة . ألاترى رعاك الله انه كما أن الملك ﴿ قسمان ﴾ قسم هوحق لايموت ولايفوته شئ ولاينازعه أحد ولاولد له يرثه ولا أخ ولا شريك ولاضعف يعتريه . وقسم هو باطل لأنه يمرض و يموت و يشاركه سواه ويحاربه و يغلبه الغالبون و يعزلونه الخ فهذه المعانى وأمثالها تؤخذ من قوله تعالى ـ فتعالى الله الملك الحق ـ وانما تعالى لأن الملك الباطل وهم ملوك الأرض قاطبة لايتعالون بل هم فى الحضيض . قال هذا حسن ثم ماذا . قلت اذا صح هذا فى قوله تعالى ـ فتعالى الله الملك الحق ـ فانه يصح نظيره فى قوله ـ والوزن يومئذ الحق ـ فقال ان هذه الجملة حاصرة فكأن الدنيا لاوزن فيها بحق وليس هناك حق فى الوزن إلا يوم القيامة وهذا غير معقول فان فى الدنيا من الوزن ماهو حق ومنه ماهو باطل فقياسك الحق الأوّل على الحق الثانى قياس مع الفارق . فقلت كلا . إن وزن الدنيا كله ليس محققا ولاوزن مع التحقيق إلا عند الله تعالى وهذا الحكم مستحيل أن يعرفه الناس إلا بعلم الفلك والطبيعة . فقال أريد أوّلا أن أعرف الوزن فى هذه الحياة الدنيا ثم بعد ذلك أعرف كيف يكون غير حق بحيث يكون ذلك مبرهنا عليه فإننى ماسمعت أن موازين الأمم كلها ناقصة غير تامّة إلا منك . فقلت ﴿ الجواب عن الأوّل ﴾ اعلم أن أصل الموازين الجاذبية التى جعلها الله من صفات المادّة كما قال تعالى ـ إنّ الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ـ فهذا الامساك هوالمسمى جاذبية فكل حجرأوشجر منجذب الى الأرض ولولا تلك الجاذبية لأصبحنا جميعا بعيدا عن هذه الأرض وبهذه الجاذبية يكون

(١) الحجر ينزل من أعلى الى أسفل بقانون فينزل فى (باريس) فى الثانية الأولى (٤٫٩) أربعة أمتار وتسعا من عشر أى وتسع ديسات وفى مصر أقل ضرورة لقربها من خط الاستواء ولايجوز التطويل فى هذا لأنه مشروح شرحا تاما فى أوّل سورة ﴿ آل عمران ﴾ فارجع اليه هناك

(٢) اذا كان جسمان خفيفان يقتربان من بعضهما على وجه الماء كالفلين مثلا فان المسافة اذا كانت بينهما مترا مثلا كانت السرعة بينهما أكثر منها والمسافة بينهما متران بمقدار أربعة أمتار أى على حسب عكس المربع إذ مربع المترالواحدمترواحد واذا كان بينهما متران كانت السرعة بعكس المربع فأعطى تربيع الثانى للأوّل وتربيع الأوّل للثانى وقس عليه ما اذا كان بينهما ثلاثة أمتار وهكذا

(٣) البندول وهو عبارة عن خيط أوحبل أومعدن طويل فى آخره قطعة من الرصاص أوغيره تعلق فى مكان بشروط مخصوصة و يترك يذهب ويجيء من نفسه متذبذبا مضطربا فان هـذا له حركات منظمة فى أوقات معينة

(١) فاذا نظرنا الى بندولين يتحركان فى مكان واحد نجد زمان حركاتهما واحدا اذا كانا متساويين فان اختلفا كانت ذبذبتهما على حسب جذرطولهما فاذا كان أحدهما طوله أربعة والآخر ٩ تذبذب الأول فى (٢) والثانى فى (٣) والمعنى أن الحركات المتساوية عددا كخمسة مثلا تقع من الأوّل فى (٢ من ٣) من الثانى

(ب) واذا أخذنا بندولا واحدا فى أماكن مختلفة كانت سرعته على حسب عكس الجذر التربيعى لشدّة الثقل إذ معلوم أن الثقل يكون أكثر كلما قربنا من القطبين وأقلّ كلما قربنا من خط الاستواء . فاذا كان البنـدول فى النوبة قوّة ثقله (١) وفى بلاد الروسيا قوّته فى الثقل (٤) تحرّك فى الأولى حركات مضروبة فى (٢) الذى هوالجذرالتربيعى لأربعة وتحرّك فى الثانيـة تلك الحركات بعينها مضروبة فى (١) الذى هوالجذر التربيعى لواحد . والنتيجة أن البندول الواحد فى الأماكن المختلفة تكون سرعته على حسب عكس الجذر التربيعى لشدّة الثقل ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ يكون فى الجهات القطبية وماوالاها لشدّة ثقله مناسبا للجذرالتربيعى فى الجهات الاستوائية وهكذا بالعكس

(٤) ثم انظرالى الموازين التى يزن بها نوع الانسان أمتعته فانها تابعة للميزان العمومى وهذا وضح فى كتابى ﴿ ميزان الجواهر ﴾ وكتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وملخص ذلك أن لكل ميزان من موازين (القبان) ﴿ جهتين ﴾ جهة صغرى تسمى (ذراع القوّة) وجهة كبرى تسمى (ذراع المقاومة) وعلاقة فى الوسـط فيها لسان دال على الاعتدال وعلى ضده . واذا تساوى ذراع القوّة وذراع المقاومة كان الرطل الموزون يعادل رطلا نظيره من حديد مثلا موضوع فى الكفة الثانية وهذا متداول بين صغار الباعة . فأما اذا طالت إحدى الجهتين وقصرت الأخرى كميزان القبان المذكور فان القوّة (التى هى عبارة عن الشئ الموزون كالقطن مثلا) والمقاومة (التى هى عبارة عما يعادله من المعدن) لهما قانون خاص . ذلك أن المقاومة دائما عكس ذراعها فاذا كان ذراعها قدرذراع القوّة عشرمرات كانت هى أقل من القوّة عشرمرات . وان كان ذراعها أكبر مائة مرة كانت أقلّ من القوّة مائة مرة . فاذا كانت هى عشرة أرطال كانت القوّة ألف رطل وهكذا . فانظر كيف أمكن الانسان وزن أشياء كثيرة بمعادل قليل مع ناموس حق لايتغير

فهـذه المسائل نظر فيها الى اعتبار طول الروافع ومربع المسافـة فى الحجر النازل وعكس المربع فى الجسمين المتجاذبين والجذر فى البنادل المختلفة فى المكان الواحد وعكس الجذر فى البندول الواحد فى الأماكن المختلفة هكذا

(١) الطول (٢) المربع (٣) عكس المربع (٤) الجذر (٥) عكس الجذر
هذا هوالجمال فى أرضنا . هذا هوالميزان فى دنيانا التى نعيش فيها

﴿ جهل أكثرالناس ﴾

الناس يعيشون و يموتون وأكثرهم لايفكرون أما الجهلة فلايعقلون من هذا شيأ وأما الذين درسوا هذه العلوم فان أكثرهـم يمرّون على هذا وهم لايذكرون وانما ينظرون اليها نظر الزارع لزرعه والموظف لمرتبه الذى يتقاضاه من صاحب العمل وهناك مستبصرون فى النوع الانسانى وهم فى الأرض قليل . خلقهم الله و بثهم مع قلتهم فى الأقطار ليبينوا للناس هذا الجمال وليقولوا لهم أيهاالناس اذا كان البندول فى الساعة يعرفكم زمانها والقبان يعرفكم مقدارالمبيع لتبادل المنافع فما ذلك إلا متاع لأجسامكم . أما عقولكم فغـذاؤها هو هذا الجمال . والتأمل فى وضع هـذا الوجود وكيف ظهرالجمال فيه والميزان والعدل وتبدّى لعقولكم جمال

الوضع والاتقان فاعتبرت جميع الأوضاع من طول ومربع وعكسه وجذر وعكسه دلالة على حكمة بالغة وآية باهرة ظاهرة وأن هذا العقل الانسانى الذى أدرك هذا أجل وأجل وأبدع وأبدع لأنه فرح بهذه المعانى المخبوءة فى المادّة حين اقتنصها منها . فهذا الاقتناص دلالة على أن القنيصة غذاء المقتنص وأن هذا الجوهر العقلى الذى هو سرّ الانسانية مناسب لتلك الأسرار فى الطبيعة . هـذه الموازين والأسرار المخبوءة فى الطبيعة انما هى مما يليق للعقل لأنها لطيفة وهو لطيف. فتجاذب اللطيفان وتعانق الجيلان . إن العقل المخبوء فى الانسان هو الذى غاص على هذه الجواهر فى المادّة ليتحلى بها خلاصة الانسان وهو العقل غذاؤه خلاصة الطبيعة وسرها وهى القوانين كما أن جرم المادّة غذاء لجرم الانسان فالمادة للمادة والمعنى للمعنى . إن اختفاء معانى المادّة واحتجابها وجمالها وعدم ظهورها إلا للعـقل وحده تارة ولغريزة بعض الحيوانات تارة أخرى دليل على أن هناك (عالمين) عالما لطيفا روحيا وعالما كثيفا مادّيا وأن العالم الكثيف المادّى أشبه باللوح الذى يقرأ فيه العالم اللطيف المادّى علومه . إن الدنيا كلها لوح لنفس كلية مشرقة على هذا العالم . تلك النفس تنوّعت فى الأحياء كما تنوّعت المادة الى صور وأشكال تنوّعت المادّة وتنوّعت العقول والغرائز وربك على كل شئ حفيظ

(٥) المسألة الخامسة وهى ارتفاع الجوّ . يرتفع الجوّ عن سطح الأرض (٤٨٠٠٠) متر وحرارة الطبقات الجوّية تنقص درجة فى كل (١٥٠) مترا أو (٢٠٠) مترا من الارتفاع لغاية (٧٠٠٠) متر تقريبا . ويظنّ أن التناقص بعد هـذا الارتفاع أقل من ذلك وأن الطبقات الأخيرة ذات حرارة لاتنخفض عن ستين درجة . وثقل الجوّ يزن عمودا من الزئبق ارتفاعه (٧٦) سنتيمترا أو بعمود من الماء ارتفاعه ١٠٫٣٣٤ مترا فالضغط الكلى على سطح الأرض يعادل ثقل عمود من الماء قاعدته سطح الأرض وارتفاعه (١٠٫٣٣٤) مترا وهذا يعادل ثقل (٥٨٥٠٠٠) مكعب من النحاس كل مكعب ضلعه كيلومتر واحد . فهذا من الموازين التى وضعها الله فى الأرض ليزن بها هذا الوجود وانما قلنا انه من الموازين لأن الشمس اذا أرسلت أشعتها الى أرضنا وهى تحت الأفق صباحا ومساء أوفوقه نهارا فان هـذا الضوء انما يتفرّق عليها بنسبة محفوظة بواسطة الهواء فى جميع الجهات وهـذا يسمى الضوء المنتشر أو المتفرّق . فلوفرضنا أنه لم يكن هناك هواء فوق أرضـنا فانه لايتم شئ فى هذا الوجود فلانبات ولاحيوان ولاماء لأن الماء لا يكون إلا بجرى الرياح وهذه تحمل السحاب وهنا لاهواء فلاسحاب وأيضا لايستضىء من الأرض إلا الجزء المقابل للشمس وحده وماعداه لا يصل له الضوء وكيف يصل له وهو انما يأتى له بواسطة الهواء الذى ينشر الأشـعة المنعكسة من المادّة الأرضية وهنا لاهواء فلاانتشار لتلك الأشعة المنعكسة . ثم إننا الآن نرى لون السماء الزرقة وهذه الزرقة لون الهواء نفسه لان سمكه العظيم الذى يبلغ عشرات آلاف الامتار هذا شأنه كلون ماء البحر العميق . فهذا اللون اذا لم يكن هواء لا يكون وانما ترى السماء حالكة السواد . ويرى جميع الناس الكواكب السيارة والثابتة وقت الظهر وينتقل الناس من النهار الى الليل دفعة واحدة ومن الليل الى النهار دفعة واحـدة . فانظر الى ميزان الهواء الذى قدّر بمقدار . يحمل السحب ويأتى بلون الزرقة وينشر النور وله درجات من الحرارة متدرّجة من أسفل الى أعلى

(٦) المسألة السادسة . هذا الهواء نفسه هو الذى فيـه يطير الطير وقد طار فيه الانسان فى أيامنا هذه . وقد تقدّم فى سورة (المائدة) عنـد قوله تعالى ــ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ــ الخ كيف كان طيران الانسان فى الجوّ على ﴿ ضربين ﴾ ضرب على هيئة سير السفن والسمك فى البحر وضرب على هيئة طيران الطير فى السماء فاقرأه هناك ولانعيده وانما هنا نأتى ﴿ بفائدتين * الفائدة الأولى ﴾ ان الناس اذا طاروا فى الجوّ فانهـم الى الآن لم يصلوا الى أكثر من عشرة آلاف متر بالطيارات ولا الى أكثر من (١٥) ألف متر بالمنطاد . وقـد علمت فى سورة (المائدة) أن المنطاد يرتفع بخفة حجمه . فأما الطيارة المسماة باللغـة الفرنجية (ابروپلن) فانها انما ترتفع بقوّة تحريكها مع ثقل جسمها كثقل جسم الطائر بالنسبة للهواء ﴿ الفائدة الثانية ﴾

ان

إن الطيارة انما تجرى بقوة تحريك آلة أو أكثر فى مقدمها وهـذه الآلة تتحرك بقوة ناتجة من المادة المسماة (البنزين) التى يستخرجونها من الفحم الحجرى وهذه الحركة تطرد الهواء أمامها فيخلو لها الجو من الهواء فتندفع وتأخذفى العلو أيضا لأن اللوحين الأماميين اللذين فى الطيارة مرتفعان الى أعلى ارتفاعا منظما فيضربهما الهواء الى أعلى فيحصل ﴿ أمران ﴾ اندفاع الى الامام بخلو الهواء وارتفاع الى أعلى بدفع الهواء الى أعلى لمقدم الطيارة

(٧) المسألة السابعة بيان المقصود من قوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ

اعلم أن هذه الموازين المتقدمة التى وضعها الله فى الأرض سواء أكانت موازين طبيعية أوصناعية ليست فى اتقانها كموازين الله يوم القيامة فان عالمنا الذى نعيش فيـه أقل نظاما من العالم الأعلى حينما نخرج من الأرض الى عالم أجل من هذا وألطف منه . والبرهان على ذلك أن سرعة دوران الأرض فى الثانية الواحدة (٤٦٥) مترا فى خط الاستواء و (٤١٩) مترا فى عرض مصر و (٣٠٥) مترا فى باريس ولاتزال قوة السرعة تقـل الى القطبـين . ثم انه كلما كانت السرعة أشـد كان الجسم أخف كما نرى أن الجسم فوق الرحى وهى مسرعة الدوران يكون أخف منه لوكانت الرحى ساكنة بنسبة السرعة . فاذن الأجسام تـكون أخف فى خط الاستواء منها فى القطبين . فأما مابينهما فانه يكون بالنسبة لذلك وعليه استنتج العلماء أن الكيلوجرام ينقص وزنه فى خط الاستواء بقدر (٥ر٣) ثلاث جرامات ونصف جرام أى مقدارجزء من (٢٨٩) جزأ ومعلوم أن الكيلوجرام ألف جرام . فاذن كل ألف جرام تنقص نحو (٥ر٣) فى الوزن فى هذه الدنيا . ويقول العلماء لوأن الأرض كانت أسرع دورانا مما هى عليه (١٧) مرة فقط لانعدم وزن الأجسام فى خط الاستواء بحيث يصير الجسم هناك لاوزن له لشدة الحركة ويكون أقل من وزنه كثيرا جدا فى غيرخط الاستواء

هذا هوتفسير الآية التى نحن بصـددها . يقول الله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ ويقول ـ فتعالى الله الملك الحق ـ أما كونه ملـكا حقا فهوظاهر لأن ملوك الأرض تحت تصرفه هوفهذا ظاهر أى ان ملكهم باطل زائل . أما كون وزن يوم القيامة حقا ووزن هذه الدنيا غيرحق فهوغير معلوم وانما يعلم بطريق العلوم التى ظهرت فى الدنيا والمسلمون عنها نائمون . لقد استبان هنا أن جميع الأجسام التى نزنها فى هـذه الأرض ليس وزنها جاريا على الحقيقة تماما لأن أرضـنا تجرى جريا سريعا واذا كان كذلك فسرعتها تنقص وزن الأجسام التى عليها فالجسم الذى ينقص فى خط الاستواء جزأ من (٢٨٩) ينقص فى مصر وفى غيرها جزأ أقل من ذلك فتكون الأوزان غير حقة عنـدنا لأن عالمنا عالم ثقيل ليس نوريا بل هو مظلم فلذلك كانت موازينه غـير حقة ولاصادقة . هذا هو تفسير القرآن . القرآن أظهرلنا أن الوزن يوم القيامة حق أما وزن الدنيا فانه ناقص ولوجزأ قليلا جدا . وهذا ظهرلنا من العلوم المنتشرة فى ربوع الشرق والغرب الآن ومن قوله تعالى ـ فتعالى الله الملك الحق ـ وفهـم معنى الحق فى المقامين ومن قوله تعالى ـ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ـ الخ الذى يشير الى أن أى كلمة فى الكتاب ليست عبثا بل لها مقصود خاص ومنها قوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ أى أما فى الدنيا فان الوزن عندكم فيه تقريب لاتحقيق . فياليت شعرى كيف يعرف المسلمون معنى قوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ إلابمثل مابيناه وكيف وافق نظام هذا الكون سر القرآن وكيف أصبح العلم الحـديث والقديم سرين من أسرار القرآن . فياأسفا على أمة مات علماؤها وضاع مجدها وطاح قوادها وذهبت كأمس الدابر ـ إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوأ فلامرد له ومالهم من دونه من وال ـ . اللهم إن المسلمين غيروا ما بأنفسهم من حب العلم والمعرفة فأصبحوا طحين الرحى أذلاء ضعفاء جهلاء ، وعسى الله أن ينقذهم برجال يقرؤن أمثال هذا التفسير ويكونون قادة للأمم الاسلامية والحمد لله رب العالمين

(٨) المسألة الثامنة . قال ذلك الصالح لما سمع هذا إذن جميع الموازين على الأرض غير موصلة لحقيقة الموزون بسبب حركة الأرض الدورية وهذا عسر لايعرفه إلا الدارسون لهذه العلوم فهل تذكر لى مثالا آخر أعرف به أن موازين هذه الأرض لاتوصل الى الحقيقة حتى يتبين لى معنى قوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ التى نحن بصدد الكلام عليها . فقلت مسألة (أرشميدس) قال وماهى . قلت إن (أرشميدس) الفيلسوف كان ملك زمانه قد أعطى للصائغ ذهبا يصنعه له تاجا فلما وقع فى يد الملك شك فى أمره وقال لابد أن يكون هذا الذهب قد خلط بفضة وأحضر (أرشميدس) وقال له أريد أن تبحث لى فى ذلك ففكر أياما و بينما هو يستحم إذ أحس بأن جسمه فى الماء أخف منه وهو فوق الأرض فأدرك حالا أن جميع الأجسام تخف فى الماء فأسرع بالخروج من الحمام من غير أن يستتر بلباس وقال عرفتها عرفتها ثم صنع تاجا بوزن هذا التاج من الذهب وتاجا آخر بوزنه من الفضة فوضع تاج الذهب فى إناء فيه ماء فارتفع الماء فى الاناء فجعل هناك علامة ثم وضع تاج الفضة فى الماء فارتفع الماء طبعا فوق علامة ارتفاعه للذهب لأن الذهب أثقل والفضة أخف فتأخذ حجما أكبر مما يأخذ الذهب ثم أتى بالتاج المطلوب معرفته فارتفع الماء الى علامة بين العلامتين فعرف يقينا أن هذا التاج مخلوط فيه ذهبه بالفضة ولولا ذلك لم يرتفع الماء فى الاناء عن ارتفاعه فى تاج الذهب فسر ملكه بذلك وظهر أن ظن الملك كان صادقا وأن الصائغ غاش . وهذه القاعدة هى أس لسير السفن فى البحر والسمك فى الماء والمنطاد فى الهواء . إن السفينة فى البحر لاتطفو على الماء إلا اذا كانت أخف من الماء الذى أزاحته وهكذا السمك لايطفو إلا اذا نفخ المنفاخ الهوائى الذى فى جسمه فكبر حجمه فصار أخف من الماء الذى يزيحه وهكذا المنطاد فى الجو يسرع فى الارتفاع بمقدار خفته . فتبين من ذلك أن الجسم فى الماء أخف منه وهو فى الهواء ثم الجسم الذى فى الهواء فوق سطح الأرض أقل من حقيقته بجزء قليل كما تقدم هذا هو معنى قوله تعالى ـ والوزن يومئذ الحق ـ وقوله ـ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ـ فقوله ـ ليوم القيامة ـ قيد لدقة الوزن أما فى الدنيا فان الوزن لا يكون تماما ولا يأتى بمثقال حبة من خردل لأنك علمت أن كل ألف جرام فى خط الاستواء تنقص ثلاثة ونصفا وهذه فيها حبات خردل لاحبة واحدة بل فيها عشرات بل فيها مئات الحبات . هذا هو سر القرآن ظهر فى هذا الزمان . قال فهل هناك موازين من هذا الباب عامة . فقلت نعم الهواء جعله الله أخف من الماء (٨٠٠) مرة والبخار أخف من الماء (١٧٢٨) مرة ولذلك الميزان ترى الهواء فوق الماء وترى البخار يعلو سحابا و يرتفع فى طبقات الجو

(٩) المسألة التاسعة . قال صاحبى هذا حسن جدا و بيان عجيب ونور مبين لم يظهر إلا فى هذا الزمان فهل هذا الوزن المذكور فى القرآن جاء فى ديانات الأمم السابقة . فقلت نعم ولدينا دليل مشاهد ظاهر واضح لم يظهر إلا فى هذا الزمان . فقال وماهو . قلت قد عرف الناس أن دين قدماء المصريين مأخوذ عن النبى ادريس عليه السلام المسمى (هرمس) ويسمى (اخنوخ) كما يسمى بهذين الاسمين أيضا كوكب الشعرى الذى بنى الهرم لاجتلاء نوره و يسمى أيضا (توت) فهؤلاء قد صوروا لأممهم ميزان الله يوم القيامة بصورة تمثل لهم العدل يوم القيامة . وقد تقدم الكلام على دين قدماء المصريين فى سورة (يونس) عند قوله تعالى ـ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ـ وأن تلك الجثث انما بقيت بمصر ليبين الله للناس ما كان عليه القوم من علم ومن جهل وضلال وهدى . وأزيد الآن عليه مانقله أستاذنا أحمد أفندى نجيب مفتش وأمين دار عموم الآثار المصرية إذ نقل فى كتابه ﴿الأثر الجليل﴾ فى صفحة ٩٣ وما بعدها عن (هيرودوت) أن أهل (طيبة) كانوا يعبدون الله وحده و يقولون هو الأول والآخر الحى الأبدى السرمدى . ونقل عن (جامبليك) انه سمع من كهنة المصريين أنفسهم أنهم يعبدون الله وحده و يقولون انه فاطر السموات والأرض ورب كل

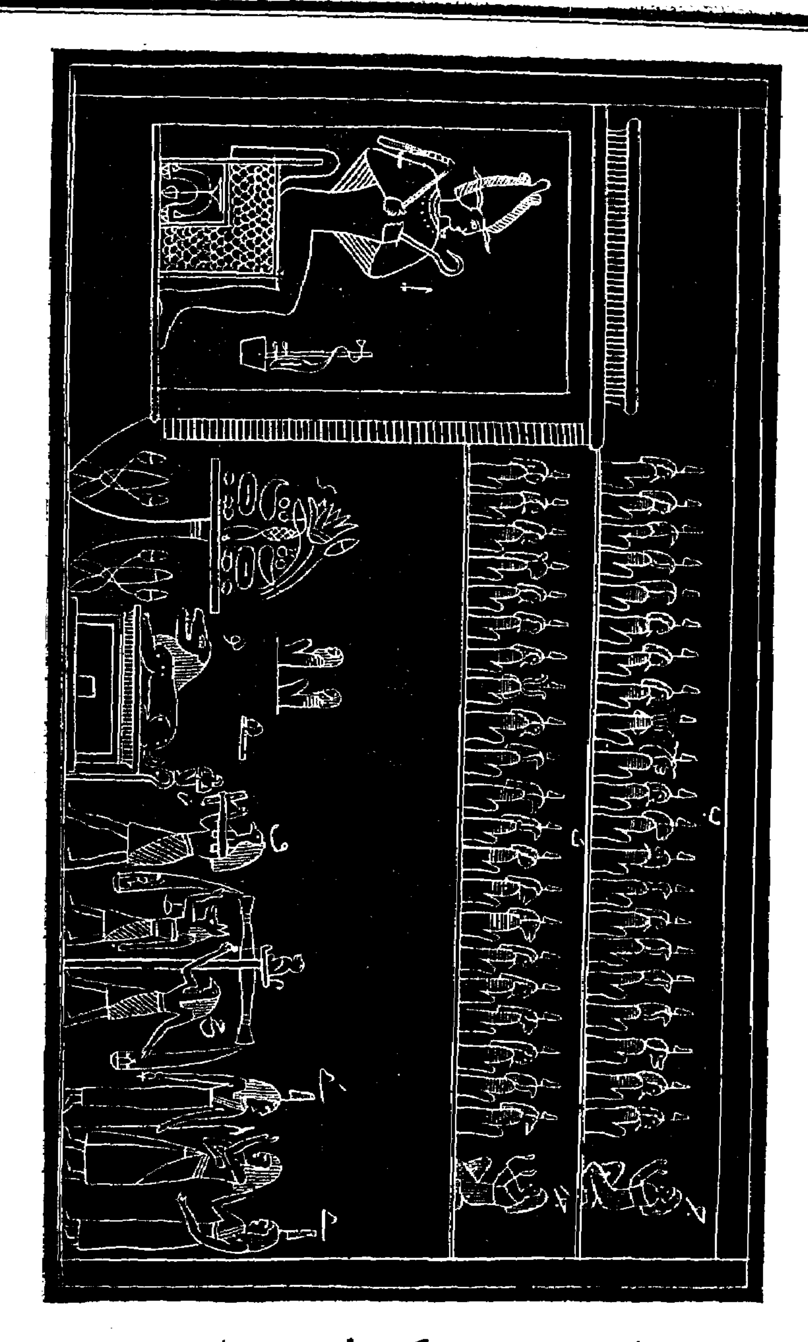
شئ

شئ وهو المالك لكل شئ . الخالق لكل شئ الذى لم يخلق ولم يتجزأ ولاتراه العيون . يعلم ماتكنه الضمائر وماتخفيه الصدور وهو الفاعل المختار لكل شئ وفى كل شئ الى أن قال وأما مانراه من كثرة المعبودات لجميعها رمز الى صفاته تعالى وهذا هو اعتقاد كهنة المصريين المدوّن فى كتبهم المقدّسة اه

ثم نقل أستاذنا المذكور عن المؤرخ (شمپليون فيجاك) مايفيد أن المصريين كانوا أمة واحدة يعبدون الله تعالى ولكن لما أظهروا صفاته العالية مشخصة للعيان وقد غرقوا فى التوحيد تشعبت طرقهم

ونقل فى صفحة (٩٤) نقلا عن (مسپرو) ماملخصه ان الأمة المصرية كانت مخلصة لله فى العبادة فكانوا يرون أن الله فى كل مكان فهامت قلوبهم فى حبه وشحنت كتبهم بمحاسن أفعاله ثم عدّدوا صفاته وجعلوها صورا محسوسة وصوّروا لها كل شئ نافع فاشتهرت تلك الصور حتى ملأت المدن فنشأ عن ذلك جلة معبودات متباينة فى الشكل والهيئة دخلت فيها الحيوانات والطيور والسمك والحشرات ولكل واحد وظيفة خاصة مثل (أمون) الله ومثل (فتاح) الذى أتقن كل شئ ومثل (أوزيرس) الله الرحيم فاعل الخير

ونقل عن بعض المؤرخين صفحة (٩٥) مانصه «كان مكتوبا فى أحد الأسفار المصرية المنسوبة الى هرمس (ادريس عليه السلام) ماصورته « يامصر يامصر يأتى عليك يوم يتغير فيه دينك القويم ومنهجك القديم فتظهر الخرافات وتعم الضلالات وتنحصر أخبارك فى أحجارك » . لكن نقل بعد ذلك عن (ماريت باشا) انه قال « لم نجد الى الآن على الآثار أدنى شاهد على ذلك التوحيد بل هم عبدوا كل شئ إلا الرب جلّ جلاله » ثم قال « وهذا هو الذى عرف عن نفس الأمّة أما التوحيد فهو خاص بعلماء الدين وهم الكهنة» هذا ملخص مانقله . فهؤلاء صوّروا العدل بصورة مجسمة فيها (٤٢) قاضيا لهم رئيس هو (أوزيرس) رئيس القضاة والروح تحاسب بين يدى القضاة وعلى رؤسهم ريشة العدل وهناك ملك العذاب وتوت كاتب الأعمال يسجل ماظهر له والميزان له كفتان فى اليمنى قلب الميت وفى اليسرى معيار الحق وهناك ملك يسمى هوروس ينظركم بلغت الحسنات والسيآت وآخر يراقب كفة معيار الحق وآخر فى يده قضيب الملك وأمامه روح الميت مصوّرة تتبرأ من كل ذنب وهذا كله ينطق بقوله تعالى ـ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ـ وقوله ـ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ـ وانما نقلت لك هذا لتعجب من دين الاسلام كيف كان هو الدين الذى كأنه صورة لجميع الديانات وكيف كان الوزن فيه واردا ومرسوما فى ديانة قدماء المصريين بنفسه . فهو فى القرآن جاء بالقول وفى ذلك الدين جاء بالرسم والتصوير وهذا صورته (انظر شكل ٢٢ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢٢ ـ صورة محكمة (أوزوريس) الجهنمية)

(ا) أوزيريس رئيس القضاة جالس على منصة الحكم

(ب بَ) الاثنان والأربعون قاضيا من الملائكة المكلفون بحساب الروح وعلى رؤسهم ريشة العدل

(ج جَ) الروح تحاسب بين يدى القضاة

(د) مائدة عليها بعض أرواح الموتى وقليل من القرابين (هـ) ملك العذاب

(و) توت كاتب الأعمال يسجل ما ظهر له

(ز) علامة العدل ثم الميزان فى كفته اليمنى قلب الميت وفى اليسرى معيار الحق كما تقدم

(ح) الملك هوروس ينظر كم بلغت الحسنات والسيآت

(ط) (أنوبيس) يراقب كفة معيار الحق

(ى ىَ) ملك العدل له صورتان بيد احداهما قضيب الملك و بوسطهما روح الميت تتبرأ من كل ذنب اهـ

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى — فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون — ﴾

اللهم إنك قد حكمت بحبس أرواحنا فى هذه الأجسام المظلمة وحجبتها عن الاطلاع على سرّ التكوين وأسرار الوجود ولكنك لم تفعل ذلك بخلا كلا والله ولاحبسا للعطاء ولكنك سبحانك لاتعطى إلا على مقدار قوّة المعطى وذلك بالوزن ولقد شاهدنا الوزن فى هذه الدنيا . شاهدناه يا الله حتى أصبحنا به موقنين ايقانا تاما وقرأنا كتب علماء الأرواح الذين نوّموا أنفسهم وقالوا إنا شاهدنا بعض عالم الأرواح فرأينا النظام هناك كالنظام هنا من حيث إن كل روح قد وضعت فى المركز اللائق به فى أعلى عليين أوفى أسفل سافلين فالعوالم هناك على وزان العوالم هنا وأصحاب النار هناك قد استحقوها بما غلب على عقولهم فى الدنيا

ولما وصلت الى هذا المقام واطلع عليه أحد الأصدقاء الفضلاء قال لى كيف تقول إنك شاهدت الوزن فى الدنيا وكيف تستدل بقول علماء الأرواح فأما فى الأولى فلايخلو إما أن تكون من أهل الكشف أومن أهل العلم فان كنت من أهل الكشف فانك لاتفيدنا علما لأن كشفك خاص بك لايتعدّاك كما لم يتعد كشف أولياء المسلمين ولا كشف نساك الهنود أشخاصهم الى أممهم بدليل ضعف الامتين معا . وان كنت من أهل العلم فما أحراك أن تذكر لنا البراهين التى جعلتك موقنا بالوزن حتى ننظر فيها بعقولنا كما نظرت . وأما فى الثانية وهى استدلالك بأقوال علماء الأرواح فان قولهم ليس برهانا . فقلت سأوضح هذا المقام ﴿ بفصلين * الفصل الأوّل ﴾ فيما هو مشاهد فى الدنيا من الوزن ﴿ الفصل الثانى ﴾ فى أن كلام علماء الأرواح الذين شاهدوها وقالوا انهم قد اطلعوا على مراتبها موافق كل الموافقة لما نشاهد فى الدنيا سواء بسواء مما يفهمنا قوله تعالى — ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت — ويوافق قوله تعالى — ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين — إن كلام هؤلاء العلماء موافق للآية كل الموافقة وهذا عجب عجاب . ثم قلت

﴿ الفصل الأوّل فيما هو مشاهد فى الدنيا من الوزن ﴾

اللهم إنك (وان حبستنا فى الدنيا وأغرقت أرواحنا فى هذه الاجسام المظلمة والعوالم التى أحيطت بسلاسل وأغلال من الشهوات أحكمت وثاقها علينا فلم نستطع التخلص منها) قد أنرت لنا السبل وفتحت بصائرنا وكتبت بيدك على قرطاس الطبيعة كتابا منشورا رأيناه مسطورا فيها فقرأناه فألفينا فيه انك خصصت لكل حىّ من الأحياء عملا لايتعدّاه وعلما لايتخطاه . ذلك انك سبحانك لم تدع كوكبا يجرى بلانظام وحكمت عليه أن لايترك فلكه ومداره وأمرته أن يجرى بحساب لايخطئ فيه ثانية واحدة . هذا رأيناه مطردا فى الكواكب السيارة والثابتة لاتشذ قاعدته ولايخطئ قانونه . ومن عجب انك لم تقتصر فى تلك القوانين على الأجرام العظيمة بل رأينا السنن جارية فى أصغر الحشرات وأدنى المخلوقات بحيث لاتخالف مارسم لها ولايشابه واحدا منها الآخر فى سننه كما لم يشابه كوكب كوكبا آخر فى نظامه وقوانينه المحكمة . ولقد وجدنا الانسان جرى على هذه السنن عينها فألفينا كل واحد من الناس سارعلى منهج يخالف سواه مخالفة ما فانا نفرق بين لون زيد وعقله ومذهبه فى الحياة كما نفرق بين الكوكب والكوكب والحشرة والحشرة فلكل عمل خاص يشارك غيره فى بعض الصفات ويخالفه فى بعضها . فهذا هو الميزان المنصوب فى الأرض . ومن ذلك ماسأذكره من ﴿ اثنى عشر مثالا الآن ﴾ فى عوالم الحيوان أذكرها هنا لأقيس عليها عوالم الانسان فى الدنيا والآخرة حتى يلتئم عالمنا فيكون آخره كأوّله وغائبه كشاهده وآخرته كأولاه ليكون ذلك دليلا لنا على ماسنلقاه بعد الموت ويوقن كل منا بمستقبله هناك متى عرف ماركز فى نفسه وفهم ماتوجهت اليه هى فى الحياة من المناهج والسيرة والأحوال فيعلم علما ليس بالظنّ ماحاله هناك ومادرجته وهل أخلاقه وذنوبه تلازمه هناك كما تلازمه

هنا أم هناك حال خاصة ينزع فيها من الفاضل رذائله ومن الشرير فضائله حتى يتجرّد كل لما غلب على عقله كما نرى فى الحيوانات فى الدنيا إذ كل سار فيما رسم له من الصفات . كل هذا سيفصل فى الفصل الثانى . أما هذا الفصل فانما أذكر فيه الأحد عشر مثالا

﴿ المثال الأول ﴾

إنك يا الله سبحانك خلقت (السلحفاة البحرية) وقد سبق علمك انها تكون باردة الدم فلاحرارة فيها كافية لتدفئة البيض فاقتضت حكمتك أن تبتدع لها ضربا من التدبير يناسبها فعلمتها علما يخصها إذ أمرتها أن تبحث فى طبقات الرمل على شاطئ البحر لاينفذ اليها الماء وذلك البحث فى ظلمات الليالى الحوالك والناس لا يشعرون ولاتزال تبحث عن تلك الطبقات بعد خروجها من البحر حتى تظفر بها ومتى ظفرت بها وضعت نحو (١٢٠) بيضة ثم تغطيها بالرمل بغاية العناية وتعود الى البحر ولايشعر بها أحد . وكما ألهمت الأم ذلك وعلمتها أن تبحث على المكان المناسب . علمت أفراخها اذا خرجن من البيض أن يرجعن الى البحر ولامرشد لها ولامعين فلا أب يعرفنه ولا أم مشفقة بل هى لورأتهنّ لم تعرفهنّ فتراهنّ قد خرجن من تحت الرمل وقاسين الشدائد وسرن فى الوهاد والرمال والحواجز العظيمة التى تكون بالنسبة لها كأنها الجبال الشامخات حتى ترجع البحر ولاتعود وتعيش هناك وهى لاتعلم آباءها ولا أمهاتها . إنك أنت المعلم لها والمرشد وقد وزنت أحوالها وزنا حقا وجعلت الآخرين فى الميزان كالأولين . ومثل (السلحفاة البحرية) فى ذلك جميع الحيوانات الزاحفة وهكذا التماسيح لأنهن ليس عندهن من الحرارة مايدفئ البيض فجعلت يا الله حرارة الرمل لهنّ بدل الحرارة الطبيعية . انتهى المثال الأول

﴿ المثال الثانى ﴾

إن بعض التماسيح (وان فصل مثل الزواحف فى كيفية التناسل) يراقب بيضه فى الرمل آنا فآنا حتى اذا تمّ تكوين أفراخه أخذ يكسر لأبنائه الصغار البيض اذا سمع أصواتهنّ من وراء قشور البيض فهو إذ ذاك يساعدهنّ كما تفعل القابلات فى مساعدة الوالدات وأولادهنّ وكما تفعل القابلات من النمل من مساعدة النملات الصغيرات المكبلات فى خيوطهنّ وهنّ ضعيفات ليخرجن حشرات كاملات انتهى المثال الثانى

﴿ المثال الثالث والرابع ﴾

إن أكثر الثعابين جارية على القاعدة العامّة فى الحيوانات الزاحفة ولكن بعضها ابتليت بأعداء يؤذونها ويتربصون بها وبأولادها الدوائر فأنت يا الله للطفك بها وحكمتك خصصت هذا النوع بأن يرقد على بيضه بضع أسابيع كما يرقد الدجاج سواء بسواء وذلك هو الميزان لأن هذه الأنواع لما احتاجت الى دفع أعدائها أعطيت قوّة المحافظة على بيضها والا فلا

﴿ المثال الخامس ﴾

إن جميع الطيور ترقد على بيضها بعكس الثعابين وقليل منها تترك أفراخها لغيرها وذلك أن طائرا يسمى (الكمكم) وهو طير كالباشق لايبنى له عشا وانما يضع بيضه فى عش طائر غيره وذلك الطائر يخالفه كل المخالفة وهو لايخص نوعا دون نوع بل وجدوا انه قد وضع بيضه فى أعشاش ثمانين نوعا من الطيور وهذه الطيور التى تودع (الكماكم) عندها بيضها تربيها بكل حنان وشفقة ومتى كبرت طارت الى مواطن أنواعها الساكنات فى (افريقيا) بلا هاد يهديها ولامرشد يرشدها وهى تقطع المسافات تلو المسافات والسباسب وراء السباسب ثم تلد كما ولدت أمّهاتها وكل لايعرف والدا ولامولودا . وهذه صورة فرخ من أفراخها (انظر شكل ٢٣ فى الصفحة التالية)

شكل



(شكل ٢٣ - صورة فرخ صغير من طائر الككم يطلب من حاضنته أن تغذيه مع أنها من نوع آخر)

﴿ المثال السادس ﴾

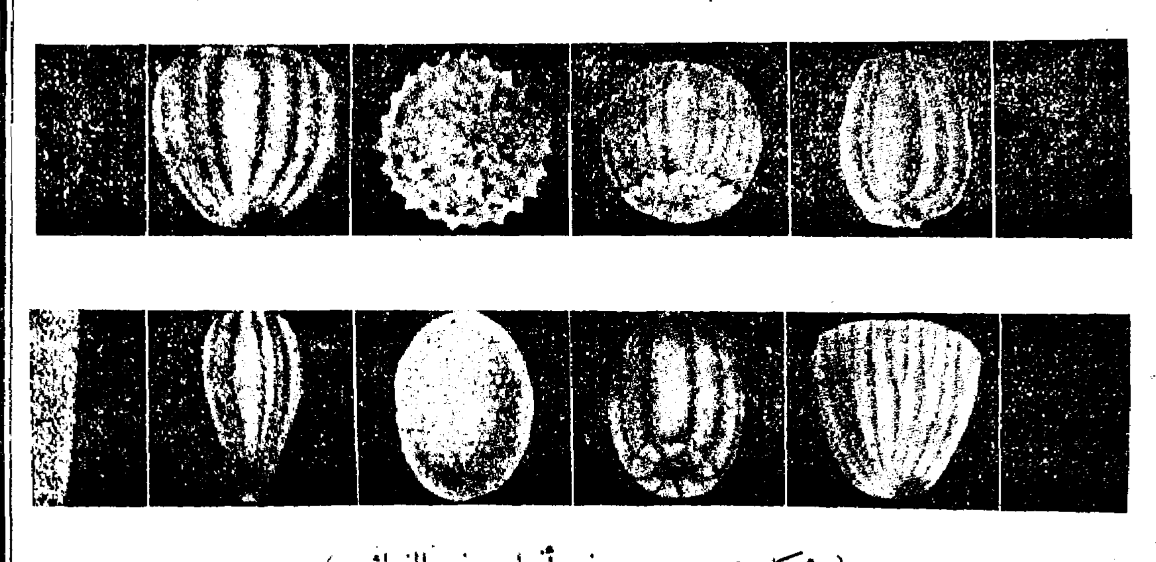
إن الدجاج الاسترالى يصنع كما تقدّم فى الحيوانات الزاحفة ولكن هذه لها طريقة خاصة فان دجاجتين اوثلاثا تصنع حظيرة بأرجلها يبلغ قطرها نحو (١٥) قدما ثم تضع كل واحدة منهنّ بيضها منظما و يغطين البيض بغطاء منظم محكم . ومن العجب أن درجة الحرارة فى تلك الحظيرة أعلى من الحرارة العادية عشر درجات ومتى فقس البيض خرجت الأفراخ وحفرت لها نفقا فى تلك الحظيرة وخرجت تجرى ثم تعيش فى مكان يصلح لحياتها

﴿ المثال السابع ﴾

وهوماتقدّم فى سورة (طه) من أن السمك تنزل ذكوره على بيض أنثاه فيتربى الصغار ولاعلم للأبوين بما حلّ بالذّرية وذلك فى قوله تعالى - قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى -

﴿ المثال الثامن ﴾

ماقدتقدّم فى سوركثيرة كسورة البقرة والأنعام والحجر فى قوله تعالى - إن فى خلق السموات والأرض - الى آخره فى الأولى وفى قوله تعالى - انظروا الى ثمره اذا أثمر - فى الثانية وفى قوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - فى الثالثة من أن الحشرات زينت لها الأزهار فكانت تلك الزينة سببا لتهافت الحشرات عليها لتأكل منها رزقها وهوالعسل وتكون سببا فى إلقاح النبات إناثه من ذكرانه و بعض الحشرات تبحث بعد الجهد والعناء على أوراق خاصة صالحة لأن تربى عليهاصغارها فتضع عليها بيضها بحيث تكون تلك الأوراق بعد الفقس صالحة للتغذية منها (انظر شكل ٢٤)



(شكل ٢٤ - رسم بعض أنواع بيض الفراش)

﴿ المثال التاسع ﴾

الدود المتقدّم ذكره فى آخر سورة (الحج) ينقلب الى صور بديعة جميلة من حشرات لامعات مرقشات منقوشات ببدائع الألوان وغريب الأشكال مع انها كلها دودات حقيرات مخلوقات فى أماكن قذرات ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ

﴿ المثال العاشر ﴾

إن جمهوريات (النحل والنمل والزنابير) المعروفة تسير على النمط المعروف من حيث إن الأبناء يكونون معروفين عند الآباء . ولكن المدهش العجيب أن الأنواع الوحشية من هذه تضع بيضها فى اماكن مختلفة كل بيضة فى مكان خاص وتضع معها غذاء خاصا كما تفعل المرأة اذا حملت من السفاح ورمت ولدها فانها قد تضع معه نقودا ليصرفها عليه من يجده فى الطريق

﴿ المثال الحادى عشر الزنابير الوحشية ﴾

ان الاناث منها تفعل ماتقدم هنا من وضع كل بيضة منفردة وحدها وتضع بجانبها الديدان أوالخنافس أوالعناكب ولاتريد اماتتها لئلا تفسد وانما تحقنها فى مركز مجموعها العصبى بسائل مخدّر لتبقى لاهى حية تسعى فتذهب ولاهى ميتة فتفسد جثتها حتى اذا خرجت ذرّيتها من البيض أكلت من تلك الجثث التى أحضرها الوالد للولد كما قال تعالى ـ ووالد وماولد ـ . أقسم الله بالوالد والولد تذكيرا بهذه العجائب المدهشة والرحمات المتنوّعة البديعة انتهى وبهذا تمّ الفصل الأول فيما هو مشاهد فى الدنيا من الوزن بمناسبة آية ـ فمن ثقلت موازينه ـ

﴿ الفصل الثانى فى أن كلام علماء الأرواح الذين شاهدوا الأرواح وقالوا انهم قد اطلعوا على مراتبها موافق كل الموافقة لما نشاهد فى الدنيا سواء بسواء مما يفهمنا قوله تعالى ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ إذن لاتفاوت بين نظامه فى الدنيا ونظامه فى الآخرة فكلاهما على صراط مستقيم ويفهمنا قوله تعالى ـ ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين ـ وبيان أن كلام هؤلاء العلماء موافق لهذه الآيات كل الموافقة ﴾

ذلك انك يا الله سبحانك كما أريتنا ما تقدّم فى الفصل الأوّل (فعرفناه وتحققناه لاسيما فى زماننا هذا الذى أبدعت وأبرزت فيه هذه العلوم للمسلمين وشرحت قلبى لهذا التفسير وأبرزت فيه من العجائب ماأعرض عنه الكثير إما غرورا واما جهلا واما ضعفا فى بصائرهم وخورا فى عزائمهم فكبرت تلك العجائب فى أعين المسلمين فى زماننا فارتقت نفوسهم اليك وعرفوك معرفة أعظم من معرفة المتأخرين من أسلافنا) هكذا أسمعتنا عجبا من كلام أحد علماء الأرواح المذكور سابقا فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة المسمى عمانوئيل سودنبرج الذى يقول انه شاهد الأرواح وخاطبها ولذلك نراه ليس متعصبا للمسيحيين بل ذم أكثرهم ومدح كثيرا من المسلمين وحكم بدخولهم الجنة وقد تقدّم بعض كلامه فى (سورة التوبة) مع تاريخ حياته فهذا العالم يقول

(١) إن الانسان بعد الموت ليس له من السعادة أوالشقاء إلا مافكر فيه أوّلا وعمله ثانيا والفكر بلا عمل كبزر طرحناه فى الرمل فذلك لاينبت والفكر مع العمل كالبزر اذا نبت وأزهر وأثمر واقد جعل المدار فى الحياة الأخرى على ماغلب على طبع الانسان واستولى على نفسه وملك قيادها وصار لها أشبه بغرائز الزنابير المتقدمة والنحل والنمل والدجاج الاسترالى بحيث يفعل الانسان فعله بناء على حب قلبى فيكون إذن أشبه من بعض الوجوه بتلك الحيوانات فى الأمثال التى قدمناها . فكما نرى الحيوانات الزاحفة تعطف على صغارها قبل خلقها وتهيئ لها الأماكن التى تلائمها لاتطلب جزاء ولاشكورا إلا أداء الواجب طاعة لضمائرها هكذا لايرى الناس لهم بعد الموت منزلة ومقاما إلا مع قوم تجمعهم واياهم رابطة فكرية عملية بحيث يلتئمون فى آرائهم التئاما قلبيا حقيقيا . أما ماليس له أصل فى القلب من الأعمال ولاله منزلة من المحبة فى نفس الانسان فهذا ملغى لا

عمل

عمل له . فاذا رأينا رجلا مغرما بايذاء جيرانه أومقاضاة أعدائه أوالحسد والمحاربة وقلبه فرح بهذه الأعمال وغلبت عليه غلبة حقيقية ومع ذلك يعمل أعمالا صالحة فهذا بعد الموت ينظر فى أمره وهو نفسه لايستحلى إلا ماغلب عليه فى الدنيا من هذه الامور الشيطانية ولاسبيل للنفاق والخداع هناك . فهذا يستحيل عليه أن يدخل مع الأبرار بل يدخل مع أمثاله الذين هم اخوان الشياطين فى جهنم . و بالعكس ذلك الذى عشق الفضيلة ومنفعة الناس وصار ذلك ديدنا له أوأحب العلم وكان أكثرغرامه . فهذا بعد الموت ينطلق الى أمثاله ولا يعرف كيف يعاشر إلا أولئك الذين أحبهم ولا يألف سواهم . وهناك لا أحد يحجز أحداعن مرتبته فتى استحق مرتبة دخلها ومن لا يستحق ولااستعداد عنده فانه لايقدرهو نفسه أن يعيش بين أهلها بل يفرّ منهم فرارالغنم من الذئاب

وقد وضح فى صفحة ٢٨٩ من كتابه هذا الموضوع ايضاحا لم أجد له نظيرا إلا فى بعض كتب محيي الدين ابن عربى وفى اشارة قرآنية . ذلك انه قال ﴿ إن الروح الصالحة تسلب منها جميع مالايتفق مع صلاحها ثم تدخل مع الصالحين و يفعل نظير هذا الفعل مع الروح الشريرة فتسلب الفضائل لغلبة الرذائل عليها وحبها لها حتى يمكنها أن تعيش مع الأشرارمشاكلة لهم فتجد الروح هى نفسها تحوّل وجهها الى الوجهة التى غلبت عليها من تلقاء نفسها ولن تقدرالروح أن تقاوم ماغلب على طبعها فتكون الروح إذ ذاك أشبه بمن غلب عليه فى الدنيا شرب الخمر فلم يقدر على التخلص من ذلك أوغلب عليه الاحسان للناس فكل منهما لايقدرعلى تغيير طبعه هكذا هناك وتصير تلك الأخلاق أشبه بالجاذبية بين الأرض وماعليها واذن تكون الرذائل القليلة وسط الفضائل الكثيرة أشبه بالحشائش النابتة فى وسط الذّرة المزروعة زرعا متقنا فى أرض طيبة قدسمدت تسميدا جيدا فهذه تهلك حشائشها فى وسط تلك الذّرة وتكون الفضائل القليلة وسط الرذائل الكثيرة كالذرة النابتة وسط الحشائش فى أرض غير طيبة التربة ولم تسمدتسميدا جيدا ولم يقم عليها الزارع حق القيام فان الحشائش إذ ذاك تغلب على الذّرة فلاتثمر . فهذا هوالمثل الذى اخترته لغلبة الخير على الشرّ أوغلبة الشرّ على الخير .

اللهم إن هذا القول عينه ينطبق علىمايقوله المؤلف المذكور وترجع سجايا الانسان الغالبة عليه أشبه بماأودع فى غرائز الحشرات من العطف على ذرّيتها فيكون عالم الآخرة كعالم الدنيا نظاما واحدا ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ـ وبهذا يظهرقوله تعالى ـ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ـ ويظهرأيضا ماجاء فى الحديث أن النبى ﷺ سئل عن الساعة فقال للسائل ماأعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت . وهذا عجب فهو موافق لقول هذا العالم الروحى . ويشهد لنزع الرذائل من نفوس الأبرار الذين لم تغلب عليهم شقوتهم قوله تعالى ـ ونزعنا مافى صدورهم من غلّ اخوانا على سرر متقابلين ـ . أقول واذا لم يكن الأمر كذلك ولم يكن هناك نزع بل تبقى جميع الصفات ملازمة للناس بعد الموت فان هذه الصفات نفسها عذاب أليم . فالحقد والبغضاء والخوف والجبن وأمثالها هى نفسها عذاب وأكثرالناس قد لزمتهم بعض العادات فلايقدرون على التملص منها . فهل الفضلاء الذين على هذه الصفة تلازمهم ولاتفارقهم صفاتهم واذن يكونون الى الأبد فى عذاب أليم فهذا النزع يكون فرجا لهم . ومن قرأ كتاب ﴿ إحياء علوم الدين ﴾ لاسيما الجزء الثالث منه واطلع على المهلكات فيه لم يدخل فى قلبه شك أن صفات الشرّ لاتفارق الانسان بعدالموت وهذا غالبا يورث اليأس فأما هنا فانه يقول إن سيآت من غلبت عليهم الفضائل تفصل عنهم واذن يدخلون الجنة مع أحبابهم . وقد جاء فى هذه السورة ـ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا ـ وهذه الآية موافقة لما قالته الروح كل الموافقة . فغلبة الشقوة كافية فى ادخال جهنم كما أن طالب العلم الذى غلبت عليه اللصوصية تراه يترك العلماء و يعيش مع اللصوص كأن الشقوة غلبت فمحت العلم وآثارالعلم . و يقول الله تعالى هنا ـ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت

موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ـ . أليس هذا من العجب . ان القرآن يصرّح بثقل الموازين وخفتها أى ان المدار على الغلبة . ويرجع الأمر لما يشبه غرائز الحيوانات المتقدّمة فى الفصل السابق ويطابق قول الأرواح معانى القرآن .

رب إن الهدى هداك * وآياتك نور تهدى بها من تشاء

هديتنى فرأيت كتاب العالم الروحى ورأيته من كل وجه يشبه الذرّة والحشائش ورأيته يوافق القرآن . ثم أطلعتنى على ما كان يعتقده قدماء المصريين اذا هو أشبه بما فى القرآن . وكلام الأرواح ومثل النبات المتقدم وغرائز الحيوان كما تقدّم فى وزن الأعمال عندهم . فالحمد لله على نعمة العلم وبدائع الحكمة وعجائب الفرقان

(١) وقد قال (عمانوئيل) « إن روحا صالحة معلومة أرادت أن تعلم شريرة فهربت بعيدا فلما وصلت الى أمثالها سرّت بهم وعاشت معهم »

(٢) وقال أيضا انه رأى روحا صالحة تعلم قوما صالحين فأصغوا اليها اصغاء تاما وأما الأشرار فانهم لم يصغوا كأنهم لا يسمعون

(٣) ومن عجب انه فى صفحة (٢٩٢) من كتاب ﴿ السماء وجهنم ﴾ للمؤلف المذكور يقول ﴿ قالت الملائكة ان حياة المحبة السائدة لا تتغير مطلقا مع أحد الى الأبد لأن كل واحد هو محبته الخاصة به فاذا أريد تغيير هذه المحبة فى روح فذلك يوجب حرمانها من حياتها واعدامها وقالوا إن سبب ذلك أن الانسان بعد الموت لا يمكن فيها بعد اصلاحه بالتعليم كما فى العالم ﴾ ثم قال ﴿ فالعواطف القلبية والآراء العقلية أشبه بأساس البيت وهم يتعجبون من الناس كيف لا يفهمون أن رحمة الله ماهى إلا واسطة فقط وسخروا ممن يعتقدون أن الرحمة وحدها تخلصهم مع الايمان ﴾ وهذا القول ناطق بقوله تعالى ـ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ـ وناطق بقوله تعالى ـ يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ـ

(٤) وجاء فى صفحة (٣٣٠) من الكتاب المذكور ما ملخصه أن أناسا من الأشرار لما ماتوا ظنوا انهم يقبلون التعاليم النافعة لدخول الجنة ولكنهم لما سمعوها من الملائكة قبلوها أوّلا ولكنهم لم يقدروا أن يعيشوا بها ويستمرّوا عليها وانما أبيح لهم ذلك ليكونوا على بينة من أمرهم وأن تلك الحال لا يكون أساسها إلا فى الدنيا فأما بعد الموت فان الباب أقفل . وهذا نفسه قول الله تعالى ـ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ـ الخ وقوله تعالى ـ الآن وقد عصيت قبل ـ وقوله تعالى هنا ـ حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ـ

ثم قال المؤلف فى نفس الصفحة (ا) ﴿ إن بعض الأرواح لما سمعوا تعاليم الملائكة المذكورة رفضوها حالا ولم يحبوا سماعها ﴾ (ب) ﴿ وبعضهم قالوا اذا كانت أخلاقنا وعواطفنا الشريرة قد منعتنا من دخول جهنم فنحن نحب أن تؤخذ منا هذه العواطف والأميال فأجيبوا الى طلبهم ولكن أصبحت تلك الأرواح بعد أخذ أخلاقها وعواطفها منها مطروحة كالموتى ولم تبق لهم حواس ﴾ ثم قالت الملائكة ﴿ إن تغيير الروح بعد الموت أشبه بتغيير البوم الذى يعيش فى الليل الى حمام يعيش فى النهار ﴾ انتهى ما أردت نقله من ذلك الكتاب . أنا أحمدك يا الله إذ وفقتنى لنقل هذا وفهمه . لقد تبين من هذا أيها الذكى أن أرواحنا بعد الموت تصبح حياتها موقوفة على صفاتها التى كسبتها فى الدنيا وهنا ظهر فيما تقدّم ﴿ أمران عجيبان * الأمر الأوّل ﴾ ان الروح الصالحة التى أحبت الأعمال الفاضلة تنزع منها الشرور حتى يمكنها أن تعيش مع الفضلاء الذين هم فى

درجتها

درجتها وقد تقدم هذا هنا أولا وأن الروح الشريرة التى غلبت عليها شقوتها تنزع منها فضائلها لقلتها لتكون موافقة لأصحابها وأمثالها ﴿ الأمر الثانى ﴾ ان الروح الشريرة التى غلب عليها الشر اذا أخذ الشر منها وسلبت تلك الصفات تكون معدومة الحس والحركة فهنا لايسلب شرها . لماذا هذا . لأن روحها ليس لها قوة سوى قوة الشر ولو كانت لها قوة خيرية لاعتمدت عليها فى الحياة والبقاء . فههنا لابد من رجوع شرورها لها حتى يمكنها أن تعيش . فإذن تصير الأرواح الشريرة أشبه بالفيران التى تعيش فى المراحيض وكالحيات والعقارب فان هذه اذا نزعت منها أوصاف الفيران وأوصاف الحيات والعقارب لم تعش يوما واحدا . ولواننا وضعنا حماما مع البواشق والشواهين لم تستقم حياته . وهكذا لاتعيش الأرضة فى أماكن النمل ولاالنمل فى أماكن الأرضة (انظره فى سورة النمل) إذ ظهر الآن سر عظيم وذلك السر أن الله لايعدم أهل جهنم كما لا يعدم الحيات لأن الحيات تكره الموت لأنها ترى لها حياة وهى عزيزة عليها . هكذا أهل جهنم إذ يرون أنهم فى حياة كما ترى الحية ولايحبون زوالها فلما أخذت منهم الصفات التى بها حياتهم صاروا أشبه بالأموات فرجعت اليهم الحياة لأنهم يقولون « شئ خير من لاشئ » فلافرق بينهم و بين المسجونين فالمسجونون يحبون الحياة وان كانوا أذلاء . إذن حياة أهل جهنم مع عذابهم لطف من الله بهم وكان ذلك من الرحمة العامة إذ قال تعالى ــ ورحمتى وسعت كل شئ ــ

﴿ مذكرة ﴾

لاتظنن أيها الذكى انى وان كنت أوضحت هذا المقام إيضاحا انى أقطع به . كلا . وانما أقول إن هذا قول علماء الأرواح وقد نقلته من كتاب المؤلف المذكور وعلقت عليه فاذا صح قوله فهذا توجيهه . ومعنى هذا أن تكون مشكلة جهنم قد انحلت فى هذا التعبير انحلالا تاما فانه اذا قال قائل ﴿ لماذا يعذب الله الناس الى الأبد وماذنوبهم وهل هذا إلا الظلم المبين وهلاهداهم ﴾ فيقال ﴿ إن الله فعل الممكن وليس من الامكان أن تحوّل العقارب الى عصافير ولاالعصافير الى عقارب ومتى حوّل أحدهما الى الآخر مات فلاسبيل للحياة التى هى مستمدّة من الرحمة إلا ببقاء المخلوق على ما كان عليه ونقله من هذه الصفات معناه اهلاكه وهذا ينافى الرحمة ومتى أمكن بقاء الروح مع حذف بعض الصفات بقيت الروح وحذفت تلك الصفات كالروح الصالحة التى لها من الصلاح مابه تقدر أن تعيش ويكون لها به قوام فان الملائكة إذ ذاك تنزع منها الشر فيبقى الخير الذى غلب حافظا للروح فتعيش ولا يكون أخذ الشر منها مضرا لها غاية الأمر انها ضعفت بعض الضعف كما يضعف الذى تعاطى المسهل . الله أكبر . أليس هذا إن صح يفسر كثيرا من آيات القرآن وكلام السنة * فقد ورد فى الحديث ﴿ لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ﴾ وذلك لأن النبى ﷺ علم أن هذه النفوس قوية جدا وليست تذنب إلا أصغر الذنوب وهذه لاتؤثر فيها لأن محبتها للخير تامة وقد قال تعالى ــ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلااللمم ــ وان صح ماجاء فى كلام هذا المؤلف يدخل فى أحاديث الشفاعة فاذن تكون الشفاعة بالغفران لأرواح قويت فى الخير حتى يمكن أن تعيش هناك فلوأن الأرواح صارت كالحيات والعقارب فى الشر فكيف تصير أشبه بطيور أوطواويس . وهكذا تعرف قوله تعالى ــ ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون ــ . لماذا ذلك . لأنهم لايعيشون إلا على أخلاق خاصة ولامعنى لأخذهم منها إلا هلاكهم فالرحمة تقتضى أن يعيشوا . إذن الروح تأتى الى أرضنا وهى خالية فتعطى من القوّة مابه تعيش والقوّة إما قوّة شر كاللصوصية واما قوّة خير كالاحسان فلن يعيش الأوّل ولن يعيش الأخير فى الجنة أوالنار إلابقوّته التى كسبها . انتهى ما أردت ذكره فى هذا المقام والحمد لله رب العالمين

﴿ بهجة العلم فى آيتين من هذه السورة آية ــ وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم ــ وآية ــ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ــ ﴾

ها أنت ذا أيها الذكى شاهدت الميزان الذى رسمه قدماء المصريين إظهارا للمعقول فى هيئة المحسوس وتبيانا للمعانى بالأمثال . فاعجب من تتابع الديانات وتلاحقها وتشابهها . ففى القرآن ميزان وفى الكتب قبله ميزان . وهنا أريد أن أبين لك ما فتح الله به ليلة الاربعاء (٧) نوفبر سنة ١٩٢١ م فى معنى هاتين الآيتين . ذلك ان قوله تعالى - وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم - قد ثبت بها أن لله صراطا وآية الوزن أثبتت أن له ميزانا ويقول فى سورة أخرى - وانك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض - وفى سورة ابراهيم يقول - كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد * الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض - وفى سورة هود يقول - مامن دابة إلا هوآخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم - وفى الفاتحة يقول - اهدنا الصراط المستقيم - الخ

فهاهوذا الصراط جاء فى هذه السور الخمس . ففى هذه السورة ذكر مطلقا غير موصوف منكرا ولكنه فى السورتين الثانية والثالثة وصف الصراط بأنه صراط الله وفى الرابعة أشار الى أنه خلق الحيوان ونظمه وأحكم أمره وجعله على هذا الصراط وفى الفاتحة جعله صراط الذين أنعم عليهم من بنى آدم . اللهم انى أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق . لقد مننت يا الله بالحكمة وأنعمت بالعلم فلأشرح ماشرحت به صدرى فى هذه الأيام لتبتهج النفوس وتنشرح الصدور بما مننت من العلم وما ألهمت من العرفان . سبحانك اللهم . لقد ذكرت الصراط نكرة فى هذه السورة ثم أبنت فى السورتين الأخريين انه - صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض - فعرفنا أن الصراط فى هذه السورة وفى السورتين الأخريين انما نعرفه بما فى السموات والأرض ولامعنى لهذه المعرفة إلا بالعلم والعلم يرجع الى علم الفلك ونظام الطبيعة . نظرنا فى علم الفلك فألفيناك قد عدّلت وقوّمت وهندست وزوّقت ونظمت وأحكمت . كيف لا ونحن نعلم

(١) ان الشهور العربية مثلا لها موازين معلومة وحساب لايتغير حتى ان السنين الكبيسة والسنين البسيطة لاتتغير ولاتتبدل بحيث يكون فى كل (٣٠) سنة (١١) سنة كبيسة و(١٩) سنة بسيطة وذلك فى الدور الأصغر وتكرر الثلاثون سبع مرات فيكون الدور الأكبر (٢١٠) و يعود ذلك و يكرر أمد الدهر فالسنة الكبيسة (٣٥٥) يوما والبسيطة (٣٥٤) وقد مرّ شرح هذا مرارا فى هذا التفسير . وكأنما هذا الحساب موسيقى تصدح فان نسبة (١١) الى (١٩) كنسبة (٢٢) الى (٣٨) وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين وهكذا يستمر هذا النظام مهما تكرر الى مالايتناهى . فهذا مثال واحد من أمثلة نظامك فى سمواتك

(٢) وهذه الشهور العربية لن تعرف حق معرفتها عند علماء الفلك وتوزن حق وزنها إلا بأن يحسبوا مابين كل كسوفين للشمس و يقسموه على عدد الأشهر فيخرج لهم الحساب بالدقة بالدقائق والثوانى وماهو أقلّ من ذلك . إذن حدوث الكسوف والخسوف (بحيث يكون القمر بين الأرض والشمس فى الكسوف فى أواخر الشهور وتكون الأرض بين الشمس والقمر فى أنصاف الشهور فى الخسوف و يكون الثلاثة فى الحالين فى عقدة واحدة) لم يكن رمية من غير رام ولامصادفة واتفاقا بل لها منافع كثيرة ومنها هذه فان اللحظة التى يقف فيها القمر بين الأرض والشمس وقد منع عن أبصارنا ضوء الشمس بها ندرك أن هذه اللحظة هى نهاية الشهر فيكون مابين هذه الحادثة والتى قبلها معلوما عندنا ونقسمه على عدد الشهور . فهذا ضبط الحساب لنا فى معاملتنا وأعمالنا فى الأرض . وفوق ذلك قدعرفنا أن عدد مرات الكسوف والخسوف فى كل مدة تبلغ نحو ١٨ سنة محدودا لن يتغير أمد الدهر فالخسوف والكسوف محدود العدد والأشهر التى يحصرانها تضبط بهما

﴿ بيان تام لهاتين المسألتين ﴾

اعلم أن الأقدمين قد سموا مدّة قدرها (١٨) سنة و(١١) يوما باسم مخصوص وهو (ساروس) وهذه المدة تحتوى على (٧٠) خسوفا وكسوفا منها (٢٩) خسوفا و(٤١) كسوفا والخسوفات والكسوفات التى تشاهد فى غضون هذه المدة تحصل فى المدة التالية لها بالعدد بعينه وفى التواريخ بعينها وبذلك توصلوا الى القول بالخسوف والكسوف مقدما كما يتوصلون الى معرفة الظهر والعصر والمغرب قبل حصولها . ثم إنهم اعتادوا أن يعينوا خسوفين اثنين منفصلين بعدد عظيم من الدورات الاقترانية المسماة (الحركات الدورية) أيضا أى دورات القمر حول الأرض ويقسمون المدّة الكلية بينهما على عدد الدورات فتحصل المدة المتوسطة وهى ٢٩٫٥٣٠٥٨٨ يوما أو ٢٩ يوما ١٢ س ٢٤ د ٢٫٩ ث وهل تمّ هذا الحساب الذى عرفنا به مدة الأشهر إلا بفضل الخسوف . فالخسوف إذن أشبه بمدفع الظهر بمصر الذى نضبط الساعات عليه فهو ضابط أزمان الأشهر العربية ومددها ولولاه لم تتم هذه الحكمة

هذان مثالان لما فعلته يا الله فى الفلك ودبرته فى الحساب . فهذا صراطك الذى سلكته فى سمواتك فقول الله لنا فى سورة ابراهيم ـ الى صراط العزيز الحميد الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ـ وقوله فى سورة اخرى ـ صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ـ . يذكرانا بهذا الصراط المستقيم الذى اتضح لنا بحسابه ونظامه وبأدنى تأمّل فى نظام الأرض والسموات فى هذا التفسير نعرف صراطه فيهما . ألم تر الى ماتقدم فى قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ فى (سورة الرعد) فهناك تجد مقادير حركات الأحجار الساقطة وحسابها المنظم وبدائع الحكمة فى السموات والأرض بحيث ترى أن ابعاد الكواكب عن الشمس جارية على مقتضى المتوالية الهندسية (٣ ـ ٦ ـ ١٢ ـ ٢٤ ـ ٤٨ ـ ٩٦) وهكذا أمر الثلج ونظامه فهو مرسوم هناك مبين حسابه وبهجته . فهذا وأمثاله كثير فى هذا التفسير . صراط الله هذا هو الذى هدانا اليه قوله تعالى ـ صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ـ فهو بذكر السموات والأرض أفهمنا أن نبحث عن صراطه فيهما ولاسبيل للبحث فيهما على ذلك الصراط إلا بعلم الطبيعة وعلم الفلك . فقارئ القرآن حين يسمع قوله تعالى فى هذه السورة ـ وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم ـ يريد أن يعرف أى صراط هذا فيقال له صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض فيدرس هذه العلوم فيعرف صراط الله المستقيم ثم يسمع قوله تعالى أيضا فى سورة (هود) ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ـ هنالك يدرس الحيوان بعد أن درس نظام السموات ونظام الأرض على وجه عام . أما الحيوان فان له حالا خاصة فيدرسه أيضا ليعرف صراط الله فيه فيرى أن الجرذان عاشت تحت الأرض والظباء فى الأدواح والنمل اتخذت البيوت والكستور يتخذ له من أغصان الأشجار جسرا متينا على هيئة سدّ يمنع عنه قوّة السيل وذلك بهندسة لاتنقص عن هندسة الانسان بل الانسان تعلم منه . والدبّ فى المنطقة الشمالية يسافر فى البحر على قطع من الثلج الى حيث يقصد . أو السنجاب يركب خشبة فى البحر بدل الثلج ويجعل ذنبه قائما مقام القلع وقائما مقام (السكان) وهى الدّفة عند العامّة التى بها يديرهذه السفينة يمنة ويسرة . والطوّاف وهو نوع من ذوات الاصداف يركب صدفته ويرفع مرساته وينشر أغشية للريح ويسافر من مكان الى مكان وهكذا . والديمورا أعطيت قوّة بأن تذلل أى حيوان بحرى لتركبه بهيئة خاصة . وهذه المسائل تقدمت بعينها فى (سورة طه) ذكرت قليلا منها هنا لتكون مثالا لصراط الله المستقيم فى الحيوان لأننا رأيناه كما ان صراطه مستقيم فى حساب الكواكب وشهورها وسنيها وفى حساب العوالم الأرضية رأيناه أيضا يعطى كل ذى حق حقه من الحيوانات وينوّع فى الاعطاء بحسب حال الحيوان ذاته ويجعل ألوانه مناسبة لحال معيشته وهذا الأخير تقدم فى أول السورة

فارجع اليه تجده هناك موضحا . فالصراط فى هذه السور الثلاث أفهمنا قوله تعالى ـ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم ـ فالمنعم عليهم من الناس ينهجون نهج الله فى صراطه المستقيم وصراطهم المستقيم هو التوسط بين الافراط والتفريط . ولاجرم أن هذا يفتح لنا باب فهم الميزان الذى أصل كلامنا فيه

﴿ الميزان ﴾

جاء الميزان فى (سورة الرحمن) إذ يقول تعالى ـ والسماء رفعها ووضع الميزان ـ والميزان فى السموات هو جعلها منظمة كما رأيت فى الأمثلة المتقدمة . فالله حسب حركات الأفلاك أزلا ثم أدارها على مقتضى ذلك الحساب فالحساب يعبر عنه بالميزان وجريها على مقتضى الحساب يعبر عنه بالصراط فهو يزن الامور و يجعل العمل على مقتضى الوزن وهذان ينطبقان على لفظى ﴿ القضاء والقدر ﴾ فالقضاء التقدير أزلا والقدر هو سير الحوادث على مقتضى القضاء . وأفضل أحوال العبد أن ينهج نهج ربه فالله على صراط مستقيم فليكن العبد على صراط مستقيم . فاذا كان الصراط المستقيم الإلهى فى السموات بحسب حالها وفى الأرض بحساب حالها وفى الحيوان بحسب حاله هكذا فليكن الصراط المستقيم عند الانسان هو صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم . ولقد أشار الله الى ذلك فى سورة ابراهيم إذ أمر النبى ﷺ أن يذكر الناس بأيام الله ووقائعه فى الأمم وجعل ان فى ذلك آيات للصابرين الشاكرين فينهجون نهج الخيرات فى الخير و يجتنبون الشرور فى الشر بحسب ماذكروا به من وقائع الأمم وذلك نفسه هو المذكور فى الفاتحة إذ يقول تعالى ـ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ـ ومعلوم أن المنعم عليهم والضالين والمغضوب عليهم لايعرفون إلا بالتاريخ ولا معنى للتاريخ إلا وقائع الأمم المذكورة فى (سورة ابراهيم) يقول الله تعالى ـ وذكرهم بأيام الله ـ إذن يجب أن يقوم جماعات فى الأمم الاسلامية فليؤلفوا كتبا فيها شذرات جيلات من التاريخ العام والتاريخ الخاص بالاسلام و بالأوطان التى يراد انتظامها ليكون ذلك صراطا ينهجه المجددون لهذه الأمم الاسلامية و يناسب ذلك كله قوله تعالى ـ والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان ـ وأنت أيها الذكى تعرف هذا مما تقدم فى أول (سورة يونس) عند قوله تعالى ـ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ـ وكيف كان هرم قدماء المصريين مبنيا على مقتضى مقدار مدار الأرض حول الشمس فمحيط الهرم منسوب لمدار الأرض وارتفاعه لبعد مابيننا و بين الشمس والضلع الواحد من الهرم جعل أذرعا معلومة والذراع جعل مقياسا للاطوال وللسطوح وجعل مكعبه مكاييل مصرية من حيث الحجم وموازين مصرية من حيث الثقل وكل ذلك مستعمل الى الآن فى بلادنا المصرية كما مر هناك موضحا ايضاحا تاما . فالله يقول لنا هذا هو ميزانى فى عوالمى فزنوا على مقتضاه واجعلوا نموذج ميزانكم من نموذج ميزانى كما هو واضح فى البلاد المصرية . إذن عدلنا فى الأرض على نسق عدل الله فى السموات . واذا قرأنا تاريخ الأمم ظهر لنا جمال العدل وقبح الظلم فى أفعالها فنرجع لسنة الله . فاذا رأينا قوم شعيب عليه السلام يطففون المكيال والميزان وقد حادوا عن سنة الله فى ذلك احترسنا من فعلهم ورجعنا للعدل الذى سنه الله فى عوالمه . فليكن تاريخ الأمم الحاضرة للعبرة والذكرى كما بينه الله فى القرآن

﴿ تذكرة ﴾

لقد كنت قرأت منذ (٤٠) سنة فى بعض كتب الامام الغزالى أن الميزان لايعرفه إلا من درس سائر العلوم . ولما اطلعت على شذرات منها فى ﴿ دار العلوم ﴾ وفى دراستى الخاصة ألفت كتابا صغيرا بعد ذلك سميته ﴿ ميزان الجواهر ﴾ وهو ثانى كتاب ألفته فى هذه العلوم . فأنا الآن أحمد الله عز وجل إذ علمنى ما لم أكن أعلم وأنعم على وعلى الناس بهذا التفسير . فانظر أيها الذكى كيف كان دين الاسلام شائقا لكل علم . وكيف غفل بعض صغار المتعلمين فى عصرنا فظنوا أنه دين لايألف العلم ولا العقل . انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ تبيان ﴾

هل التبحر فى العلوم الطبيعية والرياضية الذى يقتضيه الميزان المذكور فى القرآن والصراط كما ذكرناه مرقى للأخلاق الانسانية . أم نرى أولئك المتبحرين تضل أعمالهم فى هذه الحياة الدنيا ﴿الجواب﴾ اعلم أن العلم والجمال والمال والصيت والسلطان كل أولئك صالحات للخير وللشر سواسية تصلح للشر وللخير . وآية ذلك أن كثيرا من هؤلاء يسارعون الى الشرور والموبقات والاحتيال ويهيمون على وجوههم فى المخازى والعار كما أن كثيرا منهم رفعوا أممهم الى المستوى الرفيع والمجد الباذخ . فالمال سلاح والعلم صراط مستقيم والجاه والسلطان أجنحة ومن لامال له قل عمله ومن لاعلم عنده ضل وغوى ومن لاسلطان له أصبح كطائر لا أجنحة له ولاقوة . ولقد حض (سقراط) فى تعاليمه على فتح عين البصيرة لأولى العلم وأبان أن هذه الطائفة ان لم تكن عاشقة له ساء مصيرها وضل سعيها مبرهنا بما يأتى

﴿ إن للانسان (ثلاث قوى * الشهوية) للغذاء والتناسل واللباس والمساكن (والغضبية) للاستعلاء والاستيلاء والمدافعة (والعقلية) للعلم والحكمة ﴾

فاذا كان القائمون بأمر المدن لم تفتح بصائرهم فتعشق العلم عشقا مفرطا بحيث تضارع فى عشقها له وحبها القوتين الأخريين (الشهوية والغضبية) فان صاحبها لايرى أمامه إلا (بابين من اللذات) باب الانتقام بالقوة الغضبية وباب الشهوات فى المال والنساء واذن يقول فى نفسه « مافائدتى من علوى على الناس آآكل مما يأكلون وأقتصر من الشهوة البهيمية على القليل . كلا . فلأشارك الناس فى أموالهم بالرشا وفى أعراضهم بالزنا والا كنت غير رابح من هذه الحياة ربحا يناسب علوى على الناس » . فأما ذلك الذى فتحت عين بصيرته وعشق العلم واستنارت بصيرته فانه بينما تراه يحكم بين الناس بالعدل يكون غرامه موجها الى إدراك الحقائق باحثا عن عجائب هذا الوجود مبتهجا بهجة لايحس بها غيره واذ ذاك يعلم علما ليس بالظن أن بينه وبين صانع هذا العالم محبة فائقة وعلى مقدار ارتقائه فى تلك المدارك تسكون لذته بها — فلاتعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون — ويرى الناس أبناءه وكأنما هو خليفة عليهم أوأم لهم وتمثل له هذه الدنيا والعدل فيها بهيئة قناطر بناها المهندسون فاذا غفلوا عن احكامها وانتظامها وحسن اتقانها اعتراها الاختلال لجرى الماء وأغرق البلاد وأهلك العباد . فالوزن والنظام فى القناطر والجسور يضارعه الوزن والنظام فى الأخلاق . والحساب فى المعاملات ونظام البنيان يضارعه قراءة التاريخ وسير الرجال فى علم الأخلاق فالتاريخ والحوادث وعلم الأخلاق والقانون والفقه . كل هذه موازين لأعمال الناس وأحكامهم ومعاملاتهم وقضائهم كما كان علم الهندسة والحساب والجبر وأمثالها موازين توزن بها أعمال دواوينهم ونظام مدنهم وهندسة مبانيهم . وكما كان رقاص الساعة تبيانا لأوقاتهم ومواعيد أعمالهم وخسوف القمر مبينا مقادير شهورهم كما تقدم موضحا وهكذا مقاييسهم وموازينهم المرتبة على النظام العام كما فى ضلع الهرم المبنى على مقتضى مدار الأرض حول الشمس إذ كان محيط الهرم جزأ من مليارمنه والارتفاع جزء من البعد بين الأرض والشمس وضلع الهرم المذكور أصل كل مقياس فى مصر . هكذا (المتر) لم يصنعه الفرنسيون إلا على مقتضى محيط الأرض (واليارده) عند الانجليز ترجع للمعدن فى رقاص الساعة الذى يدق فى الثانية مرة واحدة فهو إذن رجع للنظام العام . وهكذا نرى فى هذا العصر أن الماء يعرف مقداره بآلة تعده . وهكذا بخار القطار له جهاز يعرف به عدده كما يعرف الزمن بالساعات . وتقاس الحرارة بالمقياس المئينى (سنتجراد) أو بمقياس (فارنهيف) الانجليزى أو بالمقياس الثلثانى وهو الثمانينى . كل تلك المقاييس تنبيه على الطبائع الثابتة فقوى الحرارة لاخطأ فيها كما لا خطأ فى سير الكواكب وفى الجاذبية . وهكذا مقاييس الكهرباء . فهذا كله من الميزان الذى قامت به السموات والأرض وكلما كثرت موازين الأمة زاد ارتقاؤها وعقولها وبنقص الموازين

تنقص العقول والنعم وموارد الرزق و يجمع هذا كله قوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ فالله يشهد بوحدانيته مع القيام بالقسط وهو ماشرحنا و يليه الملائكة و بعدهم أولوا العلم وهم المذكورون فى قوله تعالى ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ـ فظهر أن هؤلاء هم الذين يخشون الله ومتى عمت هذه الآراء فى أمم الاسلام ظهر فيهم حكماء مجددون بهم يدوم مجد هذه الأمة الاسلامية كما دام مجد قدماء المصريين آلافا وآلافا قبل أن يحل بهم الفساد والفسوق والترف فان هذه المباحث قد أشربت بها نفوسهم وحببت الى قلوبهم حتى كتبوها على صناديق موتاهم للتبرك بالبروج السماوية والكواكب الدرية المرسومة كما رأيته فى الكتب المنشورة حديثا

ونظير صراط الله فى السموات والأرض صراط الانسان بالعمل الصالح والأخلاق الفاضلة لانها وسط بين الافراط والتفريط . وخير معرّف لمحاسن الأخلاق تاريخ الأمم والله يقول فى ذلك ـ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ـ وهم الذين يقرأ الناس سيرهم فى التاريخ . و يقول أيضا ـ وذكرهم بأيام الله ـ ومن ذلك علم التاريخ والوقائع . هذا ماقتح الله به صباح يوم السبت (١٠) نوفمبر سنة ١٩٢٨ م و به تم تفسير (سورة المؤمنون) والحمد لله رب العالمين

﴿ تذكرة ﴾

قد اطلع أحد الاخوان على ما كتبته هنا فى أقوال (عمانوئيل) فى صفحة (١٨٨) ومابعدها فقال إن هذا الكلام معناه انه لاتغيير للأخلاق بعد الموت وكان هذا يأس للنفوس فهل أنت واثق بأقواله . قلت هذه أمور غيبية والغيب لله ولكن هذا القول أشبه بما جاء فى علم الأعداد فان علماء خواص الأعداد يقولون إن لكل عدد خاصة لايشركه فيها سواه فالاثنان أوّل الأعداد أما الواحد فليس منها لأنه لاتعدّد فيه والثلاثة أول عدد فردى والأربعة أول عدد زوجى والخمسة عدد كروى أى انه متى ضرب فى نفسه مرة أومرتين أوآلافا فان (٢٥) يكون محفوظا دائما ولم يجدوا عددا مثله وهكذا (٦) مثله فى انه يحفظ عدد (٦) فى جميع مضروباته لاغير وليس مثل (٥) فى حفظه الآحاد والعشرات . فالعالم الذى نعيش فيه كأنه أعداد وكل عدد لايشاركه سواه فكل فرد لايشاركه سواه فى خواصه . هذا من جهة يوافق حديث ﴿ كل ميسر لما خلق له ﴾ ومن جهة أخرى نقول نحن نجهل خواص النفوس والله هو العليم وحده بها . فاذا قرأنا حديثه ﷺ فى الشفاعة وأن الله لايزال يخرج العاصين من النار حتى يخرج من فى قلبه مثقال ذرّة من إيمان ثم هو نفسه (وهو أرحم الراحمين) يخرج أناسا منها برحمته لم يفعلوا خيرا قط رأيناه ينطبق على الرحمة التى شاهدناها له فى الدنيا وهو الذى يليق بجماله وجلاله . وأما مشاهدات (عمانوئيل) إن صح مانقلناه عنه فهى جزئية لا كلية والله وسعت رحمته كل شئ ومع هذا علينا أن نحترس من الذنوب حتى لايحجبنا عن مشاهدته وعن النظر لوجهه وعن دخول جنته . و ينبغى أن نزداد علما حتى نخشاه وكلما قل علم الانسان قلت خشيته من ربه وكلما كثر علما زادت خشيته والحمد لله رب العالمين

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الحادى عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم
و يليه الجزء الثانى عشر وأوّله تفسير سورة النور)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشـياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليـه من ذلك

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٩	٦	فى السنة	
٢٠	١٤	وأقوها	وأقواها
٢٧	١٩	كواكب	وكواكب
٣١	٢٩	سنة ١٣٤٦	سنة ١٣٤٤
٣٤	١٦	فوجعوا	فرجعوا
٣٥	٢٦	فكأن	فكان
٣٧	١٤	نتيجة	نتيجته
٤٠	٤	نصرتك على	نصرت
٤٤	٣	و بغضوا	وأبغضوا
٤٧	٣	رسول مرسول وكل نبي منبي	رسول رسول وكل نبي نبي
٥٣	٣٢	حقيقة	حقيقته
٥٥	١٥	الذين عرفاهذه الحقائق ودونوها	اللذين عرفا هذه الحقائق ودوناها
٥٨	٢٦	بيد	بعدها
٦٢	٢٢	الذى	الذى له سلك والذى
٦٢	٣٤	و بالعكس	و بالعكس إن كانت فى باطنها
٦٣	١٠	إن	انه
٦٣	٣١	نبانى	نباتى
٦٤	٤	تلاميذا	تلاميذ
٦٤	٧	المنقدة	المتقدة
٦٧	٢٨	لمنار	منار
٦٨	١٣	الحس	الوطن
٦٩	١٦	صنعوه	صنعوها
٧٠	٣٠	بالتعليم	بالتعلم
٧٠	٣٠	فى القلب	القلب
٧٧	٧	وتعمها	وتعممها
٧٧	٣٥	والناموس فانها لا تعيش	فانها تعيش
٧٩	١٤	قدم	درجة
٨٠	٢٣	بالاستعماء	بالاستعمار
٨٠	٢٥	والعلم	والعالم
٨٢	١	الفراشة	الحشرة
٨٧	٦	حديث	القول
٨٧	٣٤	ڤون	فون
٩١	٢٠	انتهى	انتهى . وقد بلغنا من بعض حجاج سنة ١٣٤٦ أن الحكومة الحجازية منعت هذا الضرر فالحمد لله
٩٤	٣٣	تعرس	تغرى
٩٤	٣٣	يغرى	يفرى
١١٧	٢	الفرائش	الفراش
١١٧	٤	هذه	هذه هى
١١٧	٤	الفرائش	الفراش
١١٧	١٣	رنضه ولم يأ كله	رفضته ولم تأ كله
١١٧	٣٣	تبع	تبع (بتشديد الباء)
١١٨	٣٥	أ كل	آ كل
١٢١	٢٤	العوالم	العوالم يريها
١٢٢	٢	المغنيين	المغنين
١٣٠	٣٢	أنفسكم	أنفسكم
١٣١	١٨	مستكيرين	مستكبرين
١٣٣	٥	وعشش	وعشعش
١٣٣	٣٤	فنجد ماذا	فماذا نجد
١٣٨	١٩	سيما وأن	سيما أن
١٣٨	٢٤	أطباع	طباع
١٤٠	١٢	المسألة	المائة

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٤٢	١٩	فاســتبدلوها بالعنات	فاستبدلوا اللعنات بها
١٤٣	٢	فرنسي	فريسي
١٥١	١	خاصة	خامسة
١٥٤	٦	النحل	
١٦٣	١٢	التي	والتي
١٦٨	١٨	الأيسر	الأيسر ثم البطين الأيسر
١٧٠	٢١	عضلا	حواس
١٧١	١٤	والقمر	والقمروالكواكب
١٧٤	٢٧	ولابما	ولاما
١٧٤	٢٧	ولابما	ولاما
١٧٥	٢٧	أذلها الله	سببت الذل
١٧٥	٣٠	والوزن يومئذ الحق	ـ والوزن يومئذ الحق ـ في الأعراف المناسب لما هنا
١٧٦	١٥	تعطى	يعطى
١٧٦	٣٠	عموان	عمران
١٧٨	١٥	أو بعمود	أوعمود
١٧٩	٦	والوزن يومئذ الحق	والوزن يومئذ الحق في سورة الأعراف المناسب لما هنا
١٧٩	١٠	مترا	أمتار

(تمت)

فهرست الجزء الحادى عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

من أن النبات والحيوان يتبادلان المنافع بالتنفس ولاحياة لأحدهما إلا بما يتنفسه الآخر

٢٠ جوهرة فى مقال عام فى قوله تعالى ـ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث ـ الخ وفيها قصة خيالية تخيل فيها المؤلف طوائف من الناس اجتمعوا ولهم رئيس فاصطفى من بينهم خمسا وجعلهم قوّامين على هذه الطوائف التى هى (٣٦) طائفة وهـم يخاطبون رئيسهم برسم الصور لا بالـكلام فى أسرع من لمح البصر و بين بذلك أن الرئيس هو الانسان والخمس هى الحواس والطوائف هى (٣٦) محسوسا كالمسموعات والمذوقات وهذه تجتمع فى الدماغ الذى ضرب به المؤلف مثلا للوح المحفوظ مع انه لاتماثل بينهما ففرق بين الحادث والقديم وهنا ذكر القوى الباطنة كالذاكرة والمفكرة والمتخيلة والحس المشترك . فكما أطاعت الحواس الانسان أطاع الملائكة الله وان كان لاتشابه ولاتماثل بل هو ضرب مثل لاغير . وكما أن للانسان غرائز كالجوع والعطش والسبق والغضب والحب والبغض والطيران فى الهواء . فما من غريزة من هـذه إلاوجد لها ماخلقت له كالمآكل والمشارب والنساء والأعداء والأحباب . هكذا غريزة حب البقاء وجد لها ماخلقت له وهو عدم الفناء بعد موت الأجساد . وهكذا يجد الانسان فى نفسه غراما بهذه النجوم الجميلة واشتياقا اليها . كل ذلك غريزة فى النفوس الكبيرة كما ان حب التزوّج وحب الولد غريزة فى البالغ لافى الصبى . وههنا ذكر المؤلف سـديم المرأة المسلسلة وسديم الشلياق الحاقى والسلاقى اللولبى وسديم الجبار المرسومات كلها فى صفحة (٢٥) والانسان مغرم بها فلابد من وصول نفوس بعض الناس اليها متى كمل استعدادها بعد خروجها من أجسادها

لطيفة فى قوله تعالى ـ ومنكم من يردّ الى أرذل العمر ـ و بيان كلام (كلنصو) الوزير الفرنسى الذى بلغ الثمانين و يقول انى قوى كالشباب . ايضاح الـكلام على النبوغ (العبقرية)

٢٦ صفات النابغين وانهـم يحسون بنقص فى زمن الصبا فيريدون تـكميل أنفسهم وانهـم يعتنون بصحة أنفسهم وانهم يعيشون طويلا وهذا مصداق لقوله تعالى ـ وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ـ

﴿القسم الثانى﴾ قد كتب مشكلا أوله ـ إن الذين كفروا و يصدّون عن سبيل الله ـ الى قوله تعالى ـ و بشر المحسنين ـ والتفسير اللفظى لهذا القسم

٢٩ ذكر خمس لطائف فى المسجد الحرام ومابعده ﴿اللطيفة الأولى﴾ وفيها تبيان لطف الله تعالى بكل نبات وحيوان حتى انه راعى أمر الامن فجعل البيت مأمنا لهـم كما خلق الجبال المنيعة يأمن فيها الخائفون . وهكذا جعل أهل أوروبا سويسرا مأمنا يأوى اليها المضطهدون السياسيون

٣١ ﴿اللطيفة الثانية﴾ فى قوله تعالى ـ فكلوا منها ـ الخ ﴿واللطيفة الثالثة﴾ فى قوله تعالى ـ لـكم فيها منافع الى أجل مسمى ـ و بيان اختـلاف العلماء فى المنافع المذكورة مثل ابن عباس ومالك والشافعى وغيرهم . مسامرة فى قوله تعالى ـ فاذا وجبت جنوبها فـكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ـ و بيان محاورة بين المؤلف و بعض الحجاج وملخصها أن ذبح الضحايا والهدايا ورميها على الجبال أيام منى (ان صح) انها تلقى هناك وتعفن الجوّ وتميت الناس ولاتعطى للفقراء فان هذا حرام لأن الله أمرنا أن نعطى البائس الفقير لا أن نرميها تعفن الجوّ وتهلك الناس والاستشهاد بكلام الأطباء والعلماء و بحث مسألة الوباء العام وهل يدخل الناس القرية الموبوءة ويخرجون منها وهكذا . و بيان مايقوله (ابن القيم) من أن دين الاسلام يسر كله لاعسر . و بيان تغـير الأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والعرف . ودخل فى هذا المقام شرح مسألة التوكل وهل دخول الناس أرض الوباء مع العلم به توكل . الجواب . كلا . كما يقوله الغزالى

٣٦ ﴿اللطيفة الرابعـة﴾ فى قوله تعالى ـ لـكل أمّة جعلنا منسكا ـ ﴿والخامسة﴾ فى قوله تعـالى ـ لن

صحيفة

صحيفة

الباطنة وأخذ يرجع القراآت السبع فى القرآن الى تلك الامور السبعة المقسمة كل منها الى سبعة بحيث لا يكون خفض ولارفع ولاتسكين فى كلة من القرآن إلا وهو راجع الى حال من تلك الأحوال الباطنة . وتبيان الحكمة فى ظهور أمثال (الشيخ الدباغ) فى أمة الاسلام وأن ذلك ليعلم المؤلفون أن علومهم انما هى شئ قليل جدا واذن يعرفون قدر أنفسهم وليعلم مشايخ الطرق انهم اذا لم يفيضوا على تلاميذهم مثل ما أفاض هذا الشيخ على ابن المبارك فهم إذن مغرورون وليجدّ العلماء فى العلم و بيان أن هذا الشيخ عرف جبال الثلج الآتى ذكرها فى (سورة النور) قبل معرفتها بالطيارات فى أوروبا وسيأتى ذلك عند قوله تعالى ـ و ينزل من السماء من جبال فيها من برد ـ الخ فى (سورة النور) وتبيان أن هذا يوجب أن يكون المسلمون أعلم الأمم بهذه العلوم وأن هذه تحل لنا مشكلة الانسانية تلك التى سخرت لها الأرضون والسموات فهل ذلك التسخير لأجل هؤلاء الناس على ماهم عليه . كلا . بل الناس اليوم أطفال يربيهم الله وأن أمثال هذا الشيخ عرّفونا قدر الانسانية التى ربما تصل لها الأرواح يوما ما . وتبيان أن آراء هذا الشيخ فى الحديث مع اختصارها جمعت زبدة الجزء الثالث والرابع من كتاب ﴿ إحياء علوم الدين ﴾ للامام الغزالى أى المهلكات والمنجيات وأيضا هذه الروح فهمتنا مامعنى الروح الكاملة والناقصة وأن أرواح أهل الأرض تصل الى الصلاح أما الكمال فنادر جدا

٥٢ بيان أن رجال السياسة الآن أشبه بالأطفال يقولون بالمساعدة العامّة لفظا وقلوبهم كلها خبث كما نرى الأطفال يركبون الأعواد تشبها براكبي الخيول من آبائهم . و بيان أن قراء هذا التفسير سيكونون على رأى واحد ومشرب واحد لأنهم يرون ديننا كل العلوم فأين الخلاف إذن

سؤال لمؤلف هذا التفسير فى انه اذا صحّ هذا أوجب ﴿ أمرين ﴾ الحزن على جهلنا بالنسبة لأمثال هذا الشيخ واننا نعيش متعطشين الى هذه المرتبة وهذا يضرّ بالعلماء فى هذه الأمّة فلايخلص من هذا كله إلا المكذبون لهذه الامور وجواب المؤلف على ذلك بأن هذه العلوم لايصح التطلع لها فان الجنين لايصح أن يولد قبل تمام أشهره والا حصل الضرر . وأيضا نفس (الشيخ الدباغ) يقول ﴿ إن بين السماء والأرض نارا هى نار البرزخ فيها الأرواح المعذّبة يشاهدها هؤلاء المفتوح عليهم و يشاهدون الأفلاك والنجوم وجميع العوالم وهذا كله ظلام فاذا اغترّوا به انقطعوا عن الله فالفتوح خطر لأنهم معرّضون لمحادثات الشياطين ﴾ وقال نحو ذلك الشيخ الخوّاص الذى أبان أن الفتوح قد يكون شرا على صاحبه واستدل بآية ـ فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ـ الخ بل قال ﴿ لايصح قبول الفتوح إلا اذا لم يكن للنفس حظ فيه ﴾

٥٤ بيان نتيجة ماتقدم من أننا قد استوفينا هنا هذا المقام لنبين للمسلمين بعدنا أن كثرة العاطلين فى أمم الاسلام باسم الولاية والصلاح أضاعت مجد الأمة فقد استبان هنا أن المفتوح عليه نادر ولوفرض ظهوره للناس وأقبلوا عليه كان الاكرام نفسه محسوبا عليه وأن كثيرا من المفتوح عليهم يصبحون سحرة وكهانا وهم مغرورون وأيضا لاينبغى لهم قبول الصدقة . و بيان أن ماشرحته هنا أيد لى ماقرأته فى كتاب (راجا يوقا) الهندى إذ أظهر أنهم مع وثنيتهم يفتح عليهم فعلمت انه فتح ظلمانى وهو شهوة نفسية لاأقل و بهذا تبين أن مايقوله الامام الغزالى فى كتاب أيها الولد وفى الإحياء ومايقوله محى الدين بن عربى فى (الفتوحات المكية) من الكشف يجب أن يحترس منه لأن ذلك قعد بهمم كثير من العلماء فتركوا مواهبهم العقلية و بحثوا عما وراء الحسّ فأضاعوا الأمّة وحرمت من أمثال (أديسن) مخترع الفونوغراف إذن ماكتبه فى هذا التفسير نعمة وجهت لى وللمسلمين بعدنا . و بيان أن الله جعل بعض أنواع

صحيفة

النبات والحيوان مبتليات بالمزعجات المهلكات كالحشائش فى مزارع الذرة والقمح وكالهوام والميكروبات المسلطات على الحيوانات الكبيرة هكذا ديانات الانسان ان لم تكن فيها شبه يعوزها عقل نامت الأمم وكسل الناس

٥٧ فصل فى أن العقاب يجب أن يكون على قدر الذنب وتمثيل ذلك بايلاج كل من الليل والنهار فى الآخر و بيان أن الفرق بين الليل والنهار فى مصر أربع ساعات وفى أطراف الهند والصين ساعتان وهكذا يكون ١٢ و ١٨ و ٢٤ وستة أشهر . فأما فى خط الاستواء فهو (١٢) ساعة لاغير

٥٨ لطيفة فى قوله تعالى ـ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ـ أيضا و بيان أن القتال مع العدوّ ليس هو مقصود هذه الدنيا بل العلوم فارفعوا رؤسكم الى السموات وهذا يتمّ بعد نظام الأخلاق وجمالها الذى شرع لأجله الجهاد . و بيان أن هذه المناسبة فى الآية وجمالها يجهلها عالم البلاغة

٥٩ فصل فى ذكر عجائب الارض بعد العجائب السماوية قال تعالى ـ ألم تر أنّ الله أنزل ـ الى قوله ـ لكفور ـ لطيفة فى قوله تعالى ـ ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ـ وأن الأمم ان لم تهذبها الحوادث فلاسبيل الى رقيها والتى هذّبتها الحوادث تكون كأرض نزل عليها الغيث فنبتت بعد يبسها . وهنا أقوال الأرواح ان الحوادث العظيمة يحدث بعدها رقى الانسان وهكذا قول علماء الألمان ان وقوع الأزمات والحروب فى الأمم مرقيات لها وهذا فحوى معنى الآية أومايقرب منها و بيان أن دراسة البلاغة لاتكفى لفهم القرآن

بهجة العلم فى قوله تعالى ـ فتصبح الأرض مخضرة ـ و بيان أن كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ فيه وجوب خدمة جميع الناس بعضهم لبعض وأن أرض كل أمة يجب استخراج ما كمن فيها وأن الأمم يجب أن تفعل ذلك طوعا أوكرها وأن انتهاب مافى أيدى الناس بالحرب جريمة فى عصرنا لاتغتفر وأيضا يجب ترقية جميع العقول فى الأرض . فهاهوذا العالم الهندى (جاجاديس بوز) جاء للنوع الانسانى بعلم جديد ينفع أهل الشرق والغرب مصداقا لما ذكرت فى كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ فقال فى خطبته بمصر فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٨ انه عرف أن النبات كالانسان والحيوان سواء بسواء فله إحساس وله حركة وقد برهن على ذلك بآلته المسماة (كوسيكوغراف) وهى تكبر الجم خمسين مليون مرة مع ان (الميكروسكوب) يكبره ألفى مرة فقط وتبيان مقدمة لهذا فى أن يد الانسان الآتى بيانها فى (سورة المؤمنون) ١٢ طبقة فى كل ناحية ست طبقات وأن الجلد يتلوه أعصاب الحس فأعصاب الحركة فالشرايين التى تغذى الجسم وهذا أشبه بهيئة مانراه فى الأرض من أسلاك التلغراف (البرق) أعلى والقطار على سكة الحديد تحته ثم المساقى تحتها تسقى الأرض فترتيب جسم الانسان الذى ظهر فى اليد هو عينه ترتيب الناس فى نظامهم . كل ذلك لمعرفة خطبة (جاجاديس بوز) وملخص خطبته فى حياة النبات وأن الشرق والغرب كل منهما يخدم الآخر وقد سلط الكهرباء على نباتة فأخذت فى النزع كالانسان ثم ماتت وكل هذا وضح بالعمل والحركات وعدمها وقد أعطى نباتا آخر سما فأخذ فى النزع ثم أعطاه ترياقا فنجت النباتة من الموت

٦٦ بيان أن جذب الأرض لنا أشبه بمقامع من حديد والا فلماذا لانسير فى أعلى لغرى النجوم التى تحبها فصل فى ذكر أن كل أمة لها شريعة ونحو ذلك قال تعالى ـ لكل أمة جعلنا منسكا ـ وتفسيرها تفسيرا لفظيا الى ـ و بئس المصير ـ . لطيفة فى قوله تعالى أيضا ـ لكل أمة جعلنا منسكا ـ

بهجة ومسامرة فى قوله تعالى ـ لكل أمة جعلنا منسكا ـ الى ـ و بشر المخبتين ـ ووصف أمم مملكة (اشانتى) الذين هم وثنيون وحشيون وهكذا وصف قوم آخرين على نهر (نيجر) قد أسلموا وتبدلت عاداتهم وصاروا عادلين وذلك فى رواية (المستر ممسون) الامريكى

صحيفة

وهكذا

صحيفة

وهكذا الى عضـلات الساق وضرب مثل لذلك كله بتفاحة يأكلها الانسان فهى كزائر لمنزل والعـين توصل الخبر للمخ كما توصل الكهرباء الخبر لأهل المنزل وهكذا أعصاب الحس وأعصاب الحركة كلٌّ له عمل فى دخول التفاحة كما ان للخادم وغيره عملا فى دخول الزائر

١٠٣ إيضاح الـكلام على الجهاز العصبى وجهاز الحركة والجهاز الهضمى والدورة الدموية والتنفسية والليمفاوية والجهاز البولى والجهاز الجلدى . فهذه (٨) أجهزة كلها تعاونت على قبول الزائر لها وهى التفاحة التى استأذنت من الحاكم فى المخ بواسطة أعصاب الحس ودخلت بواسطة أعصاب الحركة

١٠٤ ﴿ الفصـل الثامن ﴾ فى أبدع ما رأيته فى هذا المقام . وذلك انى حصلت لى موانع منزليـة خفت أن تلهينى عن جمال التفسير فقابلنى فى أثناء عملى من جاء من أوروبا ومعـه صور فى تشريح اليد وانها (١٢) طبقة . وهنا تبدّى لى العجب إذ رأينا أعصاب الحركة القابضـة مثلا غير الأعصاب الباسطة وكل منهما أنواع تعدّ بالعشرات . فأنواع البسط كثيرة فقد يكون قليلا وقد يكون كثيرا وهكذا ولـكل نوع منها أعضاء خاصة فأخذت بعض الصور ورسمت فى صفحة (١٠٦) و (١٠٧) والذى رسم هو أعصاب الحركة التى للقبض وأعصاب الحركة التى للبسط تنبيها على غيرها

١٠٨ ايضاح أن الأجهزة الثمانية كلها متعاونات والمسيطر واحد . وهنا يتعجب المؤلف من نظام هذا الانسان فى جسمه المتقن اتقانا تاما مع نظام الاجتماع وتذكير القارئ بما تقـدم فى أول (سورة طه) من أمم حياتها كلها قتل وتوحش فظيع وأن ذلك النظام الوحشى لايناسب نظام الانسان وانما الذى يناسب نظام جسم الانسان ماتقوله الأرواح ﴿ إن الأرواح العالية لاخلاف بينها فما يراه بعضها يكون فكرا للجميع ﴾ هذا هو النظام الموافق لنظام جسم الانسان فان التعاون الذى بين هذه الأعضاء هو نفسه الذى نسمعه عن الأرواح العالية الذى جاء فى قوله تعالى ــ ونزعنا ما فى صدورهم من غلّ اخوانا ــ ثم إننا نرى رجال الحكومات متعاونين تعاونا صناعيا تاما تشبها بالنظام الأعلى ونرى رجال الأمم السياسيين متعاونين تعاونا على طريق النفاق والخداع والـكذب فهو تشبه خيالى

١٠٩ نور على نور فى قوله تعالى ــ ثم أنشأناه خلقا آخر ــ الى قوله ــ ثم إنكم يوم القيامـة تبعثون * ــ ولقد خلقنا فوقـكم سبع طرائق ــ و بيان أن الناس قد سخروا البرّ والبحر والـكهرباء والمغناطيس وطاروا فى الهواء وتراهم فرحين بهذا وفاتهم أن هذا الفرح كفرح الفارس بفرسه والطفل بلعبته . انه فرح بما هو خارج عن النفس أى مالا تملك فـكيف فرحوا . يجلس الانسان ساعة فيجد نفسه تنتقل من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ومن السموات الى الأرض فلا يبالى بهذا السرّ الذى فيه و يعدّه من سقط المتاع وذلك لأنه لم يتعب فيه ولم ينصب . لذلك كلف الله الناس بالعلم والعبادة والعمل جميعه ليعرفوا أنفسهم وقواهم بكدهم وجدّهم حتى لايحقروها وهذا هو سرّ التـكليف وأيضا ان ولوعنا بجميع العلوم واتجاه نفوسنا لجميع الجهات دليل على أن نفوسنا مستمدّة من عوالم محيطة بنـا كما أن الجوهر الفرد مركب من ذرات كهربائية تدور حول بعضها دوران السيارات حول الشمس فدلّ ذلك على أن نفوسنا المشرئبـة للاطلاع على جميع العوالم نسـبتها الى النفس الـكلية المحيطة بجميع العوالم كنسبة الجوهر الفرد الى النظام الشمسى وحكم الجزء حكم الـكل فى الحالين . وكما أن الجوهر الفرد له أصل كلى يجمع أمثاله وهى الأجرام العظيمة كالأرض والشمس . هكذا الأرواح الصغيرة فى الارض لهـا روح كبيرة تجمعها كما جمعت الشمس والأرض مثلا جواهرهما الفردة . إن هـذا العالم مشمول بالرحمة وصـغيره ملحق بكبيره . ودليـل ذلك حادثة الفتاة التى نوّمها (شاردل) وقولهـا له أنا يقظانة

صحيفة

وأنت نائم . وهناك ابنة أخرى كانت ترى جسمها يتمدد شيأ فشيأ فى حال الانخطاف . وأيضا كم من أناس انتقلوا الى أماكن بعيدة بأرواحهم فى حال الحياة . ومنهم من عرفوا حوادث بعيدة عنهم وهذه ملأت الأقطار ومنها حادثة والدتى لما غرقت وقت الفجر وقد كنت فى المركب ثم نجوت

١١١ بهجة العلم فى قوله تعالى ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ وذكر أوصاف المؤمنين الذين أفلحوا فهم وصفوا ﴿ بعشرة أوصاف ﴾ كالصلاة والخشوع فيها وكعدم الغفلة عن هذه المخلوقات و بيان أن الخشوع فى الصلاة يفيد توجيه الخواطر لأمر واحد وكذلك توارد العلوم على قلبه وقول المسلم ﴿ الله أكبر ﴾ فى الصلاة دليل أن العلم لانهاية له لأن كل ماعلمناه رأينا الله أكبر منه

١١٢ بيان ما يقوله مؤلف ﴿ علوم للجميع ﴾ بالانجليزية ان المفكر العادى يرى أن الألوان وزعت على الحيوان بلامنفعة وهذا خلاف الحقيقة . الحيوان منه الآكل ومنه المأكول ، والألوان لاَ كل تظهر للمأكول فيفر منه فلايعيش الآكل وهكذا لوأظهر لون الحيوانات المأكولة لكان ذلك هلاكا لها . إذن اللون ضرر للجميع ولكن الألوان ملأت هذه الدنيا والحيوان باق فماذا نقول . نقول إن جميع ألوان النبات وأنوار الأزهار وأضواء الشمس والكواكب واضحة وهى لحياة الحيوان وحفظه وهكذا ظهر أن أكثر هذه الألوان خلقت قصدا لحماية الحيوان ﴿ مثال ذلك ﴾ الحشرات المسميات (سلاق) حين تقع على الأرض تكون مثل حصبائها فى لونها وشكلها وذلك حماية لها . وهناك حشرة تشبه (العصا) فتنجو بذلك من الهلاك و بعض السوس لايفرق بينه و بين قطع الطين فى الأرض فيحفظ بذلك . ومنه ماهو أخضر وجيل لايميزه الناس . وهنا خنافس تشبه حبوب بعض النبات وأخرى تعيش على ورق (الصفصاف) فتصير مثله . وهناك فراش أخضر وآخر رمادى يشبهان النبات الذى يعيشان عليه . وفراش آخر مرسوم فى صفحة (١١٤) أجنحته أشبهت الورق الجاف فيحفظ بذلك من الهلاك . وهناك حشرة أخرى تشبه قطعة من (عصا) مكسورة حديثا كما فى شكل (١٤) صفحة (١١٥) وهناك حشرات تشبه زرق الطيور فتتحاشاها ظانة أنه زرقها و بذلك تحفظ جل الحكيم العليم

١١٦ لون الفراش أعد لحفظه لأنه يشاكل مايعيش عليه من خضرة إن كان أخضر ومن سمرة إن كان أسمر . إن دود الفراش على (قسمين) دود يكون لونه أخضر أوأسمر يأكل ليلا أما فى النهار فانه يبقى ساكنا فيحفظ من أكل الطيور له والقسم الآخر له لون واضح ولكنه لايختفى نهارا بل يأكل جهرة ولاتقربه الحيوانات . والسبب فى ذلك أن طعمه ردىء لاتقبله الطيور ولاتسيغه كما فى الصورة المرسومة فى صفحة (١١٦) (شكل ١٥) . وقد يكون لدود الفراش شعر يغطى جلده . وقد يكون له غزل فكل هذا يجعل الطيور تأنف من أكله فهذا لايختفى فتأكل علنا ولاتختفى وكأنها علمت أن الله جعلها فى أمان من الهلاك

١١٧ وهناك حشرات مكشوفات لاتخاف لأنها أشبهت فى لونها الذى لا اتقان فيه (دودة الفراش) التى خبث طعمها فكانت المشابهة سببا فى حفظها . والنحل والزنابير تغدو وتروح ملونة لما لها من الحماية بالسلاح الذى خلق لها فلونها إذن انذار للهاجم عليها وحفظ لها من المهاجمة . وهناك امبراطور الفراش جيل الشكل واللون مشابه لما يحيط به من الأغصان والأزهار فلا يمتاز عنها فيحفظ بذلك . وتجد فى الصحراء لون (القبر) وألوان أنواع أخرى من الطيور وكذلك الحيوانات ذوات الفروة من ذوات الأربع وجلد الحيات والضب . كل هذه مشاكلات لألوان الرمال والجمل والأسد لهما لون لطيف رملى أوصخرى والدب القطبى وأرنب القطب وغيرهما كلها بيضاء ولكن ذلك لم يكن من تأثير الوسط والبيئة بل

صحيفة

الحماية اقتضت ذلك والا فلماذا نرى الغراب هناك أسود لأن فريسته وهى الرم لانفرّ منه اذا رأته ولا طالب له والسمور الذى يعيش وسط الأشجار لايتغير لونه كما لايتغير لون الغراب فدلّ هذا على أن الوسط لاتأثير له فى اللون . وانما المدار على منفعة الحيوان كما يرى فى الطائر الأمريكى (سكانك) فى أمريكا الشمالية فذيله الزاهى الطويل يرى ليلا وانما تحفظه الرائحة الكريهة التى يطلقها على عدوّه . والببغاء يكون لونه كلون الأشجار التى يسكنها

١١٩ فى الجزائر الاستوائية حمام أخضر كالببغاء للمشاكلة . الضب والحية أسمران زيتيان فى بعض الأقطار ولكنهما فى الأقطار الاستوائية وحدها يكونان شديدى الخضرة البرّاقة اللامعة لمشاكلة النبات هناك و بلاد الانجليزليس فيها لون يقرب من الأخضر ولكن الأسمر والزيتى هما الظاهران فى ريش الطيور وهذا هو نفس لون الأشجار التى لا أوراق لها وهى كثيرة فيكون ذلك حافظا لتلك الطيور . السمك الذى يسكن قاع البحر تكون ألوانه كألوان الحديقة منمقة جميلة مشاكلة لما هنالك فى قاع البحر من الرمال والحصى المنقوشة . فأما ما قرب من سطح الماء فانه يكون أزرق مائلا للخضرة من أعلى مشاكلة للجوّ وأبيض من أسفل لأجل أن يحفظ من العدوّ فى الهواء وفى الماء . وخيل البحر فى أساليب لونها السحرية تشبه الأعشاب البحرية من المرجان والشقائق وغيرها التى هى حدائق بهجة المنظر هناك تسرّ الناظرين . وفى الأقطار الاستوائية حشرات أجنحتها وعروقها مشابهات كل المشابهة أوراق الأشجار ثم نفس الأرجل والصندوق وهيئة الرأس كلها مشاكلات لما تعيش عليه من أغصان وأوراق بحيث لا يمكن تمييز تلك الحشرات منها . ومن الحشرات ماتظهر كأنها قطعة من غصن مغطاة بطحلب . وهناك حشرة (أبى دقيق) البرتقالية الرأس تعيش على أطراف الأزهار فى شجر البقدونس (شكل ١٦) صفحة ١٢٠

١٢١ وههنا يتجلى ﴿ أمران * أوّلا ﴾ ان ماشاع فى مصر و بلاد الشرق أن مذهب (داروين) و (لامارك) ينافى وجود منظم الكون خطأ فذلك كان فى قرون مضت . أما علماء أواخر القرن التاسع عشر والعشرين . فهذه هى نفس آرائهم ومنهم نقلت هذه الأقوال فمعنى آية ــ وما كنا عن الخلق غافلين ــ قد فهمه علماء هذا القرن العشرين و بعض المتعلمين فى أمم الاسلام لم يبلغهم هذا الخبر جمال العلم ومحاسن الطبيعة . و بيان أن الناس فى هذا العالم أكثرهم كالعمى أمام الغانيات أو الصم أمام المغنين لغفلتهم عن الجمال . وحكاية الجنيد مع المرأة الجميلة وتذكيرها له بجمال الله

١٢٢ بيان أن الموسيقى ترجع الى النظام العام . وحكاية فيثاغورس إذ مرّ على حدّاد وكانت النسبة فى مطارقه (٦) الى (٨) الى (٩) الى (١٢) فأتى بالأوتار على هذه النسبة فأطربت وأن الموسيقى سبب ووتد وفاصلة كالشعر ومن هذه جميع الألحان والكلام على لحن الفاختة وهو نفسه بحر الطويل وهو نسبة هندسية فآذان الطير والعلماء والجهال على حدّ سواء ولكن هناك موسيقى أرفع وهى حساب الأفلاك والعناصر و بدائع الألوان المذكورة فى هذا المقام وكيف تحمى الحيوان بسواد أوحمرة أوخضرة . فهذه موسيقى أبدع مما تقدّم كله . وهذه العجائب كلها ترجع الى عناصر والعناصر عبارة عن ضوء وحرارة ترجع الى كهرباء . هذا هو الوجود الحادث كله فالوتد والسبب والفاصلة تنوّعت بهذا الحساب والعناصر الراجعة للكهرباء تنوّعت هذا التنوّع . فالعالم راجع لحركة مستمرة ونظام جميل

١٢٣ بعض أسرار القرآن تظهر فى هذا الزمان وذلك كمسألة الألوان التى ذكرناها . أليست هى بعينها قوله تعالى ــ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض

صحيفة

وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ـ ثم أعقبه بقوله ـ انما يخشى الله من عباده العلماء ـ فأين هؤلاء العلماء . أليسوا هم الذين يدرسون أمثال ما ذكرناه هنا حتى يفقهوا سر الألوان بقدر الطاقة البشرية . وكيف يقول الله تعالى ـ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ ثم يقول ـ إنّ فى ذلك لآيات للعالمين ـ . ولقد حسب الله أصوات الحيوان لا ألوانه فحسب وهذا هو الحق الذى خلق الله السموات والأرض على مقتضاه وهو التسبيح لأنه تقدس عن أن يخلق لونا أوصوتا بلاحساب

١٢٤ صوت الفاختة وشعر من بحر الطويل وخفيف الثقيل الأوّل من الموسيقى وحسابها جميعها يرجع الى أن حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين . والكلام على قوله ـ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ـ وآراء الفرنجة فى المواليد الثلاثة وشرح مذهب (داروين) و بعده (برن) وأن هناك أناسا يقولون إن العالم لاموجد له

١٢٥ شرح أصول مذهب (داروين) وهى (أربعة) الحياة أطوار وتكون بالوراثة فى النسل وهناك تنازع والأقوى الأكمل هو الباقى وأمم أوروبا جرت على هذا المبدأ فى تنازع البقاء فى السياسة . ونقض هذا المذهب (جوستاف لوبون) بأن المادّة ليست أبدية و (بوانكاريه) بأن النواميس تقريبية (وچوليه) بأن آراء (داروين) عجزت عن تعليل الإلهامات فى الحشرات وأمثالها . ودوفرى بأن التحوّل الفجائى هو القاعدة أما البطئ فلا . وچوليه يقول ان الحشرة وانقلابها الفجائى يبطل مذهب داروين و (فون باير) يقول « إن تولد الانسان من أعلى القردة أصبح القول به أقرب الى الجنون » وفيركو الألمانى وغيره يقول ﴿ لامناسبة بين أعلى القردة والانسان ﴾ ثم ان الانتخاب الطبيعى نفاه (سبنسر) ونفى (و يسمان) انتقال الصفات بالوراثة وقال إن هذه الآراء حكايات أشبه بكلام المجانين و (بوهن) أبطل الانتخاب الطبيعى و (جينو) يقول ﴿ البط والطيور المائية خلقت لها أرجل لتصلح للعوم وتلك الأغشية بين أصابعها خلقت لها قبل أن تعوم ﴾ و (بلوجر) نفى الوراثة . ودو بوا ريمند كذلك نفاها ودائرة المعارف الكبرى الفرنسية تقول ﴿ إن نفس آراء (داروين) مختلة لأنها تقول بالمصادفات ﴾ و (ادورد هارتمان) يقول ﴿ إنّ نفى القصد فى الوجود وهم لا أساس له لأن الطبيعة منتظمة ﴾ . و (لو يز بوردو) يثبت القصد والروح المدبرة فى الوجود . و (فون باير) الألمانى ينكر الضرورة العمياء و يقول بالقصد السامى . و (كاميل فلامريون) يقول ﴿ إن هناك تبصرا فى النبات والحشرات والطيور يقصد به حفظها وهى غافلة وهذه الملاحظات فى التاريخ تثبت أن فى الطبيعة عقلا مدبرا ﴾ و (لوجيل) الفرنسى يقول ﴿ إنّ كل القوى صادرة من قوّة أزلية ﴾ . ودائرة معارف القرن العشرين تقول ﴿ ان للكائنات غاية ﴾ . و (ميلن ادوارد) يذكر ذلك الطير الذى يضع زادا يكفى ذرّيته سنة وهى نفس المدّة التى يحتاج اليها لاغير وقد مات الأبوان

١٢٨ يستدل من هذا كله أن طائفة عظيمة من المتعلمين فى بلاد الشرق مغرورون بزعمهم أن نفى الخالق علم أوروبى ، فهاهم أولاء يكذبون هذا الرأى وهؤلاء المتعلمون بالشرق لم يبلغهم خبر هذا التكذيب فصل فى ذم المتفلسفين والمتبذلين والمغفلين من شرح الرازى على اشارات ابن سينا واثباته أن المتفلسفين الذين ينفون الشرائع أشدّ حمقا من العامّة الذين يصدّقون بغير دليل لأن الأوّلين يصيرون كالشياطين فى الخلاعة والفساد . ثم ان المقلدين لاتنفعهم العلوم لأن التقليد يمنعهم منها وأخسّ الناس المتفلسفة لبعدهم عن الشرائع

صحيفة

الحرب أوزارها ــ حين لايبقى على الأرض إلا مسلم أومسالم وأن الله نفسه تولى هذا العمل
وقد فعل مع الدول مافعله مع زرّاع القطن فى أمريكا الذين توغلوا فى زراعته فسلط عليه الدودة
فقللوا من زراعته فصلحت الأرض ونفعتهم فى مزارع أخرى . هكذا هنا ألهم علماء الكيمياء وغيرهم
فاخترعوا المهلكات فعزمت الأمم على الامتناع عن الحرب . ومتى تمّ هذا تمت معجزة آية ــ حتى تضع
الحرب أوزارها ــ وتأييد ماتقدم بذكر ماتقوله جريدة انجليزية ﴿ ان الدول كلها قد أحست بمصائب
الحرب وويلاتها غالبها ومغلوبها أمرائها وصعاليكها الملكيين والعسكريين ﴾ كلهم أدركوا أن
الحرب تقع مصائبها عليهم جميعا بلاتمييز وأن انكلترا مستهدفة للخطر من كل ناحية وأن الحكومات
(روسيا وألمانيا والنمسا و بلغاريا) كل هذه وقعت فى الخطر

١٦٠ حكمة إلهية ونور على نور وتبصرة وذكرى . وههنا تبيان ماجاء فى الأنفال فى قوله تعالى ــ وأصلحوا
ذات بينكم ــ من أن فى القرآن آيتين إحداهما تطلب جمعية أمم اسلامية أوشرقية وهى ــ وأصلحوا
ذات بينكم ــ والأخرى تطلب التعارف العام بين الشرق والغرب بجمعية أخرى وهى آية ــ يا أيها
الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ــ وتعجب المؤلف من أنه لم
يمض على كتابة هذا سنتان حتى ظهر أن هذا الذى كان يقوله بطريق الفكر والاستنتاج أصبح الآن
يخطب به على المنابر عظماء كمحافظ كابول فدل هذا على أن الاسلام كله متحد على اظهار هذه الفكرة
وأن المسلمين مرتقون لامحالة . و بيان أن الله عامل الأمم جميعها معاملة الأب الشفيق والأستاذ العظيم
فأوّلا نهاهم وأمرهم فلما لم يمتثلوا أبدع الطرق التى بها يمتثلون ومن ذلك خلق الحشرات المؤذيات الموجبات
الأمراض مثل حشرة تسمى (الكولاكس) فكان عملها موجبا على الناس تعلم الطب والاتحاد فى
مطاردتها لأنها لاتميز بين أمة وأمة وهى معدية . ومثلها المدمرات المهلكات . فههنا عذابان يقعان
على الناس موجبان اتحادهما عذاب المهلكات الطبيعية وعذاب المهلكات الصناعية وهذان المهلكان
وغيرهما مما ذكرهنا يتعلقان بقوله تعالى ــ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ــ كأن الله يقول لهم أنتم
أمة واحدة وقد تقطعتم أمركم بينكم زبرا فعلىّ إذن أن أرجعكم للاتحاد بمدمراتى ومهلكاتى الطبيعية
والصناعية وحينئذ تضع الحرب أوزارها وهذا من أعظم عجائب القرآن

١٦١ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ــ كل حزب بما لديهم فرحون ــ والكلام على (العميان الست) الذين
اختلفوا فى الفيل أحربة هوأم حية أم حائط أم شجرة أم مروحة أم حبل وذلك بالنسبة لنابه وخرطومه
وجنبه وركبته وأذنه وذنبه على الترتيب وأن هذه رأيتها فى الإحياء وفى كتب الانجليز وهى هندية
الأصل وأن هذا المثل ينطبق على جميع الناس فى كل أحوالهم فى المطاعم والملابس والمساكن والديانات
والمذاهب . و بيان ست من المتكلمين على الانسان مثل
(١) سقراط القائل ﴿ إن الانسان يقصد السعادة والخير وأن أسّ الفضيلة العلم وأن الخير العام يقدم
على الخير الخاص وأن حياة الفيلسوف أشرف حياة لأنها مبنية على البصيرة ﴾
(٢) وأن الفارابى يقول فى كتابه ﴿ إن الأمة يجب أن تكون أشبه بالجسم الواحد وكل جماعة يعملون
فيما خلقوا له بل كل أمة يجب أن تكون كعضو فى المجموع الانسانى ويكون أهل الأرض كلهم أمة
واحدة كجسم الانسان ﴾ وهذا فى كتابه ﴿ آراء أهل المدينة الفاضلة ﴾
(٣) و بيان آراء (أرسطو) الذى شرح الفضائل الأربعة ﴿ الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ﴾
وانها وسط بين طرفين وانها تترتب عليها سعادة الانسان . و بيان ما قاله من تعليم القراءة والكتابة

صحيفة	
	ومن طلبه تعلم الموسيقى ودراسة العلوم الرياضية والطبيعية
	(٤) و بيان آراء (ابن سينا) فى التمرينات الرياضية وفى تربية الأطفال وتدبير الرياضة والنوم والغذاء الخ
	(٥) و بيان آراء عالمين هنديين فى زماننا وهما (غاندى) و (جاجاديس بوز) القائلين بالثقة بالنفس والصدق والاتحاد الوطنى والتسامح وعدم ترك ما عندنا من منافع العلم الموروث والتحريض على تعلم الصناعة وعدم الاتكال على صناعة الفرنجة
	(٦) و بيان ما قاله المؤلف فى كتابه ﴿ أين الانسان ﴾ الذى مرّ شرحه قريبا فى نفس هذه السورة من أن الأمم كلها يجب أن تتعاون فى ارتقاء العقول واستخراج منافع الأرض . فاذن يكون هؤلاء الست ضرب لهم مثل العميان الذين يبحثون عن حقيقة واحدة وهى سعادة الانسان والله تعالى يقول ــ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ــ
	بيان أن مذهب العلامة (هولدين) العالم الانجليزى ينحو نحو كتاب ﴿ أين الانسان ﴾ بطريق يختص به هو إذ يرجع فى ذلك الى مسألة المرض والصحة . وأن الناس يجب أن يتضامنوا لأن الأمراض تفتك بهم لاتفرق بين أمة وأمة بالعدوى وهذا هو الذى شرحناه فى هذا التفسير وفى هذه السورة أيضا
١٦٦	﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ــ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ــ و بيان أن الناس لما بذل الله لهم السمع والأبصار والأفئدة لم يعرفوا حق النعمة لأن المبذول لايلتفت اليه فوجب أن يعرف ذلك بالعلم . و بيان حاسة السمع بأوضح مما مرّ فى سورة (آل عمران)
١٦٧	وكذلك الصور ورسم صورة الأذن (شكل ١٧) وتبيان (١٣) جزأ من أجزائها ورسم صورة العين وتبيان (١٩) جزأ من أجزائها تصويرا وقولا
١٦٨	رسم صورة القلب والدورة الدموية موضحة ايضاحا تاما (شكل ١٩) وتبيان (٢٠) جزأ من أجزاء تلك الدورة . والفرق بين الدورة الصغرى إذ يذهب الدم من البطين الأيمن الى الرئتين ثم يعود الى البطين الأيسر و بين الدورة الكبرى إذ يذهب الدم من البطين الأيسر الى الجسم ثم يعود الى البطين الأيمن . والدورة الكبدية فرع للدورة الدموية وهى عبارة عن بعض أوردة آتية من المعدة والأمعاء والطحال والبنكرياس تصب فى وريد واحد يسمى (الوريد الباب المتحدة فروعه الشعرية بأوعية الكبد) و باجتماع هذه كلها يتكوّن الوريد الكبدى الذى يصبّ فى الوريد الأجوف السفلى
	كرات الدم فى العروق (شكل ٢٠) . تعريف الدم و بيان كراته الحمراء والبيضاء وعدد الحمراء فى السنتيمتر وعدد البيضاء و بيان أن هذه الكرات سابحة فى سائل شفاف
١٦٩	بيان الشرايين والأوردة والأوعية الشعرية المنقسمة الى وريدية وشريانية وأن للدم صمامات تمنع رجوعه (شكل ٢٠) . ايضاح السمع والبصر والفؤاد بالقول بعد نظرها فى الصورة وأن تصويرها الشمسى مصداق لقوله تعالى ــ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ــ وهنا ذكر أن القلب والروح والعقل والنفس تدل على اللطيفة الربانية بمعان مختلفة . و بيان منظر خيالى تخيله المؤلف فيه حقول المزارع المختلفات والحدائق الغناء فيها أنواع الفاكهة والرياحين ذات الألوان المختلفات الجيلات الاشكال وذلك كله بعد أن كانت الأرض قفراء لا أنيس بها ولاجليس وغاية الأمر أن طائفا طاف بها فبذر فيها بذورا مشوبة بموادّ كثيرة وكل ذلك ممتزج امتزاجا تاما حتى صار بهيئة خاصة فأخذ ذلك الطائف يبذر مافى يده بحساب معلوم فازدهرت الأرض وأخذت زخرفها وازّينت وظهرت فيها الآلات الماصة الكابسة الساقية لحشائشها وزروعها وأشجارها بخراطيم امتدّت من تلك الآلة عظيمة فى مبدئها دقيقة

صحيفة

مشتبكة عند نهايتها . و بيان أن ذلك المنظر يمثل جسم الانسان والقلب فالحدائق والمزارع تمثل الأعضاء المختلفة فى جسم الانسان والمسرة (التلفون) الذى فى قصر الحديقة يمثل السمع والمناظير المعظمة تمثل البصر وذلك تبيان لقوله تعالى — وهوالذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون — وكيف يشكر الناس تلك الحكمة فى وضع العظمات الصلبة فى الأذنين والطبقات اللطيفة فى العين فتشاكل الصلب مع الهواء والشفاف اللطيف مع الضياء . ثم كيف انقسمت البيضة فى رحم المرأة أقساما منظمة بحساب المتوالية الهندسية ومع ذلك الحساب قد حصل الابداع فى التركيب والنظام البديع . ثم إن الآلة التى تسق الحدائق والمزارع تمثل القلب المرسوم هناك المقسم أربعة أقسام الذى خرج من البطين الأيسرفيه الاورطى المتفرّع الى فرعين والفرعان متفرعان الى فروع كثيرة تصل الى كل عضو وكل جلد وشعر وكل مادقّ وجل وأن الله لوفعل لنا فى مزارعنا ومنازلنا وحدائقنا ما فعله فى أجسامنا لكان هذا معناه أنه لا انسانية ولاحيوانية لأن ذلك لايجعل للانسان ارادة ولاعقلا ولافكرا . ولامعنى للانسانية إلاهذا . فتكليف الناس بالأعمال معناه حياتهم وعدم التكليف بأعمال الحياة وغيره معناه إعدامهم و بيان أن ضررترك ذلك يرجع الى المسلمين فى الحياة الدنيا وفى الحياة الأخرى لأنه من فروض الكفايات التى تركها يذل المسلمين فى دنياهم وفى أخراهم

١٧٢ بيان أن العلم اليوم ارتقى حتى شاهد الناس فى منظر (السينما) مشاهد الصور التى تمثل الجنين وهو يمو فى بطن أمّه وكيف يخلق بالتدريج وكيف تظهر فيه وتتوالد وتتكاثرالحيوانات الصغيرة التى تسبب له مرض الزهرى وأن المؤلف شاهد ذلك أثناء هذا التفسير وأن ذلك بسبب استعمال الشهوة البهيمية فى غير ما وضعت له . و بيان أن ذلك العقاب مقدّر بقدرالذنب وأن اهمال السمع والبصر والفؤاد فى أمّة الاسلام كان جزاؤه أن حلّ بساحتهم أمم الفرنجة فمزقوا الأجسام وخربوا المنازل كما قاله الخطيب الانجليزى فى البرلمان القائل ﴿ إنهم جرّبوا الطيارات فى بلاد العراق وفى اليمن وفى الصومال فأدّبت المسلمين خير تأديب ﴾ فهاهم أولاء الانجليز ضربوا المثل فى اهلاك الطيارات بأمم الاسلام الثلاثة . إذن هذا عقاب للمسلمين على تفريطهم فى عقولهم كما عوقب المسرف فى الشهوة البهيمية بأن جعلت أعضاء التناسل عنده مشوّهة مقرحة وجزاء اهمال العقل عند المسلمين ذل الأمة كلها وجزاء الفاسق تشويه جسمه وحده فان العقاب على قدرالجريمة . العقل عام فالعقاب عام والشهوة خاصة فالعقاب خاص . ولاجزم أن الاوروبيين تعلموا من آبائنا مثل (بابا رومه) الذى أدخل العلوم الرياضية فى ايطاليا ناقلا لها من الأندلس سنة ٩٨٠ واهيلارد الانكليزى أخذها سنة ١١٢٠ من مصر واسبانيا فترجم (اقليدس) من العربية . فهؤلاء من علوم آبائنا تعلموا ولأجسام أبناء معلميهم مزّقوا كما مزق الحيوان الزهرى المغتذى من أجسامنا أعضاء التناسل عند وضع الشهوة فى غير ماوضعت له . وههنا نداء لأبناء العرب فى اليمن وفى العراق ملخصه ﴿ ألم تكن لكم يا أهل العراق قبل الاسلام مدنية الآشوريين والبابليين و بعد الاسلام مدنية العباسيين . ثم أنتم يا أهل اليمن ألم يكن لكم عرش عظيم قبل الاسلام وملك مجيد حتى جعل الله لكم فى القرآن (سورة سبأ) هل يصح أن تتركوا السمع والأبصار والأفئدة و يقلّ شكركم ومن قلّ شكره سلبت منه النعمة . ثم يقول المؤلف إن طبيبا أوروبيا ساعده تلميذه الطبيب اليابانى الشرقى فصنعا دواء هذا الداء الافرنجى سمياه (٦٠٦) بعدد التجارب . فهل يكون هذا التفسير الذى امتزج فيه العلم الغربى والشرقى بالقرآن هو الدواء لمرض المسلمين الاجتماعى حتى لايضرب بهم المثل فى الاذلال والتأديب بالضرب بالطيارات ﴾ و بيان أن المسلم

صحيفة

وان لم يجحد نعم الله قدتركها وهذا كفرللنعمة

١٧٦ ﴿ الجوهرة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى – والوزن يومئذ الحق – فى سورة (الاعراف) المناسبة لما هنا فى قوله – فمن ثقلت موازينه – الخ و بيان الموازنة بين قوله تعالى – والوزن يومئذ الحقّ – وقوله تعالى – فتعالى الله الملك الحق – وأن الملك ﴿قسمان﴾ ملك ليس حقا بل هو زائل ميت وهم ملوك الأرض وملك حق لايزول ملكه وهوالله . وهكذا الوزن ﴿ قسمان ﴾ قسم حق وهووزن الله وقسم تقريبى وهو وزن الانسان وأن الأوزان فى أرضنا كلها ليست إلاتقريبية لأن الجاذبية عندخط الاستواء أقلّ منها فى جميع الكرة الأرضية لأن خط الاستواء شديد البعد عن مركز الأرض وهذا البعد يقلّ بالتدريج كلما توجهنا الى القطبين شمالا وجنوبا و يترتب على ذلك اختلاف حركات البندول فى الساعات المختلفات بحيث يكون البندول فى خط الاستواء كثير السرعة لخفته وعند القطبين قليل السرعة لثقله فبندول خط الاستواء وما والاه بخفته يتحرّك حركات أكثر من حركات أمثاله فى القطبين وما والاهما وهناك نسب جذرية واضحة فى التفسير . و بيان أن موازين القبان يعتبرفيها طول ذراع القوّة وطول ذراع المقاومة وأن الحجرالنازل اعتبرت فيه المسافة وعكس المربع فى الجسمين المتجاذبين والجذر فى البنادل المختلفة الخ و بيان ارتفاع الجوّ وانه بعد (٤٨٠٠٠) مترا تتناقص حرارته تناقصا قليلا ثم بعد ذلك طبقات حارّة نحو (٦٠) درجة . وأن ثقل الهواء يعادل (٧٦) سنتيمترا من الزئبق و بيان ارتفاع الطيران فى زماننا ثم الوصول الى المقصود من هذا المقال وهوأن الوزن تقريبىّ لأن الكيلوجرام ينقص وزنه فى خط الاستواء (٣ر٥) جرامات ونصف . و يقولون إن الأرض لوكانت أسرع مما هى عليه فى الدوران (١٧) مرة لانعدم الثقل عليها . إذن الوزن عندالله حق وعندالناس تقريبى بهذا البرهان . فهذا معنى قوله – والوزن يومئذ الحق – فى الأعراف وقوله هنا – فمن ثقلت موازينه – الخ

١٨٠ بيان قاعدة (أرشميدس) وقصته مع ملك زمانه الذى كلفه بتمييز التاج الذهبى أهومغشوش أم غيرمغشوش فلما استحم الفيلسوف فى الحمام أحسّ بأن جسمه خفيف فأيقن أن الجسم فى الماء يكون أخفّ بمقدار ما أزاحه من الماء المعادل لجسمه فصنع ذلك فى التاج فظهرله غشه . فعلى ذلك تكون الاجسام فى الهواء أخفّ من حقيقتها بمقدار الهواء الذى أزاحته وان كان ذلك يسيرا جدا . إذن وزن الله هو الحق لا وزن الناس فى الأرض

﴿ المسألة التاسعة ﴾ فى بيان هذه الآية ومصداقها فى دين ادريس نبى المصريين المسمى (هرمس) أو (اخنوخ) أو (توت) فقد صوّرالمصريون الميزان قبل النبوّة بآلاف السنين تقريبا للعقول كنص الآية و بيان انهم كانوا يعبدون الله الواحد وأن الاشراك كان يلقى الى العامّة الذين لايقدرون أن يعقلوا الوحدانية وأن هذه الآلهة كانت معتبرة صفات لله مجسمة ثم اغتروا بها فعبدوها . و بيان الميزان الذى صوّروه (شكل ٢٢) وهناك (أوزوريس) رئيس القضاة و٤٢ قاضيا يحاسبون الروح وصورة الروح المحاسبة وتوت كاتب الأعمال وهورس ينظرفى الحسنات والسيآت وأنوبيس يراقب كفة الميزان وملك العدل له صورتان وفى وسطهما الروح تتبرأ من الذنب ثم بيان أن العدل ليس مقتصرا على الميزان المنصوب فى السماء والأرض بل يكون فى الحيوانات المختلفة فمنها أن السلحفاة البحرية باردة الدم قليلة الحرارة عندها ألهمها الله أن تبحث عن الرمل المناسب الدافئ فى الشاطئ فتدفن فيه (١٢٠) بيضة وتتركها فى هذا المكان الدافئ المناسب لها وترجع الى البحرفاذا فقس بيضها خرجت أولادها وجاهدت الجهاد الكثير حتى رجعت الى البحر وعاشت فيه وهى لاتعلم أن آباءها كانت فيه بل ذلك من الميزان

المنصوب

صحيفة

المنصوب فى الحيوان كالمنصوب فى الأرض وفى السماء . ومنها أن بعض التماسيح تضع بيضها فى الرمل ولكنها لاتتركه بل تراقبه حتى اذا سمعت أصوات أفراخها فى البيضة ساعدتهن بنقر القشرة فتخرج الذرية مع آبائها . ومنها أن بعض الثعابين تعلم أن نسلها معرض لاهلاك أعدائه له فألهمت أن ترقد عليه أسابيع كالدجاج حفظا له من الأعداء وهذا هو الميزان الحق . ومنها أن بعض الطيور وهو (الكمكم) لاترقد على بيضها بل اعتادت أن تجعله فى أعشاش غيرها من الطيور المختلفات التى عدوها (٨٠) نوعا . ومن الحكمة الإلهية أن تلك الطيور تعطف على هذه الذرية عطفها على أولادها مع اختلافها اختلافا بينا ومتى كبرت الكماكم الصغيرة قطعت السباسب والمفاوز ورجعت الى مقرها فى (افريقيا) موطن قومها بلاتعليم كما حصل نظير ذلك من صغار السلحفاة البحرية سواء بسواء

١٨٥ (شكل ٢٣) صورة فرخ صغير من الكمكم يطلب من حاضنته أن تغذيه مع انها من نوع آخر الدجاج الاسترالى الذى يصنع حظيرة يضع فيها بيضه . صورة بيض الحشرات (شكل ٢٤)

١٨٦ الزنابير الوحشية تضع الاناث منها بيضها فى أماكن خاصة وتضع بجانبها نحو الديدان والخنافس وتحقنها حتى تتخدر وتبقى بجانب الذرية حتى تأكلها عند فقسها

بيان كلام علماء الأرواح موافق لما نشاهد فى الدنيا سواء بسواء وهم يقولون ان الانسان بعد الموت لاسعادة له ولاشقاء إلا بما اتصف به فى الدنيا فمن فكر فى الصالحات ولم يعمل فلاخير فيه ومن عمل الصالحات برغبة وصدق كما تفعل أمهات الحشرات والأنعام والانسان مع ذريتها . فهذا هو الذى يبقى بعد ــ هم وهكذا المتصفون بحب الشر والكبرياء والعظمة والظلم فكل يموت على الصفات التى كسبها وأحبها وأغرم بها ولاعبرة بالظواهر بل بالاخلاص والصدق والمحبة . ومن غلب عليه الشر نزع منه صفات الخير والعكس بالعكس وهذا يقرب من قوله تعالى ــ فمن ثقلت موازينه ــ الخ وقوله تعالى ــ ومن خفت موازينه ــ الخ و بيان ضرب المثل بالزرع والحشائش به وأن هذه الآراء تقرب من آراء الامام الغزالى فى الاحياء . و بيان أن روحا شريرة قالت للملائكة خذوا صفاتى الشريرة لأدخل الجنة فلما سلبوها تلك الصفات بقيت مخدرة فكان من الرحمة أن ترجع اليها صفاتها لتحيا ولو على الشر وتعيش مع أصحابها . وجاء فى كتاب ﴿ السماء وجهنم ﴾ أن الملائكة تعجبوا من الناس إذ يتكلمون على الرحمة والايمان وفاتهم أن الرحمة مجرد واسطة لاغير والناس لاتتغير أخلاقهم بعد الموت والايمان وحده لايفيد و بيان أن تغيير الأخلاق بعد الموت كتغيير (حمام) النهار الى (بوم) الليل وهو محال

١٨٩ مذكرة فى تبيان انى لست أقطع بما ذكر وانما أقول إن صح هذا فان مشكلة جهنم تكون قد انحلت لأن الاخراج من جهنم معناه موت الروح الشريرة فبقاؤها إذن رحمة لها ولا يمكن تغيير العقرب الى عصفور وينطبق على هذا المغفرة لأهل بدر لغلبة الفضائل عليهم

بهجة العلم فى آية ــ وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم ــ وآية ــ فمن ثقلت موازينه ــ الخ وأن لفظ الصراط جاء فى سورتين أخريين وصفه بأنه صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وفى الفاتحة انه صراط الذين أنعم الله عليهم وفى أخرى ذكر الدواب وأخذ الله بنواصيها . و بيان أن وصف الصراط بأنه لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ليعرف الناس ذلك فى سير الشمس والقمر وغيرهما وشرح ذلك فى السنين الكبيسة والبسيطة والأدوار (٣٠) و (٢١٠) وهكذا فهذه الأدوار لاخطأ فيها وقد جاء ذكر الميزان فى قوله ــ والسماء رفعها ووضع الميزان ــ فلله ميزان ولله صراط فالميزان يرجع الى القضاء والصراط يرجع الى القدر فصراطه على مقتضى ميزانه وصراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم

صحيفة

يوجب علينا فهم أخلاق الأمم لنتوجه الى الفضائل . وتبيان انى ألفت كتابا يسمى ﴿ ميزان الجواهر ﴾
﴿ تذكرة ﴾ يقول الامام الغزالى « لا يعرف معنى الميزان إلا من درس من كل فن طرفا »

١٩٣ بيان أن التبحر فى العلوم مرق لأخلاق بعض الناس وقد تفسد به أخلاق قوم فهو والمال والجمال أسلحة تصلح للخير وللشر معا . وقد حض (سقراط) فى تعاليمه على فتح عين البصيرة ليكون العلم لذة يستغنى بها المرء عن اللذة الحيوانية . للانسان ﴿ ثلاث قوى ﴾ الشهوة للغذاء الخ والغضب للمدافعة والعقل للحكمة . و بيان أن الذى يلى أمور الناس إن لم تفتح له عين البصيرة فيستلذ بالعلم انحصر همه فى لذة المال والنساء بالرشوة ولكن ذلك الذى انفتحت عين بصيرته يرى لذة لا يعرفها غيره و يرى انه بينه و بين صانع العالم محبة فائقة ويرى الناس أبناءه و يرى النظام فى الأخلاق كالنظام فى القناطر و يرى القانون والأخلاق والفقه توزن بها أعمال الناس كما ان علم الهندسة ونحوه توزن بها المدن ومثل رقاص الساعة للزمن وخسوف القمر لمعرفة متوسط أيام الشهور و بناء الهرم المبنى على دائرة الأرض حول الشمس نظام للموازين ونحوها بمصر وكذا رقاص الساعة الذى يهتز فى الثانية مرة هو الباردة للانجليز وميزان بخار القطار وسنتجراد وفارنهيت والمقياس التليانى الثمانينى . كل هذه يعرف بها السوائل كالماء وللكهرباء مقاييس . وكلما ارتقت الأمة كثرت موازينها والعكس بالعكس وذلك قوله تعالى ـ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ـ فأولو العلم يراد بهم من يعرفون مثل ما كتبناه فى هذا التفسير وهم الذين يخشون الله فى آية أخرى وهم العالمون بكسر اللام فى آية أخرى أيضا وبكثرة هذه العلوم يظهر فى الاسلام مجددون و يدوم مجدهم كما دام مجد قدماء المصريين قبل أن يحل بهم الفساد . ونظير صراط الله فى السموات والأرض صراط الانسان بالعمل الصالح والأخلاق وصراط المنعم عليهم يعرف بالتاريخ المتقدم فى ـ وذكرهم بأيام الله ـ

تذكرة فى أن كلام (عمانوئيل) فيه ان أخلاق الأرواح لا تتغير بعد الموت وأن هذا القول على حسب مشاهداته هو والا ففى حديث الشفاعة أن الله تعالى يخرج من النار أقواما بالتدريج بعد انقضاء زمن العذاب اذا كان فى قلوبهم مثقال ذرة من إيمان ثم يدخل الله الجنة قوما لم يعملوا خيرا قط

(تمت)